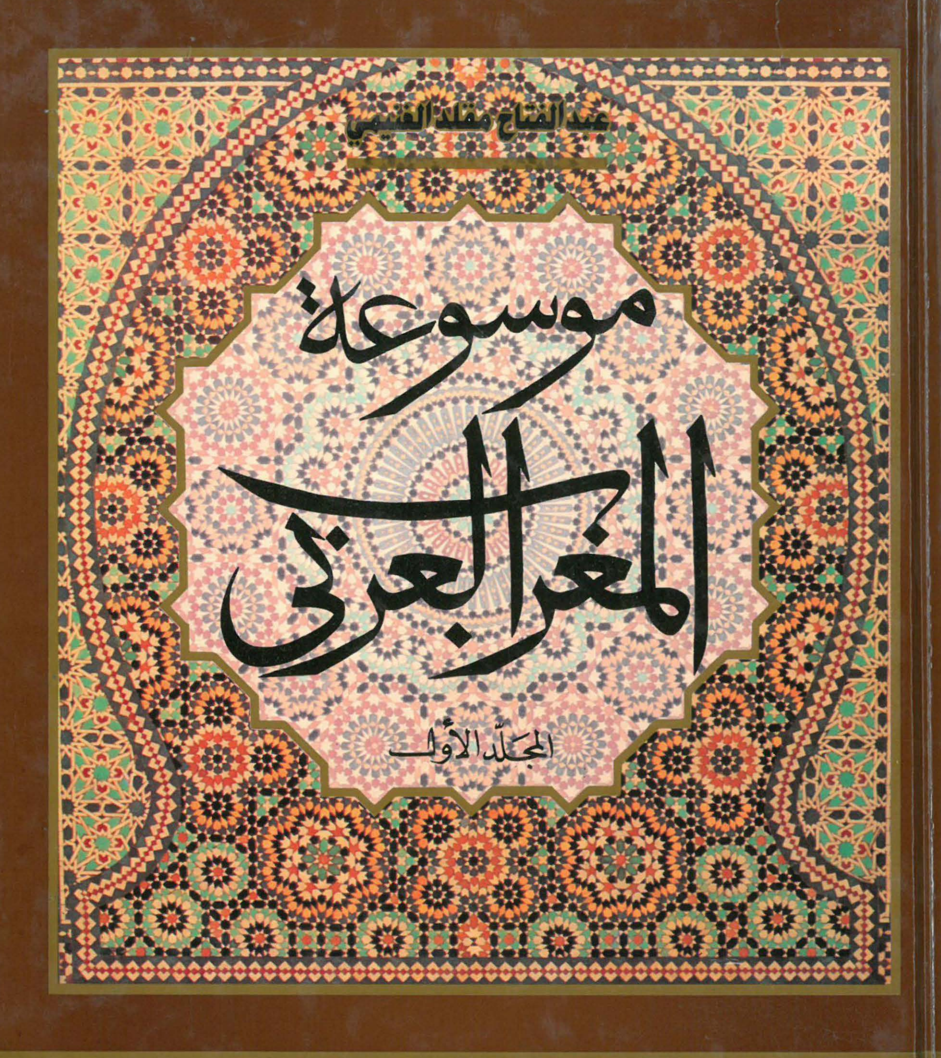
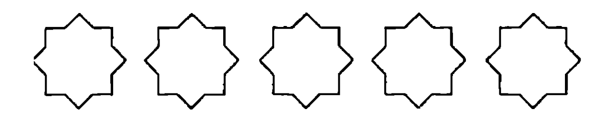
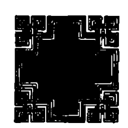


مكتبة مدبولي
القاهرة



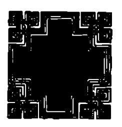
موسوعة تاريخ المغرب العربى



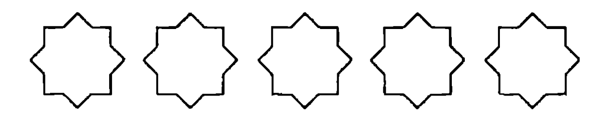
خلافـــة

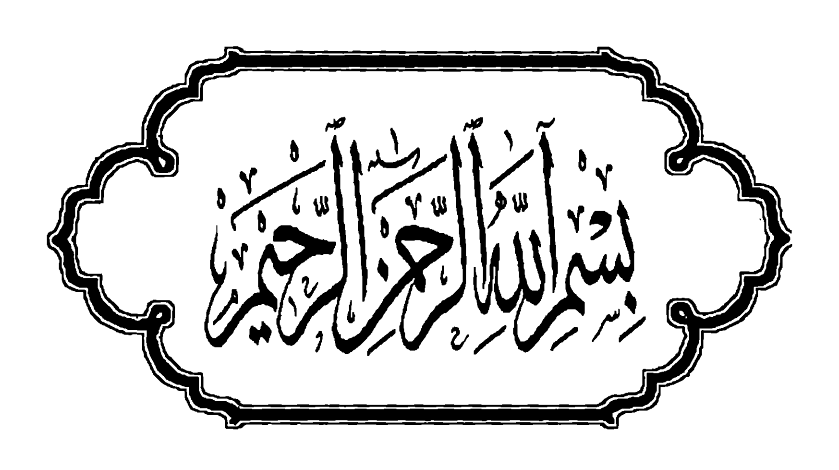
المرابطـين فى المغرب والأندلس

دراسة فى التاريخ الإسلامى



الجزء الثانى




بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

الى روح أبى الطاهرة

ثمرة غرسها وجهدها ومثابرتها ،

هـــذا الجزء الثانى من موسوعة المغرب السداسية الأجـزاء.

د . عبد الفتاح مقلد الغنيمى

المحتويات

مقدمة

والحمد لله حمد العارفين بنعمه وفضله والصلاه والسلام على الهادى البشير النذير سيد الخلق بن عبد الله وعلى آله وصحبه والتابعين ومن سار على نهجه إلى يوم الدين .

أما بعد .

فهذا هو الجزء الثانى من موسوعة تاريخ المغرب العربى الاسلامى والتى نضعها بين يدى الباحثين والدارسين والمهتمين بالتاريخ الاسلامى وبصفة خاصة تاريخ المغرب العربى الاسلامى ذلك لان تاريخ المغرب العربى الاسلامى قد حاول بعض المؤرخين الغربيين دراسته دراسة ذات طابع متعصب بل حاولوا فى العديد من كتاباتهم محو عروبة المغرب الاسلامى وفصله عن بقية اخوانه أبناء الأمة العربية الاسلامية واضفاء صفات لاتمت لواقع التاريخ المغربى بأدنى صلة واثارة نعرة البربرية والعربية وتشجيع نعرة البربر .

ومن هنا كان على المؤرخين العرب معالجة تاريخ المغرب العربى بأسلوب يكشف عن أصالته العربية الاسلامية المغربية ودوره الحضارى والتاريخى والثقافى والسياسى المؤثر بل والفعال فى التاريخ الاسلامى وذلك منذ استقرار حركة الفتوح الاسلامية فى هذا الجزء الغربى من الأمة العربية الاسلامية .

وقد تناولت فى هذا الجزء من الموسوعة دور وتاريخ الامارات الاسلامية الثلاث الامارة الرستمية وامارة الأدارسة والأغالبة منذ منتصف القرن الثانى الهجرى حتى سقوط تلك الامارات على أيدى دعاة الشيعة وقيام الدولة الفاطمية العبيدية .

وقد قسمت تلك الدراسة إلى ستة عشرة باب تناولت بالبحث والدراسة والتحليل فى جميع هذه الابواب خلاصة الآراء والأقوال والتواريخ بشأن هذه الامارات .

فتحدثت فى الباب الأول عن العوامل التى ساعدت على ظهور هذه الولايات المغربية وكيف أن سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية كانت من الأسباب التى دفعت وقوت الشعور العام المغربى بالثورة والخروج على طاعة الخلافة الجديدة. وكيف كانت حركات الخوارج تساعد على تعدد الثورات وازدياد النشاط الدينى فى تلك الجهات البعيدة عن الدولة الاسلامية وكانت الثورات والفتن ليست ضد الوجود العربى بقدر ما كانت مطالبه برفع الجور والمظالم التى كان يمارسها الولاة .

وكيف ظهرت عدة ولايات محلية يتزعمها زعماء محليون من أهل المغرب أو من العرب .

ثم كان الباب الثاني عن دولة بنى رستم الخارجية الاباضية فى تاهرت. وتحدثت عن المذهب الاباضى والفكر السياسى لخوارج هذه الفرقة من الفرق الخارجية وكذلك الحديث عن شخصية عبد الرحمن بن بهزام بن رستم مؤسس هذه الدولة ودور أباضية الشرق فى مساعدة الامامة الرستمية التى قامت فى المغرب الاوسط .

وكان الباب الثالث عن جيل الابناء الذين خلفوا مؤسس هذه الدولة وكيف ازدهرت الدولة الرستمية فى عهدهم وما هو الدور الذى لعبه عبد الوهاب بن عبد الرحمن الذى أرسى دعائم هذه الدولة وما هى أحداث الواصلية ودور أباضية جبل نفوسة جنوب طرابلس فى توطيد أركان الدولة والامام عبد الوهاب والصراع مع الأغالبة حكام المغرب الأدنى واستقرار الأمور فى الجزء الشرقى من الدولة وعودة الامام عبد الوهاب إلى العاصمة .

وتحدثت فى الباب الرابع وهو عن جيل الأحفاد الذين خلفوا عبد الوهاب وكان هذا الباب يضم أهم شخصية فى تاريخ هذه الدولة وهو الامام أفلح بن عبد الوهاب وكيف عمل على تدعيم الجبهة الداخلية والقضاء على فتنة جبل نفوسة التى أزكى نارها

الاغالبة ودوره فى هدم مدينة العباسية التى بناها الأغالبة بجوار تاهرت العاصمة الرستمية .

وفى الباب الخامس عالجت موضوع الدولة الرستمية بعد وفاة أفلح بن عبد الوهاب وكيف جاء بعده الامام أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب ثم الصراع من أجل تولية ابن إليقظان وعودة أبى إليقظان من بغداد بعد أن كان قد تم القبض عليه فى مكة المكرمة وهو يؤدى فريضة الحج وسجنه فى بغداد وتغير الظروف السياسية والافراج عنه وما هى الأخطار الخارجية التى تعرضت لها الدولة ثم الحديث عن امامة أبى حاتم يوسف محمد بن يقظان وكيف كانت امامة إليقظان بن أبى إليقظان وسقوط أسرة الدولة الرستمية على أيدى العبيديين الفاطميين أصحاب المذهب الشيعى .

وكان الباب السادس بدايه الحديث عن دولة الأغالبه فى افريقية (المغرب الأدنى) وما هى أسرة الاغالبة وكيف تولى أول أمرائهم ابراهيم بن الأغلب الحكم وكيف جاء أبوه الأغلب التميمى إلى افريقية ومن هم أمراء البيت الأغلبى الذين تولوا الحكم فى افريقية

وفى الباب السابع عالجت موضوع جيل الأبناء الذين تولوا السلطة خلفا لابيهم ابراهيم وهم عبد الله الأول ثم زيادة الله الأول بن ابراهيم .

وفى الباب الثامن كان موضوع جيل الأحفاد أولهم أبو العباس محمد الأول بن الأغلب أبو عقال، ثم أحمد أبو ابراهيم بن العباس محمد الأول ثم زيادة الله الثانى بن العباس وابراهيم الثانى الصغير بن أحمد، عبد الله الثانى أبو العباس بن ابراهيم الثانى، ثم زيادة الله الثالث أبو مضر بن عبد الله الثانى وهو آخر أمراء بنى الأغلب وكيف كان هو آخر أمراء البيت الأغلبى .

وكان الباب التاسع عن ماذا تم فى عصر الأغالبة من الانجازات العسكرية مثل فتح

صقلية وما هى المراحل التى تمت فى هذا الفتح وكيف حافظ أمراء الأغالبة علي اتمام الفتح بعد وفاة زيادة الله الأول والأغالبة وفتح جزيزة مالطة .

وفى الباب العاشر تحدثت عن دور الأغالبة فى النواحى الثقافية والاقتصادية والعمرانية وما هو الدور الثقافى والفكرى الذى تم فى عصرهم والفقيه أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد، ثم الأغالبة والدور الاقتصادى والأغالبة والعمارة .

وكان الباب الحادى عشر هو بداية الحديث عن ثالث امارات المغرب العربى وهى دولة الأدارسة وتحدثت عن العلويين وتاريخهم وأسرة الأدارسة والأمام ادريس الأول مؤسس الأسرة وكيف ظهرت دولة الادارسة .

وفى الباب الثانى عشر كان الحديث عن توطيد دعائم دولة الأدارسة، وكيف تم الاصلاح وبداية توكيد دعائم الدولة ودور الدولة العباسية والأغالبة فى القضاء على الامام ادريس .

ثم كان الباب الثالث عشر وهو عن دولة الأدارسة فى طورها الثانى وما هى الأعمال التى قام بها الامام ادريس بن ادريس وكيف تم تكملة ما لم يتم انجازه فى عهد سلفه واختيار العاصمة فاس ودورها فى المنطقه والعالم الاسلامى وما هى الاعمال الخارجية التى قام بها الامام ادريس الثانى .

وكان الباب الرابع عشر عن جيل الأحفاد أبناء ادريس الثانى فتحدثت عن الامام محمد بن ادريس والامام على الأول بن محمد بن ادريس والامام يحيى بن محمد بن ادريس وانشاء جامع القيروين والامام يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس ثم انتقال الامامة إلى فرع آخر من آل ادريس هو فرع عمر بن ادريس بدلا من محمد ثم الامام على الثانى بن عمر بن ادريس، ويحيى بن القاسم بن ادريس ثم يحيى بن ادريس بن على بن

عمر وسقوط دولة الأدارسة وخضوع العاصمة فاس لحكم العبيديين الفاطميين أصحاب المذهب الشيعى ثم كيف قام بعض الأدارسة بالحكم في فاس وقتل الوالى الشيعى ودولة الأدارسة في الريف والامام الحسن بن القاسم بن ادريس وسقوط الدولة.

وكان الباب الخامس عشر هو نظرة عامة عن المجتمع المغربي في عصر الأدارسة وما هي الإعمال الفكرية والثقافية والدينية التي تمت في ذلك العهد. ودور الأدارسة في صبغ الحياة العربية فى المغرب الأقصى ونشر رسالة الاسلام الخالدة في المناطق الجنوبية وكيف أدى إلى انتشار الاسلام في بلاد السودان.

وكان الباب السادس عشر هو نهاية المطاف في هذا الجزء من الدراسة عن العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية بين الامارات الثلاث (الأغالبة وبنى رستم والأدارسة) وكيف تحدثت عن علاقات بنى رستم والأدارسة بالخلافة العباسية فى بغداد وعلاقات بنى رستم والأدارسة ثم علاقات الرستميين بمصر وعلاقة بنى رستم بالأغالبة وعلاقة الأدارسة ببنى رستم، ثم علاقة الأدارسة والأغالبة وبنى رستم مع دولة بنى مراون بسجلماسة والعلاقات مع بلاد السودان بين الأغالبة وبنى رستم والأدارسة وكذلك علاقات الأدارسة وبنى رستم والأغالبة بالامويين في الاندلس.

ثم كانت الخاتمة وهى نتيجة ما توصلت إليه من تحليل في تلك الدراسة وجاءت بعدها قائمة المصادر والمراجع العربية والاجنبية التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة وما هى المراجع الأهم التى عولت عليها. حتى كان هذا البحث فى تلك الصورة.

وانى لأرجو الله العزيز القدير أن أكون قد وفقت بقدر المستطاع في تقديم تلك الدراسة بالصورة التي ترضى كل باحث ومتخصص ومهتم بتاريخ المغرب العربي، كما لا أنسى أن أنوه بالجهد الذى بذل في ذلك الميدان من قبل وانى لا أدعى هنا أن تلك

الدراسة هى الصورة المثلى عن المغرب العربى ولكنها اضافة جديدة ومنهج جديد قدر لى أن أقوم به خدمة للتاريخ الاسلامى وللذين يتابعون حركته فى كل الأدوار .

والله ولى التوفيق،،،

الملك فيصل الهرم - القاهرة

٢٢ ربيع الأول ١٤٠٧هـ

٢٤ نوفمبر ١٩٨٦م

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الباب الأول

العوامل التى ساعدت على ظهور الولايات المغربية

لقد كانت بلاد المغرب العربى (افريقية العربية) ابان حكم الخلافة الأموية (٤١هـ-١٣٢هـ- ٦٦١- ٧٥٠م) جزءا من الدولة الاسلامية الواسعة الشاسعة الأطراف الموحدة تخضع لنظام ادارى موحد، الا أن بلاد المغرب العربى فى تلك الحقبة التايخية كان يسودها شعور وطنى يدفعها للاعتصام بلواء الوحدة الاسلامية حيث أن العقيدة الاسلامية الخالدة قد تعمقت تعمقا دفينا فى النفس البربرية مما يدفعها للولاء الخالص للدولة الاسلامية فى دمشق لكن سقوط الخلافة الأموية ١٣٢هـ/٧٥٠م قد يسر الطريق لقباء الخلافة العباسية التى قامت على أساس مناداة الشعوب الاسلامية بالمساواة وانه ليس هناك فرق بين عربى وأعجمى حيث كانت الخلافة الأموية تفضل الجنس العربى على غيره من أجناس الدولة المختلفة وقد كان نقل الخلافة إلى بغداد من العوامل القوية المساعدة على تكوين دول مستقلة لاسيما فى الجزء الغربى من الدولة الاسلامية (مصر- المغرب- الاندلس) .

ففى المغرب أنشأ الرستميون الخوارج الاباضية دولة مستقلة عن الخلافة العباسية (١٤٤هـ- ٧٧٦- ٢٩٦هـ- ٩٠٨م) فى بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) وعلى مقربة من تاهرت حيث اتخذت تلك المدينة عاصمة للدولة الرستمية، كذلك استطاع الأغالبة أن يستمروا فى حكم تونس وشرق الجزائر مدة قرن من الزمان (٨٠٠ - ٩٠٩م) (١٨٤ - ٢٩٦هـ) كما أن الأدارسة قد أقاموا دولتهم فى فاس (١٧٢ - ٣١١هـ - ٧٢٨ - ٩٥٥م) وقد كانت تلك الدويلات المغربية تقوم فى حكمها على نظم اسلامية دينية وأخلاقية عربية .

وقد كان سقوط الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية من الأسباب القوية التى دفعت وقوت الشعور العام المغربى بالثورة والخروج على طاعة الخلافة الجديدة فى بغداد لاسيما وانه قد ساد شعور بأن يكون الولاء للخلافة العباسية ظاهريا على الأقل، اضافة إلى ثورات البربر التى كانت من أسبابها القوية الشعور بالجور الذى كان ينصب عليهم كذلك بطبيعة التكوين الجغرافى والبشرى مما ساعد البربر على حبهم للحرية والديمقراطية والتى وجدوها فى مذاهب الخوارج من جهة ثانية، اضافة إلى السياسة النعسفية التى استخدمها الامويون ووقعوا فى خطأ فادح من جراء استخدام تلك السياسة فى التعامل مع البربر اضافة إلى أن الدعوة الخارجية كان لها تأثير قوى على جذب البربر إليها واعتناقهم لها لانه باعتناقهم لها يخفون آمالهم القومية من جهة ويتعمقون فى فهم المذهب الخارجى ويتمسكون بالاسلام عقيدة لهم وهو الاسلام الذى أخلصوا له وتفانوا فى نشره والدعوة إليه بالاندلس وغيرها من البلاد الافريقية، وعلى الرغم من أن البربر قد نجحوا فى تأسيس عدة دويلات أو دول، الا انهم لم يفكروا يوما واحدا فى الخروج عن عقيدة الاسلام الخالدة ولا رفض لغة العرب التى أصبحت لغة قومية لهم والرجوع إلى ما كان سائدا فى بلادهم قبل الفتح الاسلامى .

ولقد كان للخوارج ومن إليهم من رجال الأحزاب الاسلامية الساخطة على الدولة دورها الهام والمؤثر والفعال فى تأليب نفوس الناس واثارتهم على الدولة وولاتها، وانه عندما بدأ ذلك الدور فى الاثارة والعصيان والثورة فى بلاد المغرب يؤتى ثماره فان العصر الذهبى للدولة الأموية كان قد تولى وهكذا سادت حالة من عدم الولاء للخلافة الاموية عندما شهد العالم الاسلامى الأيام الحاسمة فى تاريخ الدولة الاسلامية اثر انتقال الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس .

وفى المغرب كان من الأسباب القوية التى زادت غضب الشعب على الخلافة

وجعلته أكثر حدة وعنفا ومن العوامل التى ساعدت على ظهور الدويلات المغربية ظهور مذهب الخوارج بقوة، حيث كان الخوارج الذين انهزموا فى قلب الدولة الاسلامية فى المشرق العربى وقتل منهم الالوف بسيوف رجال مثل الحجاج بن يوسف والمهلبى بن أبى صفرة، ومن ثم فقد اضطرتهم تلك المآسى إلى الهجرة إلى الجهات البعيدة من الدولة الاسلامية حيث لاتدركهم فيها يد الدولة وخاصة فى عمان واليمن والمغرب .

ولقد كان عداء الخوارج لبنى أمية أشد وأعمق ولذلك نجد صراعهم يطول فى عهد الدولة الأموية ونجدهم فى كثير من الأحيان يظفرون ويكونون لانفسهم سلطة ونفوذا ودولا (الدولة الرستمية فى تاهرت غرب الجزائر) ولولا انشقاقهم على أنفسهم لكان من المحتمل أن يكون لهم الظفر والنفوذ .وقد انطلق الخوارج يدعون لدعوتهم وساعدهم على ذلك كثرة الدماء التى أراقها الأمويون منهم وللارواح التى أزهقوها فى شدة وغلظة . وقد شهد مطلع القرن الثانى الهجرى ازدياد نشاط حركة الخوارج وتعددت ثوراتهم وسقطت الدولة الأموية ونفوذ الخوارج يزداد فى بلاد المغرب .

ولقد كان لهؤلاء الخوارج مذاهب شتى فمنهم المتطرفون الذين كانوا يرون أن الدولة الاسلامية أو الخلافة القائمة دولة غاصية هى وكل من أيدها وهؤلاء هم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق الذين أعلنوا الحرب على الدولة الاسلامية وجماعة المسلمين جملة وقد لقيت تلك الدعوة قبولا لدى البربر حيث تمسكوا بالمذاهب الخارجية التى كانت معادية للخلافة الاموية وبالتعسف والشدة التى كان يتسم به العمال العرب فى تعاملهم، وعلى هذا فلم يكن البربر وحدهم الذين تولوا خصومة الدولة بالقيام بالثورات انما كانت هذه ظاهرة فى مختلف الولايات الاسلامية فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى والبربر أنفسهم لم يكونوا يتولون احداث هذه الفوضى انما كانوا يتبعون أصحابها من ذوى الطموح الدينى والسياسى والواقع أن البربر كانوا يميلون إلى الطاعة والنظام حينما تكون

السلطة القائمة فى القيروان هى سلطة عادلة صالحة منظمة ومهتمة بمصالح الرعية وأما اذا كانت السلطة السياسية فى القيروان لا تتوافد فيها هذه الجوانب التى يألفها البربر ويسود النزاع والصراع بين زعماء القيروان على الحكم، فان البربر تحركوا للثورة ضد العسف والجور ودفعا للمظالم لاسيما تلك القبائل البربرية التى كانت تعيش خارج الحدود الرسمية للدولة الاموية .

ولقد كانت البساطة والسطحية وعدم العمق فى فهم الأمور من أهم ما يمتاز به الخوارج مع تشددهم فى العبادة ومبالغتهم فيها ولقد كان الخوارج مسلمين حقيقيين يسعون لخير الاسلام ومجده وانهم كانوا نبتة اسلامية حقيقية ولم يكونوا فرقة تعيش فى الظلام بل كانوا ظاهرين علنا على أوسع نطاق، ومن الملامح البارزة فى الخوارج الشجاعة وحب الخير والاستهانة بالدنيا دفاعا عن رأى يعتنقونه أو مبدأ يدينون به وحبهم للموت فى سبيل المبدأ ولقد كان بين صفوف الخوارج مجموعات كبيرة من النساء ولم يكن هؤلاء أقل من الرجال شجاعة واستعدادا للموت .

ولقد لقيت كل هذه الآراء والافكار الخارجية قبولا لدى المغاربة وان كانت دعوة الأزارقة المتطرفة لم تلق استجابة واسعة مثل الاباضية ذلك لانها كانت دعوة لكل الناس للخروج على الدولة باستخدام السلاح فى وجه النظام السياسى القائم لذلك انحصر مداها وظهرت فرق أخرى لقيت قبولا لدى البربر والتى منها الصفرية التى لقيت قبولا أكثر لان أصحابها كانوا يقولون أن العدو الوحيد هى الدولة أما من يؤيدونها فليسوا أعداء للاسلام وانما هم متساهلون فى أحكام الاسلام وحسابهم على الله، وعلى هذا فان خوارج الصفرية يتساهلون مع عامة الناس ولكنهم يقاطعونهم فلا متاجرة ولا معاملة ولا مصاهرة .

ولقد لقى المذهب الاباضى قبولا أكثر لدى شعب البربر لانه لايدعو إلى الخروج على الدولة وانما يدعو الناس الذين يؤمنون بآراء أصحابه إلى اقامة نظام سياسى لهم فى

النواحى التى لا تستطيع الدولة الوصول إليها وهم يأذنون لأتباعهم بالتعامل مع الناس تاركين الحساب لله سبحانه وتعالى، هذا المذهب الاباضى لقى قبولا بين الناس وهو الوحيد من بين مذاهب الخوارج الذى قدر له أن يعيش حيث أن الاباضية قريبون جدا من فهمهم للشريعة من السنة ولهذا يحسبون عادة ضمن السنة وقد قامت على أساس المذهب الخارجى الاباضى دولة كبرى من أكبر دول المغرب هى الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط أو ما يعرف الآن باسم جمهورية الجزائر .

وقد ساعد على قيام تلك الدولة انهم يرون أن دار مخالفيهم فى المذهب والفكر الاسلامى من أهل الاسلام دار توحيد الا معسكر السلطان فانه دار بغى ولا يسمون امامهم أمير المؤمنين ولا يخبرون قتال مخالفيهم الا بعد دعوتهم ولم يبق من الخوارج الا طائفة الاباضية التى تقيم فى عمان وفى جهات قليلة من بلاد المغرب العربى .

وكان فى أيام هشام بن عبد الملك بن مروان (١٠٥- ١٢٥هـ) فر قوم من خوارج العراق إلى المغرب وعملوا من جانبهم على بث مبادئهم الخارجية الاباضية والصفرية حيث انتشرت هاتان الفرقتان بالاضافة إلى الأزارقة فى بلاد البربر وسرت دعوتهم فيهم وأعجبهم من تعاليمها انه لايجب أن يكون خليفة المسلمين قرشيا وانما يجب أن يكون من المسلمين جميعا ولو كان عبدا حبشيا، ومن هنا بدأ الشعور القومى للبربر بناء على انتشار التعاليم الخارجية يقوى ويشتد وبدأوا ينفضون عن العرب ويريدون أن تكون لهم دولة من أنفسهم وقد ساعدهم على ذلك ما عانوا من ظلم شديد وقع عليهم فى عهد عبد الله بن الحبحاب. وقد بلغ عدد الخوارج ما لا يقل عن ستين ألف فرد أيام عمر بن حفص منهم أربعين ألفا من الصفرية وعشرين ألفا من الأباضية .

وقد اختلط العرب بالبربر وامتزجوا بعضهم بالبعض الآخر عن طريق المصاهرة والزواج والسكنى سواء فى البادية أو المدن أو الضواحى ولم يكن للعرب أول الأمر تفوق على

اخوانهم البربر حيث ساوى بينهم حسان بن النعمان وغيره من الولاة ولم يكن للعرب الا الولاية نظرا لخبرتهم الادارية والسياسية مع اشراك بعض رؤساء البربر فى الرئاسة على قبائلهم .

وقد شعر المجتمع الاسلامى المغربى فى هذا العهد باخاء وعدل وتعاون وترابط وكان من نتائج هذه السياسة ترك الأراضى للقبائل البربرية يستغلون محاصيلها، وشعر البربر بفضل السلطة العربية فعاشوا معها أخوة متحابين فى الاسلام وتطوعوا جنودا للجهاد من أجل نشر الاسلام مع حسان بن النعمان ومع موسى بن نصير وكانت لهم إليد الطولى فى فتح الاندلس على عهد موسى بن نصير بقيادة مولاه طارق بن زياد البربرى وكان نشر الاسلام بها أنما هو خدمة خالصة لله وللاسلام ولتأييد الخلافة الاسلامية وحرصا على انطوائهم تحت لواء الاسلام .

ومن هنا كانت المحبة والاعزاز هى الشعار الذى ساد مجتمع المغرب العربى ولا شك أن هذا الحب كان ناتجا عن العدل الشامل الذى نشره ولاة المسلمين ولاسيما فى عهد عمر بن عبد العزيز(١٠٠ه)ولم تحدث قلاقل فى المجتمع العربى البربرى بشمال أفريقية حيث يذكر أن الخليفة بعث رجلا على الصدقات إلى بلاد المغرب وهو«يحى بن سعيد»فقال بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فأقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بالبلاد فقيرا ولم نجد من يأخذها منهم فقد ساد الغنى كل الناس قال، فاشتريت بها رقابا (عبيدا) فأعتقتهم وهكذا يكون تطبيق العدالة الاسلامية من أسباب طاعة البربر للخلافة الاسلامية.

بل ان البربر لم يقوموا بالثورة الا بعد أن تنكر الولاه الذين كانت تعينهم الخلافة الأموية والعباسية لمبادئ الاسلام والخروج عن أحكام القرآن الكريم السمحة الحقة التى تنم عن الاخاء والمساواة والعدالة والشورى والديمقراطية وهكذا ثار البربر تحت قيادات

مختلفة متأثرين قيادات متعددة.

الثورات والفتن فى المغرب:

وأشهر الثورات التى حدثت فى عهد الولاه هى ثورة عام ١٠٢هـ على الوالى يزيد ابن أبى مسلم وثورة مسيرة المطغرى أو المدغرى الصفرى عام ١٢٢هـ على . والى طنجة والقيروان وخليفة دمشق وثورة المغرب التى قضى عليها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بنواحى تلمسان عام ١٣٥هـ وثورة عبد الرحمن بن حبيب على أخيه عبيد الرحمن وقتله عام ١٣٧هـ.ونجا ولده حبيب إلى القيروان وثار على عمه ثم قتله ثأرا لابيه عبد الرحمن عام ١٣٨هـ وثورة ورفجومة البربرية بتحريض عبد الوارث من أبناء عقبة وقد احتلوا القيروان وقتلوا حبيب الفهرى عام ١٤٠هـ. ومن عام ١٤٤هـ اشتعلت الثورة بقوة فى المغرب وافريقية فأرسل إليها الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور قائده محمد بن الأشعث فقاتل الخوارج وقتل أبا الخطاب زعيمهم يطرابلس ودخلت القيروان بعد ذلك تحت سلطة الخلافة العباسية،وحدثت أثناء القرن الثانى ثورات وحروب كثيرة وثورات متعددة،تعود إلى العوامل السابق الاشارة إليها فى عدم العدالة والقسوة والشدة فى جباية الأموال،وأكبر ثورة حدثت خلال عهد الولاه هى ثورة قبائل البربر على عمر بن جعفر آل أبى صفرة المهلبى بمدينة طنجة قاعدة الزاب بالجزائر ودام الامر كذلك إلى أن تسلم ابراهيم بن الأغلب ولاية افريقية عام ١٨٤هـ حيث نجح فى اعادة الامن إلى الجزائر وتونس.

وعلى هذا كانت تلك الثورات من الأسباب الهامة التى يجب ملالحظتها فى بلاد المغرب وهى قيام الممالك المحلية المغربية المستقلة أولا وهى الأغالبة والادراسة والرساتمة التى نحن بصدد دراستها فى الأبواب القادمة.ولكن هذه الدويلات المحلية لم تظهر على سطح الاحداث المغربية مرة واحدة وفى فترة زمنية واحدة،ولكن كانت هناك عوامل قد

ساعدت على قيام تلك الدويلات واستقلالها عن الخلافة العباسية وان كانت كما سبق القول بوادر تلك الازمات قد ظهرت في عهد الدولة الاموية وخاصة تلك الثورة الكبرى أو الفتنة الكبرى التي اجتاحت المغرب في نهاية العصر الاموى وخاصة في أيام هشام بن عبد الملك،حيث انه بعد أن قتل المغاربة الوإلي يزيد بن أبي مسلم الذي أراد أن يعامل المغاربة كما يعامل الحجاج بن يوسف الثقفي أهل العراق ومن ثم كانت الثورة المغربية عام ١٠٢هـ وتم فيها مقتل يزيد بن أبي مسلم،فبعد ذلك بفترة قصيرة أقامت الدولة على المغرب ولاه من أهل الحكمة والمعرفة بتدبير الأمور ولكن المشاكل كانت تتزايد بصورة أصبح معها من العسير على رجل واحد أيا كانت قدرته وكفاءته أن يتلافى هذه المشاكل،ففي أيام هشام بن عبد الملك(١٠٥-١٢٥هـ) أقيم على المغرب وال يدعى عبد الله بن الحبحاب وهذا الرجل ولى عام ١١٩هـ/٧٣٧م على غرب البلاد الاسلامية من حدود مصر غربا إلي جبال البرت أو البرانس بين أسبانيا وفرنسا،وعلى هذا فقد تحول الغضب المغربي في عهد ولاية ابن الحبحاب إلي ثورة على الحكم العربي ومن هنا كانت تلك الثورة التي انتشرت من الريف أو اقليم الريف الذي يسمى طنجة عام ١٢٢هـ/٧٤٠م وانتشرت بين قبائل بربرية كثيرة وضخمة مثل برغواطة وغمارة وتولى زعامة تلك الثورة رجل يسمى ميسرة الفقير(سبق الحديث بإيجاز عن هذه الثورة في الجزء الأول من تلك الدراسة)وعند النظر في لفظ فقير الذي اختاره الرجل لكي يقترن باسمه فاننا نجد انه اختار ذلك اللقب لكي يدل دلالة قاطعة على مدى ايمان الرجل ولكي يصور المثل الاعلى للمؤمن المجاهد الذي لا يطمع في شئ من متاع الدنيا حيث انه هو فقير إلي الله سبحانه وتعالى لكن أعداء حركة البربر الثورية بقيادة مسيرة الفقير التي كانت تطالب بتطبيق المبادئ العادلة للآسلام قد اتهموا مسيرة هذا زعيم الثورة بالكفر والخروج على الاسلام بل انهم قالوا عنه أقوالا مثل انه ابتدع وابتكر قرآنا وكفر بالله العظيم إلي غيرها

من الادعاءات الباطلة التى يجب أن تتخذ بكل حذر لانها صادرة عن أنصار الدولة الاموية المعاديين للثورة المغربية التى خرجت تطالب برفع المظالم وعدم الجور والتعسف فى المعاملة ولقد كان على رجل مثل مسيرة الفقير هذا الذى تولى قيادة وزعامة جماهير بربرية ضخمة غاضبة خرجت على طاعة الخلافة أن يكون قادرا على حل جميع مشاكلها وايجاد السبل الملائمة والممكنة لعلاج أية مشاكل اسلامية دفينة تنشب من جراء هذا التواجد الثورى والتى لم يكن له علم بطبعها أو ايجاد الحلول الممكنة لها من بين الكتاب (القرآن الكريم) والسنة فكان عليه أن يفكر قدر المستطاع فى ايجاد الحلول التى ربما لم تكن تناسب التعاليم الاسلامية وذلك حتى لا يفقد زعامته وسيطرته على قيادة الثورة وربما قد يكون من بين هذه الحلول بعض الآراء الخارجة على تعاليم الاسلام.

ومن هنا فانه يمكن القول أن ثورة الخوارج التى امتدت من طرابلس إلى تونس إلى الجزائر إلى طنجة وسهول سبو ثم قابس إلى فجيج إلى سجلماسة لم تكن سوى طفرة نحو دعم وحدة المغرب بايعاز من دعاة العرب وتحت شعار الاسلام ولم يكن فى هذا أى مظهر مقصود لما زعمه المستشرقون وفى وجود روح انفصالية بين العرب والبربر أو روح الثأر من البربر ضد العرب اذ لو كان ذلك حقيقيا لما طلعت الثورة بتلك الروح ولا كان ذلك الشعار (رفع الظلم) غير أن هذه الثورة ما لبثت ككل الثورات فى العالم أن تمخضت عن تيارات عنيفة.

وعلى هذا قامت الثورة التى لم تكن ضد الوجود العربى بالمعنى المفهوم انما لرفع المظالم بقيادة «مسيرة المدغرى»أيام ولاية عبد الله ابن الحبحاب فى خلافة هشام بن عبد الملك ففتكوا بعمر بن عبد الله المرادى عامله على طنجة وولوا مكانه(عبد الاعلى بن خديم). وعلى هذا فقد جمع بعد ذلك مسيرة جموعا كبيرة من البربر وسار للقاء العرب

لا على أسس انهم عرب وانما على انهم حكام ظالمون ،وانه ليس صحيحا ما قاله بعض كتاب المغرب ومؤرخيه بأن البربر كانوا فى تلك الثورة يودون طرد العرب من وطنهم المغرب فهذا غير صحيح لان واقعهم التاريخي يخالفه ويؤيد عكسه حيث انهم ابقوا العرب بجوارهم وصارت بعض القبائل البربرية تلفق أنسابا تتصل بها مع العرب بل أكثر من ذلك فانه فى صفوف قوات مسيرة كان هناك عرب غاضبون على الدولة الاسلامية يريدون تغير النظام وخلع الخليفة الاموى وتعيين خليفة ليس من بين العرب ومعظم أولئك كانوا من الخوارج العرب، حيث كانت بعض الفرق قد انتشرت فى المغرب ومنها بعض الفرق كانت ترى الانتظار إلى وقت ملائم وصرف الوقت فى تعليم أصول مذهبهم لجذب الناس إليهم ثم جعل الثورة الخطوة التالية وسميت هذه الفرقة«بالقعدة» أى الذين قعدوا عن الجهاد.

وانقسمت بعد ذلك كلتا الفرقتين إلى فرق أخرى كالازارقة وهو اتباع نافع بن الازرق ثم الصفرية والاباضية وبينما كان الاولون(الازارفة) من فريق المجاهدين كان الاخيرون الصفرية الاباضية من فريق القعدة،كل هذه الفرق دخلت إلى شمال افريقيا وانضم إليها البربر وانقسموا بين فرقها المختلفة وقاموا فى وجة الخلافة الاموية وسارت الجيوش الثائرة على النظام القائم لا على الوجود العربى الاسلامى فى بلاد المغرب،فهى ليست فتنة بربرية ضد العرب بالمعنى المفهوم وانما هى ثورة داخلية فى داخل جزء من الدولة الاسلامية الكبرى وأهدافها ومطالبها وغاياتها كلها اسلامية تعبير عن الانحراف الذى حدث فى ادارة هذا الجزء من الدولة وخروجة عن الخط الاسلامى السليم وانها لم تكن بالضرورة مظهرا لثورة اقليمية بربرية أو فتنة قام بها البربر .

وازاء تلك الثورة العارمة لم يجد عبد الله بن الحبحاب جندا كافيا ليرسله لمواجهة الثائرين فجمع من استطاع من الجند وأرسلهم بقيادة رجل من رجاله لكى يقمع تلك الثورة التى اشتد ساعدها وكان ذلك الرجل هو خالد بن حبيب .

وكان فى ذلك الوقت قد تقدمت تلك العناصر الثائرة بقيادة(مسيرة المدغرى) أو مسيرة الفقير شرقا حتى بلغوا مجرى نهر شلف،لكن مسيرة تردد فى عبور النهر والاندفاع لملاقاة قوات خالد بن حبيب الذى كا يمثل الخلافة الاموية،وازاء هذا التردد فان أصحابه قاموا بقتله بناء على تشكيل مجلس شورى لانهم كانوا يرون تردد مسيرة عارا على مثل حركتهم الثورية ومن ذلك فانهم اتخذوا ذلك القرار مثل بقية الخوارج الذين كانوا لا يهابون الموت،وولوا على انفسهم بدلا منه رجلا يدعى(خالد بن يزيد الزناتى) والذى رأى أن يستدرج العرب فتراجع غربا حتى عاد ادراجه إلى طنجة مرة أخرى والتى كانت معقل الثورة وعلى مقربة من أسوار مدينة طنجة التقى الجيش العربى بقيادة خالد بن حبيب وجبش الثوار بقيادة خالد بن يزيد الزناتي وسميت تلك المعركة معركة الاشراف لكثرة ما قتل فيها من أشراف العرب وقد إنهزم العرب فى تلك المعركة.

ومما يدل على أن الثورة كانت عامة ولم تكن تقتصر على البربر لوحدهم ذلك التمرد الذى قام به عرب القيروان على الوإلى عبد الله بن الحبحاب ومن هنا قام الخليفة هشام بن عبد الملك(١٠٥-١٢٥هـ) باستدعاءه إلى دمشق وقام بارسال جيشا إلى افريقية عدته سبعة وعشرين ألف جندى مقاتل تحت قيادة قائد عربى يدعى(كلثوم بن عياض القشيرى ومعه فى تلك الحملة ابن أخيه بلج بن بشر بن عياض القشيرى وسارت قواتهم لتلتقى فى بلاد المغرب مع القوات العربية الموالية للخلافة الاموية بقيادة حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى،لكن تلك القوات الضخمة بقيادة كلثوم بن عياض ومعاونة حبيب بن آبى عبيدة بن عقبة بن نافع انهزمت فى ذلك الصراع الدائر فى اطراف المغرب الاقصى حيث فرت بقية القوات بقيادة بلج بن بشر بن عياض القشيرى إلى مدينة سبتية حيث احتمت فيها واعتصمت داخل أسوارها خوفا من أن تفتك بها القوات الثائرة البربرية والعربية.

لكن ازاء فشل القوات فى تحقيق أهدافها فان الخليفة هشام بن عبد الملك لم يترك الحبل على الغارب بل دفع بقوات ضخمة من الفرسان بقيادة أحد كبار القواد العرب الشاميين ويدعى حنظلة بن صفوان الكلبى ووصل هذا الجيش بعد أن تلقى امدادات أخرى من مصر إلى القيروان حيث وجدها مهددة بالسقوط فى أيدى قوات الخوارج.

وكان خوارج المغرب فى ذلك الوقت قد اختلفوا فيما بينهم إلى قسمين كبيرين قسم يقوده عكاشة بن أيوب الفزارى والثانى يقوده عبد الواحد ابن يزيد الهوارى، وقبل أن تصل قوات الخلافة الاموية كان عرب القيروان قد تجمعوا تحت قيادة العلماء وكبار رجال الدين والصالحين وبقية العامة حيث خرجوا لملاقاة الخوارج ومنعهم من الوصول إلى عاصمتهم القيروان وذلك من أجل الدفاع عن قاعدة الاسلام الكبرى والاولى فى بلاد المغرب حيث مركز الاشعاع الاسلامى كذلك للدفاع عن مذهب السنة، واستطاع حنظلة بن صفوان الكلبى عند وصوله إلى القيروان أن يستغل ذلك الشعور لصالحه وصالح الدولة الاموية لكى يكون سندا له لتحقيق الانتصار النهائى على القوات الخارجية،فقام من توه توزيع اشلاح عليهم واستغل حماسهم لمذهب السنة والجماعة حيث خرجوا تحت قيادته وتقابلوا مع قوات الخوارج التى كانت تحت قيادة عبد الواحد بن يزيد الهوارى،وذلك موقع بقع على بعد أربعين كيلو متر غربى القيروان واستطاعوا أن يهزموه هزيمة نكرة بعد قتال عنيف فى موقع يقال له الاصنام وذلك استطاع حنظلة الكلبى أن يقضى على احدى قوى الخوارج.

ومن ثم كان عليه أن يتجه إلى مقاتلة القوات الخارجية الاخرى بقيادة عكاشة بن أيوب القزارى حيث تقابلوا معه فى معركة حامية الوطيس فى أوائل عام ١٢٤هـ/٧٤٢م انتهت بهزيمة عكاشة الفزارى هزيمة نكراء، وقد انقذت المعركتان السنة ومذهب الجماعة فى افريقيه(تونس وشرق الجزائر) حيث ثبت أقدامها بعد ذلك،وكان على قوات الخوارج

المنهزمة أن انسحبت غربا إلى المغرب الاوسط حيث كانت تلك المنطقة الموقع الخصب لانتشار ميادئ الخوارج الاباضية والصفرية حيث استطاعت أن تجد متنفسا لها فى مناطق صغيرة ومحدودة فى جبال ريف المغرب الاقصى وفى المغرب الاوسط وكذلك بقيت بقع صغيرة فى جبال نفوسة فى اقليم طرابلس وجزيرة جربة.

وهناك بعض الآراء تذكر أن حنظلة بن صفوان الكلبى وإلى مصر وقائد الانتصارات قد أحرز بعض الانتصارات البسيطة على خوارج المغرب حيث لم يستطيع أن يقضى على كل قوة الخوارج التى ساعدت فيما بعد فى خروج بعض أجزاء من المغرب عن طوع وطاعة الامويين،ويذكر أن سبب هذة الثورة هذة السياسية التى اتبعها الامويين نزولا على نصيحة الحجاج بن يوسف الثقفى ممن عدم اعفاء من دخل الاسلام من الجزية حتى لا يتأثر بذلك بيت المال الاسلامى وذلك يتنافى مع التعاليم الاسلامية.

وهكذا انتهى هذا الصراع الاموى المرير بانتصار السنة فى ولاية افريقية وهى تتكون من اقليم طرابلس وتونس وجزء من شرق الجزائر بالاضافة إلى تلك المناطق كانت تضم مراكز العمران الرئيسية فى افريقية وكانت تضم اقليم طرابلس عدا جبل نفوسة وافريقية والزاب ثم السهل الشمالى للمغرب الاقصى فانها ثبتت على المذهب السنى المالكى مذهب الجماعة،وفى هذه الظروف سيطر العرب على افريقية وأما خارج تلك الانحاء السالفة فقد سيطر عليها البربر وكان معظم هؤلاء البربر من الخوارج من قبية الزناتية،أما البرانس أهل الاستقرار وهم معظم سكان المغرب فلم تمتد إليهم لهيب الفتنة بنفس المدى الذى امتد به إلى قبائل الزناتية.

وهكذا بدأت شخصية المغرب العربى فى الظهور منذ اواخر العصر الاموى حيث انتهى العصر الذهبى لبنى أمية بوفاة هشام بن عبد الملك وهو آخر الفحول من خلفاء بنى أمية(١٢٥هـ/٧٤٣م) ولم يبقى من عمر الدولة كلها الا سبع سنوات كانت كلها فتن

وتفكك ومصاعب تواجه الخلفاء الضعفاء،وعلى هذا فقد بدأت الشخصية المغربية تأخذ شكلا واضحا وربما مغايرا للاحوال السابقة حتى بداية العصر العباسى، وقد تميز بظهور الشخصية المغربية بتقهقر المعارضة الدينية الاسلامية والسياسية للخلافة الاموية واتخاذها بلاد المغرب بأقسامه المختلفة مركزا لنشاطها ودعوتها حيث اتخذت المعارضة الخارجية والمعارضة الشيعية وقد توزعتا بين الشرق والغرب الاسلامى ولكن نجاحها فى المغرب كان اقوى منه فى المشرق.

كما انه يلاحظ أن المعارضة الخارجية كانت تلجأ إلى المناطق التى تتفق وروح أهلها مع مبادئ العدالة والديمقراطية والمساواة،فتراها فى الشرق فى العصر العباسى تنتشر فى مناطق القبائل العربية حيث الروح القبلية النزاعة والتواقة إلى الحرية وإلى المبادئ الديمقراطية فلا تظهر فى الجزيرة العربية فى شمالها وبخاصة فى الموصل وفى الجنوب فى اليمن وعمان، كما تظهر فى المغرب العربى حيث القبائل البربرية التى تسودها هذه الروح القبلية،واذا كان انتشار المبادئ الشيعية فى الشرق يعبر عن الميول الفارسية،فان انتشار مبادئ الخوارج فى المغرب كان تعبيرا عن الميول المغربية التى ألفت الحرية كالقبائل العربية والبربر جنس خشن غضوب، محارب شديد الغيرة على حريتة يشبة العرب إلى حد كبير وقد وصفهم القائد «موسى بن نصير»فقال البربر أشبه العجم بالعرب،لقاء ونجدة وصبرا وفروسية وهم مثل القبائل العربية فى معيشتها فى الجزيرة،بدو رحل يعيشون فى أرض محدودة ويشنون الحروب على نفس طريقة القبائل العربية وهم كالعرب قوم ألفوا الاستقلال منذ القدم وكانوا فى حياتهم السياسية والاجتماعية يتبعون نفس النظام الذى كانت تمارسه القبائل العربية وهو النظام الديمقراطى فرؤساؤهم من أنفسهم على أساس المناقب الشريفة،ومن ثم فقد وجد العرب فيهم عند فتح بلادهم ندا شديد الشكيمة ولم يستطيعوا التغلب عليهم الا بعد أن آشعروهم بتقديرهم لهم واحترامهم لكبريائهم ولم

يعاملوهم كمغلوبين أو اعتبار بلادهم غزوا كبقية البلاد التى فتحها المسلمون، بل كالاخوة على قدم المساواة والويل لمن تحدثه من ولاية الدولة أن يمس كبرياءهم أو يجرح كرامتهم، ولنا فيما حدث ليزيد بن أبى مسلم الذى كما سبق القول أراد آن يسير على سيرة الحجاج بن يوسف الثقفى وذلك فى عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان (١٠١-١٠٥هـ)الا أن وثبوا عليه فقتلوه وتمردوا على الخلافة.

وكما سبق القول فان البربر ازاء السياسة التى اتسمت بها الدولة الاموية بالتعصب للعرب على غيرهم من الشعوب الاسلامية بما يتنافى مع التعاليم الاسلامية كان حافزا لهم بالثورة والتشدد فى رد الفعل ازاء ما يمس كرامتهم كما أن سياسة الدولة الاموية الاقتصادية اتسمت أيضا بالشدة ضد الشعوب المغلوبة،هذه السياسة التى رسمها الحجاج لبن يوسف الثقفى ونفذها عمال الدولة فى كل الاقاليم وهى ابقاء الجزية على من أسلم من الموالى،وذلك لان امتداد الحركة الاسلامية كان قد اشتد،وأخذت أعداد كبيرة من أهل البلاد المفتوحة تدخل فى الاسلام فقلت موارد بيت المال بسبب نقص الجزية (أقوال معادية للاسلام من وضع إليهود أمثال عبد الله بن سبأ).

ولما كانت الدولة فى حاجة شديدة إلى المال لتواجه المشاكل الداخلية والخارجية التى كانت تواجهها فقد حرصت على بقاء هذه الموارد كما اشتطت فى جنيع الخراج وذادت من مقدار الجزية الامر الذى أغضب أهل البلاد وأثارهم ضد الدولة.

وقد وقع هذا الجور على البربر فى شمال افريقية حيث عاملهم عبد الله بن الحبحاب معاملة قاسية وأراد أن يخمس(يأخذ خمس الدخل)مسلمى البربر وزعم انهم فيئ المسلمين وذلك شئ لم يرتكبه أحد قبله واستولى على معظم قطعان أغنامهم وذبحها ليحصل منها على الصوف الابيض الذى بلبسه أهل دمشق بل لم يكتف بتجريدهم من هذه القطعان التى كانت أهم مصادر حياتهم بل جمع الجزية ممن أسلموا منهم.

وظل البربر يكظمون غيظهم أكثر من خمس سنوات، إلا أنهم كانوا يتهيئون للثورة التى اتخذت مظهرا دينيا أكثر منه سياسيا،ذلك أن الشعب البربرى فى بساطته متدين بطبيعته، شديد الايمان، بل انه شعب مسرف فى توفيره لرجال الدين والعلماء والصالحين والمتديين ولم يكن ينظم قبائلهم فى حركة عامة الا شخصية دينية ولهذا لم يقدر للبربر أن يلعبوا دورا هاما على مسرح العالم الا حينما حركتهم شخصية دينية هى شخصية المرابطين.

ولقد أكدت الايام فى شمال افريقيا أن البربر لم يلبثوا أن ألفوا الاسلام وتعلقوا به وأصبح الدين أعز ما لديهم وهم حين دخلوا الاسلام دخلوه ببساطة البدوى الساذج فلم يفهموا بطبيعة الحال قضاياه الدقيقة التى تطرب لها العقول المثقفة ولكنهم فهموا منه جانبه العاطفى القومى ووافق هوى فى نفوسهم بما يدعو إليه من العدالة والمساواة والحرية والديمقراطية والوحدة والتضامن والاخاء. فلما افتقدوا تلك الصفات من العدالة والمساواة وغيرها من تعاليم الاسلام فى عهد حكم بنى أمية بعد عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فاننا نجد انهم قد بدأوا ينحازون إلى جانب الخوارج واعتناق مذاهبهم الخارجية المختلفة (الاباضية، الصفرية، الأزارقة) والذين كانوا قد اتجهوا إلى بلاد المغرب بعد أن عصفت بهم الدولة فى الشرق فوجدوا فى الشمال الافريقى البعيد ملجأ يحتمون فيه ووجدوا فيه تربة صالحة لزرع مبادئهم فصادفوا نجاحا منقطع النظير، واذا كان الشرق الاسلامى قد ضاق بتعاليم الخوارج وشدة تمسكهم بهذه التعاليم وتعصبهم لها،فان سكان الشمال الافريقى تلقوا آراء الخوارج فى حماسة بالغة دون بحث عن أفضل الجماعات التى يتصلون بها، فلم يكن يهمهم أن تكون هذه الجماعة حرورية أو صفرية أو أباضية أو أزرقية وانما أخذوا مبادئ الخوارج عموما أخذا قويا وذلك لما وجدو فى تعاليمها من دعوة إلى الافكار الثورية الديمقراطية والتى تقنعهم بأن مضطهديهم ملعونين بما حادوا عن تطبيق تعاليم

الاسلام وسيكون مأواهم جهنم وبئس القرار.

وعلى هذا فلم يكن الخلفاء الامويون جميعهم الذين تولوا الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فى نظرهم سوى مغتصبين للسلطة وكفرة ولا يجوز طاعتهم ويجب عصيانهم ورفع السلاح فى وجوههم ومن ثم فانه لم يكن بد أن يثوروا ضد الطاغية الذى سلبهم متاعهم وأموالهم، بل أنهم رأوا فى ذلك حقا واجبا عليهم وضرورة حتمية فى مقاومة ذلك الطغيان.

بالاضافة إلى أن ولاة المغرب والعرب الذين كانت توليهم الخلافة الاموية أمور البلاد قد أبعدوا البربر عن السلطة ولم يتركوا لهم الا ما عجزوا عن ادارته من حكومة القبائل،فقد أصبح من إليسير عليهم أن يفهموا أن عقيدة سيادة الشعب التى ينادى بها الخوارج وهى العقيدة التى مارسها البربر من زمن بعيد بعد استقلالهم القبلى انما هى العقيدة الاسلامية الخالصة.

ولما كان ذلك الشعب المسلم البربرى ابن عم وشقيق الشعب العربى قد أسرف عمال بنى أمية فى الضغط عليه فقد نجح فى اثارة ذلك الشعب متعصبون أنصاف وعاظ وأنصاف محاربين وكانت لهم ثأرات قديمة مع الجماعة المسماه بأهل السنة والجماعة،فقد كان فى طريقه إلى تحطيم ذلك النبر باسم الله ورسوله،وباسم هذا الكتاب الذى يعتمد عليه الاخرون افتئاتا فى قيام استبدادهم الجائر ، فقد كانت النفوس البربرية مهيأة وثائرة اذ ذاك ولم تكن تنتظر الا اللحظه المناسبة لتمتشق الحسام.

وكما سبق القول فقد حانت تلك اللحظة المناسبة حينما أرسل عبد الله بن الحبحاب عام ١٢٢هـ قسما من جيشه إلى صقلية للقيام بغزوها،فما كادت الحملة تبحر حتى كانت أدنى شرارة كافية لاشعال نار الثورة، وقد جاءت هذه الشرارة فى صورة عمل طائش قام به(عمر بن عبد الله) حاكم شمال مراكش من قبل ابن الحبحاب ، اذ أمر

البربر الذين يقطنون اقليمه بدفع الجزية مضاعفة كأن لم يكونوا مسلمين فسرعان ما امتشقوا السلاح وحلقوا شعورهم ورفعوا القرآن الكريم على أسنة رماحهم كما جرت على ذلك سنة الخوارج وتداعت البلاد بأسرها بربرها وعربها وعظم البلاء وقدم بربر طنجة على انفسهم واحدا منهم هو(ميسرة السقاء المدغرى)والملقب بالفقير وكان هذا الرجل قد اعتنق مذهب الخوارج على الطريقة الصفرية ومن ثم هاجموا طنجة واستولوا عليها وقتلوا حاكمها ثم بايعوا ميسرة بالخلافة عليهم وخاطبوه بأمير المؤمنين ولكنهم حين أحسوا منه عجزا قتلوه وولوا عليهم غيره رجلا من صنهاجة وظهرت الخوارج فى كل افريقية الأمر الذى حمل الوالى عبد الله بن الحبحاب بالعمل على وجه السرعة واستدعاء قواته من صقلية،ودارت فى المغرب(كما سبقت الاشارة) معارك طاحنة كان من أهمها معركة الأشراف التى انتصر فيها البربر وقتل حماة العرب وفرسانهم وانفضت البلاد وخرج أمر الناس،وغدت افريقيه كما يقول دوزى فى كتاب تاريخ مسلمى اسبانيا ترجمة (حسن حبشى) أشبه بقارب بنساب ليس له شراع أو ربان فقد خلع العرب طاعة عبد الله وعنفوه بالقول والعمل لانه هو الذى جر عليهم كل هذه النكبات الجسام.

ولكن الحكومة المركزية فى دمشق انتصرت على يد حنظلة بن صفوان الكلبى فى افريقية وأوقفت الفتنة المغربية إلى حين ولكنها لم تصل إلى هذا النصر الا بمعاونة عرب افريقية،فأنهم قاموا بنصب كبير فى القتال فى سبيل استخلاص افريقية من الثائرين على الخلافة ولولاهم لما استطاع جند الخلافة الوصول إلى هذا النصر الحاسم.

ولقد ظهرت عدة ولايات محلية يتزعمها زعماء محليون انتشروا فى بلاد المغرب الاوسط والأقصى ومن العسير تبين حقيقة أمرهم فقد أنشأوا هذه الامارة البربرية أو الوحدات السياسية فى المغربين الأوسط والأقصى ويمثلهم فى ذلك العصر رجل يدعى(أبو فرة إليفرانى الزناتى) وهو رجل اقام له دولة خارجية اباضية فى اقليم تلمسان ونادى بنفسه

اماما بل اتخذ لقب الخلافة وصار يدعى أمير المؤمنين طوال أربعين عاما وجدير بالذكر أن المذهب الخارجى لهؤلاء الزعماء والمسلمين لم يكن يبدو فى صورة واضحة ولم يكن يتبين هل هم أباضية أو صفرية لكنهم كانوا من أتباع المذهب الخارجى بل أن سياستهم وخارجيتهم كانت سياسية أكثر منها مذهبية مما يدل على رغبتهم فى الوصول للسلطان السياسى فى هذه البلاد الواسعة.

وعلى الرغم من الحملات العربية التى أرسلتها الخلافة الاموية الا أن الذين انتصروا فى ذلك الوقت هم العرب المغاربة أحفاد وأبناء الفاتحين الاوائل لهذه الديار حيث كانت الدولة الاموية فى أواخر أيامها وعندما قامت الدولة العباسية فانهم نقلوا الولاء لها ظاهريا، وكان يمثل عرب المغرب فى ذلك الوقت عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن نافع الفهرى والذى يمثل بيتا عربيا طالت اقامته فى افريقية وبلاد المغرب حتى صار من أهلها وجدير بالذكر ان نفرا من كبار الفاتحين الذين ذكرناهم،خلفوا وراءهم فى المغرب العربى بيوتا عديدة الافراد كثيرة الاتباع، وكان لها دور كبير فى تاريخ المغرب فيما بعد، وأشهر هذه البيوت،بيت عقبة ابن نافع الفهرى ويمثله عبد الرحمن بن حبيب وأولاده وأخوته، وبيت موسى بن نصير، وكذلك بيت أبى المهاجر دينار، وكل هذه البيوت الثلاثة التى كان أجدادها وأسلافها قودا عظاما وفاتحين كبار ورجال دولة وساسة عظام تركوا بصماتهم واضحة جلية فى أرض المغرب لم يتجه أحفادهم اتجاها واحدا، لذا نجد على سبيل المثال أن بيت عقبة بن نافع الفهرى سيتجهون إلى السياسة، أما بيت أبى المهاجر دينار فان أحفادهم يتجهون إلى طلب العلم والفقه فى أمور الدين الاسلامى ودراسة علومه المختلفة وتدريسها،كذلك فان أبناء وأحفاد موسى بن نصير سيتجهون إلى الاشتغال بالأعمال الاقتصادية وشئون المال والتجارة .

ومن هنا وقع دور الحركة السياسية على أكتاف أحفاد عقبة بن نافع الفهرى فنجد

عبد الرحمن بن حبيب زعيما سياسيا من بين أفراد أسرته ويعتمد فى المقام الأول على سمعة جده عقبة بن نافع الفهرى وتاريخه البطولى وفتوحاته ودوره فى المغرب العربى،لكنه كان يختلف عن جده الذى كان مجاهدا حقيقيا فى سبيل رفع راية الاسلام للأمام فى حين نجد عبد الرحمن ذو طوحات سياسية يسعى لتحقيقها لغرض نفوذه السياسى فى اقليم افريقية بالاضافة إلى انه كان يسعى إلى الاستقلال بالبلاد عن الخلافة العباسية فى حين انه لم يكن يتمتع بمزايا سياسية كالفطنة والكياسة والدبلوماسية الهادئة التى يحقق من ورائها أهدافه وطموحاته السياسية، ولذلك نجد انه لم يكن يتمتع بملكات سياسية وأخلاقية تمكن له من الثبات وتنظيم أمور الدولة التى لو اتيحت له فرص التنظيم والادارة الناجحة وحسن التنظيم لواتته الفرص لكى يكون القائد الناجح الذى يخلص الناس من الفوضى السياسية التى يعيشها المغرب فى تلك الاحوال.

ولقد كان بوسع عبد الرحمن بن حبيب أن يقيم دولة كما فعل معاصره عبد الرحمن بن معاوية الداخل فى الاندلس ولكنه نصب نفسه أميرا على الامارة فى افريقية دون أن يتخذ للموقف عدته واحتمالاته ودون وعى سياسى وقدرة ادارية،بل أكثر من ذلك لم يحاول أن يحصل على سند شرعى وتدعيم شعبى باعلان ولائه للخلافة العباسية وخضوعه لها، تلك الخلافة الجديدة التى لم يحاول أن يكسب شرعيتها،بالاضافة إلى انه لم يفكر على الاطلاق فى الاستفادة من العناصر العربية القاطنة للمغرب والتى أصبحت مغربية بالمولد ومرور الزمن ومعاشرة البربر والاختلاط معهم،بل انه لم يفكر على الاطلاق فى الاستعانة بالقبائل البربرية القوية المجاورة والتى تخضع لحكم الامارة فى القيروان.

ولقد كانت طبائعه الشخصيه تدل على عدم ادراك الامور والتدبر فى علاج المشاكل واتخاذ المواقف المناسبة بل انه كان يندفع فى علاج الأمور وكان سريع الحركة مما أضعف مركزه فى أول الأمر.

وكان أول عمل قام به عبد الرحمن بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى بعد أن تولى امارة القيرواان وأعلن نفسه وإليا على البلاد أن طلب من عليه القوم ورجال الدين والعلماء مبايعته بذلك والكتابة إلى الدولة العباسية الجديدة وإلى الخليفة أبى جعفر المنصور بالدخول فى طاعته وانه نصب نفسه أميرا بناء على طلب الرعية ورغبتها فى القيام بأمر الامارة فى القيروان.

فما كان من الخليفة العباسى الاول أبى جعفر المنصور الا أن طلب منه ان يبعث إلى بيت المال خراج المغرب حيث كانت الدولة الجديدة فى أمس الحاجة إلى الدعم المإلى،ولم يكن أبو جعفر المنصور يعرف طبيعة المغرب فى قلة الجباية والاموال.حيث كان دخل الحكومة الاقتصادية لولاية القيروان قليلا جدا حيث كانت ولاية القيروان تحصل كدعم ومساعدة على مائة ألف دينار سنويا من مصر لسد العجز فى بيت المال المغربى وتدلنا على ذلك تلك الهدية التى أرسلها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وإلى القيروان إلى أبى جعفر المنصور خليفة بغداد الجديد وما كتبه معها من ضعف هديته لان المغرب اذ ذاك بلاد اسلامية لا جزية فيها ومن هنا تدل تلك الهدية على نقصان الدخل الوطنى والقومى من أموال الولاية،وقد أخطأ أبو جعفر فى ذلك فلم تكن هناك فى افريقية أموال فى ذلك الوقت،فالبلد فى فوضى والجباية معطلة ،ولم يكن من عبد الرحمن بن حبيب الفهرى،الا أن أرسل إلى آبى جعفر المنصور يلومه على طلب الأموال ويشتد له فى القول بل انه سبه وأعلن الخروج عن طاعته وطاعة الدولة العباسية فى ذلك الوقت المبكر الذى لم يكن قد تم تدعيم وضعه فى الامارة والسيطرة على أنحاء البلاد المختلفة ولقد وقع عبد الرحمن بن حبيب الفهرى فى خطأ تاريخى وسياسى ودينى كبير فى ذلك الوقت،ذلك لانه من الواضح أن الخروج عن طاعة الخلافة الاسلامية الشرعية فى ذلك الوقت لم يكن له رد فعل من الناحية الفعلية من قبل الخلافة،لكنه من الناحية الشرعية والاسلامية يمثل

فى ذلك الوقت المبكر فى تاريخ الدولة الاسلامية خروجا عن الشرعية الاسلامية وعصيانا لسلطة الخلافة وخروجا عن الحكم الشرعى،وذلك لان أهمية الدولة الاسلامية المتمثلة فى الخلافة العباسية اذ ذاك كانت لا تزال قائمة فى نفوس كل المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بل أن الاجماع الاسلامى وجماهير المسلمين عامة لم تكن تقر فكرة خلع طاعة الخلافة،وكان الولى بعبد الرحمن فى تلك الفترة المبكرة من تازيخ تأسيسه الامارة الفهرية فى افريقية ١٣٣هـ/٧٥١م والتى هو فى أمس الحاجة أن يحصل على تأييد ولو اسمى من الخلافة القائمة لتعزز مركزه ولكنه عندما أعلن انفصاله عن السلطة الشرعية المتمثله فى الخلافة العباسية لم يستند على أى سند شرعى يقيم علية حكمه،كان خروجه هذا على الدولة بمثابة النذير لانتهائ امارته،ذلك فانه بعد ذلك حاول أن يكسب ود ورضا زعماء القبائل العربية القاطنة بالامارة كما انه لم يعمل على استمالة القبائل البربرية إلى جانبه،وكما اننا نجد ان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى لم يكن قائدا عسكريا قادرا بل كان يعتمد فى قيادة قواته على أخيه إلياس الذى كان قائدا عسكريا ماهرا مشهودا له بالكفاءة العسكرية،لكن مع كل هذه الدعائم التى كان يرتكز عليها عبد الرحمن فى ادارة امارته الا انه كان يوجس خيفة من أخيه إلياس نظرا لمكانته وقوة نفوذه وتمتعه بسمعه عسكرية وجمعه أعداد كبيرة من الفرسان والمقاتلين استطاع عن طريق كياسته وحسن ادارته أن يكسب ولائهم وأن يقودهم قيادة حسنة تضمن له بسط النفوذ والقوة ومن هنا عينه أخيه عبد الرحمن وليا للعهد وأن يخلفه فى ادارة شئون الامارة.

ولما كان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى على غير شئ من الحكمة والكفاية فى الاعمال الادارية التى تصدى لها لقيادة افريقية فانه كان غير ثابت وسريع الحركة وغير واضح السياسة فنفر منه الناس سواء أكانوا من العرب أو البربر وتصدى له نفر من أنداده من العرب ووقعت الحروب بينهم مما أعاق عبد الرحمن من أن يحقق أهدافه، ولكن عبد

الرحمن ابن حبيب وقع فى خطأ تاريخى آخر لا يقل عن اعلان عدم خضوعه للخلافة العباسية فى بغداد حيث انه قام بعزل أخيه إلياس من قيادة الجيش وولايته العهد،ومن هنا كانت تلك الأعمال من الأسباب القوية التى أدت إلى وقوع القتال والحرب بين الاخويين حيث رجحت كفة إلياس مما ادى إلى مقتل عبد الرحمن وتولى إلياس بن حبيب الفهرى ولاية القيروان بدلا من أخية وقد أدت تلك الأفعال إلى أن يقوم حبيب بن عبد الرحمن بقيادة بعض القوات العربية الموالية له بالاضافة إلى أنه نجح فى استمالة أعداد كبيرة من البربر التفوا حوله حيث سار لقتال عمه إلياس ودخل معه فى حرب انتهت بقتل إلياس وتولى حبيب بن أبى عبيدة ابن عقبة بن نافع الفهرى الولاية بدلا من عمه الا أن ولايته لم تدم طويلا حيث عزله عمه عبد الوارث بن حبيب وتولى الامارة بدلا منه ولكن حبيب سار إلى قبائل البربر حيث تلك القبائل التى كانت تعتنق المذهب الخارجى الصفرى.

وهكذا كانت رحلة حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى إلى القبائل البربرية بداية بأن لا يهدأ الصراع بين العرب والبربر فى افريقية طيلة الايام حتى يتمكن البربر من انشاء دولة أو دويلات يحكمونها بأنفسهم، مع العلم بأن ثوراتهم كانت مستمرة طوال سبعة أعوام تلت وفاة هشام بن عبد الملك ١٢٥هـ حتى انتهاء الخلافة الأموية،ولذا فأننا نرى كيف استمر البربر فى ثورتهم ولم يكن خروج البربر على الامويين والعباسيين يمثل خروجا على الدين وانما كان خروجا على السلطة الحاكمة لظلم الولاه وفرضهم الضرائب الفادحة عليهم ونذعة منهم إلى الحكم الاستقلإلى الذى كان أساس حياتهم أزمانا طويلة.

ولقد شهد العصر العباسى انضمام الكثير من العرب الساخطين على العباسيين إلى البربر،ومع ذلك فانه الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور قد سارع بارسال حملات عسكرية بقيادة محمد بن الشعث حيث انتشرت تلك القوات مع قائدها فى القيروان واجتهدت

حتى اقرار الامن فى افريقية وبذل بالفعل جهودا كبيرة فى ذلك السبيل وعندما انتهت ولاية محمد ابن الاشعث،فان المنصور قد ولى أمر هذه البلاد إلى الاغلب بن سالم بن عقال التميمى،وعلى الرغم من هذا فان افريقية وبلاد المغرب أصبحت مشكلة بالنسبة للخلافة العباسية فهى بلد بعيد عن مركز الخلافة العباسية وبلد تعيش فيه جماعات اسلامية متحاربة متعادية بعضهم من أهل الجماعه والسنة وبعضهم من الخوارج بفرقهم ومذاهبهم المختلفة وبعضهم من الشيعة وبعضهم عربا والبعض الآخر بربر،كل هذه الطوائف كانت تتصارع فى المغرب العربى وكان على الخلافة العباسية بقيادة الخليفة أبى جعفر المنصور أن تجد حلا لهذه المشاكل التى تواجه فرض السياده العباسية على هذه الطوائف المتصارعة وأن تجعل تلك البلاد تعيش فى استقرار دائم ومحاولة انتشال تلك الديار من حالة الفوضى والقلق التى تعيش فيها.

فوقع اختيار الخليفة المنصور على قائد له صفات الادارة والحزم والقوة العسكرية هو ابو حفص عمر بن قبيصة الذى هو من قبيلة المهلب بن ابى صفرة وكان من فروع المهابلة من قبائل الازد التى كانت تعيش فى عمان حيث وضعت تحت تصرفه قوات عسكرية ومهام ادارية محددة تؤدى إلى استقرار الامور فى بلاد المغرب ومن هنا كان وصوله إلى القيروان عام ١٥١هـ/٧٦٨م.

\اواستطاع هذا الرجل طوال فترة ولايته وامرته البالغة خمسة عشر عاما أن تشهد القيروان وافريقية فترة من الاستقرار النسبى والامن الداخلى وانتهاء حالة الفوضى وذلك لما لهذا الرجل من قدرة ادارية فائقة بالاضافة إلى انه صحب نفرا من بنى قومه من الازد وخاصة من آل بيته من المهالبة وكانوا قوه عسكرية كبيرة بالاضافة لما يمتاز به المهابلة من خبرة بالشئون الادارية والعسكرية وبذلك كان عصر المهابلة بدءا من أبى بكر عمر بن قبيصة هو فترة حاسمة فى تاريخ المغرب وذلك يجعلها مركزا من مراكز السنة والجماعة

وكذلك بصفتها مركزا من مراكز العروبة فى تلك الانحاء ومحاولة ابعاد الخطر الخارجى عنها حيث كان على أبى حفص ان يواجه خطر الخوارج الاباضية حيث تمكن آبو حفص بن عمر من الانتصار عليهم أول الامر،لكنه قتل وانهزم عام ١٥٤هـ/٧٧١م.

وتولى الامارة فى افريقية والقيروان أحد أقاربه الذى كان بارزا فى عصر الخليفة أبوجعفر المنصور وهو«يزيد بن حاتم المهلبى»والذى حكم افريقية خمسة عشر عاما وتعد هذه الاعوام القليلة هى اصعب فترات عصر الولاه واكثرها خيرا على افريقية وفائدة لها فقد كان يزيد رجلا ذكيا نشيطا ذا خبرة بشئون الحكم والادارة وكذلك كان عربيا سادق العروبة يتصف بالشهامة والجرأة والبعد عن الصغائر وكان مؤمنا قوى الايمان ثابت العقيدة يؤمن بدولة السنة والجماعة وقد استمرت سنوات حكمه من عام(١٥٥-١٧١هـ/٧٧٢-٧٨٧م) وبدأ فى افريقية وتاريخها عصرا من الاستقرار والازدهار بحيث تمكن من اقرار الامور فى انحاء افريقية مستعينا بقومه من الازد ومن التف حوله من العرب والبربر ولكن بعد نهاية فترة حكم يزيد الذى انتهت بفترة ولايته نهاية أسرة المهابلة فى افريقية فاننا نجد أن افريقية تعيش سنوات فى الفوضى اذ اشتد التنافس بين الزعماء العرب فى البلاد من أجل الوصول إلى السلطان فى القيروان أو الانفراد بالسلطة السياسية فى النواحى التى يعيشون فيها ولكن على الجانب الآخر فان الخلافة العباسية كانت تبدى اهتماما متزايدا بشئون الولاية الافريقية والتى كانت تضم ولايات طرابلس وافريقيه (تونس) والزاب وهو الجزء الشرقى من الجزائر وعلى هذا فقد بذلت الخلافة العباسية جهودا جبارة وفائقة من أجل أن تجعل هذه الولاية تخضع لسيطرتها ونفوذها وسيادتها العباسية وان تكون داخلة داخل دائرة السنة والجماعة،وقد أرسلت الخلافة الغزوات التى كللت بالانتصار مثل غزوة وحملة حنظلة بن صوان االكلبى التى حققت انتصارات رائعة فى موقعتى«القرن والاصنام» والتى كللت مجهود«يزيد بن

حاتم المهلبى» وأسرته وكيف وضعت قواعد النظام والسنة والجماعة فى افريقية وجعلت من تلك الولاية جزيرة أمان واستقرار نسبى وسط المغرب العربى الذى اجتاحته الفتن وحركات الخوارج من كل جانب.

وهكذا فان الدوله العباسية رغم كل جهودها لم تستطيع ان تمد نفوذها غربا إلى اكثر من اقليم الزاب حيث كانت مدينة أربة الواقعة على المجرى الاعلى لشط نهر شلف هى منتهى ما وصل إليه النفوذ العباسى وذلك بمعنى أن تلك المدينة هى البعد السيادى للدولة العباسية وما يليها غربا من بقية اقاليم المغرب الذى يعد نهر شلف غربا فقد كان لا يخضع لنفوذ الخلافة العباسية وخارجا عن دائرة سيادتها ومن هنا فانه من الممكن أن نطلق على تلك المنطقة أنها كانت تعيش فى فراغ سياسى حقيقى حيث كانت تتنازعها الامارات والقيادات المختلفة .

ففى هذا الجزء الممتد من نهر شلف حتى المحيط الاطلسى كان ذلك الاقليم يغلى بالتمرد ضد الخلافة وقيام أمراء محليون باقتسام مناطق نفوذه حيث استغلوا فرصة النزاع السياسى وعدم الخضوع للشرعية العباسية أو الاموية فى الاندلس لكى تشتد بينهم الفتن بحيث يمكن أن نطلق عليها الفتنة المغربية الكبرى حيث تعددت الامارات المحلية. ولقد كان بعض هذه الامارات عربيا خارجيا أو شيعيا معاديا للخلافة العباسية وزعمائها عرب أشد عداوة لدولة الخلافة أو بربرية مستعربة وأشهر هذه الولايات المحلية وأطولها عمرا هى الولاية الخارجية الصفرية التى اتخذت من مدينة تلمسان عاصمة لها طوال أربعين عاما مارست فيها نفوذها فى تلك الانحاء تحت زعامة الامير أبى قرة المغيلى الذى اتخذ انفسه لقب الامام بل انه خوطب أحيانا بلقب أمير المؤمنين، كذلك ظهرت بعض الامارات العربية الأخرى فى تلك النواحى وهى امارة أنشأها زعيم عربى هو «صالح بن منصور الحميرى» فى منطقة تقع على ساحل المغرب العربى الأقصى وتمتد من مدينة مليلة شرقا

إلى مدينة الحسمة غربا وتسيطر على منطقة داخلية جبلية سكانها بربر زناتيون، لكن هذه الدولة كانت سنية المذهب على نقيض الامارة السابقة التى كانت خارجية صفرية وقد دخلت فى طاعة الخلافة الاموية فى الاندلس، كذلك ظهرت دولة «نكور» طويلا ومرت بعصور من القوة وأخرى من الضعف فى أثناء الصراع بين الأمويين والاندلسيين والفاطميين الشيعة على سيادة المغرب الأقصى .

بالاضافة إلى ثورات البربر من الاباضية والصفرية الذين أشعلوا الثورة فى افريقية كلها بحيث أن افريقية كادت تخرج عن طاعة العباسيين فى معظم عهد المنصور وان البربر والعرب المقيمين والنازلين بها مالوا إلى اعتناق مبادئ الخوارج وخلعوا طاعة العباسيين الذين أخذوا يرسلون إليهم الجيوش تلو الجيش لاخضاعهم ولكن بدون جدوى وهكذا استمرت مدينة القيروان تسقط فى أيدى الثوار أحيانا وفى أيدى العباسيين أحيانا أخرى حتى استطاع المنصور قبل نهاية خلافته أن يرسل جيشا جرارا أقر الامن فى البلاد إلى حين ومن ذلك يقول ابن الاثير «كان بين الخوارج والجنود (العباسيين) من لدن قتل عمر بن حفص بن قبيصة المهلبى إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وسبعون وقعة» .

وهكذا استمرت قبائل البربر تناوئ سلطان العباسيين حتى عام ١٨١م حين أدرك العباسيون تمام الادراك أن فوزهم على البربر لا سبيل إلى تحقيقه فتراجعوا عن المغرب الاقصى مكتفين باقليم تونس الذى أقاموا فيه دولة سنية جماعية جاهزة ما لبثت هى الاخرى أن استجابت للحركة الاستقلالية، فاستقلت بأمرها استقلالا كاملا يكاد يكون تاما عن الخلافة العباسية مع الاعتراف لها بالسيادة الاسمية .

وانجلى هذا الصراع الطويل بين الخلافة العباسية صاحبة السلطة المركزية والسيادة الشرعية وبين البلاد التى نزعت إلى الحكم المستقل تحت شعار الخوارج إلى قيام ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب استقلت استقلالا تاما ومن هذه الولايات ولاية

تاهرت التى أسسها «عبد الرحمن بن رستم» بمساعدة الاباضية (١٣٧ – ٢٩٧هـ) وولاية سجلماسة التى أسسها «بنومدرار» (١٦٧ – ٢٥٧هـ) وتلمسان التى أسسها أبو فروة الصنهاجى وبرغوانة الواقعة على المحيط الاطلسى .

لكن فى عصر الخليفة العباسى هارون الرشيد فان افريقية والمغرب العربى قد شهدت اهتماما متزايدا من جانب الدولة العباسية فاننا نجد الخليفة يعين وإليا عربيا من طراز فريد من الرجال لادارة تلك الاقاليم هو الوالى «هرثمة بن أعين» الذى كان من أكبر رجالات البلاط الخليفى وكان من رجالات الحزب العربى فى بلاط الرشيد .

وكان هرثمة بن أعين شيخا مجربا فى الحروب والحكم والادارة ومن هذا كان اختيار هارون الرشيد له اختيارا موفقا، ذلك لان البربر لم يكونوا يشكلون خطرا مستعصيا على الخلافة بمقدار ما كان يشكل عرب افريقية المشكلة الكبرى للدولة حيث كانوا يتجمعون فى معسكرات قبلية طائفية فى سوسة والقيروان وتونس وطنجة وغيرها من مدن وولايات افريقية. وكانوا ينافسون بعضهم بعضا، بل أكثر من ذلك فانهم كانوا ينفقون فيما بينهم على مناصبة العداء لكل وال جديد ترسله الخلافة العباسية .

وكان تعيين «هرثمة بن أعين» بداية لوضع نهاية لفتن هؤلاء الاعراب أو الاعاريب كما كان يطلق عليهم سكان افريقية ذلك الاسم .

وتولى هرثمة بن أعين لفترة عامين (١٨٠– ١٨١هـ/٧٩٦– ٧٩٧م) واستطاع فى تلك الفترة أن يدخل الخوف فى روع زعماء القبائل بحيث انهم هابوه أثناء فترة حكمه وقد أتيحت له الفرصة خلال تلك الفترة الزمنية القصيرة بعد أن حقق بعضا من الاستقرار أن يعمل على تجديد ما خربته الحروب السابقة فعمل على تجديد المدن والموانى وانشأ السفن والمنشآت وذلك عملا منه لاعادة الثقة من قبل الرعايا فى الدولة وقد أعطى هرثمة ابن أعين اهتماما خاصا بالتعمير والتشييد والانشاءات، فجدد انشاء ميناء تونس

وأصلح مسجد القيروان ونظم الاسواق فى القيروان واهتم بانشاء الزوايا والربط للعباد الصالحين والزهاد العاكفين الذين يقومون فى هذه الاربطة حفاظا على حدود وديار الاسلام .

وقد ابدع أهل المغرب خاصة فى انشاء هذا الطراز من الربط وعنى الكثيرون من الحكام من أمثال يزيد بن حاتم وهرثمة بن أعين وأمراء الاغالبة بالرباطات، فأنفقوا عليها بسخاء وقد اشتهر من هذه الرباطات رباط قصر الطوب فى سوسة ورباط تونس ورباط بونة التى تسمى إليوم عنابة إلى جانب رباط المنستر. وكان الدافع لرجال الحكومة إلى العناية بشئون الرباطات أو القصور، ذلك لان رجالها كانوا دائما مؤيدين للخلافة العباسية لانها كانت دائما نصيرة السنة وكانوا يقفون إلى جانب الفقهاء فى صراعهم مع المذاهب المخالفة لمذهب السنة ومن هنا فقد كانوا فى الحقيقة قوة للنظام والحكومة المستقرة خاصة وقد امتازوا بصدق واخلاص وايمان عميق بالمذهب السنى وكانت ثقة الناس بهم عظيمة ومن ثم فقد كانوا عاملا ايجابيا من عوامل الاستقرار وازدهار الحضارة فى افريقية .

لكن بعد أن قضى هرثمة بن أعين عامين من العمل الدائب والنشط فانه رأى انه استطاع أن ينجز الكثير من المهام وأقر الامن والنظام فى البلاد ووطد دعائم الخلافة العباسية فانه قرر أن يعود مرة أخرى إلى بغداد وترك افريقيا لكى تدخل فى طور جديد من أطوار الحكم فيما تطلق عليه عصر الدويلات المحلية فى افريقية، حيث انه عندما أراد «هرثمة بن أعين» أن يعود إلى بغداد فانه اقترح على هارون الرشيد أن يقيم ابراهيم بن الاغلب عاملا على افريقية وهكذا تم الاتفاق على أن يتولى ابراهيم بن الاغلب ولاية افريقية عام ١٨٤هـ/٨٠٠م وبذلك بدأت تجربة سياسة جديدة فى تاريخ افريقية تجربة حكم افريقية عن طريق أسرة عربية محلية تابعة للدولة العباسية .

وهكذا نبدأ صفحة جديدة من صفحات التاريخ العربى الاسلامى المغربى، حيث

بدأت المغرب تدخل طورا وبعدا جديدا من أبعاد الحياة السياسية والاقتصادية والنظامية والاجتماعية حيث برز إلى سطح الاحداث التاريخية أحداث أدت إلى انقسام الحكم فى المغرب العربى فى حقيقة الامر بين دولتين ان لم تكن ثلاث دول هى، الامارات الرستمية التى أسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة الاباضية فى تاهرت (١٣٧- ٢٩٧هـ) وكذلك دولة الادارسة التى أسسها ادريس بن عبد الله العلوى فى بلاد المغرب الاقصى (١٧٢- ٢٧٥) وكذلك دولة الاغالبة التى أسسها ابراهيم ابن الاغلب فى تونس (١٨٤- ٢٩٦هـ) التى أن قامت فى المغرب دولة شيعية ضمت المغرب العربى الاسلامى كله ما عدا الاندلس هى الدولة الفاطمية (٢٩٨- ٥٦٧هـ) وهكذا نجد المغرب العربى خضع لعاملين هما العامل القومى والعامل المذهبى وقد تساند العاملان معا فى استقلال المغرب العربى الاسلامى وبناء شخصيته العربية المغربية المستقلة. وانه مع نهاية القرن الثانى الهجرى نشأت ببلاد المغرب دويلات مستقلة قامت بتأسيس مدن عربية اسلامية كانت مراكز جذب للقبائل العربية من خارج بلاد المغرب وداخلها للعمل بخدمة هذه الدول وساعدت على نشر الحضارة الاسلامية فى المناطق التى خضعت لنفوذها مما ساعد على تعريب المغرب خلال القرن الثالث الهجرى وكانت هذه الدول الثلاث عامل تقدم وتطور ورقى وازدهار فى بلاد المغرب دفعت بحركة العروبة والاسلام إلى أبعاد جديدة حيث تنافست هذه الدول فى هذا الميدان .

الباب الثانى

دولة بنى رستم الخارجية الاباضية

(١٤٤-٢٩٦هـ- ٧٦٠- ٩٠٩م)

عندما أعلن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع خروجه على الدولة العباسية فى أول الامر كانت العقبة الكبرى بل الصعوبة البالغة التى واجهته هى مشكلة الخوارج ومدى انتشارهم وبعدهم فى الحياة الدينية فى افريقيا والذين كانت قواتهم قد تجمعت فى جبل نفوسة فى طرابلس وكان يتولى زعامتهم شيخ خارجى ممن تلقوا تعاليم الخارجية الاباضية فى البصرة على شيخ كبير من شيوخ المذهب الاباضى هو مسلمة ابن سعيد وهو «أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى» ونسبه إلى قبيلةمن غرب اليمن تسمى المعافر، هذا الرجل كان عالما حقا فى المذهب الاباضى وكان الى جانبه عدد كبير من شيوخ المذهب أكبرهم «عبد الرحمن ابن رستم» .

كذلك نجد عند اشتداد الصراع بين حبيب بن عبد الرحمن وعمه عبد الوارث بن حبيب فر إلى قبيلة كبيرة من البربر المستعربه تسمى (ورفجومة) وهى قبيلة طارق بن زياد وكان يتزعمها عاصم بن جميل وهو ابن أخت طارق بن زياد فسار عاصم بمن معه من الخوارج الصفرية واقتحم القيروان، ولكى يؤكد عاصم بن جميل احتقاره لمذهب السنة والجماعة فان رجاله دخلوا بخيولهم المسجد الجامع وربطوا خيله فيه .

هذا الموقف الذى تم فى القيروان من قبل الخوارج الصفرية بقيادة عاصم بن جميل دفع الخوارج الاباضية المسيطرين على جبل نفوسة ونواحى مدينة طرابلس إلى أن يسيروا بجموعهم إلى القيروان ليطردوا الصفرية منها بزعامة الخطاب عبد الاعلى السمح المعافرى

وقد تم لهم ذلك وانتقلت افريقية من سلطان الصفرية إلى سلطان الاباضية، كل هذه الحوادث أفزعت أبا جعفر المنصور وقد اتجه إلى جعل الدولة العباسية دولة السنة والجماعة فأمر كما سبق القول واليه على مصر «محمد بن الاشعث» بالمسير إلى افريقية واخراج الاباضية وقام رجال الدولة العباسية بقتل أبى الخطاب زعيم الخوارج الاباضية، ففر الباقون بقيادة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الاوسط خارج حدود السيادة العباسية التى كانت تصل إلى نهر شلف .

ولقد كان نفوذ الخوارج فى تلك المناطق يعود إلى نهاية القرن الاول الهجرى عندما ضعفت الدولة الاموية، اذ انتهز الخوارج الاباضية فرصة الاضطراب الذى ساد الدولة فقاموا يعاودون محاولاتهم التى فشلت فى المشرق حيث استطاعوا أن يجندوا بين صفوفهم كل ناقم على الدولة، وحشد ولاة افريقية كل قواهم لقمع هذه الثورات التى شملت المغرب كله من طرابلس شرقا حتى المحيط الاطلسى غربا والتقت جيوش الدولة بهم فى عدة مواقع هزمت فيها جيوش الدولة أمام حماس الخوارج فلم تجد الدولة بدا من أن تستنجد بقوات عديدة عربية انضمت إلى جيوش الدولة لمحاربة الخارجين فتمكنت الدولة من انقاذ القيروان التى كان الثوار قد هاجموها، وقد أطلقت الخلافة على هذه المعركة «معركة الاصنام» لانها اعتبرت هؤلاء الخارجين عليها وثنيين من عبدة الاصنام وذلك كى تستفز الناس ضدهم وتعمل على حشد الجموع لتأييدها واذا كانت الدولة الاموية ثم العباسية قد استطاعت أن تهزم هؤلاء الخوارج الاباضية والصفرية فى القيروان وافريقية حيث الجزء الشرقى من المغرب الا أن الجزء الغربى ظل متأثرا وظل نهر الزاب بين الحد الغربى لنفوذ الخلافة العباسية ولقد كان ظهور حركات الخوارج سريعا فى المغرب العربى واندلاع نيران ثورتهم يدل على مدى تفاعل البربر تفاعلا كاملا مع الحياة الاسلامية، بل أن دعاة الهيعة وثوار الخوارج كانوا عاملا هاما فى نشر الاسلام بين أهل البلاد .

وكما سبق القول فان الاضطراب الذى ساد القيروان بعد وفاة عبد الرحمن بن حبيب ومقتله قد أعطى الفرصة لقبيلة «أرفجوسة» البربرية الصفرية الخارجية بقيادة عاصم بن جميل أن تجتاح القيروان وتنهبها وتفتك بكل من وجدته حيالها مما أعطى الفرصة أيضا لقبيلة مكناسة البربرية الخارجية الاباضية أن تتقدم من مواطنها فى جبل نفوسة تحت قيادة امامهم أبى الخطاب وتجتاح المنطقة وتطرد الوالى العباسى من طرابلس وتتقدم إلى القيروان وتأخذ قبيلة أرفجوسة على غرة وتقتل منهم مقتلة كبيرة وامتدت سلطة أبو الخطاب على رقعة كبيرة من الارض امتدت من طرابلس شرقا إلى القيروان غربا والتى أقام فيها واليا من قبله هو عبد الرحمن بن رستم الذى كان من أصل فارسى وكان من بين الخمسة الذين تقهقروا فى المغرب .

ولقد كان المغربان الاوسط والاقصى يسعيان إلى الاستقلال عن ولاة القيروان منذ مطلع القرن الثانى للهجرة هياما منها بالحرية التى قد تصل إلى حد الفوضى وعدم الاستقرار واثارة القلاقل ومن هنا فقد اقتنع سكان هذين الاقليمين بدعوة الخوارج التى كانت تتبنى بعض الافكار الديمقراطية المتطرفة التى كانت تلائم هوى فى نفسية البربر، وكان الخوارج بالشرق يعرفون هذا الميل من البربر بالمغرب إلى العدالة والمساواة وروح الشورى والديمقراطية فتسربوا اليهم ليحاربوا الامويين فيه ويقضوا على سلطتهم بين أهله بعد أن عجزوا عن نشر مبادئهم على نطاق واسع بالمشرق والنجاح فى اقامة دولة على أسس المذهب الخارجى، ومن هنا جاءوا إلى المغرب وانتشروا فى أرجائه المختلفة وجهاته المتعددة كالمغرب الاوسط وطرابلس وجبال نفوسة والمغرب الاقصى وقاموا بحروب عنيفة ضد الولاه الذين كانت ترسلهم الخلافة الاموية والعباسية وكان البربر خير عون لهم وسندا قويا فى كل هذه الحروب لما تنطوى عليه نفسيتهم من حب للحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة وليس حبا فى الفوضى وعدم النظام أو كراهية للعرب ومن هنا فانه لم ينته

النصف الاول من القرن الثانى حتى استطاع الخوارج أن يأسسوا امارة أو دويلة مستقلة لهم باقليم الجزائر وغيرها فى الاقاليم الاخرى .

وذلك بعد أن أرسل لهم خليفة بغداد واليه على مصر محمد بن الاشعث بجيشين لكنهما هزما فلم يكن بد من الامر أن قدم بنفسه على رأس جيش ثالث هزم الطوارق الذين كانوا يقيمون جنوبى طرابلس وتقدم إلى القيروان فدخلها ولكنه كان نصرا غاليا كلفة كثيرا من الرجال .

وهكذا قامت دولة من أكبر دول المغرب هى دولة «عبد الرحمن بن رستم» أو الدولة الرستمية فى المغرب الاوسط أو ما يعرف باسم الجزائر وهكذا نجح الخوارج الذين انهزموا فى قلب الدولة الاسلامية وقتل منهم الالوف بسيوف رجال مثل الحجاج بن يوسف الثقفى والمهلبى بن أبى صفرة والذين اضطروا الى الفرار الى جهات بعيدة كان منها المغرب، نجحوا فى اقامة دولة خارجية أباضية فى المغرب الاوسط سوف تلعب دورا بالغا ومؤثرا بل فعالا فى مجرى الاحداث فى المغرب الاوسط ليس فقط بل فى المغرب العربى ككل ومن هنا فان الامارة الرستمية تمثل مظهرا من مظاهر الحركات الاستقلالية التى صاحبت قيام العباسيين على عرش الخلافة الاسلامية فى القرن الثانى الهجرى وقامت هذه الامارة فى المغرب الاوسط الذى حدد الجغرافيون المسلمون امتداده وسط المغرب الكبير من حدود بجاية شرقا إلى وادى ملوية وجبال تازة غربا وانفردت رقعة المغرب الاوسط بعدة مميزات جغرافية وطبيعية وبشرية تؤهل لاية قوة تقوم فيها أسباب الهيبة والازدهار، فالحدود الشرقية لرقعة المغرب الاوسط تتميز بأنها حدود مفتوحة طبيعيا سهلت اتصال المغرب الاوسط بجهات افريقية الجنوبية واقليم طرابلس مهد الدعوة الاباضية فى بلاد المغرب، ولقد كان التكوين السكانى للمغرب الاوسط صورة صادقة لتكوين السكان الذى كان سائدا فى بلاد المغرب فى النصف الاول من القرن الثانى الهجرى فقد كان هناك

الافارقة والعرب والعجم والبربر وقد اعتنق كثير منهم المبادئ الاستقلالية الاباضية التى حملها اليهم عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الاباضية وكان البربر يمثلون العنصر الاساسى الذى اعتمد عليه عبد الرحمن بن رستم فأقام دولته بهم فى المغرب الاوسط .

ظهور عبد الرحمن بن رستم على مسرح الاحداث :

كان عبد الرحمن بن رستم هذا قد وفد الى بلاد المغرب مع طوالع الفتح الاسلامى وكان واحد من حملة العلم الذين تلقوا مبادئ الاباضية على يد داعية الاباضية الاكبر أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة فى البصرة، واستقر رأى علماء الاباضية بعد عودتهم من البصرة بالعراق الى بلاد المغرب على مبايعة أبى الخطاب المعافرى اماما للدولة الاباضية التى أقاموها فى طرابلس، ولكن كما سبق القول فان هذه الامارة لم تصمد طويلا أمام بطش العباسيين الذين تمكنوا من القضاء على دولة الاباضية الناشئة والاطاحة بها عام (١٤٤هـ/٧٦١م)، ولكن عبد الرحمن بن رستم استطاع الوصول الى المغرب الاوسط حيث استطاع أن ينظم صفوف الاباضية .

وهكذا نجحت جهود عبد الرحمن بن رستم فى توحيد الصفوف حيث اتفق على ضم رؤساء الاباضية الذين قرروا بالاجماع انتخاب عبد الرحمن بن رستم اماما لهم (١٦٠هـ/٧٧٦م) وعلى الفور اختار عبد الرحمن بن رستم لدولته الناشئة عاصمة جديدة هى مدينة تاهرت التى تم بناؤها عام ١٦١هـ/٧٧٧م . حيث أصبحت هذه العاصمة محط أنظار جميع الاباضية فى المغرب العربى والمشرق.

وكان ابن رستم قد انسحب غربا وأقام فى تاهرت التى أخذت مكانها فى مكان بلدة رومانية قديمة ومدينة تاهرت أو تيهرت كما يقول عنها ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان، انها اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب العربى يقال لاحدهما تاهرت القديمة والاخرى تاهرت المحدثة وهى كثيرة الانواء والضباب والامطار حتى أن الشمس قل أن ترى

فيها ودخلها أعرابى من أهل اليمن يقال له أبو هلال ثم خرج إلى أرض السودان فأتى عليه وهج وحر شديد وسموم فى تلك الرمال فنظر الى الشمس وقال أما والله لئن عززت فى هذا المكان لطالما رأيتك ذليلة بتاهرت، ولقد كان لمدينة تاهرت هذه أربعة أبواب هى باب الصفا وباب المنازل، وباب الاندلس وباب المطاحن وهى واقعة على نهر يأتيها من جهة القبلة ميناء وأشهر ثمارها السفرجل .

وفى تلك المدينة قطن الامام عبد الرحمن بن رستم واجتمع اليه أنصاره ونادوا به اماما للمؤمنين وكل ذلك عام ١٤٤هـ. فكانت أول دولة حققت استقلالها عن الدولة العباسيةواتخذت المذهب الاباضى مذهبا رسميا لها بعد أن فشلت ثوراتهم السابقة فى الحجاز تحت زعامة «أبى حمزة» الذى كان يدعو «لعبد الله بن يحيى بن طالب» الذى كان يقيم فى اليمن فى عام ١٢٩هـ. فى الأيام الاخيرة من حكم الخليفة الاموى مروان الثانى، كما أخضع الوالى العباسى «حازم بن خزيمة» ثورة أخرى نشبت فى عمان من أجل اقامة دولة خارجية، ومن ثم انتقل نشاط هؤلاء الخوارج الى شرق افريقيا فيما كان يسمى ببر الزنج وفى نفس الوقت قام «أبو قرة» من البربر متزعما قبيلة وفريق وأسس دولة أخرى فى «تلمسان بالجزائر» ذات طابع عسكرى بحت، أن كان يتزعم جيشا ضخما بلغت عدته ثلاث عشرة فرقة، ولم يلبث أبو قرة أن انضم الى عبد الرحمن بن رستم ومعهما قبائل بربرية أخرى وأرسل العباسيرن جيشا بقيادة «عمر بن حفص قبيصة» لاستعادة القيروان بعد أن حاصروها عام ١٧٤هـ/٧٧١م .

ولقد ظهرت فى أرض المغرب إلى جانب امارة عبد الرحمن بن رستم العديد من الامارات الخارجية التى نذكر منها على سبيل المثال «امارة بنى ميسرة» وقد كانت تلك الامارة أباضية الا انها كانت مستقلة عن امارة بنى رستم بنواحى منطقة بعيدة حيث كان مركز حكمها مدينة أوزكى وكانت تبعد عن مدينة تيهرت بنحو ثلاث مراحل ولكن تلك

لامارة لم تعمر طويلا بالقياس إلى امارة بنى رستم حيث شغلت بالنزاعات الداخلية .

وبالاضافة إلى «امارة بنى ميسرة» فقد ظهرت امارة أخرى هى «امارة هوارة» التى كانت قد اتخذت من منطقة واسعة بجنوب أسفل نهر شلف فيما بين «سهل منداس»، وسيف غربا وكان أمام تلك الامارة «ابن مسالة الهوارى الاباضى» الذى لم يكن يعترف بسلطة ونفوذ بنى رستم بتاهرت بل انه كان يرى انه أحق منهم فى زعامة المذهب الاباضى فى كل بلاد المغرب العربى وانه كان يقع الى الشرق من أمراء الادارسة من بنى محمد سليمان وكانت الصلة بينهما على مستوى طيب .

كذلك قامت الى جانب هاتين الامارتين «امارة بنى دمر» التى اتخذت لها عاصمة بنواحي قصر البخارى من أعمال الجزائر وكان امام تلك الامارة الشيخ «مصادق بن جرتيل» .

هذا بالاضافة الى الامارة الام أو الكبرى الاباضية وهى الامارة الرستمية حيث كانت تلك من أشهر الامارات الاباضية بالمغرب وأقواها تأثيرا على الحياة الاجتماعية والسياسية بتاهرت ونواحيها وكانت أبعد صيتا وأكبر دويا فى الحياة السياسية الاسلامية طوال القرنين الثانى والثالث الهجرى .

وكما سبق القول فان هذه الامارة الرستمية كانت تنسب الى عبد الرحمن بن رستم الفارسى الأباضى المذهب الخارجى الفكر والمذهب وكان عبد الرحمن هذا من أقرب رجال الفرقة الاباضية إلى الزعيم الاباضى القوى أبى الخطاب بن عبد الاعلى والذى كان قد بسط النفوذ الاباضى على القيروان واستمر فى حكمها فى عهد خلافة أبى جعفر منصور وذلك منذ عام ١٣٨هـ. وكان أبو الخطاب قد أقام دولة أباضية خارجية فى القيروان بعد أن طرد منها الخوارج الصفرية، ولما استتب له الامر فى القيروان فان الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور أرسل له جيشا بقيادة «أبى الاحوص» الذى تم ارساله من قبل

والى مصر محمد بن الاشعث لكن أبا الخطاب تصدى لهذا الجيش العباسى واستطاع أن يهزمه عام ١٤١هـ . وازاء انتصار الخوارج الاباضية على قوات الخلافة العباسية التى كانت حامية مذهب الجماعة والسنة فان الخليفة أبا جعفر المنصور اتخذ قرارا بأن يرسل قائده الشهير وواليه على مصر محمد بن الاشعث عام ١٤٢م إلى القيروان لكى يطرد منها قوات الخوارج التى مضى على اقامة دولتها فى القيروان خمس سنوات (١٣٨-١٤٢هـ) فزحفت القوات العباسية بقيادة محمد بن الاشعث من مصر وفى طريقها غربا وصلت الى طرابلس حيث وجدت قوات أبى الخطاب قد اتخذت مواقعها فى تلك المدينة وقامت باعتراضها لتحول بينها وبين الوصول الى القيروان التى اتخذها أبو الخطاب عاصمة له، وهناك أقوال تذكر أن أبى الخطاب قد اتخذ طرابلس عاصمة له ومهما يكن من أقوال فان قوات الاباضية الخوارج قد انهزمت شر هزيمة وانكسرت أمام زحف القوات العباسية بعد أن استطاع محمد بن الاشعث أن يهزمهم ويشتت جموعهم ويقتل زعيم الاباضية أبا الخطاب بن عبد الاعلى فى تلك المعركة عام ١٤٤هـ. بعد أن كان قد دام حكم الخوارج الاباضية أكثر من ست سنوات فى طرابلس والقيروان نشروا فى تلك الفترة مذهبهم الخارجى الاباضى الذى لقى قبولا كبيرا فى قلوب البربر الذين أعجبوا بتعاليم هذا المذهب ومن ثم لما رأوا قيام تلك الدولة وتأسيس نظام ادارى وسياسى وعسكرى فانهم مالوا إلى ذلك المذهب لاسيما بعد أن كانوا قد حققوا انتصارين على قوات العباسيين آخرها انتصار عام ١٤٢هـ .

وبلغت أنباء انهزام قوات الاباضية الى مسامع عبد الرحمن بن رستم الذى كان قد خلفه أبو الخطاب على القيروان وكان ابن رستم قد جهز قوات عسكرية وجيشا مجهزا كبيرا فى طريقه الى طرابلس وفى طريقه للانضمام لقوات شيخه الاكبر فانه وصلت الى مسامعه انتصار القوات العباسية فأحس بالخطر المحدق به، فقرر أن يعود أدراجه مرة ثانية

الى القيروان ليتحصن بها، لكن رجال الدين الاسلامى والعلماء والصالحين من أنصار السنة والجماعة بمساعدة أهل القيروان كانوا قد سدوا الابواب أمام قوات الاباضية وحالوا بينها وبين دخول المدينة مرة ثانية وأمتنعت المدينة عليه، فقرر ابن رستم أن ينسحب غربا وأن يلحق بقواته بعض القبائل البربرية الاباضية التى كانت قد اتخذت المذهب الاباضى مذهبا لها وهى القبائل التى كانت تقطن أحد الجبال الواقعة على قرب من مدينة تاهرت وكانت تنتشر فى جبل «سوفيج» حيث كانوا يشكلون معظم ان لم يكن كل سكانه .

لكن محمد بن الاشعث بعد أن دخل مدينة القيروان فانه قرر أن يطارد ابن رستم وبقايا الخوارج الاباضية لكى يقضى عليهم لاسيما وانه كان مزهوا بالانتصار الباهر الذى حققه على امامهم أبى الخطاب، لذا فاننا نجد أنه يقرر الذهاب الى موطن الاباضية فى جبل «سوفيج» ويحاصر ابن رستم وانصاره فترة طويلة من الزمن بل انه يشتد فى الحصار مانعا وصول أية امدادات اليهم ، لكن فى نهاية الامر وجد ان الجبل يقف حائلا بينه وبين تحقيق أهدافه فى القضاء على الاباضية لامتناع الجبل عليه، لذا نجد انه يقرر فجأة رفع الحصار عن الاباضية ويعود ادراجه الى مدينة القيروان حيث يبدأ فى تدعيم المذهب السنى محاربا كل وجود للمذهب الاباضى أو الصفرى والازرقى فى كل أنحاء افريقيا (تونس) .

وعندما عاد محمد بن الاشعث أدراجه الى القيروان فعلى أثره هبط عبد الرحمن بن رستم من جبل سوفجج الذى كان معتصما به بعد أن أقبل اليه أنصاره من كل مكان واشتد جانبه بهؤلاء الانصار الذين قدموا اليه وبدأ يخطط لوضع معالم دولة فى السهل الواسع، بعد أن استنفذت قوات الخلافة العباسية قوتها فلم يستطع ابن الاشعث أن يحقق نصرا على ابن رستم فعرض عليه ابن رستم الصلح فقبله ابن الاشعث وبذلك قامت الدولة الرستمية قياما رسميا فى تاهرت وقد أتاح هذا الصلح لابن رستم أن يبدأ عهد جديدا من

الاستقرار والاصلاح فأقبل الناس على الزراعة مما أنعش الدولة فجذب اليها رعاة مما حول المدينة يبادلونهم التجارة وطار صيت الدولة الرستمية الى اخوان ابن رستم من الخوارج فى العراق فقدموا اليه واستقروا معه وأقام ابن رستم حكما عادلا بعث فى دولته الانتعاش وذلك بعد أن كان قد أسس مدينة تاهرت عام ١٤٤هـ واتخذ منها مفرا لدولته الرستمية وادارة شئون الرعية الخارجية الاباضية حيث كان ذلك المذهب الرسمى السائد فى تلك الامارة، وقد كانت هذه الامارة اسلامية فى قضائها، عربية فى ثقافتها ومعارفها وفكرها وبربرية فى عصبيها أى انها ترى فى البربر قوة وسندا لاستمرار قيام تلك الدولة، كذلك كانت فارسية فى ادارتها أى أن النظم الادارية كانت تتخذ من النظام الفارسى الاسلامى منهجا لها فى التقسيم الادارى للامارة وقد ازدهرت الحياة بها وبدأت تلعب دورا هاما فى تلك المنطقة من الجزائر والمغرب العربى فى تلك الحقبة التاريخية الحساسة .

وكانت امارة بنى رستم تحد من الناحية الشرقية بولاية الاغلبة حكام تونس (افريقية) كما كانت تحدها امار الادارسة غربا وشمالا وتمتد الى اكثر بعدا فى الجنوب حيث بلاد السودان والصحراء وكانت مساحة الدولة تتسع ويمتد نفوذها فيصل حكمها شرقا الى طرابلس حيث البقية الأخرى من الخوارج الاباضية حول طرابلس وجبال نفوسة وقد شهدت تلك الامارة أكثر فترة اتساع لها فى عهد الامام عبد الوهاب حيث ملك المغرب كله فقد امتدت دولته من طرابلس شرقا الى تلمسان غربا حتى انه حاصر مدينة طرابلس ودان له من الاراضى والاقاليم ما لم يدن لغيره من أئمة بنى رستم وقد اجتمعت عليه كلمة الناس فى ذلك الاقليم الواسع .

لكن قوة بنى رستم لم تكن كقوة ونفوذ الاغالبة الذين يحكمون اقليم تونس ولا قوة ونفوذ وسطوة الادارسة الاشراف الذين يسيطرون على المغرب الاقصى ويحكمونه حكما شرعيا اسلاميا اقتداء بجدهم الاكبر رسول الله ﷺ .

وقد كان عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم على قوة شخصيته هذه يشاركه رجال الدين الصالحون والفقهاء الاباضية بل عامة الشعب فى السلطة ويتدخلون فى شئونها السياسية حيث كان نظام حكمهم قائما على مبدأ الشورى التى كان يتساوى فيها جميع أبناء الامارة، بل أن نفوذ الرستميين فى تلك الامارة لم يكن الا نفوذا أدبيا ودينيا أكثر منه سياسيا .

لكن كثرة تدخل عامة الشعب فى الامور السياسية للامارة قد أدى الى حدوث بعض الفتن والدسائس التى أدت الى حدوث الفرقة بتدخل العامة فى شئون الحكم والادارة وطالبت بعزل قاضى الامارة وصاحب بيت المال وهو حارث أموال الرعية وكذلك رئيس الشرطة، مما كان سببا من أسباب تصدع تلك الامارة .

وعلى هذا فان ثورة الخوارج التى امتدت من طرابلس الى تونس الى الجزائر الى طنجة وسهول سيو ثم من قابس الى جبال فجيج الى سجلماسة لم تكن سوى طفرة نحو دعم وحدة المغرب بايعاز دعاة العرب وتحت شعار الاسلام ولم تكن تلك الثورة وتكوين الامارات الخارجية أى مظهر مقصود لما زعمه المستشرفون فى وجود روح انفصالية بين العرب والبربر أو روح الثأر من البربر ضد العرب، اذ لو كان ذلك حقيقيا لما أصبحت الثورة بتلك الروح ولابذلك الشعار غير أن هذه الثورة ما لبثت ككل الثورات فى العالم أن تمخضت عن تيارات عنيفة حادت عن مجراها الاصلى فأشيع باسمها الدمار فى افريقية ولكنها أدت مع ذلك الى نتيجتها المحتومة وهى كما سبق القول تركز السيطرة العربية فى جموع المغرب من افريقية الى تاهرت الى تلمسان الى مراكش ولعل من أهم رواسب طفرة الخوارج قيام امارة بنى رستم .

لقد اتخذ أمراء وحكام بنى رستم لقبا لهم حيث كان يسمون «بالائمة» جمع امام وهذا اللقب انما يعنى أن نظام الحكم فى تلك الامارة كان يسير على نظام الامامة

والشورى وهو يعنى أن الامير الرستمى كان أميرا دينويا واماما دينيا وذلك سيرا على نمط الخلافة الاسلامة، الا أن المذهب الاباضى كان بتعارض مع نظم الخلافة الاموية والعباسية من حيث توريث الخلافة فى أسرة معينة كما حدث فى بنى أمية وبنى العباسى، لكن الاباضية كانوا يرون انه لا يمكن حصر الامامة فى أسرة واحدة بل الامامة مشاعة بين الرعية يتولاها أصلح القوم وأتقاهم وانسبهم للامامة .

لكن عندما أقام عبد الرحمن بن رستم امارته فى مدينة تاهرت والاراضى الواسعة الجزائرية الممتدة والمحيطة بها، فان رجال الدين الصالحين والعلماء وعليه القوم فى المدينة قد أجمعوا أمرهم على أن يحصروا الامامة فى أسرة عبد الرحمن بن رستم مع ما فى ذلك من خروج على مبدأ الاباضية الخارجية فى الامامة فى أن يتولاها أنسب القوم ولو كان عبدا حبشيا، لكن الدافع الى حصرها فى أسرة عبد الرحمن هو منع التنافس بين القبائل البربرية فى أن تحاول كل قبيلة تقديم أحد رجالها الى منصب الامامة مما يؤدى الى فرط عقد الدولة .

ولقد كان منهج الحكم فى تلك الامارة هو السير على نهج الشريعة الاسلامية الحقة المتمثلة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والسلطة العليا بيد الرئيس الذى هو الامام الاباضى الاكبر والذى كان يساعده مجلس مكون من عدة أعوان لتسير الحكم وكان الرستميون لا يعترفون بتبعية سياسية لغيرهم فى الدول المحيطة سواء أكانوا الاغالبة أو الادارسة أو الخلافة العباسية فى بغداد أو الخلافة الاموية فى قرطبة بالاندلس، بل انهم كانوا يحسون بعظمة كيانهم السياسى والدينى فى ظل تلك الامارة التى ظلت تمارس دورها السياسى والدينى والاجتماعى والثقافى والفكرى والاقتصادى منذ منتصف القرن الثانى الهجرى الى قرب نهاية القرن الثالث الهجرى حيث استمرت فترة حكمها مائة واثنين وخمسين عاما تولى فى أثناءها امامة الامارة سبعة أئمة بدءا من مؤسس الامارة

عبد الرحمن ابن رستم ونهاية بالامير يقظان بن أبى يقظان بن أبى حاتم الى أن أسقط الفاطميون امارتهم عام ٢٩٦هـ .

وكان رئيس الدولة هو الامام الذى هو رئيس جماعة المؤمنين والذين يدين له أنصاره بالطاعة المطلقة بعد أن يحصل على البيعة منهم، لكن قبل الحصول على البيعة فانه يقسم على اتباع الكتاب والسنة وان يحكم شعبه وفق هذين النبعين الخالدين وأن يحكم شعبه بالعدل .

ومن هنا فان الامام كان بذلك منفذا للارادة الالهية التى تملى عليه قرارته من خلال النصوص الخالدة للقرآن الكريم والسنة النبوية، وكان الامام قد جعل الى جانبه مجلسين من العلماء لأخذ مشورتهم فى كل من أمور الدولة ولكن كلمته كانت دائما هى العليا .

وقد أكثر الولاة الأئمة من اصلاح الطرق وحفر الآبار وتعميرها وتمهيدها خدمة للحركة الاقتصادية والتجارية وهى الطرق التى خربتها الثورات والحروب السابقة ونشر العدل بين الناس بل انهم أحسنوا تنظيم الشرطة لحفظ الامن وحماية طرق القوافل التجارية تأمينا للحركة التجارية وأقاموا الحسبة للامر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما ازدهرت فى عصرهم حركة العلوم الاسلامية ونشر التعاليم الخارجية الاباضية التى كانت تلقى كدروس فى المساجد واشتهر من علمائها ابراهيم بن عبد الرحمن النفس ومن أشهر ما اشتهرت به هذه الدولة تسامحها الدينى مع أهل الذمة الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم وان كانوا يمثلون فئات لاتزيد على عدد أصابع اليد .

وكان أئمة الامارة يعيشون عيشة زهد صادقة حتى انه لم يكن لدى الامير الاول سوى وسادة ينام عليها وكان مسلما صالحا كل الصلاح، بل مما ذكر عنه انه لم يمسك فى يده دينارا وانهمك فى العمل لما فيه خير الامة .

وكان الامام هو المنفذ للشريعة الاسلامية بكل صغيرة وكبيرة ويتمسك بكل الفرائض والسنن وكانت له أقامة الصلاة واليه يجبى الاموال حيث تودع فى بيت مال المسلمين الذى كان عليه خازن أمين وكان للامام الحق كل الحق فى أن يختار من بين العلماء والائمة والصالحين من يعينهم فى جميع المناصب العليا وخاصة القضاء وامناء المال رؤساء الشرطة وكان القضاة أهم رجال الدولة، ولذا كان الائمة يهتمون كل الاهتمام باختيارهم من بين الذين شهد لهم بالنزاهة وحسن السيرة، بل أن من بين صفاتهم أن يكونوا ممن عرفوا بأصالة الرأى والاعتداد به .

وقد قامت الامارة الرستمية حضارة عربية اسلامية تمثلت فى العديد من المظاهر الاقتصادية والتجارية وفى الفكر والثقافة والعمران .

فمن الناحية الاقتصادية نجد أن امارة بنى رستم امارة صحراوية حيث لم تكن فى تلك الامارة من يحظى أفرادها بعيشة رغدة بل ان رجالها كانوا من البدو الرحل مع اشتغال اقلية بالزراعة حول الآبار وعند سقوط الأمطار، وكان معظم اعتمادهم فى حياتهم على رعى الماشية والابل والقيام بالاعمال التجارية البرية وخدمة القوافل والعمل كادلاء للقوافل فى سيرها فى الطرق الصحراوية، ولم تكن امارتهم تقع على شاطئ البحر المتوسط، بل لم تكن لهم مراسى تؤم وتتخذ كميناء ويساعدهم فى تصريف تجارتهم واتخاذ هذا الميناء مركزيا تجاريا بحريا، انما كانوا يستعملون ميناء خروج القريب من مدينة «مستغانم» وذلك لكى يبيعون فيه بضائعهم ثم يعودون الى مواطنهم وكانت أهم خطوطهم التجارية خط تاهرت بلاد السودان، وخط تاهرت مع مدينة القيروان وطريق تاهرت طرابلس .

ولقد نجح الرستميون فى اشاعة الامن فى جميع أرجاء دولتهم وقد أكد الائمة على حماية التجارة وتأمين طرق التجارة متوعدين بقتل كل من يخالف هذا الامر، بل أن الائمة أنزلوا العقوبات بأصحاب حوادث الاعتداء على التجارة أو قطع الطرق التى كانت

تعتبر منافذ الامارة ولقد كانت علاقاتهم ببلاد السودان ممتازة وقد حرصوا على ان تكون الصحراء فى مأمن لكى تكون طريقا لتجارة السودان حيث اكتشفوا طريقا صحراويا يربطهم مع تلك الانحاء .

وقد اضطرتهم تجارتهم الصحراوية أن يحرسوا الطرق التجارية فكانت لهم حاميات تتلقى القوافل التجارية ثم تقوم بتوديعها عند اجتيازها حدود امارتهم، وقد ساعدت كل هذه العوامل على أن تزدهر الحركة الاقتصادية فى بلادهم وان ينتشر الرخاء بينهم حتى كانت مدنهم تنطق بالرخاء وسعة الرزق والعمران والخصب والنماء بل صارت تلك البلاد تحيط بها الحدائق والمزارع الواسعة وأقاموا على أنهارها المساقى والسواقى وصار لكل مدينة سوق دائمة تعقد بها أو أسواق مؤقتة وكانت المدينة تاهرت تموج بالمواشى والخيول والمبانى الراقية المتطورة التى ظهرت فيها روعة فن البناء العربى الاسلامى. وكان أهلها رغم اشتغالهم برعى المواشى والتجارة، يقومون بالزراعة فى حقولهم الواسعة التى تم اصلاحها فى ظل الامن والامان وذلك على ضفاف أوديتهم، بعد ان كانوا قد رفض البربر تخميس أموالهم وهم مسلمون، كما ان ملكية الاراضى كانت للقبائل التى تسكنها، بل ان الائمة الاباضية كانوا يضطرون لشراء الاراضى من القبائل عندما كانوا يريدون بناء مدن جديدة أو اسواق عامة، بل ان الائمة لم يفرضوا ضرائب جديدة بل اسقطوا ما كان قد فرضته نظم الحكم السابقة، وأكد الامام ابن رستم على احترام الملكية الخاصة وعدم التسلط على أموال الناس لانه يقضى بالشرع بل أن ابن رستم شدد على رجال دولته بأن يسمحوا للقبائل بالرجوع الى أوطانهم واعمارها وبقيت هذه القبائل فى اراضيها وسار خلفاء عبد الرحمن ابن رستم على هذا النهج من قبول المفهوم السياسى واحترام الملكية الخاصة .

وقد ازدهرت تاهرت فى عهد الرستميين حيث أنشئ بالمدينة الحصون والعمارات

الكبيرة الواسعة وبنيت المساجد وأماكن الولاية والادارة كما شيدت قصور للامراء الرستميين وكانت تلك القصور تضم الى جنباتها الحدائق الغناء والمنتزهات فى املاكهم الخاصة .

وقد قال ابن الصغير فى حديثه عن مدينة تاهرت حيث افاض فى وصفه للمدينة ومباهجها وتطورها الحضارى والعمرانى والثقافى وكيف ظهرت كاكبر المدن المعاصرة لها فى ذلك الوقت وكانت العجم قد بنت القصور ولسنا نعرف ما هو المقصود بالعجم هل هم الفرس الذين قامت على اكتافهم الدولة الرستمية أم غيرهم من العناصر الاخرى، وأتيت قبائل نفوسة البربرية العدوة، والجند القادمون من افريقية (تونس) قد ابتنوا المدينة العامرة .

ومن هنا فان اقوال ابن الصغير هذا تعنى ان الحضارة الاسلامية الرستمية قد تأثرت بالحضارات الفارسية والعربية والافريقية (التونسية) وليس الافريقية السودانه وربما ظهرت مؤثرات معمارية قد وجدت بها بعض الآثار والملامح الرومانية البيزنطية وربما تأثير فينيقى قديم وان كان الطراز الاسلامى فى جميع المبانى يبدو هو ذو التاثير الفعال والغالب .

ومن ناحية التنظيم المالى والادارى فان الزكاة كانت من أهم مصادر بيت المال حيث كانت تمول بها المشروعات بعد أن يعطى بيت المال منها كل ذى حاجة والفائض كان يصرف فى المشاريع العامة التى تعود على الرعية بالفائدة والمنفعة وكانت تصرف على الزراعة بالاضافة الى العشور وكذلك على مواشى الرعى من الخراف والجمال وغيرها من أنواع الابل وكانت تجبى عينا أما الحبوب فتورزع على الفقراء والخراف والجمال تباع ويرسل ثمنها الى العمال يشترون بها الصوف والزيتون ويتم توزيع هذه المواد على الناس دون تفرقة فالكل سواسية فى ظل تطبيق شرع الله فى خلق الله .

وكانت أولوية التوزيع للاباضية من رجال الدين والفقهاء الصالحين ورجال تعليم المذهب الاباضى كذلك فانه كان لابد للامام أن يكون عالما يشرع الله وبتعاليم المذهب الاباضى أو انه طالما كان الامام عالما بكل كبيرة وصغيرة فان الدولة عاشت أيامها تغلى بالحماس الدينى ومن هنا فان الدولة كان لديها المتسع من الوقت للقيام بالاصلاحات وتوسيع أراضيها وبذل جهودها للرد على المعارضين للنظام وكما سبق القول فان الدولة أبدت الكثير من التسامح نحو غير المسلمين الذين عاشوا فى تاهرت عاصمة الدولة الرستمية وكما قال ابن الصغير فان أعدادا من المسلمين الذين كانوا على علاقة حسنة برجال الدولة قد عاشوا فى حرية تامة بل سمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية، بل سكن بعض البدو المدينة فى ظل العدل والرخاء واشتهر منهم يهود بن فرشن الذى ألف كتابا فى أصول اللغات السامية ما زال محفوظا فى مكتبة أكسفورد .

وكثيرا ما راعى الامام الاباضى الرستمى المجالس العلمية التى كان ينافس فيها أصول المذهب الاباضى الخارجى وتعاليم ذلك المذهب ومحاولة تعميق المفاهيم الاباضية بين الرعية وكذلك فانه كان يراعى ويشهد حلقات الدروس التى تدرس فيها هذه التعاليم، وكان علماء السنة والجماعة يبذلون جهودا جبارة وقف نشاط الاباضية والقضاء على مذهبهم ومن هنا ازداد نشاط القيروان وفاس فى المغرب فى نشر المذهب المالكى، بل أن رغبة علماء المالكية أصبحت علنية وجاهدوا فى ضرورة القضاء على المذهب الاباضى ووقف نشاط علمائه .

بل أن أهل افريقية اشتدوا كراهية للمذهب الخارجى الاباضى وغيره من الفرق الخارجية واشتد سلطان الفقهاء المالكية فى الحياة الثقافية والدينية حتى أفتوا بتكفير الاباضية والخوارج عامة بأن قالوا بأنه لا يصلى عليم ولا تشهد جنائزهم ولا يصلى خلفهم ولا يروى عنهم حديث انما يقاطعون سلبا وايجابيا بل أن انتصار المالكيين فى دولة

الاغالبة التى كانت معاصرة للدولة الرستمية دفع الكثير من علماء وفقهاء ورجال المالكية بالتسرب غربا الى الامارة الاباضية الرستمية، بعد أن كانت تقاليد المالكية قد تمكنت فى نفوس المغاربة وفى مدارس القيروان وافريقية ووقفت للمذاهب الاخرى بالمرصاد .

لكن على الجانب الآخر فقد ارتفع شأن العلماء الذين احتضنتهم الدولة الرستمية لقيامهم بتفقيه أمور الدين للناس وفق المذهب والفقه والشريعة الاسلامية الاباضية، ولقد قرب أمراء الدولة اليهم العلماء وأجزلوا لهم فى العطاء وأفسحوا المجالس لهم وأجروا عليهم الارزاق ومن هنا اتجه هؤلاء العلماء الى تدوين العلوم ونسخ المخطوطات الاسلامية التى تعنى بالمذهب الاباضى على وجه الخصوص والتى أولاها الولاه الرستميون عناية خاصة حيث عنوا كثيرا بجمعها وافساح المجال أمام الطلاب والدارسين والعلماء للاطلاع عليها ووضعها تحت أيديهم، واشتد الولاه ورجال الشرطة والادارة فى تنفيذ المذهب الاباضى بل انه قد ظهرت روح التزمت فى شكل أوامر نفذتها قوات الحكومة بالهجوم على بيوت الناس وتفتيشها بحثا عن كل ما يخالف نهج الشريعة مثل البحث عن المسكرات والخمور وسجن كل من يرتكب اثما من الناس واقامة الحد عليه اذ كان هم كل أباض الا يترك وسيلة الا وعمد فيها الى اعلاء شأن الدين .

ولقد حدث أن ضاق الناس وخاصة الذين لم يكونوا يتبعون المذهب الاباضى بذلك التزمت فثاروا أكثر من مرة وكانت أكبر هذه الثورات التى حدثت أيام الامام أبى بكر بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (٢٣٨- ٢٤١هـ) حيث استمرت تلك الثورة فترة طويلة اشترك رجال الاقتصاد وكبار التجار فى تموين رجال تلك الثورة ولكن الدولة استطاعت أن تقضى عليها بعد أن كلفها ذلك جهدا كبيرا ولقد تركت الحضارة الاسلامية بصماتها الواضحة فى كثير من مناهج الحياة حيث نشطت الصنائع والحرف بهذه الامارة الصحراوية فقد كانت الصناعة متطورة بالنسبة لذلك العصر حيث ساد الرخاء

الاقتصادى مما كان دافعا للتقدم الصناعى .

فقد كان يصنع فى تاهرت وغيرها من المدن الملابس الصوفية والمنسوجات الصوفية التى كانت تستخرج من وبر الابل والماشية والتى كانت تعزل ثم يتم نسجها واستخدامها كملابس وأغطية وخيام وظهرت المنسوجات الكتانية وأوانى الفخار والخزف والطين والزجاج والاثاث المصنوع من الخشب وتطورت الحياة بصورة فائقة حيث أن معالم الحضارة كانت اسلامية بحتة لكن ظهرت عليها ملامح بربرية وفارسية وعربية وبيزنطية وأندلسية طبعتها حضارة الاسلام بالطابع الاسلامى الخاص .

بل أكثر من ذلك فان ظهور امارة تاهرت بهذه الصورة الحضارية والعمرانية والاقتصادية والدور الذى لعبه آل رستم من الولاه الذين تولوا ادارة شئون هذه الامارة كانت دافعا قويا للتطور فى جميع المجالات المختلفة ومن ذلك فاننا نجد أن قيام عبد الرحمن بن رستم بتأسيس مدينة تاهرت عام ١٤٤هـ كان باعثا للقبائل العربية والبربرية من السكان للقيام بانشاء المبانى وانشاء المدن الجديدة وتخطيطها على أسس اسلامية أو محاولة تجديد المدن والمبانى القديمة التى كانت فى العصر الرومانى والفينيقى وايجاد وسائل حديثة للعيش داخل المدن بدلا من الضرب فى الصحراء من خلال السكنى فى الخيام المصنوعة من جلود الابل أو الصوف .

وقد أسست عدة مدن فيما عدا تاهرت من تلك المدن ومن أشهرها مدينة تنس التى ظهرت كمدينة حضارية راقية ومتطورة وفق أساليب العصر الذى أسست فيه وقد قام بتأسيسها فى ظل الحكم الاباضى جماعة من الاندلسيين الذين رحلوا الى تلك المنطقة عام ٢٩٢هـ حيث لعبت تلك المدينة دورها فى الازدهار العمرانى والحضارى وقامت بأثر فى التطور الثقافى والعلمى والادبى حيث كان الاندلسيون هم نواة سكان هذه المدينة وقد تميز الاندلسيون بما امتازوا به من نشاط عمرانى وعلمى واقتصادى ومن هنا برز اسم

تنس لكي تمارس دورها بجانب تاهرت العاصمة التى أدار فيها الاباضيون شئون امارتهم .

اضافة الى انه بجانب تاهرت ظهرت وهران كمدينة تساهم مع تنس وتاهرت بدور فى اثراء الحركة العمرانية والثقافية والحضارية وقد انشأ تلك المدينة بحارة من الاندلس كانوا قد رسوا فى ذلك المكان فى عصر آخر ولاة بنى رستم حيث تم انشاء تلك المدينة عام ٢٩٠هـ، حيث انه يذكر أن الذين قاموا ببناء هذه المدينة محمد بن أبى عون ومعه جماعة من الاندلسيين الذين كانوا يلجأون الى مرسى قرية صغيرة بجوار تلك الاراضى التى تم بناؤها بمواقفة قبيلتى تعزة وبنى مسنغن البربريتين وذلك عام ٢٩٠هـ .

اضافة الى أن ذلك العصر قد شهد قيام وانشاء عدة مدن أخرى فى عصر حكم أسرة بنى رستم الاباضية والتى منها مدينة غزة وسوق ابراهيم وأوزكى والغدير وزلاع وقصر الفلوس وغيرها من المدن التى لعبت كل مدينة منها دورها كمدينة تجارية أو صناعية أو زراعية ونشطت فيها الحياة وقامت بها المساجد التى كانت تعمل على نشر المذهب الاباضى وكان دورها يتمثل فى تعليم المذهب الاباضى والقاء المواعظ والدروس التى تدعو الى اعتناق ذلك المذهب، كما أن تلك المدن كانت تعقد بها الاسواق الدائمة والاسبوعية حيث كانت عوامل الرخاء الاقتصادى التى تعيشها الامارة حافزا قويا لزيادة ذلك النشاط فى ظل تمتع تلك الامارة بالاستقلال السياسى بعيدا عن سيطرة الاغالبة فى الشرق حيث تونس، وسيطرة الادارسة فى المغرب الاقصى حيث ظلت امارة تاهرت تمارس نفوذها وكيانها السياسى حتى قيام الدولة العبيدية الفاطمية عام ٢٩٦هـ باسقاط ذلك النظام الاباضى الخارجى وتخريب مدينة تاهرت .

وهكذا نجد أنفسنا للمرة الاولى أمام تجربة اقامة امامة أباضية خارجية فقد كان الخواج ينادون دائما بالدولة المثالية وكانوا يسمونها امامة لاخلافة، لان الخلافة الاموية والعباسية فى نظرهم غير شرعية لان المبدأ عندهم أن رسول الله ﷺ لايمكن أن يخلفه أحد

يقوم مقامه وانما تحتاج الامة من بين الصالحين من أفرادها اماما يقودها فى طريق العدل ويتولى تطبيق قواعد الشريعة الاسلامية وكانوا ينتقدون غيرهم من المسلمين لانهم ينشئون دولا تخالف من حيث التكوين والروح ما يقضى به الاسلام، وهكذا جاءت فرحتهم عندما أتيحت لواحد منهم وهو عبد الرحمن بن رستم الفرصة لينشئ دولة مستقلة على المبادئ الاباضية .

وتنسب الخارجية الاباضية الى عبد الله بن أباض اليمنى وكان ينادى بمذهب الاباضية الذى اتخذ صيته من اسمه والذى يعتبر من أقرب المذاهب الخارجية الى مذهب أهل السنة، وهكذا نرى كيف أن الاباضية وعلى رأسهم عبد الله بن أباض الخارجى فشل فى أن يحقق حلمه فى انشاء دوله أو امامة على المذهب الاباضى فى الشرق ولكن أحد تلاميذه وهو مسلمة بن سعيد ذهب الى المغرب وتبين أن هناك امكانية لانشاء واقامة دولة أباضية خارجة فى تلك البقاع البعيدة عن الخلافة العباسية أو الاموية، لان سلطان الدولة العباسية وولاتها الذين تعينهم الخلافة العباسية ويمثلونها فى تلك الديار لم يكن يتعدى نفوذها غرب مجرى نهر شلف حتى الوصول الى المحيط الاطلسى غربا ذلك لانه كما سبق القول فان تلك البلاد لم تكن هناك سلطة شرعية قائمة بها بل كانت بلادا لا يحكمها حاكم انما انفرد بحكمها حكام من البربر المستعربين أو العرب الذين قدموا مع الفتح الاول للمغرب والذين كانوا قد وصلوا الى هناك منذ فترة طويلة واستقروا بتلك الديار واندمجوا مع السكان وصاهروهم وتزوجوا منهم ومعنى هذا أن ذلك الجزء الغربى الممتد منها غرب نهر شلف كان يعانى فراغا سياسيا يتيح الفرصة لرجل طامح أو لجماعة من الافراد يجمعهم رباط واحد أو فكرة ومبدأ واحد ويدفعهم الحماس لانشاء دولة بعيدة عن متناول خلفاء بنى العباس أو ولاتهم .

كذلك فانه من المعروف انه فى خلال تلك الحقبة التاريخية التى شهدت قيام الدولة

العباسية فانه لم يكن لخلفاء بنى العباس أو ولاتهم أدنى نفوذ على جبال نفوسة وهى تلك المنطقة الجبلية الواسعة التى تقع الى الجنوب من طرابلس، وكان جبل نفوسة جبلا واسعا حصينا وعر المسالك كثير الزروع فظهرت فيه جماعة من الخوارج الاباضية .

وقد تحدثنا عن الصراع بين الخوارج والدولة العباسية فى خروج عبد الرحمن بن رستم ومن معه من الخوارج الاباضية واتجهوا غربا ووصلوا غربا بعد أن عبروا نهر شلف حيث منطقة جبلية تقع الى الجنوب من الجزائر الحالية وتمركزوا هناك عند بلدة حصينة وسط الجبال تسمى تاهرت، ووجدوا انه لايوجد هناك نظام حكم قائم ولا سلطة قوية تقف عقبة فى سبيل اقامة كيان سياسى لهم، انما كانت تسكن تلك المنطقة بعض القبائل البربرية التى أسلمت منذ فترة وتعيش هناك عيشتها الطليقة الحرة ولا تخضع لادنى سلطان أو دولة ورغم تلك العيشة فان تلك القبائل كانت حسنة الاسلام متمسكة بتعاليم الاسلام، بكل ما فيها من قيم ومبادئ ومثل وعدالة لكنها فى ظل تلك الحالة فانها كانت فى أمس الحاجة الى من يوجد صفوفها ويجمعها على رباط واحد وكلمة واحدة ويقيم نظاما سياسيا مستقلا عن طاعة الخلافة العباسية البعيدة فى بغداد أو واليها فى القيروان .

فما كان من عبد الرحمن بن رستم الا أن فكر وصحبه بعد هزيمة طرابلس وانسحابة غربا فى أن يقيم دولة على نهج المبدأ الخارجى الاباضى، وان تقوم دولة الامامة الخارجية الاباضية التى طالما حلم الاباضية باقامة كيان سياسى لهم ومستقل عن الخلافة العباسية، ومن ثم بدأ عبد الرحمن وتلاميذه ورجاله وبقية أفراد جيشه على الدعوة لنشر المذهب الاباضى فى هذه النواحى وبذلك تكونت كتلة خارجية تستطيع أن تحمل عبء الدولة وبالفعل أخذ عبد الرحمن يضع القواعد الاساسية واللبنات الاولى لاقامة دولته الرستمية على المبادئ الاباضية .

وكان اختيار عبد الرحمن بن رستم لموقع تاهرت اختيارا سليما لان هذه البلدة كانت تقع وسط الجبال فلا يمكن الوصول اليها من ناحية الغرب أو الشرق بسهولة فكانت حصينة من الناحيتين وآمنة من أى غزو من هذه النواحى ثم أن المدخل اليها من الجنوب كان سهلا أى أن الطريق بينها وبين الصحراء كان مفتوحا يمكن لاهل المدينة من الاتصال بزملائهم الاباضية الذين يسكنون جبال نفوسة وطلب النجدة من القبائل الصحراوية الكثيرة التى كانت تتخذ هذه الجبال مواطن لها .

وكانت تاهرت فى ذلك الوقت عبارة عن قرية صغيرة لكن عبد الرحمن كان فى حاجة الى حصن كبير فصعد الجبل فوق تاهرت القديمة حتى وجد منفسحا من الارض وافر الحياة وأخذ ينشئ مدينة جيدة هى مدينة تاهرت الجديدة وبناها على ضفة نهر غزير المياه وحصنها بأسوار عالية وأنشأ فيها مسجدا جامعا وأقام الامامة الاباضية. والتى هى جماعة اسلامية تحكم بناء على المبادئ الاباضية وتجمعها روح الاخوة الاسلامية والمساواة التامة بين أفراد الجماعة والنفس ورعاية حقوق الله والمؤمنين .

أئمة بنى رستم حكام تاهرت :

كان عبد الرحمن بن رستم أول أئمة ولاية تاهرت الاباضية الخارجية من أهل فارس كما تقول المصادر، فقد كان أبوه «يهرام» من موالى عثمان ابن عفان، وقد نشأ نشأة عربية أصيلة واسلامية، فدرس فى البصرة وهناك أخذ المبادئ الاباضية على يد كبار الائمة ثم انضم الى أبى الخطاب بن عبد الاعلى السمح المعافرى وانتهى به الامر الى المغرب حيث أصبح الدراع الايمن لابى الخطاب، وبعد مقتل أبى الخطاب بن عبد الاعلى على يد محمد ابن الاشعث أصبح عبد الرحمن هو الامام المعترف به للاباضيين فى المغرب وقد تولى عبد الرحمن الامامة والرياسة فى الفترة من ١٤٤- ١٦٨هـ وبويع بالامارة والامامة

وقد دامت فترة امامته أربعة وعشرين عاما مما ساعده على وضع دعائم الدولة الاباضية وكان عبد الرحمن رجلا شعبيا متواضعا يجلس للناس فى المسجد وكما يقول عنه ابن الصغير وسيرته واحدة وقضاته ممتازة وبيوت أمواله ممتلئة وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب .

وكان رؤساء القبائل وشيوخ الاباضية هم الذين انتخبوا عبد الرحمن بن رستم للامامة وفق مفهوم المذهب الاباضى .

وقد راع الذين اختاروه أربعة أسس اختاروا على أساسها امامهم وهى الفضل ويراد به العدالة وهى عند الاباضية جماع صفات الكمال الاخلاقى من حيث سلامة الاعتقاد وصحة الجوارح ونزاهة النفس كما كان بضاف الى ميزة الفضل جانب العلم بالاسلام ككل والتعاليم والمذهب الاباضى، حيث أن العلم الكامل بالاسلام وعلومه شرط أساسى من شروط الامامة عند الاباضية ويعرفونه بانه العلم الذى يوصل الى معلمه الجماعة فى الدينا وسعادتها فى الآخرة .

كما انهم راعوا فى الامام الذى اختاروه الا يكون من عصبية تؤيده بحيث لايعتمد على تلك القبيلة أو العصبية فى فرض سلطانه على الناس وكان اختيار الامام على هذه الاسس لابد أن يتم على أساس مبدأ الشورى، أى حرية الرأى والاختيار فاذا توفى الامام أو حدثت أسباب تحول دون استمراره فى الامامة فان شيوخ الامامة الاباضية يرشحون نفرا منهم ويكون عدد الذين يتم ترشيحهم سته أشخاص ثم يجتمع هؤلاء الستة فيما بينهم لكى يختاروا واحدا منهم اماما والجماعة ليست مقيدة بأهل الشورى الذين يختارهم الامير السابق ولا هى ملزمة باختيار من أوصى به الامام السابق .

كذلك فان الوصية التى يراد بها ايصاء الامام القائم لمن يخلفه ولا تكون هذه الوصية فرضا ملزما للاتباع وانما هى توصية وقد قلد الاباضية فى ذلك مافعله أبو بكر

الصديق قبل موته عندما أوصى لعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما، ولكن الاباضية كانوا أميل لاتباع ما فعله عمر بن الخطاب من اختيار ستة من كبار الصحابة يسمون أهل الشورى، وكان عليه أن يستشيرهم فى كل مايهم الامارة من الشئون فاذا مات لامام كان على الستة أن يجتمعوا ليختاروا من بينهم الامام الجديد .

وهكذا كانت دولة الاباضية الخارجية الرستمية أول تجربة سياسية جديدة فى تاريخ المغرب والاسلام وهى أول تجربة يمكن أن نطلق عليها أول نظام جمهورى فى تاريخ الاسلام، لقد حاول الاباضية قبل ذلك اقامة دولة أباضية فى عمان لكن الامر لم يجر على الطريقة والتجربة الدقيقة المذهبية التى جرى بها اختيار عبد الرحمن بن رستم وأصحابه حيث كان قد تم اختيار عبد الرحمن بن رستم اماما للجماعة الاباضية وفق هذه الاسس وسار فى الناس بالعدل والاخوة والمساواة والمحبة وأقام شرع الله بين خلق الله واهتم كثيرا بشئون الدين ولاسيما نشر المذهب الاباضى الا أن عبد الرحمن بن رستم كان رجلا متدينا صادقا، بل كان يمتاز بالورع والتقوى وكان اضافة الى كل هذه الصفات واسع العلم وقام بحماية جماعته واشاعة العدل بين الرعية ومن هنا كان نجاح هذه السياسة وشيوع سمعته بين القبائل البربرية والجماعات الخارجية من الاسباب القوية التى دفعت القبائل والناس بالتوافد على تاهرت من كل ناحية فكبرت تلك الامارة وعظم أمرها ونشأت فيها جاليات كبيرة من المهاجرين اليها .

وكان كل جالية من هذه الجاليات حى حاص بها من أحياء المدينة فهناك حى المصريين، وحى القيروانيين وحى البصريين، وحى الكوفيين وحى الاندلسيين وغيرها من الاحياء المختلفة التى كانت تعيش فيها كل جالية، ولكنهم كانوا جميعا يعيشون فى أمن وأمان واطمئنان ويعملون فى ظل حكم عبد الرحمن بن رستم العادل الذى كان فى الحق اماما وقائدا صالحا يتميز بسمعة العلم والحلم وعمق الايمان اضافة الى الشجاعة ومن هنا

نجحت تجربته فى اقامة دولة أباضية فى المغرب الأوسط .

وقد كانت فترة حكمه من ١٤٤هـ/ ٧٦٠م- ١٦٨هـ/ ٧٨٤م، وكان أوصى قبل موته بأن يختار خلفه ستة من شيوخ المذهب والجماعة عينهم بأسمائهم وأضاف من بينهم ابنه عبد الوهاب، وبعد مناقشات طويلة بين أفراد هذه الجماعة الستة اتفقوا فيما بينمهم على أن يتم الاختيار فيما بينهم عبد الرهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ومسعود الاندلسى، لكن مسعود الاندلسى فضل أن تكون الامامة فى ابن أستاذه عبد الرحمن، حسما للخلاف والنزاع بين القبائل ومن ذلك تم تعيين عبد الوهاب بن عبد الرحمن اماما وواليا على امارة تاهرت .

ويعتبر عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن يهرام بن رستم الوالى والامام الثانى فى الدولة الرستمية الاباضية الخارجية وتولى الامامة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م- ١٨٨هـ/ ٨٠٠م .

وقد بويع الامام عبد الوهاب بعد وفاة أبيه عبد الرحمن مباشرة ووقعت فتن فى عهده تمكن من اخمادها حيث انه كان من الطبيعى أن يشق فريق من الاباضية على الامام الجديد منكرا عليه الوصول الى الامامة عن طريق الوراثة حيث أن مبدأ الوراثة لم يكن واردا فى مذهب الاباضية، ومن هنا نشأت فى تاهرت فرقة جديدة أطلق عليها الفرقة «النكارية» أى الذين ينكرون ويرفضون الأخذ بمبدأ امامة وولاية عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، كذلك نشأت فرقة جديدة تسمى الوهبية أى أنصار عبد الوهاب، ومن هنا قام الصراع التقليدى على الحكم بين الوهبية والنكارية، حيث ان هذا الصراع لم يطل طويلا حيث انتهى الامر بمقتل قائد النكارية على يد أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وهكذا سالت الدماء بين هؤلاء الاباضية لكن الامام عبد الوهاب تمكن بما له من خصائص الدماء واللين والسياسة من اخماد هذه الفتنة ومن هنا انتهى النزاع بين مسألة وراثة الحكم، ولكن ذلك لم ينه أمر النكارية بعد مقتل قائدهم لكن انهزامهم

قد أدى الى تفرقهم بين القبائل الاخرى لنشر دعوتهم والمحافظة على التعاليم الاباضية ورفض فكرة وراثة الامامة، ومن هنا بقيت منهم جماعات متفرقة بين القبائل ومن بين هؤلاء سيظهر «أبو زيد ابن مخلد بن كيداد» الثائر الاباضى النكارى الذى ثار على خلافة الفاطميين فى المغرب .

وقد تحدث ابن الصغير عن الامام عبد الوهاب الذى حكم عشرين عاما متواصلة خلفا لوالده عبد الرحمن فقال عنه كان ملكا ضخما وسلطانا قاهرا استطاع القضاء على كل الثورات والفتن التى حدثت فى عهده واجتمع له من أمراء الاباضية وغيرهم ما لم يجتمع لاباضى قبله ودان له ما لم يدن لغيره من الامراء والائمة وبعد وفاة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن يهرام بن رستم فان الامامة آلت الى ابنه الاكبر أفلح الذى كان قد استطاع أن يقتل زعيم النكارية فى عهد أبيه. وقد حكم أفلح ابن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن يهرام بن رستم خمسين عاما بدأ من عام (١٨٨– ٢٣٨هـ) وقد بويع بالامامة والولاية وأخذت البيعة والوصية له فى عهد أبيه عبد الوهاب، وقد كان صاحب نفوذ قوى لدى رجال الامارة بل كان قائدا للجيش وقد عاشت مدينة تاهرت فى أيامه أياما هادئة مزدهرة، وسارت الامور فى دولة الاباضية فى تاهرت ومن كانوا يؤيدونهم من أباضية فى جبل نفوسة، سيرا وسطا بين الالتزام بمبادئ المذهب والانحراف عنه حيث كان مبدأ توريث الامامة من أكبر الانحرافات فى المذهب الاباضى، وقد وقعت حروب كثيرة بينهم بسبب الأخذ بمبدأ توريث الولاية والامامة، وقد حدثت أكبر الثورات التى استمرت سبع سنوات فى عهد أفلح بالاضافة الى أن عهده شهد ثورة أخرى لكنه تمكن من أخماد كل هذه الثورات .

لكن اخماد هذه الثورات قد أدى الى حدوث انقسامات وتفرع الفرقة الاباضية الى عدة فروع وخاصة بين أباضية تاهرت الذين أخذوابمذهب توريث الامامة وبن أباضية جبل

نفوسة جنوب طرابلس الذين كانوا يرفضون مبدأ توريث الامارة والامامة، وخرجوا عن طاعة الدولة الرستميه وأقاموا على أنفسهم واليا واماما من انفسهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والنكارية لكنه بعد فترة ليست بطويلة طبق أباضية جبل نفوسة مبدأ وراثة الامامة والامارة أيضا وقد لقى أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن عنتا شديدا ومضايقة من الاباضية .

الخوارج ودورهم فى المغرب :

كان كثيرا من العرب قد انتقلوا الى بلاد المغرب وهم الذين وفدوا اثناء الفتح الاسلامى لهذه البلاد وكان من بين الذين قدموا الى بلاد المغرب لنشر آرائهم ومبادئهم الخوارج والذين قد حظى المغرب الاوسط وطرابلس وجبل نفوسة بأعداد كبيرة من هؤلاء الخوارج وكان مسرحا للدعوة الاباضية ومن هنا كان المغرب الاوسط بالنسبة لعبد الرحمن ابن رستم مؤسس الدولة الرستمية من اكثر الاماكن آمنا لتأسيس دولة أباضية وقد ظل العرب يمثلون طبقة معروفة لدى الجميع فى الدولة، كما كان الفرس (العجم) من الجماعات التى قدمت الى بلاد المغرب مع القوات الاسلامية الفاتحة وكان لهم دور كبير فى أحداث الدولة الرستمية لما قاموا به من دور فعال فى مساعدة الدعوة الاباضية ولاسيما بعد أن كثر فرار الخوارج من الشرق والعراق ومصر وبلاد الجزيرة العربية وعمان الى المغرب الاوسط وسائر اقسام المغرب وذلك هربا بأنفسهم وأفكارهم من بطش وظلم الامويين وبعدهم العباسيين حيث وجدوا فى بلاد المغرب متنفسا طبيعيا لنشر آرائهم ومبادئهم ومن هنا قاموا ينشرون أفكارهم الاسلامية وتعاليمهم القائمة على المساواة بين المسلمين والدعوة للثورة ضد الظلم الواقع على الرعية من الولاه والخلفاء. وقد وجد هؤلاء الدعاة استجابة رائعة من جانب البربر من هنا نجحوا فى تغيير أفكار البربر واستمالوهم الى جانبهم السياسى والدينى .

وكانت الفرق الخارجية التى قدر لها الانتشار فى بلاد المغرب هى الفرق الاباضية والصفرية وكانت الفرق الاخرى مثل الازارقة قد تهاوت فى الشرق تحت ضربات تحت ضربات الامويين العنيفة، وقد استطاعت هذه الفرق أن تجد لها قبولا فى بعض المناطق فنجد أن الصفرية قد انتشرت بين بربر القسم الجنوبى من المغرب الاقصى فى المناطق الجبلية الممتدة من السوس الادنى الى جبال درن حيث قامت دولة بنى مدرار فى سجلماسة على أساس المذهب الصفرى واستطاعت أن تعمر فى تلك المنطقة بفترة ثلاثة قرون متواصلة، بينما اعتنق بربر المغرب الاوسط وهو القسم الشمالى من المغرب العربى المذهب الاباضى .

والى جانب الصفرية والاباضية فانه ظهرت هناك أفكار متطرفة لدعاة من البربر يدعون الى اقامة دولة بربرية عمادها وركيزتها الاولى الدين الاسلامى وقومها من البربر وظهرت تلك الآراء فى امارة براغوطة عند رجل بربرى يدعى صالح بن طريف الذى سمى صالح المؤمن .

وقد استخدم الخوارج الكثير من الحيل والتحايل والاساليب فى النفاذ بدعوتهم الى قلوب البربر وقد ساعدت تلك الطرق على نشر دعوة الخوارج على نطاق واسع ذلك لان دعاة الخوارج من أباضية وصفرية عندما كانوا يدعون لافكارهم ومذاهبهم فى بلاد المغرب فانهم حرصوا كل الحرص على عدم التعرض لذكر أى مذهب من المذاهب وانما ينشرون دعوتهم الاباضية أو الصفرية تحت شعار المناداة بتصحيح المسار الاسلامى والدعوة للاصلاح والسير على نهج الكتاب والسنة والعمل على تطبيقها بين الرعية ومن هنا استطاع الدعاة الاوائل الخوارج أن ينجحوا فى تغيير الوضع فى بلاد المغرب فى صورة ثورات متتالية حيث أخذ سكان المغرب يعتمدون على أنفسهم فى حل مشاكلهم ومعالجة أوضاعهم السياسية والاجتماعية والدينية فى اطار مغربى وبذلك وضحت شخصية المغرب

وضوحا تاما .

وأما المغرب الاوسط فقد ظل مسرحا للصراع الدامى بين قوات الخلافة العباسية التى تحاول استرداده وبسط نفوذها على أرضه بكل الوسائل وبين ثوار البربر على اختلاف مذاهبهم الصفرية والاباضية .

ولقد دخلت ظاهرة الثورات فى بلاد المغرب طورا جديدا من تاريخها عندما أخذت تنتقل مقاليد القيادة من أيدى الصفرية الذين قدموا من شمال المغرب الاقصى الى المغرب الاوسط الى أيدى الخوارج الاباضية بعد أن ضاق سكان تلك المناطق ذرعا بعنف التعاليم الصفرية وتشددها فى تنفيذ مبادئها .

وكانت قد ظهرت بوادر قوة الاباضية عندما عين عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أخاه الياس بن حبيب واليا على طرابلس احساسا منه بخطر الاباضية بعد أن بايعوا «عبد الله بن مسعود» رئيس الاباضية فى طرابلس اماما عليهم، فما كان من الياس بن حبيب الا ان قتل عبد الله بن مسعود، وكان لهذا التصرف من جانب الياس عواقب وخيمة اذ ثار الاباضية وأخذوا يحتشدون للثورة وحاول عبد الرحمن بن حبيب تهدئة الأحوال فعزل أخاه الياس عن طرابلس، لكن ذلك لم يحل دون قيام ثورة الاباضية بقيادة امامهم الجديد «الحارث بن تليد الحضرمى» واستطاع هذا الزعيم الاباضى ومن حوله من الاباضية احراز النصر على قوات عبد الرحمن الا ان عبد الرحمن تمكن فى النهاية من قتلة، وعلى هذا فقد ولى الاباضية بعد ذلك اماما عليهم هو «أسماعيل بن زيادة النفوس» لكنه قتل على يد عبد الرحمن بن حبيب، لكن ذلك لا يمنع من قيام الثورات وتكرارها حيث كان أكثر القائميين بها من بقايا الصفرية وقد استفاد دعاة الاباضية من ظروف الانقسام السياسى والعائلى الذى حدث بين أسرة حبيب الفهرى، والاحوال المضطربة داخل الامارة ومن هنا باشروا نشاطهم بهمة عالية ونشروا مذهبهم على نطاق واسع وساعدهم على ذلك

أن كثيرا من دعاة البربر رفضوا سلوك الصفرية لا سيما لما فعلوه من أفعال فى مسجد القيروان وأهل المدينة ولم يرضوا عن التطرف الشديد الذى سلكوه فقد كانت ثورات البربر شرا على البربر ومصالحهم الاقتصادية والاجتماعية لاسيما بعد أن استولت قبيلة «ورفجومة» على القيروان بقيادة «عصام ابن جميل» حيث كان ذلك الرجل قد ادعى النبوة والكهانة وقام بأعمال لاترضى المسلمين حيث زاد فى الصلاة وأسقط ذكر النبى محمد ﷺ وزادت فظائع الصفرية فى القيروان فأستحلت «ورفجومة» المحرمات وسبوا النساء والصبيان وربطوا دوابهم فى مسجد القيروان الجامع وافسدوا فيه .

وقد استغل الخوارج دعاة الاباضية فى التقليل من شأن الصفرية واستنكارهم لهذه الافعال، حيث كانوا هم أقرب الى أهل السنة والجماعة وأصبحوا هم القوة السياسية الوحيدة فى تلك المنطقة والتى يمكن لاهل القيروان وغيرهم من البربر أن يستعينوا بهم فى نصرهم على الصفرية ومفاسدهم بعد أن قضى الصفرية على القوة العربية المتمثلة فى آل «حبيب الفهرى» .

وقد ساعدت الظروف هؤلاء الاباضية فى اعادة تنظيم صفوفهم من جديد لاسيما بعد أن تصدار للقيادة رجال العلم والمعرفة والدين الذين كانوا قد قدموا من البصرة بالعراق بعد أن تلقوا التعاليم الاباضية على يد داعية الاباضية الاكبر «أبو عبيدة بن أبى مسلم بن أبى سريمة» .

ولقد انتهز الاباضية تلك الفرصة الذهبية لكى يبسطوا نفوذهم وفى ذلك يقول الشماخى فى كتابه السير، أن رجال الاباضية تشاوروا فيما بينهم فى موقع يقع غرب مدينة طرابلس واستقر رأيهم على تولية «أبى الخطاب ابن عبد الاعلى المعافرى» اماما لهم. وقد اتجه أبو الخطاب المعافرى بعد مبايعته الى طرابلس فاستولى عليها وطرد عاملها عام ١٤٠هـ/ ٧٥٧م واتخذها مقرا له وما أن انتهى من تنظيم شئونها حتى وصلته أنباء

الفظائع التى ترتكبها قبيلة ورفجومة فى القيروان وسمع ما فعلوه بالقيروان وخرج أبو الخطاب لتحرير القيروان من فساد الصفرية فالتقى كما يقول البكرى بالصفرية فى موقع يقال له «رقادة» قرب القيروان وقد أطلق اسم رقادة على ذلك المكان لكثرة جثث القتلى ورقادها بعضها فوق بعض وهناك دارت معركة عنيفة أسفرت عن انهزام الصفرية أمام قوات أبى الخطاب والاباضية الذى دخل القيروان عام (١٤١هـ/ ٧٥٨م) ونظم شئونها وولى عليها شخصية من أبرز الشخصيات الاباضية من ذوى العلم والدين والورع هو عبد الرحمن بن رستم هذه الشخصية التى تألق نجمها فى سماء بلاد المغرب وفى الافق السياسى الاسلامى على مستوى الامة الاسلامية منذ ذلك الوقت ولعب دورا بارزا ومؤثرا وفعالا حيث حمل لواء الفكر السياسى الاباضى والدينى والاجتماعى والاقتصادى فى المغرب الاوسط ومناطق كثيرة من أرجاء المغرب الواسعة ونقل هذا الفكر الاباضى من مرحلة الدعوة والنظريات الى مرحلة التطبيق والتنفيذ فى اطار بناء أكبر دولة فى المغرب العربى فى ذلك الوقت .

وهكذا نرى فيما رشحت الاباضية عبد الرحمن بن رستم لتوليه شئون القيروان كانت الخلافة العباسية تدلى بدلوها فى توجيه تلك الاحداث بارسال قوات كما سبق القول لتوجيه ضربة قوية للاباضية بقوات يبلغ تعدادها خمسين ألف جندى منهم أهل خرسان ثلاثين ألف وعشرة آلاف من أهل الشام ويبدو أن هذا الجيش قد بلغ خمسين ألفا من الجنود حين خروجه من مصر وكان عليهم ثمانية وعشرون قائدا منهم الاغلب بن سالم التميمى. ومضى ابن الاشعث والى مصر الى قتال الاباضية واستعد أبو الخطاب المعافرى رئيس الاباضية لملاقاة هذه القوات باستدعاء عبد الرحمن بن رستم من القيروان .

وهنا نالت الاباضية ضربة حيث تذكر المصادر العربية الاسلامية (ابن الاثير، ابن عذارى المراكشى، النويرى) أن خلافا كبيرا دب بين جماعات الاباضية حيث تنازعت

زناتة وهوارة حيث فارقت زناتة أرض المعركة ومن هنا فقد أدى انسحاب قوات أكبر القبائل «زناتة» من ميدان المعركة إلى ضعف جبهة الاباضية وعلى هذا دارت المعركة بين أبى الخطاب وابن الاشعث واقتتلوا قتالا شديدا هزمت فيه الاباضية وانتهت المعركة بمقتل أبى الخطاب المعافرى عام ١٤٤هـ/ ٧٦١م (الشماخى، اليسر ص ١٣٢) المؤرخ الاباضى لايروى شيئا عن هذا الخلاف بين زناتة وهوارة وانما يذكر أن انصراف الجموع الزناتية عدا أبى الخطاب بسبب خدعة حربية أحكمها ابن الاشعث حول الاباضية حيث تظاهر بالعودة إلى مصر فتفرق الناس ومنهم زناتة فدهم ابن الاشعث الاباضية وزعيمهم أبا الخطاب وهم على هذه الحالة فهزمهم عند بلدة «تورى» .

وبينما كان عبد الرحمن بن رستم فى طريقه للانضمام لصفوف قوات الاباضية وصلته أنباء الكارثة التى حلت باخوانه فى المذهب الدينى فقرر العودة والانسحاب الى المغرب الاوسط تاركا القيروان التى وصلها محمد بن الاشعث فى جمادى الاول عام ١٤٤هـ/ ٧٦١م. وكان عبد الرحمن بن رستم بعد طول دراسة قد رأى بعين البصيرة أن توطيد دعائم دولة أباضية فى منطقة يسود فيها المذهب السنى «الحنفى والمالكى» وتقاتل فيها وعنها جيوش الخلافة العباسية بضراوة شديدة أمر غير محمود العواقب ولا يمكن أن يكتب له النجاح، ومن ثم كان المغرب الاوسط هو المكان الطبيعى الذى يجب أن تتجه اليه أنظار الاباضية لاقامة دولة حيث تساعد ظروفه الطبيعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية على اقامة الدولة الاباضية .

المذهب الاباضى والفكر السياسى

كان جماعة الاباضية هم أتباع عبد الله بن أباض المرى التميمى الذى كان اماما عقائديا وفكريا لاصل المذهب أو الطريقة ورئيسا لاباضية البصرة بالعراق وغيرها من الاقطار

المختلفة فى العالم الاسلامى ويمثل المذهب الاباضى آخر تطورات الفكر الاباضى، لان فرق الخوارج الاخرى كالازارقة، الصفرية، العجاردة، النجدات، العاذرية وآراؤها السياسية والدينية كانت قد أخذت تلفظها الناس وتخرج من صفوفها نظرا لتشددها وتطرف آرائها ودعاتها فى الامور الدينية وأخذ بعض المسلمين يتجهون إلى الفرقة الخارجية الاباضية لانها كانت أكثر اعتدالا وقبولا من عامة الشعب وهكذا اتخذت مدينة البصرة مركزا دينيا واشعاعا فكريا لهذه الحركة وذلك بعد أن تضامن أهل هذه المدينة مع الاباضية وأخرجوا منها كل متطرف مثل نافع بن الازرق ولم يبق بالمدينة غير ابن أباض وابن الصفار وانهار فريق الصفرية، بينما بقى فريق الاباضية المعتدل يمارس نشاطه ويتابع نشر أفكاره ومبادئه والتى منها انهم كانوا يمون صحة مناكحة المخالفين من المسلمين والتوارث معهم وأن دار مخالفيهم من أهل الاسلام ودار توحيد الا معسكر الخليفة أو السلطان، فانها دار بغى، ويقبلون شهادة مخالفيهم فى الفكرة والمذهب، وقالوا أن أفعال العبادة مخلوقة لله احداثا وابداعا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازا ولا يسمون امامهم (أمير المؤمنين) ولا يسمون مهاجرين ولا يحبذون قتال مخالفيهم الا بعد دعوتهم للمذهب .

ولهذا سار المذهب الاباضى فى خطى وطيدة ومضطردة نحو تحقيق الاهداف التى رسموها لانفسهم وهى اقامة دولة لاسيما بعد أن نادى عبد الله ابن أباض الى مزيد من التسامح مع المخالفين وهكذا تتضح معالم الفكر الاباضى والمبادئ التى نادى بها شيوخه فيما ذكره «البغدادى» فى كتابه «الفرق بين الفرق» وكذلك الشهرستانى فى كتابه «الملل والنحل» فالاباضية اعتبروا مخالفيهم من المذاهب الاخرى فى الامة الاسلامية ليسوا مؤمنين ولا مشركين وانما هم كفار بالتعميم ولذلك أجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم فى السر واستحلوها فى العلانية وقرروا استحلال بعض أموالهم والتى منها من هم فى أشد الحاجة اليه وهى الخيل والسلاح فى حالة الحرب وان أرضهم ليست أرض أعداء انما هى

وطن للجميع من الخوارج وغير الخوارج، كما اعتبر علماء الاباضية مرتكبى الكبائر وجيمع المقصرين فى الشئون الدينية موحدين لا مؤمنين وقد كان هذا التمييز حدثا هاما فى فكرة الحركة الاباضية بعكس الازارقة والصفرية .

ومن هنا فتحت الحركة الاباضية الباب على مصراعيه لمعاشرة هؤلاء المخالفين لهم فى المذهب والاشتراك معهم فى الحياة العامه ومن هنا اكتسبت الحركة الاباضية فكرة عامة لدى الشعب بأنها فكرة مسالمة الى أقصى حد وأصبح مذهبها أقرب المذاهب الخارجية الى مذهب أهل السنة (سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى) .

ورغم كل ما نادت به الحركة الاباضية من فكر دينى وسياسى واجتماعى واقتصادى فقد لقيت الكثير من الاضطهاد والظلم والعنت والتشدد والابادة المستمرة من جانب الدولة الاموية فى أواخر القرن الاول الهجرى لاسيما على يد الحجاج بن يوسف الثقفى الذى نكل بقيادتها وشيوخها وأئمتها، مما جعل امام الاباضية المعاصر له فى ذلك الوقت وهو الامام «أبا عبيدة مسلم بن أبى كريمة» يفكر فى تلك الاحوال التى تحيط به وبمذهبه ان ينقل الفكر الاباضى وبعضا من رجاله إلى أطراف الدولة الاسلامية وبصفة خاصة بلاد المغرب حيث بعدها عن مركز الخلافة فى المشرق ومن هنا وقع اختياره على شخصية من أبرز رجاله والمقربين اليه والمتمسكين بالمذهب الاباضى أشد التمسك وهو الامام (مسلمة بن سعيد) وقد كان ذلك الاختيار ينم عن ذكاء أبى عبيدة، فالمغرب العربى بعيدا عن دمشق كما أن مسلمة بن سعيد من أنشط تلاميذه وأقدر لتنفيذ تلك المهمة .

ولقد كان اختيار المغرب العربى مجالا للدعوة الاباضية مما يهئ لدعوة الامن والامان من ضربات الحكومة المركزية فى دمشق أو بغداد كما أن أرض المغرب فى نظر الاباضية لا زالت أرضا بكرا تستطيع أفكارهم أن تجد تأييدا أو تفهما لدى شعب البربر ومن هنا تصل

تلك الافكار إلى قلوب البربر الذين كانوا لايزالون حديثى عهد الاسلام، وأمام كل هذه الظروف نجحت الدعوة الاباضية فى بلاد المغرب نجاحا لم يكن متوقعا وحققت انتصارا تجاوز كل الحسابات [١] .

ولقد كان ذلك النجاح عاملا قويا فى جعل البربر يتجهون الى التعمق فى دراسة المذهب من أصوله الشرعبية فى بلاد العراق حيث البصرة مركز الدعوة الأول ومقر كبار علماء المذهب الاباضى ومن هنا كان العمل الواسع والسريع لنشر المذهب الاباضى على نطاق واسع فى بلاد المغرب يقتضى ضرورة ارسال بعض التلاميذ النابهين من أبناء الاباضية فى رحلة علمية إلى البصرة للدراسة مباشرة وتلقى التعاليم على أيدى أصحاب المذهب حيث سيكون لهؤلاء التلاميذ عند عودتهم دور كبير فى ازدياد نشاط الفكر الحقيقى الاباضى الذي يتهل العلم من المنبع ثم يعودون إلى المغرب لكى يقوموا بالتطبيق العلمى والواقعى لمبادئ الفكر الاباضى فى تلك الانحاء ومن ثم كانت الفترة التى قضاها الداعى الاباضى «مسلمة بن سعيد» الذى أرسله أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة» قد أتت ثمارها المرجوة فى اعداد بعثه من الدعاة أعدت اعدادا خاصا لكى تكون أمامهم أكبر فرصة للدرس والتحصيل على أمام المذهب فى ذلك الوقت وخليفة عبد الله بن أباض، أبى كريمة .

ووقع الاختيار على أربعة طلاب هم من نابهى تدريس مسلم بن سعيد وهم عبد الرحمن بن مسلم، عاصم السدراتى، اسماعيل بن درار الغدامسى، أبو داود التغراوى [٢] .

وكان على مسلمة بن سعيد أن يكون اختيار هؤلاء المبعوثين بحيث يمثلون توزيعا جغرافيا يكونون فيه من أماكن متفرقة وبعيدة حتى تتاح الفرصة أمامهم لكى يعود كل

(١) عبد العزيز السيد سالم: المغرب الكبير، ص ٢٣٥ .

(٢) الدرجيبى: طبقات الاباضية، ورقة ٤ ب .

مبعوث إلى قبيلته لكى يكون اكثر فعالية من غيره فى الدعوة للمذهب الاباضى. ولكى تكون فرصة واسعة لانتشار المذهب فى أكبر مساحة ممكنة من بلاد المغرب بعد عودتهم، وتم اختيار عبد الرحمن بن رستم من مدينة القيروان لكى يعود اليها بعد انتهاء دراسته وكذلك كان اختيار عاصم السدرانى من مدينة وقبيلة سهراتة، من غرب المغرب الاوسط، أما داود النفراوى فقد كان ينتمى إلى قبيلة نفراوة فى جنوب تونس (افريقية) أما اسماعيل بن ضرار الغدامسى فهو من مدينة غدامس التى تقع جنوب طرابلس [٣] .

ونجد أن وصول هؤلاء الطلاب الاربعة إلى البصرة مركز الدعوة للمذهب الاباضى وانضم إلى صفوفهم بعد أن عاشرهم وزاملهم أحد أخوانهم فى المذهب حيث كان من العاملين للدعوة الاباضية فى اليمن وحضرموت مؤسس وهو الداعية أبو الخطاب عبد الاعلى ابن السمح المعافرى، واستمرت تلك البعثة العلمية فى الدراسة والبحث والتحصيل والمناقشة والفهم لاصول ومبادئ وأسس المذهب الاباضى طوال خمس سنوات قضوها فى استماع ودراسة وافية وعندما حصل كل منهم على الاجازة المطلوبة التى تؤهله للتدريس عادوا إلى المغرب [٤] كما قاموا باعطاء صورة كاملة عن أحوال المغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعد دراستها مع أستاذهم أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة وتدارسوا معه الطرق الممكنة لاقامة دولة أباضية فى المغرب الاوسط .

وانتهت تلك الدراسه ثم قام الامام «أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة» وتلاميذه الاربعة بترشيح أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى لكى يكون اماما لهذه الدولة المنتظرة أن تظهر فى سماء المغرب العربى. وهكذا أصبح حملة لواء العلم والفكر الاباضى بعد عودتهم من البصرة إلى بلاد المغرب يمثلون الطلائع الاولى المثقفة ثقافة اسلامية

(٣) محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير جـ ٣ ص ١٨٨ .

(٤) الشماخى: السيرة. ص ١٢٤.

أباضية والذين تتعلق عليهم الآمال فى نشر لواء الاباضية فى أطراف المغرب، بل انهم غدوا رابطة الصلة التى تربط بين المغرب العربى والمشرق العربى والفاصل المشترك بين التيارات الفكرية السائدة بينهما .

وهكذا نرى كيف عاد الجميع وامامهم أبو الخطاب المعافرى ومعه زملاؤه ولكن أبى الخطاب كان قد اختار عبد الرحمن بن رستم عند عودتهمن البصرة لكى يصبح ساعده الايمن ولكى يصبح أقوى شخصية من بين زملائه الذين درسوا معه أفكار وتعاليم المذهب الاباضى وأسند اليه منصب القضاء فى طرابلس (٥) عام ١٤١هـ/ ٧٥٨م، بالاضافة إلى أن أبا الخطاب أسند إلى عبد الرحمن بن رستم بعد فتحه القيروان ادارة شئونها اضافة إلى قسم من بلاد المغرب الاوسط كان سكانه من الاباضية ويمتد من جزائر بنى مزغنة إلى وهران، بالاضافة إلى أن عبد الرحمن عندما تولى ادارة شئون القيروان استطاع أن يراقب ما يجرى من أحداث فى المغرب الاوسط وأن يكون على بينة من الامور وأن يبعث بتلاميذه واتباعه لكى يغذى المذهب الاباضى فى تلك البقاع بالانصار والاتباع الذين كان يرى فيهم سمات القيادة والقدرة على جذب الناس اليهم. ذلك لانه كان يرى فى بلاد المغرب الاوسط الدرع الذى يحمى الدولة الاباضية الناشئة فى طرابلس. ويؤكد نظرة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الاوسط ما ذكره ابن خلدون (٦) فى أنه قد وجد نوع من التحالف والصلات الوطيدة والقوية بين عبد الرحمن بن رستم وبين قبيلة «لماية» البترية التى كانت تسكن ذلك الاقليم .

ولكن كما سبق القول فان عبد الرحمن بن رستم لم تطل مدة توليته واقامته بالقيروان، ذلك لان الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور كان قد أرسل واليه فى مصر محمد

(٥) الباردنى: الازهار الرياضية جـ ٢ ص ٨٤ .

(٦) ابن خلدون: العبر، جـ ٢ ص ١٤٤ .

ابن الاشعث بقوات كبيرة لضرب الاباضية فى المغرب وعلى رأسهم أبو الخطاب المعافرى حيث تمكن القائد العباسى من القضاء على أبى الخطاب عام ١٤٤هـ/ ٧٦١م ودخل القيروان ورأى ذلك القائد العباسى أن عبد الرحمن بن رستم يشكل أكبر خطر على وجود العباسيين فى بلاد المغرب وكان لابد من القضاء على قوته بعد أن تم للعباسيين القضاء على أبى الخطاب المعافرى، وكان ابن رستم قد خرج فى جيش كبير لدعم قوات أبى الخطاب وتحت امرته قوات كبيرة العدد لمقاومة زحف ابن الاشعث، لكن ابن رستم ما أن وصل إلى مدينة قابس حتى وصلته أنباء مقتل أبى الخطاب وهزيمته فعاد مسرعا الى القيروان لكنه لم يستطع أن يدخلها مرة ثانية وهو الذى كان حاكمها منذ فترة قصيرة حيث وجد أن الأمور بها قد ازدادت سوءا وأخذ أهل القيروان نائبه الاباضى فيها فأوثقوه فى الحديد وولوا على أنفسهم بدلا منه سعمر بن عثمان القرشى [٧] وهكذا تبددت آمال عبد الرحمن بن رستم فى اقامة الدولة الاباضية وعلى هذا فلم يكن أمامه الا أن يفر ببقايا قواته وجنده متخذا طريقه إلى المغرب الاوسط .

ولما كان عبد الرحمن نافذ البصيرة والادراك لعواقب الامور فانه أحس انه لابد له ولاتباعه من الوصول إلى المغرب الاوسط فهناك يستطيع بما توجد له من أنصار واتباع أن يقيم دولة على المذهب الاباضى بعد أن منع من دخول القيروان وفشلت دولة أبى الخطاب فى طرابلس فخرج فى قلة من النفر والاصحاب يريد المغرب الاوسط [٨] .

وقد أفلت عبد الرحمن بن رستم من قبضة الذين كانوا يطاردونه وخرج جادا فى السير الى بلاد المغرب الاوسط فوصلها عام ١٤٤هـ/ ٧٦١م ولم يكن معه من شئ الا ما خف حمله من مال وابنه عبد الوهاب ومملوكة وفرسة [٩] .

---

(٧) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص ٦٨ .

(٨) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ص ٣٩ .

(٩) البكرى: نفس المصدر، ص ٦٨ .

ولجأ عبد الرحمن بن رستم إلى منطقة سوفيج وتعتبر من أمنع المناطق الجبلية فى المغرب الاوسط، وقد كانت تعيش حول هذه الجبال قبائل «لماية وهوارة» وهى قبائل كانت قوية الصلة بالمذهب الاباضى، بل أن قبيلة «لماية» منها كانت على صلة قوية بعبد الرحمن بن رستم ذاته، لذا فقد أثر أن ينعزل بين أبناء هذه القبيلة فترة من الوقت ريثما تنتهيا الامور وتكون مناسبة لاقامة دولة وقد كان نزوله إلى قبيلة لماية لما وجد من تحالف بينه وبينهم قديم وما أن وصل عبد الرحمن بن رستم إلى سوفيج حتى سمع به وجوه الاباضية وأعيانهم وعلماؤهم ومشايخهم حتى قصدوه من كل فج عميق، فقد اجتمع لديه قوم من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء فقط ما يزيد عن ستين من كبار العلماء وأهل القضاء والرأى، وأخذت أخبار عبد الرحمن بن رستم تملأ الآفاق فى المغرب الاوسط حتى وصلت مسامع محمد بن الاشعث قائد جيوش الخليفة أبى جعفر المنصور والمتمركز فى القيروان، فجهز جيشا سار به نحو سوفيج ونزل سفح سوفيج وحفر خندقا حول معسكره خوفا من هجوم عبد الرحمن بن رستم ومن معه عليه وظل محاصرا للجبل مدة طويلة حاول خلالها اقتحام الجبل بكل الوسائل الممكنة، لكنه فشل فشلا ذريعا واضطر الى فك الحصار والعودة إلى القيروان بعد أن تفشى داء الحمى والجدرى بين جنده ومات منهم خلق كثير وانسحب إلى القيروان ومن ثم أخذت فلول الاباضية تتجمع وتتكاثر فى جبل سوفيج الذى اتخذوه مكانا يتدربون فيه على القتال ويستعدون لخوض المعارك وبذلك استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يقف على قدميه بعد أن عاد ابن الاشعث إلى القيروان محاولا تثبيت أقدام العباسيين فى افريقية [١٠] .

ولما بلغ أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى نبا مقتل الاغلب بن سالم، فانه بعث إلى افريقية عمر بن حفص الذى دخلها عام ١٥١هـ/ ٧٦٨م وقد هدأت الاحوال فى عهده

(١٠) محمد عيسى صابر: الدولة الرستمية بالمغرب (رسالة ماجستير غير منشورة)، ص ٩٨ .

واستقامت الامور ثلاث سنوات وقد أغرى هذا أبا جعفر المنصور فتطلع إلى بسط سلطان الخلافة على المغرب الاوسط فأمر عمر بن حفص بالتوجه إلى طبنة قاعدة اقليم الزاب لتحصينها وبناء سورها وتعتبر طبنة المفتاح الذى يجب الاحتفاظ به للحكم فى المغرب الاوسط فضلا عن أنها خط الدفاع الاول عن القيروان نفسها اذا ما سقطت فى أيدى الاعداء وأحس الاباضية وأعوان عبد الرحمن بن رستم بخطورة العمل الذى اقدم عليه عمر بن حفص، فاتفق ابن رستم مع أنصاره فى طرابلس وجنوب أفريقية (منطقة جبال نفوسة وجنوب تونس) وتلمسان على الانقضاض على العباسيين ومحاربتهم ومنعهم من تحقيق أهدافهم، ويدل ذلك الاتفاق على أن الامور كانت تسير بالتنسيق التام بين جماعات الخوارج فى بلاد المغرب على اختلاف مذاهبها ومواطنها، وكان عمر بن حفص الذى خرج لتلك المهمة قد استخلف على القيروان (حبيب بن حبيب المهلبى) وخرج هو الى طبنة لتنفيذ تلك المهمة التى كلف بها، فيقوم حينئذ بربر افريقية الخوارج بالزحف نحو القيروان فيخرج اليهم حبيب المهلبى فيقتلوه وفى نفس الوقت اجتمع بربر الاباضية فى طرابلس وولوا عليهم «حاتم بن يعقوب الاباضى»(١١) وقد استطاع أبو حاتم أن يلحق الهزيمة «بالجنيد بن بشار» عامل عمر بن حفص على طرابلس ولم يكتف أبو حاتم بذلك بل تقدم وحاصر بقواته القيروان واشتراك فى حصار عمر بن حفص أيضا المقيم فى طبنة واشتعلت نيران الفتنة فى افريقية وجاءت جيوش الاباضية والصفوية من كل فج ويجمع معظم المؤرخين على أن هذه الجيوش بلغت اثنى عشر ألفا ورؤساؤهم أبو مرة الصفرى فى أربعين ألف جندى، وعبد الرحمن بن رستم فى خمسة عشر ألفا وأبو حاتم بن يعقوب الاباضى فى عدد كثير وعاصم السدراتى فى عدد كثير قيل فى ستة آلاف، المنصور الزناتى فى عشرة آلاف، وعبد الملك ابن سكرويد الصنهاجى فى الفين من القوات يضاف إلى ذلك جماعات أخرى واتجهت هذه الجيوش مجتمعة نحو الزاب لتحاصر عمر بن حفص

(١١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٤١٣ .

الذى كان فى خمسة عشر الفا وخمسمائة وانجلى الموقف عن نتائج خطيرة فالقيروان تحاصرها القوات الاباضية وعمر بن حفص تحاصره قوات التحالف الاباضى الصفرى وازاء هذا الموقف قرر عمر بن حفص ان يهاجم قوات الخوارج فهاجم قوات عبد الرحمن بن رستم فى تهودة وفوجئ ابن رستم بقوات عمر بن حفص تهاجمه بقيادة (معمر بن عيسى العبدى) وقد استطاعت هذه القوة الصغيرة التى كان عددها ألف وخمسمائة مقاتل، ان تلحق الهزيمة بقوات عبد الرحمن بن رستم الاباضية البالغة خمسة عشر ألف، الامر الذى جعل خسائر ابن رستم كثيرة جدا وقدرها ابن عذارى المراكشى بثلاثة آلاف جندى وتراجع عبد الرحمن بن رستم منهزما إلى اقليم تاهرت وكانت هذه الهزيمة نقطة تحول بارزة فى تاريخ قيام الدولة الرستمية التى جمعت فى قبائلها لواتة وهرارة وزواغة ومطماطة حيث كان أهل هذه القبائل فى أقاليم المغرب الشرقية فى طرابلس ونفراوة وبلاد الجريد مهد الدعوة الاباضية ولقد سهل هذا الامر سير كثير من الاباضية من تلك الاقاليم إلى ابن رستم حيث اقاموا بين بنى جلدتهم فى المغرب الاوسط (١٢) .

وقد اتخذ عبد الرحمن بن رستم مبدأ المساواة الكاملة والعدل والتسامح الدينى وغيرها من التعاليم الاسلامية التى كانت تطبق فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشيدين أسلوب حياة له ومن هنا نجحت تلك الدعوة التى قام بها عبد الرحمن بن رستم على نحو جاوز كل تقدير حيث كانت تلك المبادئ والاسس هى الركائز الهامة التى اعتمد عليها فى دعوته ومن هنا استجاب الكثير من سكان المغرب الاوسط لتلك الدعوة وصاروا يلتقون حوله ويرحبون بتعاليمه وأفكاره .

بل أن تلك التعاليم جذبت اليه بعض الافراد من المذاهب الاسلامية الاخرى فقد انضم اليه كثير من الخوارج الصفرية وجماعات تسمى بالواصلية هم أقرب إلى المعتزلة فى

---

(١٢) محمد عيسى جابر: نفس المرجع . ص ١٠٥ .

حين اعتبرهم البكرى من الاباضية [١٣] فقد كان للواصلية تجمع قريب من تاهرت وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا ورغم أن الواصلية من المعتزلة فالظاهر أن الفرقتين تحالفتا نتيجة لاخذهما بموقف الوسط بالنسبة لمرتكبى الكبائر وانه لهذا السبب اعتبر معتزلة المغرب من الاباضية بالإضافة الى ان الذى دعم موقف ابن رستم فى تلك النواحى ان أباضية المغرب فى شرق المغرب الاوسط لم يلقوا السلاح وما زالوا يناضلون فى طلب الجهاد يدافعون عن مبادئهم فى صبر وبلاء .

ولقد أدرك عبد الرحمن بن رستم أهمية استمرار النضال فى شرق المغرب الاوسط أن ذلك الذى يقوم اخوانه به فى جبال نفوسة وشرق المغرب الاوسط بصرف نظر الدولة العباسية عن الجهود الجبارة التى يقوم بها لاقامة دولة أباضية وكذلك ادركت هذه التجمعات الاباضية فى شرق المغرب الاوسط بقيادة أبى حاتم الاباضى هذه الحقيقة الهامة من أجل قيام أخوانهم فى المغرب الاوسط ببناء دولة فأخذوا يرسلون المساعدات المالية لعبد الرحمن بن رستم فكان أبو حاتم يقوم بدوره بارسال ما كان يزاداد على ما يحتاج اليه من الزكاة والعشور والاموال الزائدة عن الحاجة وذلك قبل أن تظهر الامارة الرستمية بصورة رسمية ويبدو ان الامور ظلت تسير على هذا النحو إلى أن اتسع سلطان ابن رستم على نحو دفع الجميع فى مبايعته بالامامة واعلان قيام الدولة الرستمية [١٤] .

وكان نزول الاباضية بقيادة ابن رستم وتجمعهم فى موقع مدينه تاهرت القديمة حيث يقول ابن الصغير لما نزلت طائفة الاباضية من الخوارج مدينة تاهرت وأرادوا عمارتها اجتمع رؤساؤهم وارادوا اتخاذ عاصمة لهم يديرون منها شئون دولتهم والذى يفهم من

---

(١٣) البكرى: مصدر سابق. ص ٦٨ .

(١٤) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١١٥ .

(١٥) ابن الصغير ، سيرة الائمة الرستمية فى تاهرت . ص ٩ .

عبارة ابن الصغير [١٥] أن تاهرت هى المدينة القديمة وان التى استحدثها ابن رستم لم تكن قد انشئت بعد، ولما كان رؤساء الاباضية يتطلعون إلى شخصية فريدة بين البربر تستحق امر الامامة بحيث لاتكون له قبيلة قوية تحميه وتدافع عنه بحيث اذا ظهر عدم صلاحيته فانه يصبح من السهل عليهم خلعه وتنحيته عن الامامة دون حدوث مشاكل تحول دون العزل بأن تدافع عنه قبيلته أو قومه [١٦] ومن هنا كان عبد الرحمن بن رستم هو تلك الشخصية التى يتطلعون اليها فقالوا هذا هو عبد الرحمن بن رستم لاقبيلة له ولا عصبية يتشرف بها ولاعشيرة له تحميه وقد كان الامام أبو الخطاب قد رضى لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا فقلدوه اموركم فان عدل فذلك الذى أردتم وان لم يقم العدل والقسطاط المستقيم وسار بغير العدل فانه من السهل عزله وتنحيته عن الامامة اذ لم تكن له قبيلة تمنعه ولاعشيرة تدافع عنه [١٧] .

ولقد كانت بالاضافة إلى كل هذه العوامل التى دفعت بعبد الرحمن بن رستم لتولى الامامة أمور أخرى فقد تم اختياره لفضله وكرمه وكونه من الرعيل الاول الذى نهل العلم وتعاليم المذهب الاباضى من أصوله الاصلية فى بلاد المشرق حيث البصرة بالعراق مركز الدعوة الاباضية والفكر الاباضى بالاضافة إلى أنه زميل امامهم الاول أبى الخطاب المعافرى فى الدراسة فى البصرة اضافة الى كونه قاضى طرابلس وامام القيروان وكان والى افريقية (تونس) وما والاها من الاقاليم الآخرى .

وهكذا تمت مراسم البيعية لعبد الرحمن وأعلن قيام الدولة الاباضية الجديدة بالمغرب الاوسط وأصبح عبد الرحمن بن رستم اماما لها ويختلف المؤرخون فى تاريخ مبايعة الامام عبد الرحمن بن رستم بالامارة الاباضية الرستمية فنجد أن الدرجبى

---

(١٦) محمد بن تاديت: دولة الرستمية. ص ١٠٨ .

(١٧) ابن الصغير: المصدر السابق ص ٩ .

والشماخى يذكران أن البيعة كانت عام ١٦٠هـ/ ٧٧٦م، الا انهما فى بعض المواقع يذكران أن البيعة كانت عام ١٦٢هـ/ ٧٨٨م ولكن التاريخ الاول قد يكون الارجح هو الصحيح ذلك لان ابن عذارى المراكشى يذكر أن تأسيس مدينة تاهرت كان عام ١٦١هـ/ ٧٧٧م والمعروف أن بناء مدينة تاهرت كان بعد الالتفاف حول ابن رستم ومبايعته بالامامة كما ذكر ذلك البكرى وابنه الصغير[١٨] .

شخصية عبد الرحمن بن رستم

عبد الرحمن بن رستم الذى تنسب اليه الدولة الرستمية تذكره بعض المصادر الروستمى، بضم الراء وسكون السين المهملة وفتح التاء المنقوطة باثنين من فوقها وفى آخرها الميم وهو اسم لبعض أجداد عبد الرحمن المنسب اليه والمشهور بهذه الانساب جماعة من أهل أصبهان قديما وحديثا وقد ذكر الطبرى فى كتابه تاريخ الرسل والملوك الاسم رستم بفتح التاء ويؤيد الطبرى والسمعانى فى ضبط النسب الرستمى على هذا النحو ابن خرداوية حيث يقول والرستمى هو ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وهو من الفرس وقد ذكر أن انتقال عبد الرحمن بن رستم الى بلاد المغرب الاوسط كان ايذانا بظهور الدولة الرستمية التى أصبحت قوة اسلامية كبرى جديدة فى تلك المنطقة من الدولة الاسلامية ومن بلاد المغرب بحيث كان لها دورها وشأنها البالغ فى توجيه حركة الاحداث بالمغرب العربى كله إلى نهاية القرن الثالث الهجرى. وقد أجمعت كل المصادر العربية والاسلامية المعاصرة والحديثة على أن مؤسس تلك الامارة الاسلامية القوية كان هو عبد الرحمن بن رستم بحيث كان مؤسسها فارسى الاصل اسلامى العقيدة العميقة عربى اللسان فصيح الخطاب طليق بليغ يجيد علوم البيان . وان اختلفت هذه المصادر فى تحديد طبيعة هذا الاصل الفارسى وجذوره التاريخية وصلته بالانساب الاسرية .

---

(١٨) محمد عيسى صابر: الدولة الرستمية بالمغرب ص ١١٨ .

(١٩) البكرى: مصدر سابق ص ٦٧ .

فعلى سبيل المثال نجد ان احد المؤرخين العرب والجغرافيين وهو البكرى [١٩] يذكر أن عبد الرحمن بن رستم يعود فى أصوله العرقية والاصولية إلى أصل فارسى ملكى مرتبط بأسرة الاكاسرة الفرس الساسانين أباطرة الدولة الفارسية التى حكمت فارس فترة زمنية طويلة ويذكر أن جده هو يهرام بن ذو شرار بن سابور بن بايكان بن سابور ذى الاكتاف الملك الفارسى. وتطابق تلك الاقوال ذلك ما ذكره ياقوت الحموى فى كتاب معجم البلدان [٢٠] حيث يقول جد عبد الرحمن هو بهرام بن بهرام جور بن شابور بادكان بن شابور ذى الاكتاف ملك الفرس .

أما ابن خلدون فنجد انه يذكر رواية أخرى يخالف فيها هذين الرأيين السابقين بأن يذكر أن عبد الرحمن بن رستم هو أحد أبناء رستم أمير الجيش الفارسى الذى كان يقود قواتهم وقد هزم فى موقعة القادسية حيث نجده يقول وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمى الفتح الاسلامى وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية .

ويذكر محمد عيسى صابر سليم فى رسالة الماجستير المقدمة منه – إلى كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٧٥ بعنوان الدولة الرستمية بالمغرب قيامها وتطورها تعليقا على ذلك الرأى، الذى ذكره ابن خلدون فانه يذكر انه لا يعقل أن يكون عبد الرحمن بن رستم من أبناء رستم أمير جيش فارسى فى موقعة القادسية اذ أن الاقرب الى المعتاد من الاعمار يجعل فى قبول ذلك كثيرا من الشك لان رستم قائد الفرس فى القادسية قتل عام ١٦هـ/ ٦٣٧م وان عبد الرحمن مؤسس دولة الرستميين بالمغرب توفى عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م فيكون عبد الرحمن هذا قد عمر مائة وخمسا وخمسين سنة ولم يذكر ذلك أحد من المؤرخين، أما نسبه عبد الرحمن بن رستم إلى بهرام مولى عثمان بن عفان الخليفة الراشد الثالث فليس فيه ما يفيد لان يزد جر آخر ملوك فارس كان له ابنان وهما

---

(٢٠) ياقوت الحموى: معجم البلدان. مادة تاهرت جـ ٢ ص ٨ .

(٢١) محمد عيسى صابر: المولة الرستمية بالمغرب ص ٦٤ .

فيروز وبهرام [٢١] .

واذا كانت جميع المصادر التاريخية تذكر ولا خلاف فى ذلك بأن عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية يعود إلى أصول فارسية لاجدال فى ذلك، الا اننا نجد المسعودى فى كتابه مروج الذهب ينفرد برواية دون جميع المؤرخين حيث يذكر لنا أن الرستميين مؤسس هذه الامارة من بقايا الاشبان حيث يقول وقد كان ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم الفارسى وهو أباضى المذهب وهو الذى أنشأ فى هذا البلد مذهب الخوارج وقيل أن الرستميين من بقايا الاشبان وقد اختلف المؤرخون فى حقيقة الاشبان فيرى المسعودى انهم من الفرس الذين انتقلوا إلى المغرب من بلاد اصبهان [٢٢] لكنه يعود فى موقع آخر فيذكر أن الرستميين ولد سودان بن كنعان الذين تناسلوا بالمغرب وعلى ذلك فانه بناء على ما ذكره المسعودى من أقوال من حيث نسب الرستميين فيحق لنا أن نساير تلك الآراء وبناء عليه يكون الرستميون من سكان المغرب الاصليين الذين كانوا يقطنون تلك الديار قبل امتداد حركة المد الاسلامى وفتحها بلاد المغرب وان كان ذلك الرأى بناء على ما ذكرناه عن اختيار عبد الرحمن للامامة يتعارض تعارضا تاما .

وان كنا نرى انه قد يكون من بقايا الفرس الذين كانوا قد احتلوا مصر ثم انساحت بعض من أسرهم إلى المغرب أو من الذين لم يهلكوا مع حملة قمبيز إلى الواحات. لكن الرأى الذى يقول بقدومه مع قوات الفتح الاسلامى هو الاقرب الى الصواب، لكن هناك رأيا آخر يحاول أن يخالف كل ما ذكر سابقا حول هذا النسب فنجد المغربى [٢٣] يحدثنا بصورة تخالف كل الآراء فيذكر لنا ان حقيقة الاشبان انهم ينسبون إلى ملك الاندلس

---

(٢٢) المسعودى: مروج الذهب ص ١٨٦ .

(٢٣) المغربى: نفخ الطيب فى غصن الاندلس الرطيب جـ ١ ص ٢٣٤ .

أشبان ابن طيطشر الذى نسبه الى مدينة أشبلية وقد قيل أن أشبان هذا من عجم رومة أو أنه من أصبهان فارس التى ولد فيها وهذا الرأى الاخير من الرواية حول النسب نذكر أن الاشبان من الفرس وأن الرستميين بالتالى يكونون من أصل فارسى كما تعنى تلك الرواية.

وعلى هذا فلا جدال أن الاسرة الرستمية من أصل فارسى لكنها كانت عربية اللسان عميقة الايمان بالاسلام عاملة على حمل لواء لا اله الا الله محمد رسول الله فى ربوع المغرب الاوسط متمثلة بالمبادئ السمحة والنبع الخالص للاسلام .

ومن هذا فان شخصية عبد الرحمن بن رستم لا جدال فى أنها من أصول فارسية، وذلك لان حركة الفتح الاسلامى فى بلاد فارس قد أسفرت عن انتقال عدد كبير من الفرس إلى أنحاء الجزيرة العربية بعد أن وحد الاسلام بين العرب والفرس ولم تعد هناك فواصل عرقية أو لغوية أو جنسية حيث عاشت تلك الجماعات ضمن المجتمع الاسلامى تحت اسم الموالى. وكان من بين هولاء الموالى بهرام جد عبد الرحمن بن رستم، وكما تذكر بعض المصادر وهو الاقرب إلى الصواب أن بهرام هذا كان مولى عثمان بن عفان الخليفة الراشد الثالث [٢٤] .

وقد كانت اقامة بهرام بالمدينة المنورة حيث مقر الخلافة الاسلامية ولذا كان بهرام قريبا من مولاه عثمان بن عفان يأخذ عنه كل ما تمتاز به شخصية عثمان بن عفان من تقوى وورع وعلم بأمور الدين والشريعة، ولما كان بهرام لصيقا بمولاه عثمان بن عفان فانه بالتالى يتحتم على رستم بن بهرام أن يكسب من والده ومن كل ما يحيط به من مؤثرات اسلامية حيث تربى فى بيت الخلافة الاسلامية واستطاع أن ينهل من فيضها الاسلامى

(٢٤) البكرى: نفس المصدر ص ٦٧ .

(٢٥) محمد عيسى صابر: نفس المرجع ص ٦٨ .

وعلى ذلك فقد كانت المكونات الاساسية الاسلامية لشخص عبد الرحمن عن طريق ذلك الميراث الاسلامى الزاخر الذى توافر له ولوالده رستم فى بيت الخلافة ومن هنا كانت معالم الايمان والتقوى والورع صورة بارزة فى شخصية عبد الرحمن ولقد اتخذ البيت الرستمى طريقة إلى المغرب العربى ممثلا فى شخص عبد الرحمن بن رستم الذى أتاحت له الظروف أن تطأ أقدامه أرض تلك الديار حيث ستكون هذه الديار هى الفرصة الوحيدة التى تظهر عبقريته وذكاءه فى تكوين دولة رستمية، تحددت معالم قدومها الى بلاد المغرب مع مطلع قدوم قوات الفتح الاسلامى حيث كانت بداية تقدم القوات الاسلامية مع بداية الفتح فى عصر عمرو بن العاص وتنتهى تلك الطوالع الاسلامية مع قدوم موسى بن نصير للقيام بمهام انتهاء الفتح الاسلامى وضمه للدولة الاسلامية (٢٦) وتلك هى الرواية عن قدوم عبد الرحمن إلى بلاد المغرب، الا أن الشماخى فى كتابه السير يذكر أن عبد الرحمن بن رستم قد وجد منذ طفولته فى القيروان وانه من أسباب وصوله إلى تلك الديار، أن أباه رستم بن بهرام كان قد قدم لاداء فريضة الحج بالاراضى المقدسة ومعه زوجته وابنه عبد الرحمن لكن المنية عاجلته وهو يؤدى مناسك الحج ومات، فتزوجت زوجته الفارسية الاصل ومعها ابنه الصغير عبد الرحمن برجل من القيروان، فأقبل عبد الرحمن مع أمه ولم يكن عبد الرحمن حين قدِم القيروان قد شب عن الطوق حيث كان لا يزال فى سن الصبى، اذ كان فى طفولته المبكرة (٢٧) .

وتشير الدلائل التاريخية المؤكدة أن عبد الرحمن بن رستم قد رحل إلى البصرة وهو فى سن الشباب حدث السن وذلك لتلقى تعاليم المذهب الاباضى حيث كان قد أتم بعض الدراسة على يد مسلمة بن سعيد الذى بادر بدوره بارساله مع جمع من زملائه إلى

---

(٢٦) محمد عيسى صابر: الدولة الرستمية بالمغرب ص ٧٦ .

(٢٧) الشماخى: السير ص ١٢٤ .

البصره وذلك فى أوائل القرن الثاني الهجرى، وذلك يعطى الدليل القوى على انه كان طفلا صغيرا حين انتقل من الحجاز إلى القيروان .

وعلى هذا أصبحت مدينة القيروان هى الموطن الجديد له بعد أن عاش مع والدته وزوجها فى تلك المدينة حيث ظهرت ملامح شخصيته ومواهبه الذاتية فى رحابها وبما تلقى من تعاليم اسلامية ودراسات فقهية وعلمية على أيدى فقهائها وعلمائها، فقد كانت مدينة القيروان في تلك الوقت هى المركز الاسلامى الاول والوحيد فى كل بلاد المغرب واليها تشد الرحال للبحث والدراسة والتحصيل، وذلك لانها تقف مصدرا وحيدا يشع بالعلم والمعرفة والعرفان فى بلاد المغرب كلها [٢٨] .

وهكذا نهل عبد الرحمن وعب كل ما استطاع أن يتحصله من ثقافة عربية اسلامية بالقيروان، لكنه كان أكثر ميولا إلى دراسة تعاليم الخوارج ومحاولة فهم كل أمورها والاستماع الى ما يتصل بها من تعاليم لانها لقيت قبولا فى نفسه واستراح لكل ما يذكره العلماء والائمة عن تلك التعاليم [٢٩] بل انه بطبيعة تكوينه الشخصى المسألة حيث انه كان هادئ الطبع لكونه تربى يتيما فقد كان يرفض كل تعاليم الخوارج المتطرفة واتخذ طريقه إلى المذهب الاباضى أحد فروع المذهب الخارجى وكان ذلك بتأثير من الامام «مسلمة بن سعيد» داعية المغرب الاباضى الذى كان يجتهد فى ذلك الوقت لنشر المذهب الاباضى فى ربوع المغرب [٣٠] .

ومن الملاحظ أن عبد الرحمن بن رستم حين اعتنق المذهب الاباضى فكانه قد فاضل بينه وبين المذهب الصفرى الذى كان يدعو له فى ذلك الوقت عكرمة مولى عباس،

---

(٢٨) حسن محمود: الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص ٢٦٨ .

(٢٩) ابن خلدون عيسى صابر: نفس المرجع ص ٧٨ .

(٣٠) محمد عيسى صابر: نفس المرجع ص ٧٨ .

فان ذلك المذهب كان قد تطور تطورا كبيرا من حيث بعده عن التطرف ومحاولة التقرب إلى قلوب المسلمين ومن هنا كان أكثر قربا من مذهب أهل السنة وهو من أهم الدلائل فى الاسس القوية التى شيد عليها عبد الرحمن بن رستم دولته .

وكان عبد الرحمن بن رستم لما بويع بالامامة قد رأى من حسن البصيرة أن يتخذ له ولدولته عاصمة سياسية ودينية تكون مقرا لدولته ويستطيع أن يباشر منها مهام الحكم حيث أن اختيار تلك العاصمة قد يجعلها الركيزة الكبرى التى ترتكز عليها دعائم الدولة فى أطرافها الواسعة ومن ثم كان عليه أن يوفر لهذه العاصمة كل عناصر الامن والرخاء لذا فقد استعان بأهل العلم والخبرة فى الاماكن وطبيعة الارض وتقلبات الجو وانضم اليه أيضا رؤساء العابدين والزاهدين لكى يكون لهم رأى فى اختيار المكان الملائم ليكون حاضرة دولتهم ووزع بعضا منهم فى أنحاء متفرقة من البلاد يبحثون عن مكان يصلح لبناء العاصمة حتى تم الاتفاق بينهم جميعا على أن موقع تاهرت هو أنسب الاماكن وهو على بعد خمسة أميال من تاهرت القديمة، وقد جاء اختيار موقع تاهرت وليد الظروف التى واجهت الدولة الرستمية فى مطلع تأسيسها فقد كان لموقعها مميزات ذات كفاءة عالية جعلتها تنهض بمسئولياتها على أحسن وجه فهى بعيدة عن خطر العباسيين حيث تقع فى منطقة داخلية منطوية على نفسها فى السفح الجنوبى لجبل «كزول» اذ هى تدير ظهرها للبحر وتوجه أنظارها نحو الداخل وهذا يمثل موقعا استراتيجيا لحماية دولة ناشئة ويحيط بها الاعداء من كل جانب وتقع تاهرت فى منطقة محاطة بقبائل أكثر أفرادها مشهورون بانتمائهم القوى للمذهب الاباضى [٣١] .

وقد حدد البكرى على نحو دقيق هذه القبائل وقربها من تاهرت وذكر انها لواطة وهوارة وزواغة ومطماطة وزناتة ومكناسة وغيرها من القبائل، يضاف إلى ذلك أن موقع

(٣١) محمد عيسى صابر: نفس المرجع ص ١١٨ .

تاهرت يعتبر امتدادا لبلاد الزاب وهذا يتيح للدولة الاباضية الرستمية فرصة أكبر في امتداد الدولة واتساعها وسيطرتها على كثيرا من الاقاليم دون وجود عوائق طبيعية تحول دون ذلك التوسع والانتشار لضم العديد من الاماكن والقبائل البربرية اليها بالاضافة إلى أن تاهرت تقع وسط منطقة غنية اقتصاديا فهي تشتهر بمراعيها الواسعة وثرواتها الزراعية المتنوعة ويرجع ذلك لكثرة مصادر المياه وتنوعها في المنطقة ولقد كان لكل هذه العوامل آثارها القوية في تدعيم حركة النشاط الزراعي والتجارى والاقتصادى للدولة فقد اتاح هذا الموقع الجغرافي لمدينة تاهرت أن تصبح ملتقى العديد من طرق القوافل التجارية وهذا جعلها بدورها تتحول إلى مدينة تجارية هامة بين مدن المغرب الكبرى. كذلك ساعدها على ذلك انها مدينة حصينة واسعة البرية والزروع والمياه، وتقع تاهرت في مكان يتوسط التل والصحراء وقد حقق لها ذلك السيادة على المنطقة السهوبية الشاسعة وما بها من طرق تجارية تمتد غربا إلى المغرب الاقصى وجنوبا إلى قلب افريقية عبر الصحراء الكبرى ثم هي تشرف في موقعها هذا أيضا على الطريق المار في منطقة التلول إلى اسفل وادى شلف المؤدى إلى البحر وبذلك الموقع أصبحت تاهرت نموذجا للحياة التجارية القوية في بلاد المغرب، وقد كشف عبد الرحمن ابن رستم باختياره لموقع تاهرت عن المهارة الفائقة التي تحلى بها الاباضية في اختيار المراكز الصالحة لبناء المدن وحرصهم على توفير أسباب البقاء لها اقتصاديا وسياسيا وعسكريا [٣٢] .

ويذكر البكرى ان موقع تاهرت قبل أن يتم اختياره ليكون عاصمة للدولة الرستمية فانه كان أرضا من أملاك قبيلتي مسراسة وصنهاجة وقد طلب منهم عبد الرحمن أن يبيعاه ذلك المكان لبناء مدينة سكنية عليه، ولكنهم في بادئ الامر رفضوا قبول ذلك العرض ولكن بعد مشاورات ومباحثات قبلوا بناء تاهرت على أرضهم على انهم اتخذوا

(٣٢) البكرى: نفس المصدر . ص ٧٢ .

عليه شرطا هو أن يكون عائد أسواقها من نصيبهم يقسم بينهم وعلى الفور شرع عبد الرحمن بن رستم فى بناء المدينة .

وقد أضفى كتاب المذهب الاباضى على بناء تاهرت قصصا أشبه بقصة بناء عقبة بن نافع الفهرى لمدينة القيروان ورويت فى ذلك أساطير كثيرة، ولكن تخطيط تاهرت وفاس وغيرها من المدن بحيث يكون شكل البناء والتصميم والهندسة مساعدا على انصهار أفراد المجتمع وامتزاجهم وعدم التفرقة بين عناصرهم وكان أول عمل قام به عبد الرحمن وأعوانه ومساعدوة ومستشاروه من كبار المذهب الاباضى هو بناء المسجد الجامع بين أربع بلاطات واستعانوا فى بنائة بأخشاب الشجر وحول المسجد الجامع انتشرت الدور والقصور والبيوت والاسواق والحمامات والفنادق وقد تفنن أهل تاهرت تدريجيا فى عمارتها وتنظيمها وبعد فترة زمنيه قصيرة فانهم قاموا ببناء سور محكم مشيد من الحجر والصخور الصماء [٣٣] .

وقد اختلف المؤرخون فى بناء مدينة تاهرت فابن خلدون يجعل تاريخ تأسيسها عام ١٤٤هـ/٧٦١م أى فى نفس السنة التى فر فيها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدينت واتسعت الى أن ملك عبد الرحمن ناصية الامور فى البلاد، أما ابن عذارى المراكشى فيقول أن بناء مدينة تاهرت كان بعد عام ١٤٠هـ/ ٧٥٧م ثم عاد فقال فر عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب بما خف حمله من أموال ونفر قليل من أهله فاجتمعت اليه الاباضية وعزموا على بناء مدينة تجمعهم فنزلوا بموقع تاهرت أو تيهرت، وهى غيضة بين ثلاث أنهار فبنوا المسجد الجامع من أربع بلاطات واختط الناس مساكنهم حوله وذلك فى عام ١٦١هـ .

ومهما يكن من شأن هذه الآراء حول بناء العاصمة فإن الرأى المرجح والمتفق عليه

---

(٣٣) محمد عيسى صابر: مرجع سابق، ص ١٢٠ .

تاهرت يعتبر امتدادا لبلاد الزاب وهذا يتيح للدولة الاباضية الرستمية فرصة أكبر فى امتداد الدولة واتساعها وسيطرتها على كثيرا من الاقاليم دون وجود عوائق طبيعية تحول دون ذلك التوسع والانتشار لضم العديد من الاماكن والقبائل البربرية اليها بالاضافة إلى أن تاهرت تقع وسط منطقة غنية اقتصاديا فهى تشتهر بمراعيها الواسعة وثرواتها الزراعية المتنوعة ويرجع ذلك لكثرة مصادر المياه وتنوعها فى المنطقة ولقد كان لكل هذه العوامل آثارها القوية فى تدعيم حركة النشاط الزراعى والتجارى والاقتصادى للدولة فقد اتاح هذا الموقع الجغرافى لمدينة تاهرت أن تصبح ملتقى العديد من طرق القوافل التجارية وهذا جعلها بدورها تتحول إلى مدينة تجارية هامة بين مدن المغرب الكبرى. كذلك ساعدها على ذلك انها مدينة حصينة واسعة البرية والزروع والمياه، وتقع تاهرت فى مكان يتوسط التل والصحراء وقد حقق لها ذلك السيادة على المنطقة السهوبية الشاسعة وما بها من طرق تجارية تمتد غربا إلى المغرب الاقصى وجنوبا إلى قلب افريقية عبر الصحراء الكبرى ثم هى تشرف فى موقعها هذا أيضا على الطريق المار فى منطقة التلول إلى اسفل وادى شلف المؤدى إلى البحر وبذلك الموقع أصبحت تاهرت نموذجا للحياة التجارية القوية فى بلاد المغرب، وقد كشف عبد الرحمن ابن رستم باختياره لموقع تاهرت عن المهارة الفائقة التى تحلى بها الاباضية فى اختيار المراكز الصالحة لبناء المدن وحرصهم على توفير أسباب البقاء لها اقتصاديا وسياسيا وعسكريا [٣٢] .

ويذكر البكرى ان موقع تاهرت قبل أن يتم اختياره ليكون عاصمة للدولة الرستمية فانه كان أرضا من أملاك قبيلتى مسراسة وصنهاجة وقد طلب منهم عبد الرحمن أن يبيعاه ذلك المكان لبناء مدينة سكنية عليه، ولكنهم فى بادئ الامر رفضوا قبول ذلك العرض ولكن بعد مشاورات ومباحثات قبلوا بناء تاهرت على أرضهم على انهم اتخذوا

(٣٢) البكرى: نفس المصدر . ص ٧٢ .

عليه شرطا هو أن يكون عائد أسواقها من نصيبهم يقسم بينهم وعلى الفور شرع عبد الرحمن بن رستم فى بناء المدينة .

وقد أضفى كتاب المذهب الاباضى على بناء تاهرت قصصا أشبه بقصة بناء عقبة بن نافع الفهرى لمدينة القيروان ورويت فى ذلك أساطير كثيرة، ولكن تخطيط تاهرت وفاس وغيرها من المدن بحيث يكون شكل البناء والتصميم والهندسة مساعدا على انصهار أفراد المجتمع وامتزاجهم وعدم التفرقة بين عناصرهم وكان أول عمل قام به عبد الرحمن وأعوانه ومساعدوة ومستشاروه من كبار المذهب الاباضى هو بناء المسجد الجامع بين أربع بلاطات واستعانوا فى بنائة بأخشاب الشجر وحول المسجد الجامع انتشرت الدور والقصور والبيوت والاسواق والحمامات والفنادق وقد تفنن أهل تاهرت تدريجيا فى عمارتها وتنظيمها وبعد فترة زمنيه قصيرة فانهم قاموا ببناء سور محكم مشيد من الحجر والصخور الصماء [٣٣] .

وقد اختلف المؤرخون فى بناء مدينة تاهرت فابن خلدون يجعل تاريخ تأسيسها عام ١٤٤هـ/٧٦١م أى فى نفس السنة التى فر فيها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدينت واتسعت الى أن ملك عبد الرحمن ناصية الامور فى البلاد، أما ابن عذارى المراكشى فيقول أن بناء مدينة تاهرت كان بعد عام ١٤٠هـ/ ٧٥٧م ثم عاد فقال فر عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب بما خف حمله من أموال ونفر قليل من أهله فاجتمعت اليه الاباضية وعزموا على بناء مدينة تجمعهم فنزلوا بموقع تاهرت أو تيهرت، وهى غيضة بين ثلاث أنهار فبنوا المسجد الجامع من أربع بلاطات واختط الناس مساكنهم حوله وذلك فى عام ١٦١هـ .

ومهما يكن من شأن هذه الآراء حول بناء العاصمة فإن الرأى المرجح والمتفق عليه

(٣٣) محمد عيسى صابر: مرجع سابق، ص ١٢٠ .

من أغلبية المؤرخين أن بناء مدينة تاهرت كان فى عام ١٦١هـ/ ٧٧٧م ، ذلك لان أقدم نص عن بناء تاهرت عموما أورده البكرى حيث يؤكد أن بناء تاهرت كان فى أعقاب مبايعة عبد الرحمن بن رستم [٣٤] ويذكر انه بعد اتفاق الجماعة الاباضية على امامة عبد الرحمن بن رستم ومبايعتهم فانهم نزلوا موقع تاهرت وهو غيضة على خمسة أميال غربى الدلتا أى تاهرت القديمة، واذا كانت مبايعة ابن رستم بالامامة قد تمت قبل بناء تاهرت طبقا لرواية البكرى وعلى وجه التحديد عام ١٦٠هـ فانه يكون بناؤها عام ١٦١هـ ذلك لان ابن رستم لم يكن ليربط مصيره واتباعه من الاباضية والقبائل التى التفت حوله وبايعته وقدمت كل غال ونفيس فى سبيل اقامة دولته فى منطقة المغرب الاوسط، قد يكون ذلك البناء لم يتم الا بعد أن يكون عبد الرحمن قد يئس تماما من العودة إلى افريقية واستنفذ كل السبل والوسائل التى تمكن له من العودة مرة أخرى، كذلك وبعد أن يكون عبد الرحمن قد نجح فى تنظيم حملة واسعة النطاق ودعوة عريضة لنشر مبادئ وأسس وتعاليم المذهب الاباضى بين قبائل المنطقة وهذا أمر طبيعى يتطلب تنفيذه أكثر من خمسة عشر عاما أى فى الفترة من بداية الفرار وهى عام ١٤٤هـ إلى بداية البناء وهى عام ١٦١هـ .

بل انه هناك آراء تذكر أن عبد الرحمن بن رستم كان على علم وبينة من ذلك المكان ويذكر انه قد ارتاده كثير قبل أن يشرع فى البناء واتخاذه عاصمة للبلاد حيث تورد تلك الآراء انه اتخذ مكانا بالقرب من تاهرت القديمة لكى يكون معسكرا له ولجماعته من الاباضية حيث يورد لنا البكرى أن موقع تاهرت هو مكان معسكر عبد الرحمن بن رستم [٣٥] .

---

(٣٤) البكرى: مصدر سابق . ص ٦٨ .

(٣٥) البكرى: مصدر سابق ص ٦٨ .

ولقد كان بناء العاصمة وتأسيسها وتنظيم أحوالها بداية لظهور الدولة الاباضية الرستمية التى انتشرت أخبارها بسرعة فائقة فى أنحاء العالم الاسلامى ووصلت مسامع الخلافة العباسية وغيرها من الولايات الاسلامية الاخرى، كذلك كانت أنباء النهج الاسلامى القويم وتطبيق الشرع بصورة فعالة واقامة العدل والقسطاس المستقيم وما سادها من مساواة كل ذلك كان بفضل الدور الذى لعبه ابن رستم الذى أحسن الحكم والعدل والامامة بين الناس ، حيث جلس فى المسجد كما يقول ابن الصغير يحق الحق ويزهق الباطل ولا يخالف فى الله لومه لائم وينصف المظلوم ويقف بجوار الضعيف ليأخذ له حقه من القوى حتى صارت الاباضية علما شامخا من أعلام الاسلام فى المغرب وقصدته بعض الجماعات الاباضية من جنوب الجزيرة العربية والعراق وفارس ومصر، حيث كان يطاردهم ارهاب العباسيين (٣٦) .

دور اباضية المشرق فى مساعدة الامامة الرستمية :

لم يكن رحيل علماء الاباضية ورجالها من جنوب الجزيرة العربية (عمان واليمن) والعراق ومصر وفارس للانضمام الى اخوانهم فى تاهرت بالمغرب الاوسط يمثل الا دورا من الادوار التى يجب أن يلعبها اباضية العالم الاسلامى فى مساندة الدولة الغنية الناشئة، بل أكثر من ذلك فانه وقع دور هام على الذين لم يستطيعوا الرحيل الى امارة تاهرت فكان عليهم عملا بقوله تعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) الا ان يقرروا فيما بينهم التبرع بالاموال وجمعها بكميات كبيرة ما دام لم يستطيعوا أن يجاهدوا بأنفسهم مع دعم أخوانهم اباضية المغرب فما كان من أباضية البصرة المركز الاول للاباضية فى العالم الاسلامى الا أن جمعوا أموالا كثيرة خرجت من البصرة مع نفر من ثقاة الاباضية الذين تلتف حولهم الآراء فى أنهم أهل لحمل الامانة وكان اخوانهم قد ذكروا لهم فى البصرة،

---

(٣٦) ابن الصغير: سيرة الائمة الرستميين فى تاهرت ص ١١ .

انه ظهرت بالمغرب الاوسط دولة اباضية وامارة رستمية تعمل لنشر المذهب الاباضى على نطاق واسع وان امامها يملأ الدينا عدلا ويقيم دولة مبدؤها الكتاب والسنة والمساواة وانه بعد أن ملك المغرب فلابد أنه سوف يأتى عليه يوم يملك فيه المشرق فلابد من مساعدته [٣٧] .

وانه سوف يقيم العدل فى المشرق كما أقامة فى المغرب وسوف يسود المذهب الاباضى أرجاء العالم الاسلامى مادام قد توطدت دعائم دولته فى المغرب الاوسط، فانه يجب النهوض اليهم ومساعدتهم بكل ما يملك أباضية المشرق من أموال وبعد أن جهزوا جهازهم أمروهم بالسير إلى تاهرت العاصمة التى يسكنها الامام فان وجدوا ما أشيع عنه من العدل والمساواة والتكافل الاسلامى وان كل ما نقل عنه من حسن ادارته للامور وصحة سيرته فانه فى تلك الحالة لابد من دفع كل هذه الامور اليه لكى يشتد بها أزره ويقوى عوده وتستطيع دولته أن تصمد أمام الاحداث الجسام وتقاوم تيار العباسيين والامويين فى الاندلس وتكون ندا لكل الدول المعاصرة وان كان على عكس ما أشيع عنه فانه يجب القبض على الاموال والعودة بها كلها [٣٨] .

ومن هنا كان توجيه أئمة الاباضية إلى هؤلاء الثقاة واضحا كل الوضوح فى تنفيذ المهام الموكولة اليهم، ووصل وفد البصرة إلى تاهرت ودخلها من باب الصفا ووصلوا الى الامام فوجدوه قد أقام شرع الله فى أرض الله وملأ دولته عدلا واحسانا ومساواة وانه كان يحكم عن طريق مجلس الشورى الذى كان يضم رؤساء القبائل لكى يبحث كل أمور الامامة ومنها كذلك بحث كيفية التصرف فى الاموال التى قدمها أباضية البصرة مساعدة لهم، وهكذا عقد فى المسجد مجلس الشورى وقرر قبول المعونة وأنسب الطرق لانفاقها

---

(٣٧) سعد زغلول عبد الحميد: المغرب الكبير ص ٣٨٧ .

(٣٨) ابن الصغير: مصدر سابق. ص ١١ .

وكيفية توزيعها والاستفادة منها وكان لهذا العون والمساندة التى دفع بها أباضية المشرق الاثر الاكبر فى تقدم وازدهار الدولة الرستمية وتطورها العلمى والحضارى والاقتصادى والعسكرى، فقد أمنت الدولة على نفسها بما اشتروا من سلاح وعدة وخيل وشرعوا فى البناء والعمارة (٣٩) .

بل ان أباضية المشرق وبصفة خاصة أباضية البصرة لم يكتفوا بما قدموا من أموال كثيرة فى هذه المرة، بل انه لم يمض ثلاث سنوات على قبول تلك المعونة المادية حتى وصلت إلى عاصمة الامامة تاهرت قافلة أخرى تتكون من عشرة أحمال من الاموال لكى يتم التصرف فيها بمعرفة الامام عبد الرحمن بن رستم ومجلس الشورى (٤٠) لكن وفد أباضية المشرق والذى كان هو نفس الوفد السابق قد بهرته الصورة والوضع الذى صارت فيه دولة الرستميين اذ وجدوا أن الامامة والدولة فى هذه الفترة القصيرة قد خطت خطوات سريعة وواسعة فى مضمار الحضارة والتقدم والرقى الثقافى والعمرانى وفن البناء، فانتشرت القصور وازدهرت البساتين بعد أن كثر غرسها فى أنحاء كثيرة من البلاد وازدهرت الحالة الاقتصادية وظهرت آثار الغنى والثروة على أهلها فى حسن استخدام أحسن الوسائل العصرية فى الملبس والمأكل والملبس ولمس الوفد مظاهر هذا التغير الحضارى واجتمع الوفد بعبد الرحمن بن رستم ومجلس الشورى فى المسجد بعد صلاة الظهر وكان رأى الامام ابن رستم هذه المرة أن دولته لم تعد فى مسيس الحاجة إلى هذه الاموال بعد أن تطور حالها وتقدم اقتصادها وسادها الامن والامان والهدوء والاستقرار وانه لابد من اعادة الاموال إلى مصادرها الاولى بالبصرة لانهم فى بلد يغلب عليه الجور والتعسف والظلم ويخضعون لظروف المطاردة من بنى العباس وانهم بهذه الاموال يشتد عودهم وكان عبد الرحمن بن رستم لم يكتف بما تحقق من استقلال أهل المذهب فى تاهرت وأعمالها بل كان يطمع

(٣٩) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ٩٤ .

(٤٠) ابن الصغير: الصدر السابق ص ٢٧ .

إلى تحرير الجماعات الاباضية فى المشرق من ظلم العباسيين والى انتشار المذهب الاباضى فى كل دولة الخلافة العباسية [٤١] .

وقد أشار كتاب ومؤرخو الاباضية فى أقوالهم إلى اعتراف كل أباضى فى الدولة الاسلامية بأمانته وانهم داوموا الاتصال به وكاتبوه ووصلوه بوصايهم، بل أن «ابن الصغير» يذكر أن أباضية المشرق فى البصرة وأنحاء العراق وجنوب الجزيرة العربية ومصر وفارس قد اعتبروا ان امامة عبد الرحمن بن رستم قد أصبحت فرضا عليهم منذ رد الاموال السابق ارسالها له اليهم لكى يتقوا بها ظلم العباسيين ومن ذلك فقد رغب القوم فى امامته ورأوا انها فرض عليهم ويقول «الدرجينى» وأقر الاباضية بامامته وواصلوه بكتبهم فكانت تاهرت فى نظرهم درع الاباضية وحصنها المنيع وحرزا لجماعة أهل الدعوة وسميت المدينة باسم المعسكر المبارك، بل أن عدل عبد الرحمن بن رستم وما ساد الدولة من الامن والرخاء لم ينعم به أهل الاباضية فى تاهرت وحدها، بل استفاد منه أباضية البلدان الاخرى، بل جذب اليه أيضا التجار وأصحاب رؤوى الاموال الذين قصدوا تاهرت ووصلوا لها من مصر وبلاد الشام والعراق وافريقية (تونس) وسائر بلاد المغرب الاخرى [٤٢] .

الدولة الرستمية فى ظل امامة عبد الرحمن بن رستم

لقد حقق عبد الرحمن بن رستم فى فترة زمنية قصيرة نجاح ايما نجاح. اذ اصبح بما أقامه فى دولته مثلا لنظام حكم مثالى حيث طبق فى حكمه مبادئ الاسلام السمحة وأقام قواعد الدين الاسلامى وأصبح ملتزما بها أشد الالتزام فالاباضية سواء فى المشرق أو المغرب (افريقية) لم يجدوا من خلفاء بنى العباسى فى بغداد على الرغم من كل الشعارات التى رفعوها بتمسكهم بالنسب إلى البيت النبوى وبنى هاشم وانهم اتخذوا نبى

(٤١) سعد زغلول عبد الحميد: المغرب الكبير. ص ٣٨٧ .

(٤٢) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق ص ٣٨٧ .

الاسلام المثل الاعلى للحكم الا ان الاباضية الخوارج بصفة خاصة وغيرهم من طوائف المذاهب الاسلامية الاخرى قد نفروا أشد النفور ورفضوا كل الرفض انغماس هؤلاء الخلفاء فى مظاهر الترف الفارسى وتقليد الابهة والبلاط الفارسى الذى يتعارض كل التعارض مع المبادئ الاسلامية وأسس الحكم التى أقام عليها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون نظام حكمهم ومن هنا كان البعد عنهم والاتجاه الى الدولة الاباضية فى المغرب الاوسط يحاول المسلمون الحصول على أدنى معلومات عن طريقة الحكم وكيف ان امام هذه الدولة لم يكن يملك من متاع الدنيا الا حصيرا فوقه جلد غنم وليس فى بيته سوى وسادته التى ينام عليها وسيفه ورمحه وفرسه مربوط فى ناحية من داره، بخلاف ما كان عليه حال خلفاء بنى العباسى وقبلهم خلفاء بنى أمية (٤٣) .

وقد شرح ابن الصغير المالكى الذى عاصر الرستميين ملامح هذا الحكم المثالى الاسلامى فى الدولة الرستمية على نحو تفضيلى فقال عنها فقضاته ممتازه وعادلة، ثم العدل وبيوت أمواله تملؤها بالاموال الوفيرة الكثيرة وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب وان الامام يعمل لما فيه صالح المسلمين، ومن هنا كان عبد الرحمن بن رستم رجل ادارة على النحو المثالى الذى أشاع العدل فى دولته، فانه كان رجل سياسة من طراز فريد، فلم تنحصر أفكاره السياسية داخل حدود دولته بل نظر إلى خارج هذه الدولة محاولا أن يكسب لها كل دواعى الامن والاستقرار فاتجه عبد الرحمن بن رستم بنظره الى الجنوب الغربى نحو امارة سجلماسة عاصمة بنى مدرار واقام علاقة مصاهرة قوية بينه وبين «السبع بن أبى القاسم» الذى تولى أمر الصفرية فى سجلماسة عام ١٧٠هـ/٧٨٦م (٤٤) ويعتبر السبع هذا المؤسس الحقيقى لدولة بنى مدرار فى سجلماسة عاصمة بنى مدرار وكان حاكمها هو الذى تولى أمر فرقة الخوارج الصفرية، فتزوجت أروى بنت عبد الرحمن بن

---

(٤٣) الباردنى: الازهاء الرياضية جـ ٢ ص ٩٤ .

(٤٤) ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ١٥٧ .

رستم مدرار بن السبع وكان لهذا الزواج أثره القوى فى تأمين الحدود الجنوبية الغربية للدولة الرستمية وفى دعم علاقات حسن الجوار بين البلدين وقد ذهب عبد الرحمن بن رستم إلى أبعد الحدود حيث رغب فى تقوية فرص السلام مع أعداء دولته وهو الوالى العباسى فى القيروان «روح بن حاتم» فكاتبه عبد الرحمن بن رستم يطلب موادعته، ويبدو أن معاهدة سلام قد عقدت بين الطرفين عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م وقد كانت شروطها غير معروفة وقد أشار ابن خلدون الى أحداث هذه الموادعة بقوله ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت عام ١٧١هـ فى موادعة صاحب القيروان «روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلبى» بقوله وكان لهذه الاتفاقية أهميتها اذ حرص روح بن حاتم على تجديدها بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم ويقول ابن خلدون فى فى هذا المضمار أيضا ورغب روح بن حاتم فى موادعة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وكان من الاهمية موادعته فوادعه [٤٥] .

واستطاع الامير عبد الرحمن بن رستم بذلك أن يحقق حالة من الاستقرار السياسى بين دولته الناشئة وبين سائر القوى الاسلامية الأخرى فى بلاد المغرب فكان لذلك أثره القوى فى تدعيم أوتاد دولة بنى رستم فأصبحت دولة قوية هابها جيرانها وهاجر اليها الكثير من أهل المشرق والمغرب والاندلس كما قصدها العلماء والتجار وفقهاء المذهب الاباضى ورجال الصناعة والحرف والفن وأرباب المهن المختلفة من كل مكان فكان لذلك أثره القوى فى ازدهار الدولة وتطور اقتصادها ونمت تجارتها وازداد اتساع مواردها الاقتصادية، لذا فقد نعم المغرب الاوسط فى عهد عبد الرحمن بن رستم بالهدوء والامن والاستقرار وهى أمور لم يعرفها من قبل .

ويبدو أن عبد الرحمن قد اصيب بمرض أحس منه بدنو أجله فأراد أن يفتدى

---

(٤٥) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٠٨ .

بالخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب بشأن التوصية بالامامة من بعده فجعل الامامة شورى بين سبعة أفراد من رجال الدولة الرستمية يتوسم فيهم التقوى والاصلاح والعلم والتدين والورع والزهد وهؤلاء السبعة هم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، مسعود الاندلسى، أبو قدامه بن يزيد بن قندين اليغرنى، عمر بن مروان الاندلسى، أبو الموفق سعدوس موسى بن عطية، شكر بن صالح الكتامى، مصعب بن سدمان، وأوصى عبد الرحمن بن رستم هؤلاء بالبيعة والاجتماع والتشاور فيما بينهم لاختيار امام من بينهم وتوفى عبد الرحمن بن رستم عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م [٤٦] .

وهكذا انتهت فترة حكم عبد الرحمن بن رستم التى بدأت منذ عام ١٦١هـ/ ١٧١هـ والتى استمرت عشر سنوات وطد فيها دعائم الدولة والامامة وتركها قوية، بعد أن كان قد قضى الفترة من عام ١٤٤هـ/ ١٦١هـ أى ما يزيد عن ستة عشر عاما وهو يجمع القبائل حوله والاعوان لمناصرتة ونشر المذهب الاباضى فى كل بقاع يحل بها حتى اذا ما أحس أن الدعوة قد بدأت تؤتى ثمارها وانه قادر بما حوله أن يقيم دولة كان له اعلان قيامها وهكذا كان عبد الرحمن بن رستم مؤسس أول دولة أباضية خارجية فى العالم الاسلامى يكتب لها البقاء أكبر فترة زمنية بل تستطيع أن تصمد فى وجه التحديات والمحن وتقوى على كل أنواع المكايد وتحتفظ باستقلالها وسط الصراعات القوية بين (الادارسة والاغالبة العباسيين) الامويين فى الاندلس [٤٧] .

---

(٤٦) الدرجينى: طبقات الاباضية ورقة ٢٠ .

(٤٧) احسان محمد عبد الله: الدولة الرستمية فى تاهرت (رسالة ماجستير غير منشورة) ص ٢٨ .

الباب الثالث

جيل الابناء وازدهار الدولة

الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

(١٧١- ٢١١هـ- ٧٨٧- ٨٢٦م)

توفى الامام عبد الرحمن بن رستم بعد أن كان قد ترك وصية يوصى فيها بأن يتم اختيار الامام الذى يخلفه من بين السبعة أشخاص الذين رشحهم وكان من بين هؤلاء بطبيعة الحال ابنه عبد الوهاب الذى كان ملاصقا وملازما لوالده منذ أن كان واليا على القيروان، لكن الفترة التى أعقبت وفاته تعتبر من أحرج الفترات التاريخية فى تاريخ دولة بنى رستم، ذلك لان السبعة أشخاص الذين رشحهم الامام عبد الرحمن لم يستطيعوا فى فترة زمنية قصيرة أن ينتهوا من أعمالهم فى اختيار الشخص الذى يخلف عبد الرحمن أو يتفقوا عليه بناء على ما كلفهم به الامام الراحل عبد الرحمن بن رستم فقد طالت اجتماعاتهم وكانت كل مرة تنقضى دون الاتفاق على شخص واحد أو شخصين بل أن اجتماعاتهم استمرت أكثر من شهر دون أن يتخذ قرار فى هذا الشأن وطالت اجتماعات القوم، بل أنه أكثر من ذلك فان كل منهم كان يظهر عزوفه عن تولى منصب الامامة كما يقول الشماخى فى مخطوطه طبقات الاباضية، ولكن فى نهاية المطاف وبعد طول حوار وجدال ومناقشة جمعوا أمرهم على اختيار أحد الاثنين وهما اما الابن عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم أو مسعود الاندلسى، ولقد كان هناك شبه اجماع على اختيار مسعود الاندلسى لكى يكون خلفا لعبد الرحمن بن رستم بل أن العامة كان هدفهم توليته أيضا دون وراثة لان الفكر الاباضى يرفض مبدأ الوراثة فى توليه الامامة ، بالاضافة إلى أن مسعود الاندلسى كان أغزرعلما وأكثر تفقها فى أمور المذهب الاباضى من عبد

الوهاب الذى كانت قد اجتمعت حوله الآراء أيضا [١] .

لكن قد حدثت ظروف طارئة جعلت مسعود الاندلسى يختفى يوم تحديد البيعة وأخذها له وذلك زهدا منه فى تولى هذا المنصب الخطير مع العلم بأن المذهب الاباضى كان ينادى بمبدأ الشورى فى اختيار الامام ولما كان هناك اجماع على توليته فان اختفاءه عن الانظار يشكل موقع حساسية فى منصب الامامة، وقد أعطى ذلك فرصة طيبة لكى يتولى عبد الوهاب بن عبد الرحمن الامامة لانه كان الشخصية الثانية بعد مسعود الاندلسى فى نظر الجميع يضاف إلى ذلك أنه كان يتمتع بأنصار أقوياء حوله يدعمون موقفه فى هذه المعركة الانتخابية فقد انحازت قبيلة زناتة إلى عبد الوهاب [٢] ، ولكن حدث جدل عنيف فى أثناء البيعة فقد قام « أبو قدامة يزيد بن قندين» خطيبا وقال انا نقدم لك بيعتنا يا عبد الوهاب على شرط واحد وهو الا تقطع أمرا دون اتفاق جماعة معلومة معك عليه، وكان أبو قدامة يطمع من وراء ذلك أن يكون أحد أفراد هذه الجماعة بعد أن فشل فى الحصول على منصب الامامة، وقد بايعه الآخرون الستة ثم تتابع باقى الحاضرين ثم بايعه المسلمون الاباضية الحاضرون بعد ذلك بيعة عامة حملوه بعدها إلى دار الامامة فى موكب حافل امتلأت به طرقات تاهرت وهكذا تمت البيعة لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بموافقة الجميع حتى هؤلاء الذين أرادوا وضع شروط للامامة[٣]

وكان عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م هو عام توليه عبد الوهاب لمنصب الامامة وكان عمره آنذاك قد وصل إلى الثانية والخمسين من عمره أى أنه سنه كانت احدى وعشرين عاما منذ أن تولى والده قاضى طرابلس وامام القيروان ومنذ تلك الفترة وهو ملاصق لوالده، بل

(١) الدرجيتى: طبقات الاباضية. ورقة ٢١ .

(٢) الباردنى: الازهار الرياضية جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٣) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ٩٨ .

يقال انه كان العامل الوحيد فى انقاذ والده عند كبأ به فرسه ووصوله إلى بلاد المغرب الاوسط حيث جبل سوفيج، وهكذا كانت أغلب سني عمره قد مضيت إلى جانب والده عبد الرحمن ورغم أن المصادر لم تذكر الكثير عن تفاصيل حياة عبد الوهاب قبل تولية منصب الامامة، الا انه طوال هذه الاعوام فانه كان إلى جانب والده فى كل هذه الجهود المبذولة لاقامة كيان الدولة، بل انه بذل جهودا حربية وسياسية فائقة لتأسيس دولة الاباضية حيث كان الساعد الايمن لبناء دوة الاباضية وانه عاش مع والده عبد الرحمن بن رستم عندما فر من القيروان أيام ولايته عليها من قبل أبى الخطاب المعافرى، ومما يؤيد ذلك ويدعمه أن عبد الرحمن بن رستم عندما فر من القيروان إلى المغرب الاوسط لم يكن معه غير ولده عبد الوهاب، وقد ضرب عبد الوهاب فى أثناء تلك الرحلة الشاقة المضنية مثلا رائعا فى القوة والشجاعة للمحافظة على والده عبد الرحمن حتى وصل ذلك الموكب الصغير إلى سفح جبل سوفحج وكان عبد الوهاب من بين الذين تم حصارهم فى الجبل وذاقوا مرارة الحصار وأعبائه، وجمع عبد الوهاب من كل هذه السنين خبرة واسعة بفنون السياسة والحرب والادارة وكيفية التعامل مع الظروف الطارئة والقدرة على ساسة الرعية والحفاظ على خط الاتصال الدائم معهم، كما أنه اكتسب من والده الشخصية والعزيمة والارادة الحديدية والشكيمة الصلبة فهو شخصية صقلتها وطورتها الاحداث حتى اذا جاء دورها انطلقت تساهم فى صنع هذه الاحداث التى تنتظره لقيادة الدولة (٤) .

وهكذا كانت كل هذه الصفات الشخصية لعبد الوهاب دافعا قويا لكى يساهم من خلالها فى صنع الاحداث على نحو هو أحسن ما يقبل منها وقد تمتع بتفوق على سائر أقرانه واحتل مكانة علمية تكون رصيدها الهائل لديه عن طريق معلميه والذين كان أولهم والده عبد الرحمن بن رستم والثانى أبو دواد القبلى، يضاف الى ذلك انه يتمتع ببعض

---

(٤) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٠٢ .

الصفات الجسمية التى تكسب صاحبها الهيبة بين نظائره وتضفى عليه الكثير من قوة الشخصية، فقد كان ضخما ممتد القامة فقد ذكر أبو زكريا [٥] كان لعبد الوهاب بن رستم له مصلى بتلالت وفى موضع من المصلى يحتفظ بمركزه كلمام يقود دفه الاحداث فى الدولة الرستمية التى كانت الجبهة الداخلية فيها تغلى بالاحداث، وانه كان له بالمسجد بلاطة يتكئ عليها لالقاء دروسه ، بل أن عبد الوهاب بفضل هذه المميزات الشخصية المتعددة استطاع أن يقود البلاد إلى شاطئ الامان وأن يتفرغ عبد الوهاب لتأمين هذه الجبهة الداخلية فى دولته .

ولقد كان دبلوماسيا وسياسيا من من الطراز الاول اذ انه ما أن أمسك بزمام الامر فى دولته حتى انه رأى بنظرة ثاقبة أن يجدد فورا وبسرعة اتفاقية الموادعة التى تمت بين والده عبد الرحمن بن رستم وبين «روح بن حاتم بن قبيصة المهلبى» أمير القيروان، والتى رغب روح بن حاتم نفسه فى استمرارها .

كما أن عبد الوهاب قام بتأمين الجبهة الداخلية عندما حدثت ثورة جماعة النكار التى تزعمها أبو قدامة يزيد بن قندين، الذى كان أحد المرشحين السبعة الذين اختارهم عبد الرحمن بن رستم لمنصب الامامة وهو الذى كان يتولى تيار المعارضة لامامة عبد الوهاب وذلك عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م [٦] وهى السنة التى تولى فيها عبد الوهاب منصب الامامة برضى الخاصة والعامة ولكن يزيد أثار موجه من النزاع مع الامام حيث أن يزيد بن قندين هذا كان ينتمى إلى قبيلة بنى يقرن وهى فرع من قبيلة زناتة الترية، وهناك من يرجع أسباب ثورة الانكار التى فشل يزيد بن قندين واخفاقه فى الوصول إلى منصب الامامةرغم أن ابن رستم جعله من بين المرشحين السبعة لهذه البيعة والمنصب كامام

(٥) أبو زكريا: السيرة وأخبار الائمة. ورقة ١٥- ٩ .

(٦) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٠٤ .

للاباضية، بل انه من دوافع قيام أبو قدامة يزيد بن قندين بالثورة أن الامام عبد الوهاب لم يسند اليه بعد توليه الامامة أى منصب من مناصب الدولة التى كان يزيد يتطلع إلى توليتها كذلك مما ساعد أبا قدامة يزيد بن فندين على القيام بالتحريض على الثورة تلك الخلافات التى ظهرت فى مطلع عهد عبد الوهاب والتى ترجع إلى أن بعض زعماء الاباضية راعهم تحول الامامة الاباضية إلى ملك وراثى فى أبناء عبد الرحمن بن رستم وهذا يتعارض تعارضا تاما مع الفكر الاباضى الذى يقوم على أساس أن يتولى الامامة مسلم ولو كان عبدا حبشيا (٧) .

ولكن الذى يبدو أن سياسة الامام عبد الوهاب ومبادئه الصارمة فى الحكم وتمسكه بها إلى درجة التشدد واقتناعه بأن يعهد بالمناصب إلى أهل الثقة ومن لا يكون مقبلا عليها ويبعد عن تلك المناصب الطامعين فيها وهو الامر الذى كان من الاسباب القوية التى أثارت سخط أصحاب المطامع وقد أوضح الدرجيبى (٨) هذه الحقيقة حين قال أن عبد الوهاب استعان على ما قلده الله من أمور المسلمين بأهل العلم والبصائر والتعمق فى الدين، وقد عملت هذه السياسة على اتساع الهوة بين عبد الوهاب وبين الطامعين فى السلطان وخاصة «يزيد بن قندين» الذى نهض مشيرا للفتنة بالعاصمة تاهرت وقد جمع حوله أنصاره والمؤيدين له وقد استطاع بشتى الوسائل والطرق اقناعهم بوجهة نظره. فأشاع بين الرعية أن عمال الامام عبد الوهاب ليسوا على قدر من الكفاءة والدراية لتدبير شئون الدولة وانه هو واتباعه أولى بهذه المناصب، بل أعلن صراحة انكاره لامامة عبد الوهاب لانها تمت بطريقة تخالف مبادئ الاباضية فى وراثة الامامة وأعلن فساد البيعة من مبدئها بدعوى أن فى المسلمين من هو أكثر منه علما وأصلح لقيادة الدولة الاباضية التى تتعارض أسس قيامها عن مبدأ الوراثة ومن هنا فانه يجب اقصاء عبد الوهاب عن الامامة لان طريقة

(٧) محمود اسماعيل عبد الرازق: الحركات السرية فى الاسلام . ص ٢٦ .

(٨) الدرجينى: مصدر سابق ورقة ٢٨ .

اختياره لا تتواءم مع مبادئ الاباضية واعلانه جهارا على الملأ فساد البيعة من مبدئها .

ولقد أدى تطور تلك الشعارات التى وقعت فى العاصمة تاهرت وأثارها أبو قدامة يزيد الى حدوث أنقسام مذهبى خطير داخل الجماعة الاباضية فى المغرب الاوسط فأصبح هناك «النكار» وهم فرقة انفصلت عن الاباضية وصار هؤلاء القوم هم اتباع يزيد بن قندين الذين أنكروا امامة عبد الوهاب، أما بقية جمهور الاباضية بالمغرب الاوسط وهم مؤيدى عبد الوهاب بن رستم، فسموا بالوهبية نسبة إلى الامام عبد الوهاب، وكان على النكار فى تلك الحالة انعزال مجتمع تاهرت بحيث أصبح لهم مكان خاص بهم خارج تاهرت عرف «بكدية النكار» بل ان الدرجيبى أطلق عليهم الشقين لانهم أدخلوا شعبا فى الاسلام [٩].

وتذكر الروايات التاريخية أن النكار بقيادة زعيمهم أبى قدامة يزيد ابن قندين قد حاصروا العاصمة تاهرت عندما كان عبد الوهاب يقوم بمهمه خارج العاصمة، لكن ابنه أفلح بن عبد الوهاب استطاع قتل زعيم النكارية على باب العاصمة ومنعه من دخولها وتم القضاء على الفتنة .

وقد بلغ عدد القتلى اثنى عشر ألفا وجد الامام عبد الوهاب بن رستم أكثرهم ملقى متعفنا عند باب تاهرت عند عودته عندما علم بتلك الاحداث فصلى عليهم جميعا رغبة منه فى اجتماع كلمة المسلمين فى دولته، لكن تلك المعركة التى خسر فيها النكارية معظم رجالهم لم توقف أعمالهم عند هذا الحد، فقد قتلوا ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومثلوا بجثته، ولقد أرسل عبد الوهاب فى طلب الجناة فرفضوا الامتثال للاوامر والحضور للعاصمة فأرسل اليهم جيشا بقيادة ابن ابنه ميمون القتيل، استطاع أن يقتل الجناة الذين قتلوا والده وقتل من النكار عددا كبيرا فضعف أمرهم ولم تعد لهم تلك

(٩) احسان محمد عبد الله: مرجع سابق. ص ٤٢ .

الخطورة التى تهدد مركز عبد الوهاب، الا أن الذى يلاحظ أن حركة النكار خلقت وضعا سياسيا واجتماعيا ودينيا جديدا فى الدولة الرستمية، فقد أعطت حركة النكار فرصة لكى تطفو كجماعه دينية تعيش فى داخل حدود دولة تاهرت لكى تظهر على سطح الاحداث وتدخل فى صدام مع الدولة تلك هى جماعة الواصلية إحدى فروع المعتزلة من أهل المغرب. وقد قامت تلك الفرقة لما رأت ما قامت به النكارية من ثورة فى وجه عبد الوهاب بمناقشة موضوع الامامة وما تم فى اختيارها والاساليب الشرعية فى كيفية الاختيار وناقشوا فيما بينهم مسألة الامامة فى الدولة الرستمية باعتبارهم من رعايا الدولة، وقد دفع ذلك لان ينضم بقايا النكارية الذين شردهم «أفلح بن عبد الوهاب» بالانضمام إلى الواصلية فى حركتهم التى ترى عدم أحقبة عبد الوهاب بالامامة وعدم شرعيته ومن هنا أصبحت حركة الواصلية المشكلة الثانية التى تهدد الجبهة الداخلية فى الدولة الرستمية بعد ثورة النكارية، ومن هنا كان الواجب يحتم على عبد الوهاب أن يعالج الامور بأقصى سرعة وأن يحافظ على وحدة الدولة الرستمية والجبهة الداخلية قوية متماسكة، وذلك بعد أن كانت جماعة الواصلية تؤلف حزبا قويا فى الدولة الرستمية .

أحداث الواصلية فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم :

ينسب الواصلية إلى واصل بن عطاء العزال رأس المعتزلة وكان عددهم عند قيامهم بالثورة ضد عبد الوهاب يقدر بثلاثين ألف مقاتل وقد انتشر مذهبهم إلى الشمال من تاهرت ما بين مدينة مسنغانم ووهران إلى الجنوب من تاهرت فى «تبلفت» وفى بعض المناطق الصحراوية من وادى (تيراب) كما انتشرت هذه الجماعة من الواصلية أيضا وباعداد كبيرة فى شمال المغرب الاقصى فى «وليلى» وكان رئيسهم هناك هو «اسحاق بن محمد الاوربى» وكانت هذه الجماعة تتمتع بقدر كبير من الحرية الفكرية فى ظل الدولة الرستمية فاستطاعوا فى ظل حكم عبد الرحمن بن رستم ومن بعده ابنه وما واجهوه من

ظروف ملائمة أن يدعوا لمذهبهم وأن يناظروا من يريدون حتى ولو كان امام الدولة نفسه، وترجع أسباب ثورة الواصلية على نطاق واسع فى الدولة الرستمية إلى انهم غضبوا لقتل أبى قدامة يزيد بن قندين، باعتباره من قبيلة بنى يقرن التى هى فرع من زناتة التى ينتمى اليها معظم الواصلية. ويؤكد ذلك التفاف النكارية حول زعيم الواصلية وتأييده لثورتهم لاسيما انهم ادعوا ظاهريا أن السبب الرئيسى لثورتهم هو مقتل أبى قدامة يزيد، وقد انضم بقايا النكارية الموجودون فى شمال تاهرت إلى اخوانهم الواصلية .

لكن كل ذلك لم يكن السبب الوحيد لثورة الواصلية على الامام عبد الوهاب، فقد كانت هناك مؤثرات خارجية دفعت الواصلية إلى الثورة وتظهر هذه المؤثرات واضحة عندما اتجه الامام ادريس بن عبد الله الاكبر بجيوشه نحو تلمسان عام ١٧٣هـ/ ٧٨٩م. وهى اذ ذاك قاعدة المغرب الاوسط وبها من القبائل مغراوة وبنى يقرن وتمكن ادريس بن عبد الله الاكبر من اخضاع أميرها «محمد بن خزر بن صولات المغراوى» الذى طلب من ادريس الاكبر الامان واعترف بامامته وقد قام أمراء تلمسان الادارسة التابعون لها من مغراوة وبنى يقرن بعد خضوعهم لسلطان الادارسة بمحاولات لضم أجزاء من الدولة الرستمية إلى دولة الادارسة التابعين لها [١٠] وقد تكاثفت الجهود فى هذا الشأن مع زعيم الواصلية فى المغرب الاقصى «اسحاق ابن عبد الحميد الاوربى لاثارة ثورة الواصلية بالمغرب الاوسط وجاء مقتل أبى قدامة يزيد بن قندين فرصة لتدخل الواصلية واثارة الجدل مرة ثانية حول امامة عبد الرحمن بن رستم .

بل أن الامر لم يقف عند هذا الحد بل حشدوا جيشا عظيما اقترب من مدينة تاهرت العاصمة ودارت بين الطرفين معارك كانت الحرب فيها سجالا بين الطرفين وفى ضوء هذه الاحداث كانت محاولة الادارسة تشجيع الواصلية القضاء على كيان الدولة والتعهد

---

(١٠) حسن على حسن : دولة الادارسة بالمغرب (رسالة ماجستير غير منشورة) ص ٧٢ .

بالمساندة عند طلب المساعدة .

دور اباضية جبل نفوسة فى القضاء على الفتنة :

انه فى ضوء الاحداث التى تمر بها الدولة الاباضية فى تاهرت، فأن عبد الوهاب رأى أن يطلب المساعدة من اخوانه أباضية جبل نفوسة حيث كان هؤلاء الاباضية هم الدرع الواقى للدولة الرستمية وكان أباضية نفوسة يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتى عن نفوذ الدولة العباسية منذ زمن عبد الرحمن بن رستم وفى عهد ابنه عبد الوهاب ازدادت الصلات بينه وبين أباضية هذا الجبل قوة ورسوخا بما كان بينهم من وشائج الصلات والعلاقات الوثيقة .

وتذكر المصادر التاريخية أن عبد الوهاب طلب من سكان جبل نفوسة أربعمائة فارس للمبارزة ومائة مفسر للقرآن الكريم ومائة لمساندة عبد الوهاب وتدعيم الدولة الاباضية الناشئة ومحاولة تدعيم ركيزتها فى المغرب الاوسط ومنع انهيارها أمام زحف الأدارسة الذين يدفعون بالمعتزلة الواصلية للانقضاض على الدولة .

وبعد وصول الوفد اجتمع مع الامام عبد الوهاب لدراسة ما يمكن اتباعه فى مواجهة الواصلية وبعد الاتفاق على الخطة المرسومه أرسل عبد الوهاب للقاء الواصلية، فاستعد الفريقان وجمع كل منهم جموعه وتقدم عبد الوهاب بين الصفوف وتقدم معه من أهل جبل نفوسة، مهدى النفوسى، محمد بن بانس، فتناظروا مع عالم الواصلية حتى كبر اتباع الاباضية وزعيمهم عبد الوهاب، وعلى أثر ذلك نشب قتال عنيف بين الاباضية والواصلية واستطاع الاباضية قتل فارس الواصلية وانهزمت جماعات الواصلية وعاد بعضهم الى طاعة الامام عبد الوهاب ودخلوا فى طاعة الحكم الرستمى والبعض الآخر كون لهم امارة صغيرة بجانب تاهرت والبقية الباقية توجهت الى المغرب الاقصى والتفت حول زعيم المعتزلة «اسحاق ابن محمد الاوربى» الذى امتد نفوذه ما بين طنجة الى وليلى بجبل زرهون .

وهكذا كان القضاء على حركة الواصلية وقبلها ثورة النكارية يمثلان خطوة هامة من خطوات المحافظة على كيان الدولة الرستمية وحماية حدودها الغربية من خطر الادارسة بعد أن استطاع الامام عبد الوهاب وقف خطر الادارسة عند تلمسان وأصبحت السيادة الرستمية تمتد من المنطقة التى تقع شرق تلمسان إلى المغرب الاوسط وهكذا نجح عبد الوهاب فى القضاء على أهم المشاكل التى واجهت مسيرة الدولة من الواصلية وكان عليه أن يكون فى وضع أكثر استعدادا للقضاء على أى ثوزة أو تمرد يهدد كيان الدولة (١١) .

ولما كان عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم قد استطاع أن يفرغ من القضاء على ثورة النكارية والواصلية حتى كان عليه أن يواجه القبائل البربرية التى وقعت تحت تحريض النكارية واستطاعت أن تجد فريق القبائل التى تسكن حول تاهرت فرصة لها لتحقيق أهدافها فقد قامت ثورة من قبائل مزاتة وسدراتة وذلك بتحريض النكارية لاثارة الشغب فى وجه الدولة ومحاولة النكار لاكتساب الانصار والمؤيدين لهم عن طريق التسلل الى زعماء ورؤساء هذه القبائل البربرية، لاسيما أن قبائل مزاتة وسدراتة كثيرة القيام بالرعى حول تاهرت، وهكذا أثمر عمل النكارية بعد قيامهم بالدعوة السرية على نطاق واسع بين رؤساء هذه القبائل وأفرادها. فما كان من هؤلاء الزعماء الا أن ذهبوا لمقابلة الامام عبد الوهاب وطلبوا منه أن يقوم بعزل القاضى والقائم بالشرطة وصاحب بيت المال وتولية أناس خير منهم لان الرعية متفقة على انهم لا يقومون بأعمالهم على أحسن وجه وكان قد وعدهم بتلبية مطالبهم لكنه عاد فى اليوم الثانى لكى يقول لهم انه لا يحب عزل القاضى ولا صاحب بيت المال ولا القائم بأمر الشرطة الا بناء على توجيه تهمة له أو أن تظهر عليه جريرة قام بها، لكنهم رفضوا ذلك الاسلوب فى معالجه الامر واقسموا على ضرورة عزلهم ومحاكمه الامام عبد الوهاب نفسه (١٢) .

---

(١١) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٣٠ .

(١٢) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٢٨ .

وعندما تأزم الموقف ووصل إلى حد استخدام السلاح من جانب قبائل مزاتة وسدراتة فانه لم يكن امام الامام عبد الوهاب من خيار سوى استخدام السلاح لمحاربتهم والقضاء على حركتهم خاصة وانه قد اتضح أن الصلة قد أصبحت قوية بينهم وبين النكارية وبعد ان علم ان النكارية هم وراء كل هذه المطالب وهذه الثورة القبائلية، وانه كان لابد من تفويت الفرصة على أعدائه القدامى النكارية كما ثبت له أن قبيلة مزاتة كانت لها اتصالات وانتماءات قوية بمذهب الاعتزال وهى على رأى واصل بين عطاء وعلى هذا فقد وجه عبد الوهاب انذارا إلى رجال القبائل التى تجمعت حول العاصمة تاهرت من مزاتة وسدراتة لمهاجمتها وطالبهم بالالتزام بالطاعة ومن معهم من النكارية والواصلية لكنهم رفضوا تلك الاوامر وقرروا مهاجمة العاصمة فما كان من عبد الوهاب الا ان خرج اليهم فى قوات ضخمة قضت على حركتهم أما من بقى من هذه القبائل فقد فروا إلى أوطانهم التى قدموا منها، أما النكار الذين كانوا يؤاذرونهم ويشدون أزرهم فقد تقهقروا إلى جبال الاوراس حيث ظلوا معتصمين بها إلى قرب نهاية الدولة الرستمية وهكذا نجح عبد الوهاب فى القضاء على هذه الحركة وتوطدت دعائم دولته الامر الذى جعل ابن الصغير يقول: ثم اشتد أمر عبد الوهاب وقوى عوده وعليه فقد انتقل من حال الامامة إلى حال الملك [١٣] .

واذا كان عبد الوهاب قد فرغ من قتال حلف القبائل (مزاتة وسدراتة) فان عصيانا آخر قد ظهر على مسرح الاحداث حيث قامت قبيلة هوارة بالخروج على شرعية الدولة، وكانت سياسة عبد الوهاب الحيلولة دون قيام تحالفات ومصاهرات بين القبائل القوية وذلك كجزء من سياسته فى تأمين الجبهة الداخلية للدولة وقد حارب عبد الوهاب مثل هذه التحالفات بنفس الاسلوب الذى اتبعته هذه القبائل [١٤] ومما يذكر أن قبائل هوارة التى كانت تقيم بالقرب من تاهرت كان لهم رؤساء فمقدمون يقال لهم الاوس ويعرفون ايضا

(١٣) ابن الصغير : المصدر السابق ص ٢٩ .

(١٤) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٥٦ .

ببنى سالمة وكانت تتم مصاهرة بينهم وبين قبائل لواتة وبذلك تصبح مصالح القبيلتين واحدة ويتم التحالف بينها وقد فطن عبد الوهاب إلى خطورة مثل هذه الامور وما يتم فيها من مصالح واحدة ومصاهرة، لكن عبد الوهاب افسد هذه الخطة فغضب مقدم الاوس وغضبت معه عشيرته وأقسم ألا يقيم بتاهرت ورحل عنها حتى نزل بوادى هوارة وبينه وبين تاهرت نحو عشرة أميال وانضم اليه كثير من الخارجين على الدولة وعلى الامام عبد الوهاب نفسه وبدأت هذه القبائل من هوارة تقوم ببعض أعمال العنف ضد الدولة ومواطنيها وتم قتل بعض رعايا الدولة ومن ثم أرسل عبد الوهاب فى طلبهم لكنهم رفضوا فجهز لهم عبد الوهاب جيشا بقيادة ابنه أفلح الذى استطاع عبور نهر ارجلان وقد أبلى أفلح بن عبد الوهاب فى هذه الحرب بلاء حسنا انتهت المعركة لصالح بنى رستم وهزمت جميع الاوس هزيمة فادحة ورحلت بقاياهم إلى جبل تيجان. وهكذا بذل عبد الوهاب جهودا مضنية للاحتفاظ بوحدة الدولة الرستمية وتوطيد دعائمها وتمكن بفضل هذه الجهود من القضاء على الفتن والثورات [١٥] .

توطيد اركان الدولة وضم أراضى جديدة :

ما أن شعر عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بالقضاء على كل الفتن والدسائس وان الامور قد صارت على خير ما يرام والجهة الداخلية قوية أكثر من أى وقت مضى وان أوضاع الدولة الرستمية من الممكن أن تسير فى غياية لاسيما ان ابنه أفلح قد تولى أمورها فى كثير من الاوقات واستطاع أن يحقق الانتصارات على أعداء الدولة كالنكارية وثورة الهوارة وغيرها من الامور التى كانت تعترض المسيرة اليومية لادارة الدولة، عندما فطن الى هذه الامور فانه كان مشوقا لاداء فريضة الحج وزيارة الاماكن المقدسة فى الحجاز وكان أول عمل قام به أن استخلف ابنه أفلح على تاهرت ومنحه تفويضا كتابيا

---

(١٥) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٦٠ .

بادارة شئون الدولة والرعية وخرج قاصدا أداء الفريضة مصطحبا زوجته وجمعا كبيرا من رجال دولته ومضى بهم نحو المشرق قاصدا أراضى الحجاز، لكن الاباضية فى مناطق قريبة من جبل نفوسة وطرابلس حيث أقليم شرق الدولة أشاروا عليه بعدم التوجه لاداء فريضة الحج بل منعوه من مواصلة السفر للاراضى الحجازية خوفا من أن يقبض عليه العباسيون أعداؤه وأعداء دولته، وبعد طول مشاورة اقتنع برأيهم ولكن كان عليه أن يطلب رأى علماء الاباضية فى مكة المكرمة حول هذا الرأى، فأرسل رجلا من نفوسة (جبل نفوسة) وهو المكان الذى منعه فيه الاباضية من مواصلة السفر إلى كل من عالمى الاباضية أبى عمر الربيع بن حبيب، وابن عباد وهما من علماء الاباضية المشارقة فى مكة المكرمة ويطلب رأيهم بصراحة فى مسألة أمر الذهاب إلى الاراضى الحجازية لتأدية فريضة الحج .

فأجابه أبو الربيع بن حبيب، بأنه من كان فى تلك العناية والمسئولية بأمور المسلمين وحمل أمانتهم وخاف على نفسه من السوء أن يبعث بمن يقوم بأداء فريضة الحج مكانه وهو حى يرزق، وأجابه ابن عباد، انه من كان على هذه الصفة فلا حج عليه لان من شروط الحج أمان الطريق وعدم وجود الاعداء الذين يتربصون به الدوائر، فلما قدمت اليه الرسل أخذ بدأيها وأرسل من يتولى أداء الحج بدلا منه (١٦) . وذلك حرصا على عدم وقوعه فى أيدى أعدائه من العباسيين وسوف تصدق حدسه أهالى جبل نفوسة فى منع امامهم عبد الوهاب من الذهاب الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج لان العباسيين سوف يقبضون على أبى اليقظان بن عبد الوهاب وهو أمير وليس أماما وهو يؤدى فريضة الحج فى مكة ويسوقونه إلى السجن حيث يقضى فترة طويلة فى سجن بغداد .

لقد كانت المنطقة التى استقر فيها الامام عبد الوهاب وهو فى طريقه إلى بلاد المشرق لاداء فريضة الحج هى منطقة جبل دنر وتسكن هذا الجبل قبائل دمر الزناتية ومع

(١٦) الشماخى: مصدر سابق ص ٥٩ .

انهم أباضية المذهب الا أن استقرارهم بالقرب من افريقية (تونس) ركيزة النفوذ العباسى فى المغرب جعلهم يفضلون حياة الاستقلال عن الدولة الرستمية حتى لا يتعرضون للانتقام من قبل ولاة العباسيين فى القيروان لكن، لكن عبد الوهاب طاب له المقام فى ضيافة سكان الجبل حتى يأتيه رد علماء الاباضية إلى الدخول فى طاعته والانضمام لدولته ومبايعته اماما لهم فقاموا بمبايعته وانضموا اليه واعترفوا به اماما شرعيا عليهم وقدموا له البيعة مباشرة فولى عليهم رجلا تقيا ورعا زاهدا لكى يدير شئونهم ويستطيع أن يدبر أموالهم وقد عرف ذلك الشخص باسم «مدرار» وبنى الامام عبد الوهاب مسجدجامعا ومصلى ويعرف المسجد باسم مسجد عبد الوهاب وقد أقامه فى موقع يقال له «تلالة» من هذا الجبل، ثم قام الامام بزيارة جبل نفوسة والذى يتصل اتصالا وثيقا بجبل دمر ويعتبر هذا الجبل معقلا هاما من معاقل الدولة الرستمية [١٧] .

ولقد كان كل سكان جبل نفوسة على المذهب الاباضى ولا يخضعون بالطاعة للامام عبد الوهاب، لكن امام تاهرت فى نظرهم هو امام كل الاباضية. وفى ذلك يقول اليعقوبى [١٨] عن سكان ذلك الجبل انهم لا يؤدون خراجا الى سلطان ولا يعطون طاعة الا إلى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الاباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، كما أن البكرى يضيف قائلا ان سكان هذا الجبل اذا تداعت للقتال فانها تستطيع أن تجند ستة عشر ألف مقاتل وهذه الكثرة العددية لها أثرها فى الحفاظ على كيان الدولة الرستمية كقوة سياسية فى بلاد المغرب .

وتضيف المصادر التاريخية كابن صغير والباردنى والدرجيبى وغيرهم من المؤرخين أن عبد الوهاب والذى كان يحلم بتوسيع رقعة سلطنته قد سمحت له ظروف رحلته إلى بلاد

(١٧) محمد صابر عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٥٩ .
(١٨) اليعقوبى: تاريخ اليقوبى ص ٢٧٨ .

المشرق لاداء فريضة الحج فاستقر بين أتباعه من الاباضية بجمع صفوفهم ويوجد أهدافهم حتى استغرقت تلك الاقامة سبع سنوات قضاها متنقلا بين القبائل شارحا ومدرسا وفقيها وملقنا لتعاليم الاباضية . وقد اتخذ من قرية (ميرى) مقرا له وبنى له مسجدا وكان هذا المسجد غاية فى الابداع والاتساع والاتقان والصنعة. وقد شهد هذا المسجد لعبد الوهاب جهودا ثقافية رائعة حيث عقدت جلسات الوعظ والارشاد وشهد تحليق الطلبة حوله يسألون عبد الوهاب فى شرح وتعميق مفاهيم المذهب الاباضى فى المغرب وكيف وهو الذى تلقى هذه التعاليم عن طريق والده وهكذا كانت فترة اقامة عبد الوهاب سببا مباشرا فى ظهور جيل من العلماء الاباضية الذين حملوا شعلة العلم الاسلامى والمذهب الاباضى فى عصر الرستميين ، وقد ظهر فى جبال نفوسة جماعة من العلماء الذين لعبوا دورهم فى اثراء الحركة الفكرية والعلمية والمذهبية منهم ، مهدى النفوسى محمد ياسين ، أبو الحسن الابدلانى ، عمروس بن فتح ، يعقوب بن أفلح، أبو عبيدة عبد الحميد المبادنى، سعيد الجادتى وغيرهم كثيرون من العلماء الذين كان لهم باع طويل فى توطيد أركان المذهب الاباضى فى الدولة الرستمية [١٩] .

الامام عبد الوهاب والصراع مع الاغالبة وتوسيع حدود الدولة :

لقد طالت اقامة الامام فى جبل نفوسة جنوب الاراضى التى تسيطر عليها الخلافة العباسية ممثلة في واليها الامير ابراهيم بن الاغلب، حيث كان طوال هذه الفترة لم يكتف بالقاء الدروس والمواعظ وتعميق المفاهيم الدينية للمذهب الاباضى، انما كان مع كل ذلك يراقب عن كثب الاحداث التى تجرى على ساحة طرابلس ويشهد ما بها من اضطراب الامور والحوادث التى انتشرت وانتشرت بها أعمال الشغب والخلافات القبلية التقليدية بين القبائل السبئية (اليمن) والقيسية (الشمال) والتى بذل الامير الاغلبى ابراهيم بن الاغلب

(١٩) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١٦١ .

جهودا جبارة لمحاولة احتواء الازمة ومعالجتها بشتى الوسائل حتى انه استعان بجند مصر فى قمع هذه الفتن ولكن القوات التى قدمت من مصر لم تستطع أن تحل مشكلة الصراع العميق بين السبائية والقيسية وفشلت هذه الجهود كما فشل غيرها من قبل وعمت الفوضى أنحاء مدينة طرابلس التى كانت تدخل فى أملاك الدولة العباسية وتحت ولاية بنى الاغلب من قبل الدولة العباسية، بل أن الذى زاد الموقف سوءا أن البربر قاموا بالثورة على جند المدينة من العرب وعلى جميع العرب عموما بما فيهم نواب الاغلب، كذلك فان قبيلة هوارة قد ثارت فى وجه الاغالبة واشتدت الوطاة على حاكم طرابلس، بل أن هناك أقوال تذكر أن الذى شجع هوارة على القيام بالثورة ضد الاغالبة انها ربما قد تكون لقيت تعضيدا من جانب عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم لانها كانت تعلم بوجوده فى جبل نفوسة القريب من طرابلس، فالمسافة بين جبل نفوسة وطرابلس كما يذكر الجغرافيون لم تكن أكثر من مسيرة ثلاثة أيام [٢٠] .

ولما كانت منطقة استقرار القبائل البربرية من هوارة على بعد قريب من طرابلس فان والى الاغالبة فى طرابلس قد أصدر أوامره للقوات العربية بالتحرك إلى حيث سكنى قبائل هوارة لاخماد الثورة والقضاء على قوة هوارة واستطاع جند الاغالبة أن يتقدم إلى منطقة يطلق عليها «وادى الرمل» حيث كانت حشود هوارة على أتم استعداد لملاقاة القوات القادمة من طرابلس ودارت بينهم معركة حامية الوطيس استطاع فيها الاغالبة وجنودهم أن يولوا الفرار بعد أن سحقتهم قبائل هوارة وجعلتهم يفرون أمامهم إلى طرابلس ومن ثم تبعت فلولهم هوارة حتى دخلت طرابلس ودمرت أسوارها .

وفى ذلك يتحدث ابن الاثير قائلا فثأرت قبائل هوارة بطرابلس وخرج الجند والتقوا واقتتلوا فهرب الجند إلى المدينة فتتبعتهم هوارة ففروا هاربين إلى الامير ابراهيم بن

---

(٢٠) البكرى: مصدر سابق ص ٧٢ .

الاغلب ودخلوا المدينة فهدموا أسوارها ووصلت مسامع الثورة إلى ابراهيم بن الاغلب فسير اليها ابنه أبا العباس عبد الله فى ثلاثة عشر ألف جندى وتمكن عبد الله من الحاق الهزيمة بهوارة وقتل منها عددا كبيرا وتمكن من دخول طرابلس وبناء سورها [٢١].

ولما كان عبد الوهاب قريبا من مسرح الاحداث وعلى علم بكل ما جرى على الساحة بدءا بالصراع ونهاية بهزيمة هوارة، فانه رأى أن هزيمة هوارة على هذا النحو الذى تمت به تعد اعتداء صارخا من الاغالبة على مواطنى دولته الرستمية، لذا فانه أراد أن يدفع هذا العدوان بالقوة وأن يستخدم القوة ازاء القوة، فأعد جيشا وجمع القوات وتقدم لحصار طرابلس وتمكن عبد الوهاب من فرض الحصار على طرابلس عام (١٩٦هـ/ ٨١١م)[٢٢]. لكن عبد الوهاب وجيشه لاقى مصاعب جمة وكثيرة أثناء فرض الحصار وذلك لعدم تكتم كبار قواده على الخطط العسكرية التى كان يعدها عبد الوهاب لاقتحام المدينة، لكن عبد الوهاب ازاء افشاء الاسرار الحربية فانه لم يجد بدا من تكن هذه الاخبار والاستعانة بمشورة وزيره «مزور بن عمران» دون غيره من كبار القادة، الا انه رغم هذه المتاعب التى عانى منها عبد الوهاب فان أبا العباس عبد الله بن ابراهيم الاغلب لم يفكر لحظة واحدة فى فتح أبواب المدينة والخروج لملاقاة جند عبد الوهاب وانما أحكم سد أبواب المدينة كلها وكان يقاتل من باب واحد هو باب هوارة، وظل القتال يدور على هذا النحو حتى وفاة ابراهيم بن الاغلب الذى كان قد عهد بالامارة إلى ابنه عبد الله، لكن زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب كان قد أخذ العهد والمواثيق على الجند وأرسل إلى أخيه عبد الله فى طرابلس رسالة يخبره بموت أبيه وبأن الامارة قد انتقلت اليه، لكن الرسول والرسالة تصادف وقوعهما فى أيدى جند عبد الوهاب الذين كانوا قد أحكموا الحصار

---

(٢١) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٢٨ .

(٢٢) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٠٨ .

حول طرابلس، فقام البربر بأخذ الرسول والرسالة ودفعوا بهما إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فأمر بأن ينادى عبد الله بموت أبيه وأمام هذه الظروف لم يجد عبد الله بدا من عقد الصلح مع الامام عبد الوهاب، وجاء فى شروط الصلح اعتراف دولة الاغالبة الممثل الشرعى للخلافة العباسية فى بلاد المغرب بالسيادة الرستمية على المناطق الداخلية من طرابلس الا انه كان من أهم بنود الصلح أن تكون للاغالبة السيادة على مدينة طرابلس وبعض الاجزاء الصغيرة المجاورة والمياه البحرية التى تطل على البحر المتوسط، أما ما كان خرجا عن ذلك فهو لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وبهذه المعاهدة قوى مركز الامام عبد الوهاب الرستمى فى الجهات الشرقية للدولة الرستمية ولم يتوان هذا الامام عن انتهاز أية فرصة لتوطيد دعائم دولته (٢٣) .

وعلى هذا فلم يكد عبد الوهاب يفرغ من توقيع الصلح مع عبد الله بن الاغلب حتى نجده يتطلع إلى المناطق الشرقية التى يسود فيها المذهب الاباضى لكى يضمها الى دولته ليوسع بها دائرة نفوذه السياسى ولكى يجعلها من أكبر الدول فى المغرب العربى، بل انه اتخذ خطوات عملية فى ذلك الشأن بأن قام بتعيين الولاه والعمال على كل قبيلة من هذه القبائل أو على كل قطعة أرض يسكنها قوم من الاباضية، فنجد انه يقوم بارسال «مسلمة بن قطعان الزواغى» إلى قابس فحاصرها حصارا شديدا وشدد عليها الحصار حتى استولى عليه وضمها إلى الدولة الرستمية وكانت تلك المدينة تقع داخل نفوذ حكم الاغالبة، بل أن ذلك القائد الاباضى لم يكتف بالاستيلاء على قابس بل استولى على العديد من القرى والجبال الغربية وأخضع القبائل التى تسكنها لسلطان الرستميين كقبيلة مطامطة، ونزقة، ودمر وزواغة، وجزيرة جربة، وبذلك استقام الامر فى هذه المناطق للامام (٢٤) .

---

(٢٣) الشماخى: مصدر سابق ص ١٦١ .

(٢٤) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١١٠ .

بل أن عبد الوهاب أخذ فى رصد وتعيين عماله على هذه النواحى الجديدة وغيرها من المناطق التى بسط الرستميون نفوذهم عليها، فعين «سلام بن عمر اللواتى» حاكما واماما على مدينة سرت ونواحيها، ومسلمة بن قطفان الزواغى على مدينة قابس ونواحيها ، ومحمد بن اسحاق الخزرى على قبيلة نفراوة، ووكيل بن سراج النفوسى على مدينة فقصة، أما جارون ابن القمرى، مهدى بن عاصم الزناتى، بيران الترمرنتى المزانى، فيرجح انهم كانوا عمالا للامام عبد الوهاب على غدامس، زويلة، توزر .

ويجمل القول أن الامام عبد الوهاب استطاع عن طريق المصاهرة التى عقدت بينه وبين أبى العباسى عبد الله ابراهيم بن الاغلب أن يفرض واقعا جديدا على الاغالبة فجعل خط الحدود مع دولته يسير مع خط المناطق التى ينتشر فيها المذهب الاباضى المعروف والمعروف من المذهب الاباضى انه قد انتشر فى مناطق كثيرة فى جنوب افريقية (تونس) وأن هذه المناطق قد خضعت للنفوذ الرستمى بفضل جهود عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومن هذه المناطق التى خضعت للحكم الرستمى جبال الاوراس موطن قبيلة هوارة ومكناسة. ويقول البكرى جبل أوراس وهو مسيرة سبعة أيام وبه قلاع كبيرة تسكنها قبائل هوارة ومكناسة وهم أباضية، أما شمال الاوراس فى جنوب مدينة «باغية» فقد كانت فيه منازل مزاتة [٢٥] .

وقد ذكر الامام عبد الوهاب عن سكان تلك المناطق أنهم كلهم أباضية وهذا تأكيد كبير على الوجود الاباضى القوى النفوذ فى تلك الانحاء وفى ذلك يؤكد ابن الصغير [٢٦] أن تلك المناطق قد خضعت خضوعا تاما للنفوذ الرستمى وامتد سلطانهم السياسى والادارى على تلك المناطق وفى ذلك فانه عندما توفى قاضى جبل الاوراس، فإن مجلس

(٢٥) البكرى: مصدر سابق ص ١٤٤ .

(٢٦) ابن الصغير: سيرة الائمة الرستميين . ص ٢٣ .

الشورى فى تاهرت اختار لهذا المنصب القاضى «مسلم الهوارى» والذى كان راحدا من الشخصيات البارزة فى جبل الاوراس. ويضاف انه لما تم تعيين «مسلم الهوارى» قاضيا على تلك النواحى فانه قدم وفدا منهم إلى أفلح بن عبد الوهاب فقالوا له لقد ارتضينا جميعا بأن يكون محكم الهوارى الساكن بجبل أوراس قاضيا علينا، ومن ذلك فانه ينصح بأن الحقائق الثابتة تؤكد أن خط الحدود الشرقية للدولة الرستمية يبدأ شرقا من خليج سرت إلى طرابلس وقابس ما عدا مدينه طرابلس والساحل فانهما يقعان تحت النفوذ الاغلبى وينعطف الخط عند جنوب صفاقس نحو الغرب فيسير على فقصة وجبال شرشال على ساحل البحر أما حدود الدولة الرستمية الشمالية فتمتد على ساحل البحر الابيض المتوسط من شرق شرشال إلى غرب وهران متضمنا مدنا ساحلية هامة هى تشرشال وتنس ومسنغانم ووهران، أما الحدود الغربية للدولة فيبدأ من غرب وهران وشرق جبال تلمسان إلى جنوبها ثم تتجه نحو الغرب فتخترق جبال القصور إلى غرب مدينة قصيف ومدينة بنى ونيف ثم تنحدر الحدود فى الصحراء الكبرى فتخرج تلمسان وجبالها من مناطق الدولة الرستمية لانها تخضع لنفوذ الادارسة [٢٧] .

وفوق ذلك كله تتمتع الدولة الرستمية بنطاق حدود واسعة من الشمال إلى الجنوب تبدأ من ساحل البحر الابيض المتوسط فى الشمال حتى أقصى الصحراء الكبرى فى الجنوب إلى ما بعد أورجلان وغدامس وفزان .

استقرار الامور والعودة الى العاصمة :

بعد أن أحس الامام عبد الوهاب انه استطاع خلال السنوات السبع التى أمضاها بين رعيته من الاباضية فى الاقاليم الشرقية من الدولة وانه استطاع أن يوطد النفوذ الاباضى الرستمى فى اقليم جبل نفوسة وطرابلس وكثير من جهات ومناطق جنوب «تونس» ومن ثم

---

(٢٧) حسن على حسن: مرجع سابق ص ٧٦ .

قرر العودة إلى عاصمته تاهرت، فطلب اليه أهل نفوسة وغيرهم من القبائل أن يولى عليهم رجلا يكون مسئولا عنهم وعن رعاية شئونهم والقيام بامامتهم والقضاء لهم ولقد وقع اختيارهم على الشيخ (السمح بن أبى الخطاب المعافرى) ابن امام الاباضية الاول فى المغرب وحاكم طرابلس السابق وزميل دراسة لعبد الرحمن بن رستم وغيره من زملائه ولقد كان السمح وزيرا للامام عبد الوهاب وشخصيته مقربة اليه ويأخذ رأيها فى كثير من الامور وكان عزيزا عليه أن يفارقه، لكن الامام نزل على رغبتهم وترك ابن السمح واليا على طرابلس بما فيه أهل الجبل .

ومن ثم مضى الامام عبد الوهاب إلى العاصمة تاهرت تاركا اقليما واسعا من أقاليم الدولة الرستمية تحت ادارة أحد ثقاته والمقربين اليه ولقد ظل السمح واليا على اقليم طرابلس فأحسن سيرة الحكم وأقام العدل بين الرعية وساسهم بالمودة والاخوة الصادقة ورتب العمال والقضاه فى مدة ولايته كما عين رجال الشرطة وأقام الامن والامان وشرع فى البناء والتشييد والعمران وكان لايخرج عن رأى الامام فى أى أمر من أموره ولا يخالف له أمرا واستطاع أبو السمح الاحتفاظ بولاء أهالى جبل نفوسة الدينى والسياسى للائمة فى تاهرت. وهكذا كانت ولاية السمح بن أبى الخطاب فترة هدوء واستقرار وأمان وظلت الدولة قوية محتفظة بكيانها ولم تحدث أدنى متاعب فى تلك المنطقة، ولما حضرت السمح الوفاة اجتمع اليه وجوه القوم وكبار رجال الدين وأصحابه وطلبوا اليه أن يختار شخصا يوليه أمورهم ويكون خليفة له فى تلك المنطقة لا تخرج الرعية عن طاعته ولقد سارع كثير من العامة إلى تولية خلف بن السمح بن أبى الخطاب المعافرى واليا عليهم خلفا لابيه المتوفى [٢٨] .

ويبدو أن خلف هذا قد ادعى لنفسه بأحقية الولاية خلفا لابيه السمح وجده أبى

(٢٨) البارونى: الازهار الرياضية، جـ ٢ ص ١٤٩ .

الخطاب المعافرى على أساس انه من أبناء أبى الخطاب عبد الاعلى المعافرى، الذى كان اماما للاباضية قبل قيام الدولة الرستمية، بل الاكثر من ذلك فان خلف بن أبى السمح لم يكتف بتعيينه واليا على الاقاليم الشرقية للدولة الرستمية، بل انه أرسل كتيبا هو ومؤيدوه من الاباضية فى ذلك الاقليم إلى الامام «أبى سفيان محبوب بن الرحيل»، حيث كان أبو سفيان من الائمة المشهود لهم على مذهب الاباضية يستفتونه فى أمر الاجازة لهم بالقيام بتكوين ولاية أباضية لهم منفصلة عن كيان الدولة الرستمية وذلك على أساس أن المسافة بعيدة بينهم وبين العاصمة تاهرت [٢٩] لكن فى نفس الوقت الذى كان يقوم فيه خلف وأعوانه بالكتابة إلى أباضية المشرق بشأن الانفصال عن الدولة الام كانت تلك الانباء قد وصلت إلى مسامع الامام عبد الوهاب بن رستم، فانه رفض ولاية خلف على طرابلس واعمالها وأسل كتابا إلى أهل الجبل يعلمهم فيه بفساد ولاية خلف بن السمح، بل انه طلب فى كتابه اذا أتاهم هذا الكتاب فليرجع كل عامل كان من قبل السمح إلى ولايته الا خلف بن السمح فانه يقف حتى يأتيه أمر الامام عبد الوهاب وقد رفض خلف بن السمح ومن معه من أعوانه الاستجابة لاوامر عبد الوهاب وأعلنوا العصيان عليه والتمرد وانفصال الاقليم الشرقى عن الدولة الام [٣٠] وأمام هذه الاحداث وأخطار الانقسام التى تهدد دولته حيث كان ذلك الاقليم الشرقى من أقاليم الدولة الهامة التى لها أثرها فى دعم الدولة ماديا وعسكريا وسياسيا بل اقتصاديا فقد سارع الامام عبد الوهاب بتعيين شخصية جديدة بدلا من السمح المعافرى، الذى توفى وعزل خلف بن السمح وكان ذلك الشخص هو «أيوب بن العباسى» وكان شخصية قوية هابها خلف والتزم بالسكون والطاعة طوال فترة تولية، لكن لم تمض فترة طويلة حتى توفى «أيوب بن العباسى» وتولى بدلا منه «أبو عبيدة بن عبد الحميد الجنادتى» أمر جبل نفوسة وفى أيامه استفحل أمر خلف بن السمح

---

(٢٩) الدرجيبى: طبقات الاباضية ورقة ٣١ .

(٣٠) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١١٨ .

المعافرى وأتباعه وأخذت القبائل الموالية له فى شئن الغارات على أطراف الدولة. فأرسل أبو عبيدة إلى الامام عبد الوهاب يطلب منه أن يأذن له فى قتال خلف بن السمح ابن أبى الخطاب ولكن الامام عبد الوهاب أشار إلى أبى عبيدة أن يلاطف خلفا وألا يفتح معه باب القتال والصراع فهدأت حركة خلف بن السمح مرة ثانية (٣١) .

وهكذا نرى كيف نجحت سياسة الامام عبد الوهاب فى المسالمة وعدم اللجوء للقوة الا عند الضرورة القصوى من الاسباب القوية التى ساعدته على تكوين دولة مترامية الاطراف سادت مساحتها أضعافا مضاعفة عما كانت عليه أيام أبيه عبد الرحمن بن رستم وهكذا نجح عبد الوهاب إلى الوصول بها الى أوج اتساعها وترك لخلفائه دولة قوية الدعائم مترامية الاطراف متينة الاركان يقول عنها ابن الصغير (٣٢) كان عبد الوهاب قد اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم ما لم يجتمع للاباضية من قبل ودان له من القبائل والمدن والاقاليم والاراضى ما لم يدن لغيره من قبل وأجتمع له من الجيوش الجرارة المسلحة بأحداث أسلحة العصر ما لم يجتمع لغيره من قبل، ولقد بلغت قوته إلى حد أنه حاصر مدينة طرابلس وحكم المغرب منها شرقا إلى مدينة يقال لها تلمسان غربا وظل الهدوء سائدا أنحاء الدولة الرستمية حتى توفى الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عام ٢١١هـ/ ٨٢٦م بعد أن أمضى فى الامامة أربعين عاما كانت من أمجد فترات الدولة الرستمية حيث كان عصر عبد الوهاب هو العصر الذهبى لاسرة عبد الرحمن بن رستم، حيث التقدم الحضارى والثقافى والاقتصادى وفى كل المجالات سارت الدولة بخطى ثابتة فى طريق التقدم والازدهار والرقى والوصول الى درجة عاليه من الازدهار .

---

(٣١) ابن الصغير : سيرة الائمة ص ٢٧ .

(٣٢) ابن الصغير : مصدر سابق ص ٢٧ .

الباب الرابع

جيل الاحفاد (الامام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم)

(٢١١- ٢٤٠هـ- ٨٢٦- ٨٥٤م)

توفى الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بعد أن وطد دعائم الدولة الرستمية وأقام دعائم أسسها القوية وذلك خلال الاربعين عاما التى قضاها فى اصلاح أحوال البلاد وشأن العباد واقامة العدل والقضاء على الفتن والتصدى لكل المحاولات التى تحاك ضد الدولة ومحاولة القضاء على استقلالها أو تقسيمها إلى أجزاء صغيرة والضرب بالشدة على الحركات الانفصالية التى حدثت فى شرق البلاد (خلف بن السمح بن أبى الخطاب المعافرى) أو ثورة الواصلية وتأييد الادراسة لهم وهكذا كان على الامام ابنه أفلح أن يتولى الامامة لدولة قوية الجانب مرهوبة الجناح شامخة فى سماء المغرب العربى [١] .

وقد تولى أفلح حكم البلاد بعد وفاة والده مباشرة وذلك خوفا من تجدد الخلاف حول مسألة الامامة مثلما حدث بعد وفاة جده عبد الرحمن ابن رستم وهناك أقوال تذكر أن أفلح قد كانت كل الانظار تتجه اليه لكى يتولى الامامة بعد والده مباشرة نظرا للاعمال التى قام بها والامور التى تقلدها فى حياة والده [٢] .

وكذلك لما امتاز به من أعمال عالية ومدراكه الواسعة والمامه بأمور أصول المذهب الاباضى ودوره البطولى فى صد غارات النكارية وقتل زعيمهم أبى قدامة بن قندين. وكذلك ادارة شئون الدولة خلال فترة وجود والده فى الاقاليم الشرقية والتى قدرت بسبع سنوات، ومن هنا كان الاجماع على مبايعته بالخلافة وتسلمه لمقاليد الامور بالامارة قطعا

(١) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق ص ٧٦ .

(٢) الباردنى: الازهار الرياضية جـ ٢ ص ١٦٦ .

للخلافات التى ربما تنشأ من شأن التأخير وذلك بعد أن أقسم لهم على أن يسير فيهم على نهج الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح من أنصار المذهب وأصحاب المذهب الاباضى .

ولقد كانت شجاعته وبطولته من أكثر الصفات التى جعلت أفلح مرشحا للامامة من الجميع ومن قبل والده عبد الوهاب بصفة خاصة ومن هنا أصبحت الشجاعة صفة غالبة عليه، لذا فان المصادر قد أجمعت على أن عبد الوهاب قد أوصى قبل وفاته بأن يكون أفلح ولى عهده فى الامامة ولقد جاءت هذه الوصية على لسان عبد الوهاب نفسه عندما كان يقاتل بنى مسالمة وكان أفلح مشتركا معه فى هذه المعركة وقد أعجب عبد الوهاب بشجاعة ابنه فقال لمن حوله من كبار القواد ورجال الاباضية، لقد استحق أفلح ابنى الامامة وكانت هذه الوقعة أول يوم عقدت له فيه الامامة، وفى ذلك لا يختلف أصحاب المذهب الاباضى عن مذهب السنة فى شروط اختيار الامام عندما تكون احدى شروطهم لاختيار الامام هو العلم وقت السلم والشجاعة وقت الحرب وقد كانت شجاعة الامام أفلح بن عبد الوهاب سببا فى انهاء كثير من المشاكل الداخلية التى قد يترتب عليها اختيار الامام فى الدولة الرستمية وحمسها لصالح أبيه عبد الوهاب ومن ذلك على سبيل المثال كما سبق القول قتله لأبى قدامة يزيد بن قندين زعيم النكار عندما هاجم مدينة تاهرت وبمقتله لم يقم لطائفة النكار قائمة فى المغرب الاوسط .

كما أن الامام عبد الوهاب قد حرص كل الحرص على اعداد ابنه أفلح لكى يتحمل مسئولية الحكم اذا ما أختير بعده اماما وأتاح الفرصة أمامه لكى يتمرس بأسلوب الحكم والادارة، فقد ترك له عبد الوهاب ادارة شئون الدولة الرستمية والعاصمة تاهرت فى أثناء غيابه فى جهات الدولة الشرقية طوال سبع سنوات وقد استفاد أفلح من تلك الفترة استفادة كبيرة اذ كانت كافية لكى تقرر قدرته على ادارة شئون البلاد، كذلك فان

احتكاكه بالناس وتعاملهم معه فانهم عرفوا قدره وخبروا مدى علمه الواسع [٣] ويبدو أن هذه الفترة لم تكن هى الفترة الوحيدة التى أدار فيها أفلح شئون الدولة وانما أدار شئون الدولة قبل وفاة والده بعدة سنوات، لذا فعندما مات والده، أحس المقربون للسلطة والجهاز الحاكم ورجال القضاء والشرطة أن أفلح هو أنسب الشخصيات لهذا المنصب فى الدولة وتمسكوا به اماما للبلاد وكان أفلح هو أول جيل الاحفاد من سلالة عبد الرحمن بن رستم [٤] وتحدد بعض المصادر التاريخية بأن تلك الفترة الاخيرة التى تولى فيها أفلح ادارة شئون الدولة كانت فى أعقاب آخر أعمال عبد الوهاب الحربية التى حارب فيها بنى مسالمة وقضى فيها على تمردهم وفى ذلك تقول المصارد أن قول عبد الوهاب لمن حوله أن أفلح يستحق الامامة كان ذلك ترشيحا له للامامة وانقطع اليه المتعاطفون ودارت اليه الحوائج والعطايا من تحت يديه فلم يزل كذلك وعلى ذلك حتى اقتربت من عبد الوهاب منيته فلما مات عبد الوهاب صارت الخلافة لابنه أفلح [٥] .

ومما يجدر قوله فى هذا الشأن أن توليه أفلح بن عبد الوهاب لامامة الدولة الرستمية بهذه الطريقة التى تمت بها انما يعد فى مذهب الخوارج الاباضية خروجا على مبدأ الانتخاب العام الذى تم بالنسبة لجده عبد الرحمن ووالده عبد الوهاب والذى نادت به فرقة الخوارج وهو أن يكون المرشح لمنصب الامامة من أى جماعة من الناس حتى ولو كان عبدا حبشيا ويعتبر خروج الاباضية فى الدولة الرستمية عن قاعدة الانتخاب العام أو الشورى انما هو نوع من حرية التشريع لجأ اليها الائمة الرستميون حفاظا على كيان الدولة من التفتت والانقسام من جراء الفتن والقلاقل التى كانت تتعرض لها من حين لآخر ولهذا اصبحت الدولة الرستمية فى هذا الشأن تجرى على أسس تشريعية متشابهة مع

---

(٣) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١١٠ .

(٤) محمد على دبوز: المغرب جـ ٣ ص ٥٥٩ .

(٥) ابن الصغير: مصدر سابق جـ ٣ .

الاسس التى تجرى عليها سائر الدول الاسلامية فى المشرق والمغرب وهى احترام مبدأ الورثة عند تولية مسئولية الحكم أو الخلافة أو الامامة [٦] .

ولقد اتفق الجميع على بيعة أفلح بن عبد الوهاب ورضى بها الجميع حيث انه ما كادت أخبار تولية الامامة تنتشر فى أنحاء العاصمة وفى كل أنحاء الدولة الرستمية الواسعة الاطراف حتى جاءت اليه كتب العمال فى مختلف الاقاليم والانحاء وكذلك كتب اليه أئمة المسلمين ورجال الدين فى كل الجهات والولايات، والجميع يعلنون مبايعتهم له وكان من بين هذه الكتب كتاب أبى عبيدة بن عبد الحميد المبادنى عامله على جبل نفوسة حيث الاقليم الشرقى من الدولة .

وقد ظهرت فى فترة امامة أفلح بن عبد الوهاب جماعة أطلقوا على أنفسهم اسم الشراة وقد تعرض أفلح فى مطلع عهده لاختبارات من جانب هؤلاء الشراة، وقد كان الشراة جماعة تتكون من أربعين رجلا ممن اشتروا آخرتهم بدنياهم بمعنى انهم تخلوا عن الدينا وعاهدوا الله على انكار المنكر والامر بالمعروف بين الرعية بدون مبالاة من حاكم ولا خوف الا من الله وانهم كانوا لا يهابون الموت ولو أدى ذلك الدخول فى قتال مع اعدائهم وانهم كانوا دائما يدخلون فى جدال مع الائمة ويقومون بامتحانهم، وكان لما تولى أفلح بن عبد الوهاب أن أرادوا أن يعرفوا مدى صلاحيته لمنصب الامامة لاسيما وانهم قد وثقوا من والده عبد الوهاب فى أمور كثيرة، وكان قاضيا من قضاة أوربة قد مات فى أيامه فاجتمع «الشراة» إلى أفلح وسألوه أن يولى منصب القضاة من يستحقه فقال لهم اجمعوا أمركم وقدموا خيركم ثم اعلمونى به أجيره لكم وأعضده (أى أقوم بتعيينه) على أن يكون من أهل الصلاح والتقوى والورع فقام الشراة باختيار « محكم الهوارى» الساكن بجبل الاوراس لهذا المنصب وأتوا إلى أفلح وأخبروه بذلك فقال أفلح لن نرضى لقضائنا هذا

---

(٦) الباردنى : الازهار الرياضية جـ ٢ ص ٦٦ .

الرجل، وأصر الشراة على اختياره، وقد أثبتت الاحداث بعد نظر أفلح وعلمه بدقائق الامور، فعندما ذهب الشراة إلى «محكم الهوارى» لاخباره باختياره لنصب القضاء قال لهم أنه لا يقبل ذلك الامر لان الحق أمر من شرب الدواء ولا يشرب الدواء الا كرها ولكنهم أصروا فنزل على رغبتهم وتولى منصب القضاء (٧) .

وبالغ أفلح بن عبد الوهاب فى اظهار التواضع اذ رأى أن شخصيته كامام محط أنظار الجميع، ويذكر ابن الصغير أن وفدا من أباضية جبل نفوسة نزلوا ضيوفا فى تاهرت على دار الامام، فأظهر لهم تواضعه فى الاكل والمشرب حتى انه كان يصب الماء على أيديهم بعد تناول الطعام، وبهذا أصبح أفلح بن عبد الوهاب موضع الرضا والتقدير من الجميع وكان أفلح بن عبد الوهاب لما تولى أمر الامامة قد أخذ فى ادارة شئون البلاد بالعزم والحزم ونشأ له من التبين ما لم يكن لغيره قبله وصار له الصيت ولم يكن يطغى عليه فى أحكامه وفى صدقاته وأعشاره غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ (٨) .

الامام أفلح وتدعيم الجبهة الداخلية :

ترك الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عند وفاته دولة قوية البناء مستقره الدعائم متينة البناء وكان ابنه أفلح يدرك كل هذه الامور تمام الادراك وتلك الحقائق الهامة وان الكيان القبلى والنظام العشائرى الذى يتكون منه مجتمع الدولة الرستمية فى حاجة ماسة إلى ممارسة نوع من السياسة الخاصة ولما كان أفلح قد تربى فى كنف والده الذى تربى فى كمنف جده عبد الرحمن بن رستم وورث كل معايير الحكم فانه لم يكن أقل حنكة ودهاء وحكمة منهما فاستطاع بتعاليم والده وسياسته المتقلبة أن يقبض على زمام الامور فى الدولة وأن يسير بها الى بر الامان، ومن الاساليب التى لجأ إلى استخدامها

(٧) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٢٠ .

(٨) ابن الصغير : مصدر سابق ص ٢٢ .

الاسس التى تجرى عليها سائر الدول الاسلامية فى المشرق والمغرب وهى احترام مبدأ الورثة عند تولية مسئولية الحكم أو الخلافة أو الامامة [٦] .

ولقد اتفق الجميع على بيعة أفلح بن عبد الوهاب ورضى بها الجميع حيث انه ما كادت أخبار تولية الامامة تنتشر فى أنحاء العاصمة وفى كل أنحاء الدولة الرستمية الواسعة الاطراف حتى جاءت اليه كتب العمال فى مختلف الاقاليم والانحاء وكذلك كتب اليه أئمة المسلمين ورجال الدين فى كل الجهات والولايات، والجميع يعلنون مبايعتهم له وكان من بين هذه الكتب كتاب أبى عبيدة بن عبد الحميد المبادنى عامله على جبل نفوسة حيث الاقليم الشرقى من الدولة .

وقد ظهرت فى فترة امامة أفلح بن عبد الوهاب جماعة أطلقوا على أنفسهم اسم الشراة وقد تعرض أفلح فى مطلع عهده لاختبارات من جانب هؤلاء الشراة، وقد كان الشراة جماعة تتكون من أربعين رجلا ممن اشتروا آخرتهم بدنياهم بمعنى انهم تخلوا عن الدينا وعاهدوا الله على انكار المنكر والامر بالمعروف بين الرعية بدون مبالاة من حاكم ولا خوف الا من الله وانهم كانوا لا يهابون الموت ولو أدى ذلك الدخول فى قتال مع اعدائهم وانهم كانوا دائما يدخلون فى جدال مع الائمة ويقومون بامتحانهم، وكان لما تولى أفلح بن عبد الوهاب أن أرادوا أن يعرفوا مدى صلاحيته لمنصب الامامة لاسيما وانهم قد وثقوا من والده عبد الوهاب فى أمور كثيرة، وكان قاضيا من قضاة أوربة قد مات فى أيامه فاجتمع «الشراة» إلى أفلح وسألوه أن يولى منصب القضاة من يستحقه فقال لهم اجمعوا أمركم وقدموا خيركم ثم اعلمونى به أجيره لكم وأعضده (أى أقوم بتعيينه) على أن يكون من أهل الصلاح والتقوى والورع فقام الشراة باختيار « محكم الهوارى» الساكن بجبل الاوراس لهذا المنصب وأتوا إلى أفلح وأخبروه بذلك فقال أفلح لن نرضى لقضائنا هذا

---

(٦) البارونى : الازهار الرياضية جـ ٢ ص ٦٦ .

الرجل، وأصر الشراة على اختياره، وقد أثبتت الاحداث بعد نظر أفلح وعلمه بدقائق الامور، فعندما ذهب الشراة إلى «محكم الهوارى» لاخباره باختياره لنصب القضاء قال لهم أنه لا يقبل ذلك الامر لان الحق أمر من شرب الدواء ولا يشرب الدواء الا كرها ولكنهم أصروا فنزل على رغبتهم وتولى منصب القضاء [٧] .

وبالغ أفلح بن عبد الوهاب فى اظهار التواضع اذ رأى أن شخصيته كامام محط أنظار الجميع، ويذكر ابن الصغير أن وفدا من أباضية جبل نفوسة نزلوا ضيوفا فى تاهرت على دار الامام، فأظهر لهم تواضعه فى الاكل والمشرب حتى انه كان يصب الماء على أيديهم بعد تناول الطعام، وبهذا أصبح أفلح بن عبد الوهاب موضع الرضا والتقدير من الجميع وكان أفلح بن عبد الوهاب لما تولى أمر الامامة قد أخذ فى ادارة شئون البلاد بالعزم والحزم ونشأ له من التبين ما لم يكن لغيره قبله وصار له الصيت ولم يكن يطغى عليه فى أحكامه وفى صدقاته وأعشاره غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ [٨] .

الامام أفلح وتدعيم الجبهة الداخلية :

ترك الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عند وفاته دولة قوية البناء مستقره الدعائم متينة البناء وكان ابنه أفلح يدرك كل هذه الامور تمام الادراك وتلك الحقائق الهامة وان الكيان القبلى والنظام العشائرى الذى يتكون منه مجتمع الدولة الرستمية فى حاجة ماسة إلى ممارسة نوع من السياسة الخاصة ولما كان أفلح قد تربى فى كنف والده الذى تربى فى كمنف جده عبد الرحمن بن رستم وورث كل معايير الحكم فانه لم يكن أقل حنكة ودهاء وحكمة منهما فاستطاع بتعاليم والده وسياسته المتقلبة أن يقبض على زمام الامور فى الدولة وأن يسير بها الى بر الامان، ومن الاساليب التى لجأ إلى استخدامها

(٧) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٢٠ .

(٨) ابن الصغير : مصدر سابق ص ٢٢ .

مثلما فعل والده سياسة اضعاف التحالف بين القبائل عن طريق الوقيعة بينها والوشاية عن طريق رجاله، فقد كانت القبائل المنتشره حول تاهرت قد تعاظم شأنها نتيجة لما اكسبته من الاموال بسبب الرخاء الاقتصادى الذى عم الدولة، وهكذا سارت الامور فى دولة الاباضية فى تاهرت ومن كانوا يؤيدونهم من أباضية جبل نفوسة فى الاقاليم الشرقية سيرا وسطا بين الالتزام بمبادئ المذهب الاباضي والانحراف عنه وقد وقعت حروب كثيرة بينهم وأصيبت جماعتهم بانشقاقات كثيرة وخاصة بين أباضية تاهرت وأباضية جبل نفوسة، الذين أقاموا على أنفسهم اماما من بينهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن والنكارية وطبق أباضية جبل طرابلس مبدأ الوراثة أيضا، حيث ولوا عليهم خلف بن السمح بن أبى الخطاب «بن الاعلى المعافرى» ولقد لقى منهم أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم غننا شديدا ولكن الاباضية فى تاهرت وجبل نفوسة استمرتا تغالبان المتاعب والازمات دهرا طويلا (٩) .

كما أن القبائل المحيطة بتاهرت قد اتخذت خطا جديدا فى السياسة نحو الامامة حيث كان جيل الاحفاد فى أفلح قد وطد نفوذ الرستمية فى البلاد. لذا عمد أفلح الى استخدام جهاز من أعوانه أشبه ما يمكن أن نطلق عليه بمصطلح العهد الحديث «جهاز المخابرات» وقد كانت وظيفة هؤلاء الاعوان القاء الاحقاد والفتن وبذر الخلافات بين القبائل الكبرى حول تاهرت وقد نجحت هذه السياسة ايما نجاح فى اضعاف مركز هذه القبائل وابطال ما قد تقوم به من تحالف (١٠) .

وحول هذه السياسة يذكر ابن الصغير انه لما رأى أفلح بن عبد الوهاب ما عليه القبائل فانه أرشى ما بين كل قبيلة وما يجاورها فارشى بين لواتة وزناتة وما بين لواتة

---

(٩) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والاندلس. ص ١٠٤ .

(١٠) محمد عيسى صابر: مرجع سابق، ص ١٢٢ .

ومطماطة وما بين الجند البربر والعجم حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب وصارت كل قبيلة ملاطفة لافلح خوفا من أن يعين صاحبتها عليها [١١] .

القضاء على فتنة جبل نفوسة :

كذلك فان أفلح بن عبد الوهاب لم يدخر وسعا، بل بذل أقصى جهوده فى القضاء على ثورة خلف بن السمح بن أبى الخطاب المعافرى تلك الثورة التى فتت فى عضد الدولة أيام عبد الوهاب بعد أن تولى أفلح منصب الخلافة فقد وصلته أنباء من واليه على الاقاليم الشرقية في الدولة عبيدة بن عبد الحميد الجنادتي. يطلب منه فى تلك الرسالة أن يسمح له بالدخول فى حرب مع خلف بن السمح المعافرى، وذلك للقضاء على ثورته التى كانت قد بدأت فى عهد والده وذلك قبل أن يستفحل أمره، لكن أفلح بن عبد الوهاب الذى كان حريصا على وحدة القوة الاباضية فى بلاد المغرب وعدم قتل الاباضى لاخيه الاباضى رأى أن من الحكمة أن يساير عبيدة خلف بالاسلوب السياسى وأن يلاطفه ويستعمل معه كل الاساليب السياسية من حكمة ودهاء وحنكة وذلك توطيدا للامن وحقنا للدماء ولكن خلف بن السمح قد ظن أن ذلك الاسلوب الذى سار عليه أفلح وأمر عامله بالتعامل باللين أن يتخذه خطا الحكم نوعا من الضعف .

وهناك استطاع خلف بن السمح أن يحشد جيشا كثيفا وضخما تقدم به ناحية مدينة «جارو» حيث مقر أبى عبيدة ولكن أبا عبيدة خرج اليه بحشد من قوات الدولة والتقى بطليعة من طلائع جيش خلف كانت قد أغارت على قرية «أورق» وهى من قرى جبل نفوسة وقتلوا من أهلها عددا كبيرا ولم يصمد رجال خلف طويلا أمام قوات أبى عبيدة ففروا عائدين من حيث أتوا إلى مقر خلف بن السمح. وبعد تلك الواقعة فان أبا عبيدة أرسل كتابا إلى خلف بن السمح يدعوه فيه بالكف عن الفساد والالتزام بالناحية

---

(١١) ابن الصغير: مصدر سابق، ص ٢٣ .

التى يسكن فيها والا يرسل قواته للاغارة على قرى أباضية آمنة، ورغم هذه المحاولة من جانب أبى عبيدة، فان خلف استعد لجولة ثانية مع أبى عبيدة فعزم الأمر ولم يكن قد مضى عام واحد على حادث قرية «أورق» حيث خرج اليه فى أربعين ألف جندى وقامت معه بقايا النكارية أتباع «أبو قدامة يزيد بن قندين» بمحاولات لصرف أبى عبيدة عن حرب خلف بن السمح ودعوته هو نفسه إلى خلع طاعة أفلح بن عبد الوهاب ولكن أبا عبيدة رفض هذه الدعوة كما رفض محاولة ثانية قام بها رسولان أرسلهما خلف لدعوة أبى عبيدة إلى خلع طاعة الامام أفلح بن عبد الوهاب والدخول فى طاعة خلف بن السمح المعافرى ولم يجد أبو عبيدة أمامه من طريق الا لقاء قوات خلف بن السمح للمرة الثانية رغم قلة عدد قواته وبالقرب من مدينة «جارو» دارت بينه وبين خلف معركة حامية الوطيس انتصر فيها أبو عبيدة وذلك عشية الخميس الثالث عشر من رجب عام احدى وعشرين ومائتين هجرية وفر خلف بن السمح من أرض المعركة بعد أن قتل من جنده أعداد كبيرة [١٢] .

ولم يرتدع خلف بن السمح الا على يد الوالى « العباسى بن أيوب» الذى تولى شئون جبل نفوسة بعد وفاة أبى عبيدة، ودارت بين العباسى وخلف معركة فاصلة استطاع فيها العباسى أن ينتصر على قوات خلف ورغم ضعف قوة خلف وانهيار قواته بسبب هذه الحروب فان جماعة الخلفيين اتباع خلف بن السمح بن أبى الخطاب المعافرى ظلت قوية وحيه بين الفرق الاباضية الاخرى فى اقليم جبل نفوسة .

كذلك لم يكن خروج خلف بن السمح المعافرى عن طاعة الامام أفلح هى المشكلة الوحيدة التى واجهت الدولة الرستمية، بل حدثت بعض المشاكل الداخلية والتى منها خروج «فرج النفوسى» فى جبل نفوسة أيضا والمعروف باسم بنفات بن نصر خرج عن

---

(١٢) الباردنى: مصدر سابق، جـ ٢٠ ص ١٧٣ .

طاعة الامام أفلح وطعنه فى الائمة الرستميين وكان نفات هذا يقيم فى احدى القرى القريبة من بلدة فنطرارة فى جبل نفوسة وقد وفد إلى تاهرت لتلقى العلم بصحبة صديقه «سعيد بن أبى يونس» الذى كان والده عاملا على قنطرارة من قبل الامام أفلح بن عبد الوهاب وفى تاهرت ارتادا معا مجالس الامام أفلح وغيرها من المجالس العلمية والاستزادة العلمية من الشخصيات المعروفة لدى الامام وغيره من العلماء وبعد وفاة والد سعيد قرر الامام أفلح بعد مشاورة أهل الرأى أن يتولى «سعيد بن أبى يونس» على مدينة فنطرارة خلفا لوالده وذلك لما لمسه فى سعيد من الصلابة فى الرأى والقوة فى الحجة والتفقه فى الدين وحس التجربة والوقوف عند أمور الشرع وما ينهى عنه [١٣] .

ولقد كان ذلك التعيين من الاسباب القوية التى حركت فى نفس نفاث أن يدعو قومه للخروج على طاعة الامام وما لبث أن عاد إلى قريته وهناك خرج على الامام وأشهر الطعن فى الامام قائلا أن أفلح أضاع أمور المسلمين واتبع أمور الشيطان ويصلى بلا شعور، وازاء تلك الاقوال وما جاء على لسان نفاث وخوفا على ما تحدثه تلك الآراء من بلبلة بين العامة فقد بعث الامام أفلح بالرسائل إلى عماله فى مختلف نواحى الدولة وبصفة خاصة فى الاقليم التى يقطنه نفاث يحذرهم فيها من أقوال نفاث وضرورة محاصرة تلك الآراء، وفى نفس الوقت بعث برسالة أخرى إلى نفاث يحذره فيها من مغبه هذه الاقوال، بل انه شد عليه فى استخدام القوة ضده وانتهاء مرحلة اللين فخاف نفاث على نفسه وجمع أمواله وهرب إلى أرض سرت شمالا ومنها إلى بغداد حيث أقام هناك فى كنف الخلافة العباسية، الا انه رغم فراره، فقد ظل هناك فى جبل نفوسة بعض الذين تأثروا بآراء نفاث بين نصر وظلوا ينادون بتطبيق هذه الآراء، لذا عرفوا باسم النفاتية [١٤] .

---

(١٣) الدرجيبى: طبقات الاباضية ورقة ٣٤ .

(١٤) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص ٥٨٨ .

وقد شهدت مدينة تاهرت والدولة الرستمية حركة فكرية وثقافية وحضارية واسعة فى عهد أفلح بن عبد الوهاب وقد ساعد على ذلك احترام الامام أفلح لمبدأ حرية الفكر التى سادت دولته بحيث استطاع أن يجذب اليه وإلى جانبه أنصار المذهب والافكار الواصلية احدى فروع المعتزلة وذلك بعد أن كانوا أعداء والده بالامس فأصبح الامام أفلح رئيسا للواصلية إلى جانب كونه رئيسا للاباضية والصفرية ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا حيث استطاع احتواء هذه الجماعات وفى ذلك يقول البكرى وكان « ميمون» «أفلح بن عبد الوهاب » رئيس الاباضية وامامهم وامام الصفرية والواصلية وكان يسلم عليه بالخلافة وتدعيما لاركان الدولة كان يكتب الكتب إلى عماله فى الاقاليم لكى يقوموا بنقلها الى العامة وتدعوهم هذه الكتب إلى تقوى الله واتباع آثار السلف الصالح من الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله ﷺ. وأن يقوموا لله بالعدل فى عباده وبلاده [١٥] وقد كان لهذه الرسائل أثرها فى تهدئة الاحوال فى الدولة حتى أصبح عهد أفلح بن عبد الوهاب عهد ازدهار الدولة الرستمية، وساد الدولة الرستمية الهدوء ومن ثم اتجهت طاقات أبنائها إلى العمل على تقدم الدولة وازدهارها وبدأت طلائع هذا التقدم تظهر فى حياة أفلح بن عبد الوهاب الذى سمح فى ملكه وأخذ فى بناء القصور واتخذ له أبوابا من حديد وعمرت معه الدنيا وكثرت الاموال وانته الرفاق والوفود من كل الامصار والآفاق وعمر فى امارته ما لم يعمره أحد من قبله وأقام خمسين عاما أميرا نشأ له البنون وبنو البنين وشمخ فى ملكه[١٦] .

أما البلاد فقد حفلت بأنواع التجارات التى عادت على الناس بأرباح وفيرة أنفقوها فى البناء والعمران وتفانى الناس فى البناء وقد أعجب ابن الصغير بجمال هذه القصور وروعتها ودقة النظام بها وإلى جانب هذه القصور الفخمة كانت هناك أحياء كاملة أنشأتها بعض القبائل والجماعات، فأبتنت نفوسة لنفسها فى العدوه وقامت جماعة الجند القادمة

---

(١٥) البكرى: مصدر سابق ص ٦٨ .

(١٦) رابح بونار: المغرب العربى ص ٣٦ .

من افريقية هربا من بطش الاغالبة بناء لهم أقاموا فيه وأطلقوا عليه اسم المدينه العامرة وكان للعجم دورهم فى اثراء الدولة الرستمية وازدهارها عن طريق التجارة التى كانوا يمارسونها وصارت مؤسساتهم الاقتصادية تمثل جزءا هاما من اقتصاديات الدولة الرستمية(١٧) بل أن ظاهرة الازدهار الاقتصادى لم تكن قاصرة على مدينة تاهرت وانما انتقلت إلى سائر جهات الدولة فنالت القبائل المختلفة جانبا من الثروة وظهرت عليها آثار الرخاء وانتشرت القبائل وعمرت العمارة وكثرت الاموال بأيديهم كما نالت الدولة قسطها من الازدهار الثقافى والحضارى فأصبحت تاهرت مركزا ثقافيا هاما كغيرها من المراكز الاسلامية وخصوصا الثقافة الدينية (١٨) .

ولقد ساعد على ازدهار الحركة الدينية الاسلامية والفكرية والثقافية أن أئمة الاباضية كانوا علماء دين ورؤساء مذهب يتطلب من أصحابه أن يكونوا على أهبة الدفاع عن آرائهم وأفكارهم ومبادئهم الدينية بالحجة الدامغة والدليل القوى الذى يستطيع أن يدحض آراء الخصم مثلما حدث فى الصراع بين الاباضية والواصلية فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٩) ولقد ساعد ذلك على أن تكون مساجد العاصمة تاهرت قبلة لطلاب العلم من أنحاء البلاد يتلقون مبادئ الفكر الاباضى على أيدى كبار علماء الاباضية فى أصول الدين والفقه والشريعة والرياضيات والطب والكيمياء والتنجيم وقد شاركت المرأة الرستمية فى هذه النهضة الثقافية كما أن الثقافة العربية الاسلامية المشرقية أصبح لها جذور ثانية فى بلاد المغرب العربى، ولقد كان لازدهار الدولة الرستمية على هذا النحو اثاره الخطيرة على جيرانهم فقد توسع ملك الرستميين توسعا كبيرا وتضخمت ثرواتهم وتألق نجمهم فى سماء المغرب العربى كله وأصبحت تاهرت تحتل مكان الصدارة

---

(17) Golvin, L, : Le Magreb central 'a L'epoque des Zirides. P.20

(١٨) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٢٨ .

(١٩) محمد الطومار تاريخ الادب الجزائرى ، ص ٣٠ .

فى بلاد المغرب وقد أحس الاغالبة حكام افريقية (تونس) خطورة هذا الامر على مركزهم السياسى والاقتصادى فقام «أبو العباسى محمد بن الاغلب» ببناء مدينة قرب تاهرت سماها العباسية عام ٢٣٩هـ لتقف فى وجه الرستميين وتجذب الانظار عنهم وتحتل مكانة عاصمتهم تاهرت، لذا لم يدخر أبو العباسى محمد بن الاغلب وسعا فى ترتيب أسواقها وفق نسق وترتيب غريب. وهذا ما يفسر أهمية السبب الذى أقيمت العباسية من أجله ورغم أن أفلح بن عبد الوهاب، سالم جيرانه الاغالبة بادى ذى بدء جريا على سياسة والده عبد الوهاب الا انه رأى أن اقامة العباسية تهديد لسلامة الدولة الرستمية وأمنها فما كان منه الا أن سكت حتى أتم أبو العباسى محمد ابن الاغلب بناءها ونظم أسواقها فهجم عليها أفلح وأجلى عنها سكانها ثم أضرم فيها النيران وأحرقها عن آخرها ولم يكن فى استطاعة ابن الاغلب أن يفعل شيئا للرد على أفلح بن عبد الوهاب ومن ثم أكثر السلام ولاذ بالصمت بعد أن كانت هذه المدينة تضايقه وقد كان هدمها فى عام ٢٢٧ هـ وقبل عام ٢٣٩ والتاريخ الثانى هو الاصوب [٢٠] .

وقد كان للامام أفلح بن عبد الوهاب ولدان هما أبو بكر وأبو اليقظان واشتهر أبو اليقظان بالتقوى والورع وقد أبدى رغبته قبل وفاة أبيه أفلح فى تأدية فريضة الحج إلى مكة المكرمة فأذن له والده وعندما وصل أبو اليقظان إلى مكة وطاف وسعى اكتشف رجال العباسيين وجوده بين الحجيج وسمعوا أن أبا اليقظان قدم من المغرب يرتاد البلاد ويرسل رسله فى الآفاق إلى القوم الدين كانوا على أرائهم ومذهبهم ليأخذوا إلى أنفسهم إلى أن يأتيه والده من المغرب فقبض العباسيون على أبى اليقظان ومعه رجل من نفوسه كان يخدمه وحمل الاثنان فى الاسر إلى بغداد وفى السجن التقى أبو اليقظان بالمتوكل على الله العباسى أخى الخليفة الواثق فأصبح صديقا حميما له ولهذه الصداقة سوف يكون أثرها

---

(٢٠) رابح بونار: المغرب العربى، تاريخه وثقافته ص ٣٧ .

فى حياة أبى اليقظان بعد ذلك ، ولما علم الامام أفلح بن عبد الوهاب بما حدث لولده أبى اليقظان اشتد حزنه عليه وطالت غمته إلى أن وافته منيته وابنه محبوس فى بغداد وكانت وفاته عام ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م [٢١] .

(٢١) محمد عيسى صابر : مرجع سابق، ص ١٩٠ .

الباب الخامس

الدولة الرستمية بعد أفلح بن عبد الوهاب

(٢٤٠- ٢٩٦هـ- ٨٥٤- ٩٠٨م)

الامام أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم

(٢٤٠- ٢٤١هـ- ٨٥٤- ٩٠٨م)

اذا كانت الدولة الرستمية قد نعمت بالرفاهية التامة والرخاء الفائق، فى عهد الامام عبد الوهاب والد أفلح، فان فترة حكم أفلح التى طالت خمسين عاما قد ساد فيها الدولة الرستمية الرخاء والتطور، ذلك لان أفلح كان ذا شخصية قوية متمرسة لهذا احتفظت الدولة فى عهده بقوتها وكيانها وهيبتها بين جيرانها الاغالبة والادارسة والامويين فى الاندلس وبنى مدرار فى سجلماسة، لكن بوفاة أفلح بن عبد الوهاب عام ٢٤٠هـ-٨٥٤م أخذت الامور تتغير فى البلاد وبدأت تأخذ طابعا مغايرا اذ تولى الامامة بعد ذلك الامام أبى بكر والذى لم تكن له من المميزات الشخصية والصفات العلمية والتوسع الفكرى الذى يستطيع من خلال تلك الصفات سياسة وقيادة دولة لها أهميتها الكبرى فى المغرب العربى والعالم الاسلامى مثل الدولة الرستمية، وكان أهل الحل والرأى والادارة من نفوسة وغيرهم المقيمون بتاهرت العاصمة قد اختاروا للامامة أبا بكر وعقدوا لواءها له عام ٢٤٠هـ [١] لانه كان ابن الامام أفلح ولم يكن غيره من أبناء البيت الرستمى قادرا على تحمل مسئولية الدولة بعد وفاة والده، لاسيما كما سبق الاشارة فان أخاه أبا اليقظان كان مقبوضا عليه فى بغداد كما سبق القول عندما ذهب لاداء فريضة الحج، كذلك فان الابن

---

(١) الباردنى: الازهار الرياضية جـ ٢ ص ٢٢١ .

الثالث للامام أفلح وكان يدعى «يعقوب» كان حدثا ولا يزال صغيرا ولا يصلح لتولى الامامة وقيادة الدولة وبذلك فاننا نرى هنا أن الظروف كانت تسمح بتولى امامة الدولة لغير أبناء البيت الرستمى الا أن الاباضية لم يستطيعوا تطبيق مبدأ الشورى فى الاختيار العام كما انهم لم بستطيعوا التخلص من مبدأ الوراثة عندما كانوا شيعة يطالبون بأن تكون الامامه وراثية فى أهل البيت [٢] .

لكن فى تلك الظروف التى كان عليها الامام أبو بكر فان كثيرا من أهل الرأى من الاباضية والذين كانوا يؤمنون بمبدأ الانتخاب العام رفضوا تولية الامام أبى بكر، ذلك لان الامام أبا بكر لم تبايعه الا قبيلة نفوسة احدى قبائل تاهرت القوية ذات النفوذ السياسى ولم يبايعه غيرها [٣] ومن ذلك فانه يصح أن هناك قوة سياسية قوية وضخمة هى قوة قبيلة نفوسة فى تاهرت والتى كانت ترى بل توجب المحافظة على أن تكون الامامة دائمة ووراثية فى البيت الرستمى رغم معارضة المعارضين ومهما رفض الرافضون لامامة أبى بكر [٤] .

وكان أبو بكر ضعيفا ليس فيه من الشدة والقوة مما كان يتمتع به أبوه أفلح ومواقفه الشجاعة ولكنه كان يميل إلى الخمول والكسل والراحه وكان أديبا فقيها غير مهتم بالناحية السياسية واشتغل بالادب والعلم وترك قصيدة طويلة منها هذا البيث .

العلم أبقى لاهل العلم آثارا.. يريك أشخاصهم زوجا وابكارا [٥] ومن هنا فانه كان يهتم بأخبار الادب والاشعار والتاريخ وسير السابقين وانصرف الى حياة اللهو والترف وترك شئون الدولة لصهره «محمد بن عرفة» الذى سبق أن قام بالسفارة بين والده أفلح

---

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى . ص ٣٨٦ .

(٣) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

(٤) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٩٤ .

(٥) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

الباب الخامس

الدولة الرستمية بعد أفلح بن عبد الوهاب

(٢٤٠- ٢٩٦هـ- ٨٥٤- ٩٠٨م)

الامام أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم

(٢٤٠- ٢٤١هـ- ٨٥٤- ٩٠٨م)

اذا كانت الدولة الرستمية قد نعمت بالرفاهية التامة والرخاء الفائق، فى عهد الامام عبد الوهاب والد أفلح، فان فترة حكم أفلح التى طالت خمسين عاما قد ساد فيها الدولة الرستمية الرخاء والتطور، ذلك لان أفلح كان ذا شخصية قوية متمرسة لهذا احتفظت الدولة فى عهده بقوتها وكيانها وهيبتها بين جيرانها الاغالبة والادارسة والامويين فى الاندلس وبنى مدرار فى سجلماسة، لكن بوفاة أفلح بن عبد الوهاب عام ٢٤٠هـ- ٨٥٤م أخذت الامور تتغير فى البلاد وبدأت تأخذ طابعا مغايرا اذ تولى الامامة بعد ذلك الامام أبى بكر والذى لم تكن له من المميزات الشخصية والصفات العلمية والتوسع الفكرى الذى يستطيع من خلال تلك الصفات سياسة وقيادة دولة لها أهميتها الكبرى فى المغرب العربى والعالم الاسلامى مثل الدولة الرستمية، وكان أهل الحل والرأى والادارة من نفوسة وغيرهم المقيمون بتاهرت العاصمة قد اختاروا للامامة أبا بكر وعقدوا لواءها له عام ٢٤٠هـ [(١)] لانه كان ابن الامام أفلح ولم يكن غيره من أبناء البيت الرستمى قادرا على تحمل مسئولية الدولة بعد وفاة والده، لاسيما كما سبق الاشارة فان أخاه أبا اليقظان كان مقبوضا عليه فى بغداد كما سبق القول عندما ذهب لاداء فريضة الحج، كذلك فان الابن

---

(١) البارونى: الأزهار الرياضية جـ ٢ ص ٢٢١ .

الثالث للامام أفلح وكان يدعى «يعقوب» كان حدثا ولا يزال صغيرا ولا يصلح لتولى الامامة وقيادة الدولة وبذلك فاننا نرى هنا أن الظروف كانت تسمح بتولى امامة الدولة لغير أبناء البيت الرستمى الا أن الاباضية لم يستطيعوا تطبيق مبدأ الشورى فى الاختيار العام كما انهم لم يستطيعوا التخلص من مبدأ الوراثة عندما كانوا شيعة يطالبون بأن تكون الامامه وراثية فى أهل البيت (٢) .

لكن فى تلك الظروف التى كان عليها الامام أبو بكر فان كثيرا من أهل الرأى من الاباضية والذين كانوا يؤمنون بمبدأ الانتخاب العام رفضوا تولية الامام أبى بكر، ذلك لان الامام أبا بكر لم تبايعه الا قبيلة نفوسة احدى قبائل تاهرت القوية ذات النفوذ السياسى ولم يبايعه غيرها (٣) ومن ذلك فانه يصح أن هناك قوة سياسية قوية وضخمة هى قوة قبيلة نفوسة فى تاهرت والتى كانت ترى بل توجب المحافظة على أن تكون الامامة دائمة ووراثية فى البيت الرستمى رغم معارضة المعارضين ومهما رفض الرافضون لامامة أبى بكر (٤) .

وكان أبو بكر ضعيفا ليس فيه من الشدة والقوة مما كان يتمتع به أبوه أفلح ومواقفه الشجاعة ولكنه كان يميل إلى الخمول والكسل والراحه وكان أديبا فقيها غير مهتم بالناحية السياسية واشتغل بالادب والعلم وترك قصيدة طويلة منها هذا البيت .

العلم أبقى لاهل العلم آثارا.. يريك أشخاصهم زوجا وابكارا (٥) ومن هنا فانه كان يهتم بأخبار الادب والاشعار والتاريخ وسير السابقين وانصرف الى حياة اللهو والترف وترك شئون الدولة لصهره «محمد بن عرفة» الذى سبق أن قام بالسفارة بين والده أفلح

---

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى . ص ٣٨٦ .

(٣) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

(٤) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٩٤ .

(٥) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

بن عبد الوهاب وملك السودان وكان ابن عرفة قد تزوج بأخت أبى بكر بن أفلح وفى نفس الوقت فان محمد بن عرفة زوج أخته لابى بكر [٦] وعلى تلك الصورة ازداد وزن محمد بن عرفة السياسى وأصبح له نفوذ كبير فى الدولة الرستمية بل كان هو صاحب الكلمة الاولى فى تقرير مصير العديد من الامور بل انه يذكر انه كان الامام الفعلى للبلاد وكانت الامارة بالاسم لابى بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة وقد ترتب على ذلك ضعف سلطة الامام على القبائل فكانت الحروب فيها تشتعل ثم تسكن، بل ان الخلافات تطرقت الى داخل بعض القبائل الكبرى فى الدولة وأدت الى انقسامها لا سيما هوارة فانها تحاسدت حتى انقسمت [٧] .

الصراع من أجل تولية الامام أبو اليقظان محمد بن أفلح وعودة أبى اليقظان من بغداد :

فى هذه الظروف التى أخذ فيها نفوذ الامام فى الاضمحلال والتأثير على القبائل وازداد نفوذ صهره «محمد بن عرفة» عاد أبو اليقظان بن أفلح من العراق حيث كان سجينا فى سجن بغداد اذ كان قد سجنه الواثق بالله الخليفة العباسى فى سجن واحد مع أخيه المتوكل ولما توفى الواثق وتولى الخلافة المتوكل أفرج عن أبى اليقظان وأحسن اليه المتوكل وأذن له بالعودة إلى بلاده فألتحق بالعاصمة تاهرت [٨] ووجد أبو اليقظان عند عودته أخاه أبا بكر اماما والعجم على أحوالهم والنفوسة على مراتبهم وسائر الناس على ما هم عليه فلم يتغير شئ وظل بعيدا عن المجال السياسى ولم يدع الامارة لنفسه ولم ينازع فيها أخاه، بل أن أبا بكر انصرف إلى ملذاته وشهواته وترك إلى أبى اليقظان تسيير أمور الدولة فكان أبو اليقظان يجلس فى المسجد إلى الناس ويقضى مصالح الناس ويستمع إلى

---

(٦) ابن الصغير : مصدر سابق ص ٣١ .

(٧) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٩٤ .

(٨) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

القضاة وأصحاب الشرطة ويقوم بالحكم بين الناس واجراء الحقوق على كل القوم مهما عظم قدرهم أو صغر (٩) .

وبينما كان أبو اليقظان يحكم ويسير أمور الدولة وشئونها كان نفوذ محمد بن عرفة فى ازدياد عما كان عليه مما أوغر صدور رؤساء وأئمة الاباضية عليه حتى واتتهم فرصة الاجتماع بأبى بكر وصرحوا له بأن يعتقل ابن عرفة وأقلقت هذه الأخبار أبا بكر بن أفلح واراد أن يتأكد بنفسه وتم قتل ابن عرفه على يد أبى بكر وقد كانت ردود الفعل لمقتل ابن عرفة قوية وعنيفة فى تاهرت حيث اجتمع أنصار ابن عرفة بقيادة محمد بن الوليد ومعهم جند القيروان خلف الخادم مولى الاغلب بن سالم (١٠) .

وكان هؤلاء الجند قد أعلنوا فى فترات سابقة ومناسبات كثيرة تمردهم على الاغالبة وتركوا القيروان والمناطق التى تخضع لنفوذهم واستقروا فى تاهرت حيث وجدوا ما تهفو اليه نفوسهم فى ظل الدولة الرستمية وأسسوا لهم بالمدينة ربضا كبيرا بها يعرف بالمدينة العامرة وطبيعى أن يؤيد هؤلاء الجند الوافدون من القيروان أنصار محمد بن عرفة فى محنتهم لان محمد بن عرفة عربى وقيروانى مثلهم وافد من القيروان ومن هنا كانت تلك الثورة من علامات اهتزاز مكانة أبى بكر بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١١) .

بالاضافة الى أن مقتل محمد بن عرفة قد شد إلى جانب هؤلاء الجند الثائرين بعض وجوه التجار الكبار من العرب وغيرهم فى تاهرت للوقوف فى وجه الامامة وضرورة انهاء حكم بنى رستم، وفى تلك الحالة فقد كان موقف أبى بكر بن أفلح ضعيفا بحيث لم يكن تلتف حوله الا بعض البطانة الموالون لبنى رستم وقد خاض بهم معاركه الاولى مع

---

(٩) ابن الصغير : مصدر سابق ص ٣٢ .

(١٠) محمد عيس صابر : مرجع سابق ص ١٩٥ .

(١١) السيد عبد العزيز سالم: مرجع سابق ص ٥٦ .

العرب والجند القيروانيين أما العجم فقد انتهزوا فرصة انشغال العرب والجند فى مقاتلة الامام وأتباعه وهاجموا أطراف المدينة التى يمتلكها العرب والجند، أما أثناء تلك الحروب فان أبا اليقظان بن أفلح شقيق أبى بكر فقد آثر عدم الخوض فى هذه الحروب هو ونفوسة بل اننا نجد انه انتقل الى عدوه نفوسة وأقام بها وان كان العرب والجند ينظرون إلى موقف أبى اليقظان هذا بكثير من الشك ويرونه يحرض عليهم فى السر [١٢] وقد كان موقف أبى اليقظان المتخاذل تجاه أخيه أبى بكر يدل دلالة قوية على انه يضمر شرا لاخيه ويريد أن تكون الامامة له من بعده والا فلماذا وقف هذا الموقف السلبى هو وقبائل نفوسة التى كانت تشكل صمام الامان للدولة الرستمية، ليس هناك أدنى شك فى انه كان يطمع فى الامامة. وبذلك تحولت الحرب الاهلية فى تاهرت الى حرب بين العجم وبين العرب ومعهم جند القيروان [١٣] وأما أبو بكر فقد تشاءم الناس منه فبقى فى داره لا يأمر ولا ينهى ويلاحظ أن جند القيروان رغم عدائهم للاغالبة فقد اندس بينهم عدد كبير من حواسيس الاغالبة الذين قاموا فى الدولة الرستمية بأعمال الطابور الخامس بهدف تقويض هذه الدولة والقضاء عليها وكان لخلف الخادم مولى الاغلب بن سالم دور خطير فى القيام بمثل هذه الاعمال كما كان خلف المحرض الاول للعرب والجند لاحراق درب النفوسيين ليقحمهم فى الحرب الاهلية وأما العجم عندما شرعوا فى الدخول فى دائرة الحرب مع العرب والجند فكان هدفهم أن تصبح لهم المكانة الاولى والاخيرة فى تاهرت اذ قاموا بدور المنقذ للبلاد والسلطان وما لبثت أن طفت على السطح مرة أخرى حتى أصبحت الحرب حالة طبيعية وحمت فيهم حمية الجاهلية الاولى .

وكان لما نجح الجند فى احراق درب النفوسيين فان الحرب الاهلية دخلت فى تاهرت مرحلة جديدة فقد وحدت نفوسة صفوفها مع العجم والرستمية بقيادة أبى اليقظان

(١٢) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٩٦ .

(١٣) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٣٩ .

بن أفلح لانقاذ الامور المتدهورة فى تاهرت وقد أحرز هذا التحالف انتصارات قتالية مع العرب والجند فى وقائع كثيرة، لكن موقف أبى اليقظان وحلفائه قد بدأ فى الضعف والتراجع أمام قوة العرب والجند المتزايدة، أما أبو بكر بن أفلح فقد خرج من تاهرت وقد انتهز أحد رجال قبيلة هوارة الاقوياء (محمد بن مسالمة الهوارى) الاباضى فرصة خروج الرستميين من تاهرت فاستولى عليها وأصبح لقبيلة هوارة اليد العليا فى تاهرت وكانت لواتة اذ ذاك تقيم بالمدينة فسلطت هوارة عليها فلما رأت لواتة ذلك ،حلت عن المدينة ونزلت بحصنها المعروف بحصن لواتة [١٤] وقد كان لخروج لواتة من تاهرت تغيرا فى ميزان القوى مرة ثانية فى صالح الرستميين فقد أرسلت لواتة إلى أبى اليقظان ودعته إلى النزول الى جوارها وهناك تمت مبايعة أبى اليقظان بالامامة بعد أن اعتز لها أخوة أبى بكر بن أفلح عام ١٤١هـ [١٥] .

أبو اليقظان بن أفلح امام الدولة

(٢٤١ – ٢٨١هـ – ٨٥٥ – ٨٩٤م)

بعد أن بايعت لواتة أبا اليقظان بالامامة فقد صارت له بعد ذلك الدعوة والامامة وقدمت اليه جموع كبار الاباضية من كل الاقطار وكذلك خرج اليه من العاصمة تاهرت حيث حصن لواتة الكثير من القوم الذين كانوا يحبون أبا اليقظان فأعلنوا ولاءهم له ومبايعتهم له اماما، كما كانت قد وفدت اليه قبائل من جبل نفوسه حيث لبت نداءه ليرسخ أركان الدولة وأرسلت اليه اعدادا وفيرة من الرجال تحرك بهم أبو اليقظان حتى نزل فى غرب تاهرت واتفق القوم على عقد الصلح مع أبى اليقظان على أن يسير على نهج السلف من أجداده وأبائه وأكدت نفوسة أهمية هذا الصلح للمجتمعين وقال الذين قدموا

---

(١٤) ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب جـ ١ ص ٢٩٧ .

(١٥) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٤٩ .

من جبل نفوسة أن قدومهم كان لاجل عقد الصلح بين طوائف الاباضية، وفور توقيع الصلح بين الطوائف المتصارعة دخل أبو اليقظان المدينة وضرب سرادقة الذى قدم به من بغداد والذى كان قد أهداه له الخليفة المتوكل على الله عند الافراج عنه من السجن، وظل أبو اليقظان مقيما فى سرداقة حتى بنى له أهل المدينة داره التى كانت قد تهدمت أثناء الحرب الاهلية فنزل أبو اليقظان وترك القادمون من خارج المدينة أماكنهم وعادوا من حيث أتوا وعلى هذه الصورة انتهت هذه الحرب الداخلية الاهلية التى أوشكت أن تقضى على الدولة الرستمية نهائيا وكانت لجهود أبى اليقظان ونفوسه الاثر الاكبر فى عودة الحياة الطبيعية إلى هذه الدولة مرة ثانية، وكانت مدينة تاهرت قبل دخولها قد انقضت عليه حوالى سبع سنوات ظل خلالها يهاجم المدينة حتى استطاع دخولها [١٦] .

لم تذكر المصادر شيئا عن المراحل الاولى عن حياة الامام أبى اليقظان انما اتفق الكثير منهم بالحديث عن تدينه وورعه وتقواه والصلاح الذى كان عليه وطابع اهتمامه بالشئون الدينية وكان حسن السيرة محمود السمعة عند جميع الناس وكان تقيا ورعا يخاف الله فى كل تصرف من تصرفاته وكان ذلك من الدوافع القوية التى حفزته لطلب أداء فريضة الحج والذى كان دائما يلح على والده فى أداء تلك الفريضة الخامسة حتى استطاع أن يأذن له فى أداء الحج رغم الاخطار التى يمكن أن يتعرض لها أبو اليقظان وخرج أبو اليقظان مع قافلة كبيرة حتى اذا ورد مكة المكرمة قبض عليه رجال بنى العباسى وحملوه من مكة الى بغداد وهناك زجوا به فى السجن (سبق الحديث عن تلك الحادثة فى سيرة والده أفلح بن عبد الوهاب) وكان الخليفة العباسى المتوكل قد عرض على أبى اليقظان أن يوليه امارة أى بلد يختاره فى بلاد المشرق أو المغرب العربى، لكن أبا اليقظان رفض ذلك الطلب بالاغراءوفضل عليه العودة الى بلاده فقد كانت لديه رغبة شديدة فى

(١٦) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

العودةالى العاصمة تاهرت ومن هنا لم يجد الخليفة بدا من الموافقة على رحيله إلى المغرب حيث الدولة الرستمية ثم أمر الخليفة وزيره بالنظر فى أمر تجهيزه بأحسن جهاز وأمر له بسرداق ثم أمر له بكسوة ونفقة وكتب له كتابا الى جميع عماله بالامصار التى يمر بها بضرورة تسهيل حركة تنقله والسهر على راحته وحفظه من كل مكروه وتوفير كل الرعاية وضرورة اكرامة [١٧] .

ولقد كانت الفترة التى أمضاها أبو اليقظان فى بغداد فى ظل الخلافة العباسية أثرها الكبير فى تكوين شخصيته السياسية سواء تلك الفترة التى قضاها فى السجن مع المتوكل شقيق الخليفة الواثق العباسى حيث توثقت الصلات بينهما حتى صارا شخصين متلازمين، أو تلك الفترة التى قضاها فى بلاط العباسيين بعد الافراج عنه وحتى ميعاد رحليه إلى بلاد المغرب حين قرر أبو اليقظان أن يعود إلى موطنه روفض كل العروض التى عرضت عليه مفضلا وطنه ودولته على أى منصب آخر .

ومن هنا كانت بلاد المشرق رافدا من الروافد التى صاغت شخصية أبى اليقظان ولها الكثير من المؤثرات التى جعلت لهذه الشخصية الكثير من الامكانات التى ساعدته على اعادة الهدوء إلى الدولة الرستمية بعد الثورة العاتية المدمرة التى حدثت فى عهد أخيه أبى بكر ومكنت أبا اليقظان من القيام بحركة واسعة شملت نظم الدولة كلها وقد قال عنه ابن الصغير [١٨] صرف أبو بكر بن أفلح النظر فى المدينة واحوازها إلى أخيه أبى اليقظان مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق والاخذ بالحزم فيما رآه من ولايه بنى العباس وسيرهم. فضلا عن هذه المؤثرات الشرقية كانت لابى اليقظان شخصية قوية استمدت عناصر قوتها من مقوماته الجسمية وسلوكه الشخصى وكان ورعا متقشفا مما جعله موضع

(١٧) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٣٠ .

(١٨) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٢٨ .

الحب والتقدير من الجميع حيث أحيا رسوم الامارة وباشر التدريس فى مسجد العاصمة بنفسه والفتاوى فى المسائل الشائكة [١٩] .

ولقد أحبت قبيلة نفوسة وسكان الجبل أبا اليقظان حبا وصل إلى حد الاقتداء بشخصيته، لدرجة أن نفوسة فيما قيل كانت لا تعادل أيامه وسيرته الا بامامة جده عبد الرحمن وسيرته وذلك انهم اتخذوا مجلسه حينئذ فى المسجد فطائفة يصلون وطائفة يقرأون القرآن وطائفة يتذكرون فى فنون العلم وكانت تتخذه نفوسة مثلا فى تحليلها وتحريمها[٢٠].

ولقد استطاع أبو اليقظان بفضل شخصيته القوية ومكانته بين الجميع أن يظل يحكم فى الامامة أربعين عاما متصلة وقد كان له العديد من التلاميذ الذين نالوا العلم على يديه من جمله تلاميذه ابن الصغير المالكى مؤلف كتاب سيرة الائمة الرستميين فى تاهرت والذى قال عن أستاذه أبى اليقظان بن أفلح، انه كان مربوع القامة أبيض الرأس واللحية زاهدا ورعا ناسكا [٢١]. ولقد تحقق للدولة الرستمية خلال فترة حكمه الطويلة الكثير من الاصلاحات الداخلية التى ساهمت فى دعم مركز الدولة السياسى والاقتصادى والاجتماعى، ومما يذكر انه أثر دخوله العاصمة تاهرت فان الناس اختاروا قاضيا بعد أن شاورهم فى ذلك ووقع الاختيار على شخصية تقية ورعة هى «أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى الشيخ» ثم ولى على بيت المال رجلا من نفوسة وقدم على منبره من ارتضاه هو بنفسه لهذه المهمة، والقى الى قوم نفوسة مهمة مراقبة الاسواق والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والمحافظة على المظهر العام للعاصمة تاهرت من حيث نظافتها وسيادة الامن فى ربوعها، كما كانت رعاية المساجد والمصلين بالعاصمة تاهرت من المهام الملقاة على عاتق تلك الجماعة [٢٢] .

---

(١٩) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

(٢٠) الدرجيبى: مصدر سابق، مخطوط ورقة ٣٧ .

(٢١) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

(٢٢) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ٢٠٧ .

وتعتبر فترة حكمه فترة استقرار طويلة ولكن الدولة تناقصت قوتها فى أيامه عما كانت عليه فى عهد جده عبد الرحمن بن رستم أو جده عبد الوهاب بن عبد الرحمن، ومعنى هذا أن التجربة الاباضية لم توفق إلى تحقيق المثل الاعلى للحكم الذى كانت تتصوره وان كان ينبغى أن نقول أن حكمهم فى تاهرت والدولة الرستمية كان حكما اسلاميا من طراز فريد فى عصره عادلا نسبيا وان أحوال الناس فى دولتهم وجماعتهم كانت أسعد بكثير من أحوالهم فى ظل غيرهم من حكام المغرب المعاصرين لهم سواء فى حكم الاغالبة فى المغرب الادنى أو الادارسة فى المغرب الاقصى. ولقد كان لرجال الدولة الرستمية الاباضية دور كبير فى انعاش الحركة التجارية والاقتصادية فى المغرب الاوسط وبلاد الصحراء، فقد ضمت جماعة الاباضية كثيرا من التجار الذين وجدوا الامن والامان فى ظل الائمة ولهذا تحولت تاهرت الى مركز تجارى نشيط خلال القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى، فكانت قوافل التجارة تدخل من تاهرت وتتجه جنوبا حتى تصل إلى «واحة الاجواط» فى جنوب الجزائر الحالية ومن ثم يتجه بعضها شرقا إلى فزان ومن ثم إلى جبل نفوسة وطرابلس ويتجه بعضها الآخر إلى ورجلان أو «ورجلا» أو «ورقلة» وكانت مركزا تجاريا كبيرا على أبواب الصحراء الكبرى [٢٣] .

وعلى هذا فقد عمل أبو اليقظان بكل جهده على اصلاح ما أفسدته الحرب الاهلية حتى عادت الحياة إلى سيرتها القديمة وتحرك الناس فى سبيل تطور بلدهم والقيام بأعمال العمارة والتجارة والبناء واشتغلوا بطلب العلم وبعد أن أتم الامام اصلاح الشئون الداخلية فانه أرسل إلى رؤساء القبائل وسائر أتباع الامامة فى كل الجهات فجاءت اليه جميع الوفود طائعة خاضعة وقدمت البيعة عن رضا واقتناع، فقام بارسال الولاه والعمال والحكام

---

(٢٣) عبد الفتاح مقلد الغنيمى: السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية (رسالة دكتوراه غير منشورة) ص ٩١-٩٤ .

والقضاة وأصحاب الشرطة فى الولايات كلها [٢٤] .

ولقد كان من الوفود التى وفدت إلى تاهرت العاصمة والى أبى اليقظان وفد نفوسة الجبل الذين طلبوا من الامام أن يقدم عليهم عاملا يرتضيه فأنزلهم دار الضيافة فترة من الوقت بعد أن اختار لهم عاملا عليهم هو «أفلح بن العباسى» ولم تقف جهود أبى اليقظان عند القيام بالاصلاحات الداخلية بل نهض بنفسه يباشر القاء الدروس والمواعظ على الطلاب والراغبين فى العلم، بعد أن كانت أتيحت له فرصة الاطلاع على مئات الكتب فى بغداد، وأرسل الرسائل العديد إلى جميع عماله فى الاقاليم والجهات البعيدة يدعوهم فيها إلى تقوى الله والمسارعة إلى العمل الصالح واتباع طريق طلب العلم واتباع السلف الصالح والبعد عن الاهواء والبدع ودحض ما ينشره أعداء الدولة من أباطيل وانه نتيجة لهذه الاصلاحات قويت الدولة الرستمية واستردت هيبتها فى بلاد المغرب وأصبحت قادرة على ردع أية قوة خارجية تحاول النيل من أراضيها أو استقلالها [٢٥] .

الدولة فى عهد أبى اليقظان والتعرض للاخطار الخارجية :

على الرغم من الاعمال التى قام بها أبو اليقظان طوال الاربعين عاما التى قضاها فى الحكم عاملا جهده لنشر العلم والثقافة والحضارة وتعميق المفاهيم الحضارية ونشر العلوم الاسلامية وتأمين الحياة الاقتصادية للمواطنين والعمل على استرداد الدولة الرستمية لهيبتها من بلاد المغرب العربى، الا أن حدود الدولة الرستمية الشرقية قد تعرضت فى عهده للغزو الخارجى من جانب الدولة الطولونية فى مصر والتى أسسها أحمد بن طولون (٢٦٥هـ/ ٨٧٨م) حيث قام بهذا الغزو لبلاد المغرب الادنى العباسى بن أحمد بن طولون [٢٦] وكان العباسى قد خرج قاصدا بلاد المغرب لضمها إلى الدولة الطولونية فى

---

(٢٤) البارنى: الازهار الرياضية جـ ٢ ص ٣٢٩ .

(٢٥) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١١٠ .

(٢٦) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ٣٢٤ .

مصر مدعيا انه خرج بهذه الغزوة بناء على توجيه وتكليف من الخليفة العباسى فى بغداد (الخليفة المعتمد العباسى) الذى قلده اماره افريقية وأقره واليا عليها دون الاغالبة (٢٧) وما أن وصل العباسى بن أحمد بن طولون إلى اقليم برقة الذى كان يقع فى ذلك الوقت فى دائرة دولة الاغالبة من قبل الخلافة العباسية، حتى بادر بارسال رسالة إلى ابراهيم أحمد بن محمد الاغلب يأمره فيها بالدعاء له فى افريقية واعلان الدخول فى طاعته، بل انه أفاض فى القول بأن أرسل له يذكره بأنه سائر اليه إلى القيروان بقواته (٢٨) وفى نفس الوقت الذى أرسل فيه رسالته إلى ابن الاغلب فقد أرسل بدوره رسالة إلى عامل الرستميين على جبل نفوسة (الياس بن أبى منصور النفوسى) يتوعده وينذره ويدعوه إلى الدخول فى طاعته والدعوة له فى تلك الاقاليم قائلا له اقبل بسمعك وطاعتك والا وطئت بلدك بخيلى ورجلى وقطعت رحمك (٢٩) .

ولم يكتف العباسى بن أحمد بن طولون بذلك، بل انه ما أن وصل الى مدينة لبيدة فى جمادى الاول عام ٢٦٨هـ حتى أمر جنده المصرى باستباحة المدينة ونهبها حيث كان قد أخذ أهلها على غرة وبالقرب من مدينة لبيدة انهزمت قوات الاغالبة بقيادة «أحمد بن فرهت» عاملهم على طرابلس وتبعه العباسى بن أحمد بن طولون حتى مدينة طرابلس فحاصرها حصارا شديدا ونصب عليها المجانيف، ودام الحصار ثلاثة وأربعين يوما، قام فيها جنود العباسى بن أحمد بن طولون بكثير من أعمال العنف ضد رعايا الدولة الرستمية بالقرب من طرابلس فاستغاث أهل طرابلس «بأبى المنصور الياس النفوسى» صاحب نفوسة فقام محتسبا وناصرا اخوانه وجيرانه المسلمين وخرج الياس بن أبى المنصور النفوسى إلى ابن طولون فى اثنى عشر ألفا من القوات وتمكن من الحاق الهزيمة به واخراجه شرقا إلى

(٢٧) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ٦٤٥ .

(٢٨) الكندى: الولاه والقضاه ص ٢٢٢ .

(٢٩) الباردنى: مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٥٧ .

برقة بعد أن انسحبت القوات الطولونية على عجل مما جعل أهل طرابلس يقومون بنهب الاموال التى كان قد نهبها الطولونيين من لبيدة وبرقة وطرابلس بينما تورع الاباضية النفوسيون كعادتهم من أخذ أى شئ من هذه الاسلاب وفقا لمبادئهم الاسلامية [٣٠] .

وهكذا ظلت أحوال الدولة هادئة إلى نهاية حكم أبى اليقظان بن أفلح حتى اذا جاءت سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م توفى أبو اليقظان بعد أن عاش من العمر أكثر من مائة سنة منها أربعون عاما قضاها فى الامامة وكان ما وجد فى تركته بعد وفاته سبعة عشرة دينارا [٣١] .

وبوفاة أبى اليقظان بدأت عوامل الضعف والتفكك تأخذ طريقها إلى الدولة الرستمية حيث اعترتها تلك العوامل التى كانت تنذر بعوامل الانهيار بل الانهيار الكامل ومن ثم بدأ نجمها يأفل فى سماء المغرب وبدأت الدولة القوية التى أقامها عبد الرحمن بن رستم على أسس قوية تنحدر فى طريق الزوال لان هناك قوى جديدة ناشئة كانت قد بدأت تتطلع إلى الزعامة والسيادة فى المغرب العربى وكان دخول دولة الرستميين فى عهد الهرم قد بات واضحا كل الوضوح مع وفاة أبى اليقظان .

الامام أبو حاتم يوسف محمد بن يقظان

(٢٨١- ٢٩٤هـ- ٢٩٤- ٩٠٦م)

عندما توفى الامام أبو اليقظان بن أفلح لم يكن فى العاصمة تاهرت عند وفاته أحد من أبنائه فابنه يقظان كان يقوم بأداء فريضة الحج فى الاراضى الحجازية، كما أن ابنه حاتم كان قد خرج على رأس جيش من الرستميين لحماية بعض القوافل التجارية من

---

(٣٠) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ٢٠٩ .

(٣١) أبو زكريا: السيرة وأخبار الائمة، مخطوط ورقة ٣٤ .

اعتداء القبائل عليها وهى فى طريقها جنوبا إلى سجلماسة ثم منها إلى بلاد السودان لاسيما اعتداء قبائل زناتة عليها ولما كانت المسافة بين العاصمة تاهرت وبين المرحلة التى وصل اليها أبو حاتم فى سيره على مسافة يومين من المدينة، فان عامة الشعب ورجال الفرسان فى القوات اجتمعوا دون القبائل الاخرى وأعلنوا مبايعتهم لابى حاتم وأرسلوا له على الفور من يخبره بوفاة أبيه وعقد الامامة له، ولما وصله الفرسان الذين أرسلوا فى أثره لاعلانه بالبيعة فقد عاد على عجل إلى تاهرت وأناب عنه من يتولى قيادة القافلة وحمايتها وعندما وصل إلى أبواب المدينة استقبلته جماهير المبايعين ودخل المسجد وبايعوه ثم أرسلوا الى القبائل فبايعته ولم يجد مجلس الشورى أمام هذا الاجتماع العام بدا من مبايعة أبى حاتم على هذا النحو ووافقوا على البيعة بالاجماع [٣٢] ولقد كان ذلك الامير قبل مبايعته بالامامة كثير المروءة واسع الاحسان محبوبا لدى العامة قبل ولايته [٣٣] ولكن كان فى الاسرة الرستمية نفر من الامراء لم يرضوا بهذه المبايعة وعلى رأسهم يعقوب بن أفلح والذى كان يعيش عيشة زهد صادقة وعارض مبايعة ابن أخيه أبى حاتم على هذا النحو الذى حدث، لذا آثر أن يرحل عن العاصمة تاهرت وأقام فى مدينة زاغة فى الجنوب الغربى لمدينة جبرة فى غربى طرابلس، ولما كان أبو حاتم كريما فقد منحه ذلك الكثير من حب الناس ورضاهم عنه مما جعلهم يتحمسون الى مبايعته على هذه الصورة ولكن ما كادت البيعة تتم له حتى انفردت به عشيرته واخوانه وأعمامه ومواليه واستهدفوا من ذلك أن يحجبوا الامام عن جماهير الشعب ويحيطوه بأبهة الملك والسلطان ولكن الشعب رفض ذلك الذى يجرى على غير عادة السلف من الائمة السابقين حيث لم يكن هناك حجاب يحجزهم عن عامة الشعب وكان يصل إلى الامام كل صاحب مظلمة، وطالبوا بأن يسمح لهم بالاتصال المباشر بالامام فى كل الاوقات كما كان ذلك مباحا قبل امامته، ولم يكن احتجاب أبى

---

(٣٢) السيد عبد العزيز سالم: مرجع سابق ص ٥٦٣ .

(٣٣) رابح ونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

حاتم عن العامة بتأثير أقاربه ومواليه فحسب وانما شارك فى ذلك عدد من شيوخ تاهرت من غير الاباضية الذين كانوا على المذهب المالكى وربما بعض الصفرية الخوارج وكانت هذه العناصر قد نجحت فى عزل الامام عن العامة لكى تثير سخط الرعية عليه [٣٤] .

بل أكثر من ذلك فان بعض كبار شيوخ تاهرت قد وصل بهم الامر إلى حد تدبير مؤامرة لقتل أبى حاتم وذلك بمعاونة اثنين من كبار معاونيه هما «محمد بن رباح» و «محمد بن حماد» وذلك للتخلص منه، ولم يشك أبو حاتم لحظة فيما سمعه عن هذه المؤامرة وبادر بتحديد اقامة كل من محمد بن رباح ومحمد بن حماد خارج العاصمة تاهرت ومنع دخولهما المدينة ، لكن أعوانهما قاموا باخالهما المدينة سرا وكانت عودتهما إلى تاهرت دون علم أبى حاتم ما أثار دهشته وروعته إلى درجة جعلته يقرر الخروج من تاهرت عام ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م هو ومن يناصره من أهلها إلى الاحتماء بحصن لواتة وذلك بعد سنة واحدة من مبايعته بالامامة وخرجت معه العجم ونفوسة أيضا ونحو مائة رجل من وجوه وكبار العاصمة ولم يبق بتهارت غير العامة ومشايخ المدينة الذين أيقنوا أن أبا حاتم انما خرج بيستجمع قوته خارج العاصمة وان عليهم أن يستعدوا للحرب القادمة .

وهكذا نجح أبو حاتم فى استقطاب قوى كثيرة للوقوف إلى جانبه فانضمت اليه لواتة كلها كما اجتمعت اليه قبائل الصحراء التى كان يعرفها وعلى صلة وثيقة بها فأعطى الاموال وحمل على الخيل وزحف إلى تاهرت من ثلاث مواضع من القبلة والمشرق والمغرب فتولى بنفسه القبلة مع لواتة والرستميين وما شايعها وتولى المشرق العجم وصنهاجة ومن شايعها وتولى المغرب طوائل من الناس مع نفوسة واستطاع أبو حاتم بهذه القوات أن يضغط على أهل تاهرت الامر الذى جعلهم يفكرون فى استدعاء يعقوب بن أفلح عم الامام أبى حاتم ليتولى منصب الامامة فى تاهرت، واعتقد أهل تاهرت انهم بهذا العمل

(٣٤) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١٢٠ .

يستطيعون اضعاف معسكر أبى حاتم اذ انضم إلى يعقوب بن أفلح جماعة من لواتة وغيرهم من أصحاب أبى حاتم ورغم هذا فقد استمر حصار أبى حاتم لتاهرت إلى أن أغلق يعقوب بن أفلح أبوابها الا بابا واحدا صار يحارب منه أبا حاتم واستمر الحال على هذه الصورة حتى تدخل «أبو يعقوب المزانى» رئيس قبيلة مزانة بين الطرفين لعقد هدنة بينهما وجرت مراسم الهدنة فقدم يعقوب بن أفلح، عبد الله بن اللمطى لينوب عنه فى توقيع الهدنة وقدم أبو حاتم اثنين عنه هما منكود، وابن أبى عياض اللواتين وعقدت الهدنة على شرط أن يعزل الاثنان من الامامة لمدة أربعة أشهر يختار الناس بعدهما من يحبون أن يكون اماما لهم وتم العقد على هذا الاساس وقد انتهز أبو حاتم فرصة هذه الشهور الاربعة وقام بدعاية واسعة لنفسه فمالت الناس اليه واستعاد أبو حاتم بهذه الدعاية ثقة الناس فيه [٣٥] .

وهكذا خرجت جماعات من أهل تاهرت إلى مقر أبى حاتم الذى يقيم فيه وأركبوه وخرج فلم يصبح الا على باب المدينة وبادر اليه الناس جميعا وما كادت تلك الانباء تصل إلى مسامع يعقوب بن أفلح حتى خرج وشيعته من المدينة [٣٦] تاهرت وركبوا خيولهم وعادوا من حيث أتوا إلى مدينة زواغة مرة ثانية حيث كانت مقر يعقوب بن أفلح وكان يعقوب قد مكث أربع سنوات اماما فى تاهرت بينما ابن أخيه أبو حاتم كان يجهز قواته للاستيلاء مرة ثانية على الحكم، وهكذا فانه مع عودة أبى حاتم إلى الامامة مرة ثانية فانه حاول بكل الطرق والوسائل أن يستعيد سلطة الامامة وهيبتها، بعد أن تدهورت أوضاع الدولة الاقتصادية وظهرت فى المجتمع الكثير من الامراض الاجتماعية، فقد فسدت البلدة تاهرت وفسد أهلها فى تلك الحروب الدائرة فبادر أبو حاتم باحكام قبضته على الامور، فعين عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبى الشيخ قاضيا على البلاد وعين عبد الرحمن بن صواب النفوسى على بيت المال وولى أمر الشرطة إلى جماعة من الناس هم قوم زكار

(٣٥) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٧٨ .

(٣٦) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٥٦ .

وقوم ابراهيم بن سليين واستكمل بذلك أبو حاتم سلطته التنفيذية وقد نجح هؤلاء جميعا فى ضبط أمور الدولة [٣٧] .

وما إن استطاع أبو حاتم القضاء على الفتنة واستتب الامر له فى البلاد حتى خرج عليه الطيب بن خلف بن السمح بن أبى الخطاب بن عبد الاعلى المعافرى، فى طرابلس وجبل نفوسة، فأصدر الامام أوامره الى عامله فى الاقليم الشرقى «أبى منصور بن الياس» بالقبض عليه قبل استفحال أمره مثلما فعل والده من قبل، لكن الطيب بن خلف استطاع الهروب إلى قبيلة زواغة التى كانت على رأى أبيه خلف بن السمح ورفضت زواغة أن تسلم الطيب إلى الوالى أبى منصور فما كان من أبى منصور بن إلياس الا اعلان الحرب على قبيلة زواغة، فهزمت زواغة ولجأت إلى جزيرة جربة واستطاع أبو منصور بن إلياس أن يقبض على أبى الطيب بن خلف وأن يأسره ويأخذه معه مقيدا إلى جبل نفوسة حيث قضى حتفه هناك [٣٨] .

واذا كان أبو منصور إلياس النفوسى قد نجح فى صد الهجوم الطولونى على شرق الدولة الرستمية فى عهد أبى إليقظان بن أفلح واحتفظ بهذه الجهات هادئة فى عهد أبى حاتم بن أبى إليقظان، فان أفلح بن العباسى الذى خلف أبا منصور على اقليم طرابلس وجبل نفوسة لم تكن له مهارة أبى المنصور فى قيادة الحروب وتوجيه الامور فقد منى بهزيمة فادحة على أيدى الاغالبة حين عزم ابراهيم بن أحمد بن الاغلب على غزو الطولونيين فى مصر فخرج عام ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م . على رأس جيش يقوده «أبو مجر بن أدهم» فاعترضت نفوسة الجيش الاغلبى بين قايس وطرابلس وكانت فى عشرين ألف جندى ولكن الاغالبة تمكنوا من الحاق الهزيمة بالنفوسيين وقتلوا أكثرهم، بل أنه يذكر

---

(٣٧) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١٨٠ .

(٣٨) ابن عذارى المراكشى: مصدر سابق جـ ١ ص ١٣٢ .

أن القتلى من الاباضية فى هذه المعركة كانوا اثنى عشر ألفا كان من بينهم أربعمائة من العلماء [٣٩]، بل أن ابن الاغلب لم يكتف بذلك الانتصار على الاباضية، بل انه زحف إلى مدينة قطرارة فقتل منها من قتل وأسر منها ثمانين عالما من كبار علماء الاباضية ولم تنج منه قبيلة نقراوة هى الاخرى من ضربات ابن الاغلب [٤٠] وفى غمرة هذه الاحداث لم يستطع أبو حاتم أن يحرك ساكنا فقد كان فى ذلك الوقت يقوم بمحاصرة عمه يعقوب بن أفلح فى العاصمة تاهرت، وقد دفع ذلك الاغالبة إلى معاودة الكرة فى الهجوم على قبيلة نفوسة فى العام التالى ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م حيث سير ابراهيم بن أحمد ابن أبى العباسى إلى نفوسة فى جيش كبير فقتل منهم أعدادا كبيرة وأسر منهم ثلاثمائة أسير ذبحوا عن آخرهم وعلقت رؤوسهم فى حبل نصب على باب تونس [٤١] وهكذا أمام ضربات ابن الاغلب فقد انهارت قبيلة نفوسة التى كانت تشكل عصب الدولة الرستمية الحساس ودرعه الواقية ولم تعد لها تلك القدرة القوية على مواصلة امداد تاهرت اقتصاديا وعسكريا ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الهزائم كفيلة باسقاط هيبة الامامة فى تاهرت رغم المحاولات التى قام بها ابن حاتم للسيطرة على الامور، ولكن الوقت كان قد فات فطمع فى الامامة بعض أقاربه وهم بنو أخيه فلم يجدوا مشقة كبيرة فى التآمر عليه حيث اضطربت عليه الامور وثار عليه بعض أقاربه وقتلواه عام ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م وكان أبو بكر بن حماد قد شارك الناقمين عليه قبل قتله [٤٣] .

(٣٩) الدرجيني: طبقات الاباضية ورقة ٤٠ (مخطوط .

(٤٠) الباردني: مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٨٢ .

(٤١) ابن عذارى: مصدر سابق جـ ١ ص ١٣٠ .

(٤٢) محمد اسماعيل عبد الرازق: الاغالبة سياستهم الخارجية ص ١٣٤٠ .

(٤٣) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

سقوط الدولة الرستمية

امامة اليقظان بن أبى اليقظان

(٢٩٤ – ٢٩٦هـ – ٩٠٦ – ٩٠٨م)

بويع هذا الامير بعد مقتل أخيه أبى حاتم ونجاح المؤامرة عليه وقتله حيث ارتقى اليقظان بن أبى اليقظان عرش الامامة الرستمية ليضع نهاية لفترة حكم هذه الاسرة حيث لم يتمتع بالملك طويلا إذ غمرته الفتن والاحداث السياسية الكثيره ورغم أن فترة امامته امتدت إلى عامين الا أن هذه الفترة سادتها عوامل الانقسام والاضطراب والاحوال المتدهورة [٤٤] ذلك لان الكثيرين من كبار شيوخ الاباضية كانوا ساخطين على اليقظان ومن بين هؤلاء الساخطين شيوخ جبل نفوسة الذين كان لديهم اعتقاد راسخ بأن أبى اليقظان بعد أن كان أثر عودته من أداء فريضة الحج يضمر الشر لاخيه وانه كان مشتركا فى مؤامرة قتله [٤٥] كذلك جرت فى الدولة مناقشات حادة سادت مجتمع العلماء واختلاف فئاتهم من الاباضية فى شأن التشريع والحكم ونظم الدولة مما كان له أثره فى تفتت وحدة الفكر فى الدولة الرستمية، كذلك فلان خطر القوة الشيعية الصاعدةفى بلاد المغرب قد بدأ يلوح فى الافق كقوة دينية وسياسية جديدة وبدأت تحرشاتها تقترب من حدود الدولة الرستمية بالاضافة إلى أن العلماء كانوا دائما يعارضون فى تكوين طبقة أرستقراطية تعتمد على الامام حتى اننا نجد الامام أفلح بن عبد الوهاب قد حبس بعض كبار الاباضية حين اعترضوا على أحكام أحد القضاة الذى لا يراعى للاشراف مكانتهم واستطاعت خاصة الامام أن تؤثر عليه فينقض اتفاقا حدث بينه وبين بعض البدو مبينين له

(٤٤) رابح بونار: مرجع سابق ص ٢٨ .

(٤٥) الباردنى: مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٩٢ .

خطر النزول على رأيهم فكانت النتيجة ثورة عارمة من العرب استطاع الامام التغلب عليها ولكن بعد أن تركت أثرا سيئا فى نفوسهم ويبدو أن هذا التزمت لم يلق من المجتمع استجابة فقد كان شعب تاهرت لا يميل إلى الحرب فكانت معاركهم دائما هينة ولم يتتبعوا الهاربين كما كان المعارضون يميلون إلى الوساطة وتجنب الشر فكانت هذه الامور من دواعى سقوط الدولة الرستمية اذ لم تمكنهم هذه الحالة من تأليف جيش قوى [٤٦].

وقد دامت دولتهم قرنا ونصف على وجه التقريب وكان من الممكن أن تستمر أكثر من ذلك طويلا لولا أن ظروف العصر لم تكن تسمح بقيام دولة لا تعتمد على قوى عسكرية ضخمة ومالية كبيرة إلى أمد طويل وقد انتهت دولتهم على يد رجال الدعوة الفاطمية التى اجتثت كل دول المغرب القائمة فى عصرها عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م. وكان الذى قضى على دولة تاهرت أبو عبد الله الشيعى الذى مر فى طريق عودته من سجلماسة بتاهرت وضربها وقضى على آخر حكام بنى رستم وجعل المغرب الاوسط ولاية فاطمية تابعة لافريقية [٤٧] .

وكان أبو عبد الله الشيعى قد تمكن من الاستيلاء على الزاب ووصل إلى مدينة رقادة عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م وذلك بعد أن هرب منها زيادة الله بن الاغلب وأمام مظاهر الاضطراب والانقسام لم يستطع يقظان بن أبى اليقظان أن يفعل شيئا لمواجهة الخطر الشيعى فى منتصف رمضان ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م [٤٨] .

وكان أبو عبد الله الشيعى داعى الفاطميين فى بلاد المغرب قد أتم استعداداته العسكرية لبدء جولته الثانية التى كانت هذه المرة مع الرستميين أصحاب المغرب الاوسط،

---

(٤٦) زاهر رياض: شمال افريقية فى العصور الوسطى ص ٥٩ .

(٤٧) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ١٠٥ .

(٤٨) ابن عذارى المراكشى: مصدر سابق جـ ١ ص ١٤٧ .

ذلك لان ظهور حركة الشيعة كان من أهم العوامل التى أودت بالدولة الرستمية حيث زحفت عليها جيوش الشيعة الفاطمية عام ٢٩٦هـ [٤٩] . اذ نمت هذه الحركة نموا مطردا وأصبح له من القوة العسكرية ما استطاع به أن يكيل الضربات لدول المغرب وسقوطها الواحدة تلو الاخرى وكان من بينها الدولة الرستمية كما انه يخشى وجود مؤثرات شيعية بدأت تتسرب إلى الدولة الرستمية، فظهرت خطب الامام على بن أبى طالب على منابر الدولة الرستمية وهى الخطب التى يستخدمها الخطباء يوم الجمعة إلى جانب خطبهم العادية وقد تجلت هذه المؤثرات فى اعتناق أحد الاباضية من النكار وهو شيخ قبيلة كتامة دعوة أبى عبد الله الشيعى وقد استغل داعية الشيعة هذه الميول عند الشيخ أحسن الاستغلال [٥٠] .

ويذكر ابن عذارى المراكشى انه لما أكمل أبو عبد الله الشيعى عدنه لضرب الدولة الرستمية وتم اعداد الجيوش فانه استخلف فى افريقية أخاه «وابازاكى تمام بن معارك الاجابى» ثم خرج من رقاده حتى حل بمدينة تاهرت فدخلها بالامان وقتل منها من الرستمية يقظان بن أبى يقظان وجماعته وأهل بيته وبعث برؤوسهم إلى أخيه العباسى وأبى زاكى خليفته فى رقاده وطوقت بالقيروان ونصبت على باب مدينة رقادة وانفضت دولة بنى رستم بتاهرت وبمقتل أبى اليقظان انقرضت هذه الدولة من تاهرت والتجأ باقى أفرادها إلى الصحراء ولعل أسباب ضعف هذه الامارة تعود إلى اختلاف شيعتها واشتداد روح العصبية فى قبائلها، كما تعود إلى تمكن الخلافات المذهبية فى رعاياها فقد كان فيها أباضية وصفرية وسبئية وغيرها [٥١] .

---

(٤٩) رابح بونار: مرجع سابق ص ٨ .

(٥٠) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ٢١٠ .

(٥١) الميلى: تاريخ الجزائر: جـ ٢ ص ٦٤ .

ولما جاء الشيعة إلى تاهرت وجدوا المدينة فاقدة كل قوة على أن قوة الشيعة الجارفة كانت من أكبر عوامل انفراضها وانفراض جميع الامارات الصغيرة والدويلات بافريقية والمغرب وغيرها التى كانت معاصرة لها .

وتذكر المصادر أن عبد الله الشيعى الداعية وهو فى طريقه إلى سجلماسة قد مر بالقرب من تاهرت خرج اليه من فيها من وجوه الشيعة والواصلية والصفرية والمالكية وقدموا اليه الشكاية من اليقظان بن أبى اليقظان ووعدوه بالامامة وبالمال والرجال ورغبوه فى استئصال هذه العائلة كلها وانتزاع الامر من أيديهم لانه لا رجال ولا معسكر ليقظان وهذه الحقيقة توضح أن سبب انهيار الرستميين أمام ضربات الفاطميين هو عدم وجود جيوش رسميه نظامية وكان أبو عبد الله الشيعى قد طلب إلى اليقظان عقد اجتماع فخرج أبو اليقظان اليه ومعه بنوه واخوته وأتباعه وعلى بعد أميال من تاهرت التقى اليقظان ومن معه بأبى عبد الله الداعى ومن اثم أمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم فى شوال ٢٩٦هـ/ ٩٠٨(٥٢) ودخل أبو عبد الله الشيعى العاصمة تاهرت عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م فاستباحها ونهبها وقصد إلى المكتبة المعروفة بالمعصمومة لكى يتم القضاء على الفكر الاباضى عن طريق احراقها فقد كانت المعصومة مكتبة عظيمة ضخمة تحوى أكثر من ثلاثمائة ألف مجلد أغلبها فى الشريعة الاسلامية وفلسفتها وفى شرح المذهب الاباضى والاحتجاج اليه وفى تاريخ الدولة الرستمية ولقد كان أبو عبد الله الداعى الشيعى يريد القضاء على مظاهر الفكر الاباضى، بقدر ما كان حريصا على كل ما من شأنه تدعيم الدولة العبيدية فأخذ كل ما استطاع أن يأخذه من المكتبة المعصومة من كتب الرياضة والصنائع وغيرها من الفنون الاخرى وأحرق ما تبقى من الكتب خصوصا تلك التى تتعلق بالمذاهب الاباضى (٥٣) وقام داعية الشيعة بانهاء الدولة الرستمية رسميا وذلك بنصيب « أبى حميد دواس بن صولات اللهيعى»

---

(٥٢) الباردنى: مصدر سابق جـ ١ ص ١٩٧ .

(٥٣) الباردنى أبو ربيع سليمان : مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٤ .

«وابراهيم بن محمد المعروف بالهوارى» على تاهرت، أما الرستميون فقد انتشرت فلولهم فى البلاد فهرب أغلبهم إلى جبال الاوراس وإلى جبال بنى راشد وبعضهم انطلق إلى جبال نفوسة وجربة (٥٤) ويذكر أن يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب، خرج فارا إلى ورجلان فى الجنوب ومعه عدد كبير من العائلات الرستمية فلما نزل واصحابه ورجلان رغب أهلها فى مبايعته اماما وتوليته عليهم ولكن يعقوب رفض طلبهم وقال لهم قولته المشهورة «لا يستر الجمل بالغنم» وبهذه العبارة طوى يعقوب بن أفلح آخر من بقى من الرستميين آخر صفحة من صفحات الدولة الرستمية المشرقة (٥٥) .

وقد دامت بتاهرت العاصمة فى ازدهارها الحضارى تتمتع بالاستقلال السياسى وتعيش طبقات المجتمع فى حرية ورخاء رغم ما كان ينتابها من قلاقل سياسية أحيانا إلى أن هاجم الشيعة المدينة وقضوا على الدولة الرستمية عام ٢٩٦هـ فأخذت منزلة تاهرت اذ ذاك فى الضعف والاضمحلال والتراجع عن مكانتها بين مدن المغرب العربى، ولما طوقها بنو غانية حكام شرق الاندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى (٦٢٠هـ-) وهاجموها عدة مرات اخلاها السكان وأقفرت عنها الحياة ثم لم تلبث أن زالت معالمها وصارت أرضا تحرث وحقولا ترعى وقد كان هذا المصير التعس قد ساد أبناءها (٥٦) .

وبذلك تكون قد طويت صفحة من صفحات التاريخ الاسلامى فى المغرب العربى قد بدأت مع قيام الدولة الرستمية وانتهت بظهور الدولة الفاطمية الشيعية وبذلك تبدأ صفحة جديدة من صفحات التاريخ الاسلامى فى تلك المنطقة من عالمنا العربى الاسلامى .

أما النواحى الثقافية والحضارية لمآثر تلك الدولة فسوف نلقى عليه الضوء فى باب

---

(٥٤) محمد على دبوز : المغرب الكبير جـ ٣ ص ٦١٨ .

(٥٥) الدرجيبى: مخطوط سابق ورقة ٤٦ .

(٥٦) رابح بونار: مرجع سابق ص ٤٤ .

العلاقات الخارجية بين بنى رستم ونظائرهم فى تلك الحقبة التاريخية (الاغالبة والادارسة) لان تلك الدراسة تركز على قيام تلك الامارات الثلاث .

الباب السادس

دولة الاغالبة فى افريقية (تونس)

(١٨٤- ٢٩٦هـ- ٨٠٠- ٩٠٩م)

لقد ظل المغرب العربى وحدة سياسية شاملة فى ظل عمال خلفاء بنى أمية. لكن هذه الوحدة السياسية التى أظلت أقطار المغرب جميعها وتبعية هذه البلاد كلها للخلافة الاسلامية في المشرق لم يكن من المعقول أن تستمر طويلا، ذلك لان المغرب كان ميدانا للحركات والامارات القومية التى ظهرت فى محيط الدولة الاسلامية منذ قيام الخلافة العباسية .

غير أن القومية المغربية كانت أسبق ظهورا عن نظيراتها فى المشرق، بل انها أقرب بنحو قرن من الزمان وعلى هذا فان المغرب العربى الاسلامى قد شهد منذ أواخر القرن الثانى الهجرى قيام دويلات مستقلة فى سائر أجزائه .

ويرجع السبب فى ظهور هذه الدويلات المستقلة إلى أن القومية المغربية ظهرت مبكرة نوعا ما نظرا إلى طبيعة البلاد وعدم استطاعة العرب أن يقهروا أهل البلاد قهرا مطلقا فى مواقع حاسمة، الامر الذى اضطرهم إلى المهادنة والمصانعة، على عكس الحال فى العراق وايران ومصر والشام حيث قهرت القوميات قهرا عسكريا بعد نصر حاسم .

ولقد كانت أسرة الاغالبة ودولتهم من أهم وأشهر هذه الدويلات التابعة للعباسيين فى شرق تونس وبين بلاد الرستميين والادارسة وذلك لان الحركات الخوارجية بنى رستم ثم العلوية (الادارسة) التى قامت فى الشمال الافريقى قد أقنعت الخليفة هارون الرشيد بأن انفصال المغرب عن الدولة العباسية قد أصبح حقيقة واقعة لاسيما بعد أن انفصلت بلاد الاندلس عن الخلافة العباسية فى عهد الرحمن الداخل ومن هنا كان على

الخلافةالعباسية ضرورة المحافظة على المغرب أو الاجزاء التى يمكن الحفاظ عليها بأية صورة من الصور بعد أن أصبح استقلال الاندلس والادارسة وبنى رستم حقيقة تاريخية واقعة ولابد منْ العمل على تأمين الجزء الشرقى من المغرب، بعد أن بدأت الاقاليم الجغرافية تتضح وتظهر بعد أن بسطت تلك الدويلات نفوذها على بقعة معينة محاولة أن تقر السكينة فى ربوعها وأن تؤمن أهلها حتى يعيشوا فى سلام .

وبذلك فان الطريق صار معبدا أمام الاغالبة حيث وجدوا امارة ممهدة وشعبا مستقرا وحضارة زاهرة فاستقلوا بحكم افريقية فى ظل النفوذ العباسى وبذلك كان ظهور دولة الاغالبة مظهرا من مظاهر الحركة الاستقلالية فى تونس .

الاصول العرقية للاغالبة :

لقد أقامت الادارة العباسية فى عهد الخليفة هارون الرشيد على افريقية عاملا عربيا من طراز فريد ذلك هو «هرثمة بن أعين» حيث كان هذا الرجل من أكبر رجال الحزب العربى فى بلاط هارون الرشيد حيث كان شيخا له صيت كبير بل كان رجلا مجربا فى الحروب والادارة والولاية ومن هنا كان اختيار هارون الرشيد له لحكم ولاية افريقية اختيارا موفقا مناسبا وقد حكم «هرثمة بن أعين» افريقية فترة تزيد عن عامين (١٨٠- ١٨١هـ- ٧٩٦- ٧٩٧م) استطاع فى تلك الفترة الصغيرة أن يضع الامور فى نصابها وأن يجعل الاقليم وقومه يركنون إلى الهدوء وأن ينجح فى اعادة ثقة الناس فى الدولة .

وبعد انقضاء تلك الفترة فان هرثمة بن أعين رأى انه أقام بمهمته فى افريقية وأقر الامن فى البلاد ولكن بعض المصادر التاريخية تذكر أن نفسه قد تاقت للعودة إلى بغداد لكى تعود له مكانته فى بلاط الرشيد بعد أن استطاع أن يصلح ما يمكن اصلاحه .

ويضاف إلى ذلك أن هرثمة بن أعين عندما أراد أن يعود إلى بغداد اقترح على هارون الرشيد أن يعين على افريقية عاملا عليها هو ابراهيم بن الاغلب حيث كان أبوه

الاغلب بن سالم بن عقال التميمى من كبار عرب افريقية ذلك أن بنى تميم ربما قد دخلت مصر مع العباسيين عام ١٣٢هـ وكان بداية ظهور هذه القبيلة العربية فى مصر مع قيام الدولة العباسية بعد أن دخلت مع جيوش العباسيين التى فتحت مصر وقضت على آخر الخلفاء الامويين بها وكان أول من قدم من قواد العباسيين من بنى تميم شعبة بن عثمان، وربما كان تولى اثنين من تميم هما «موسى بن كعب وسالم بن مسودة» حكم مصر وقد وجدا فرصة متاحة لدخول آخرين من بنى تميم، وبذلك نستطيع أن نطمئن إلى أن قبيلة تميم أقامت اقامة فعلية فى مصر حيث تمتعت بمركز قوى استمدته من أبنائها الذين ولوا الحكم فيها بل أن بعضا من أفرادها كانوا من كبار الموظفين ولقد كان الاغلب بن سالم من كبار رجال الجيش، ويستدل على ذلك أن الخلافة العباسية عندما أرسلت الوالى «محمد بن مقاتل العكى» إلى افريقية كلفت الاغلب بن سالم بن عقال بالمسير معه فى نفر من جند مصر فدخل افريقية واستقر بها واليا على اقليم الزاب حيث كان يعيش فى ذلك الاقليم جمع كثير من قبيلة بنى تميم، لكن الاغلب بن سالم بن عقال قتل فى أحد المعارك ضد خوارج بنى رستم لمحاولتهم الاتجاة شرقا إلى افريقية فما كان من هرثمة بن أعين الا أن قام بتعيين ابراهيم بن الاغلب خلفا لوالده على اقليم الزاب .

وأسرة الاغالبة أسرة مستنيرة اهتمت فى آن واحد بالتعمير السلمى والبناء الحربى فقد أدرك ابراهيم بن الاغلب مؤسس هذه الاسرة منذ أن أقره الخليفة العباسى الرشيد فى اماراته على افريقية أن امتداد الامارة من طرابلس شرقا حتى بجاية غربا يستلزم المحافظة على هذه الامارة الواسعة .

وكان محمد بن مقاتل العكى قد أساء الحكم وظلم وجار فثار عليه القوم فى عام ٧٩٩م حيث خرج جند تونس التميمية بقيادة تمام ابن تميم فخرج اليهم العكى ولكنه انهزم أمامهم فعاد الى القيروان وتحصن بداره واستنجد بعامل الزاب ابراهيم بن الاغلب

الذى هب لنجدته ودفع عنه الثوار فجاءه العهد من الرشيد بامارة افريقية وجعلها ارثا فى أعقابه شريطة أن يستغنى عن المعونة المالية التى كانت تونس تتلقاها من مصر سنويا وهى مائة ألف دينار وأن يؤدى خراجا سنويا للخلافة قدره أربعون ألف دينار وكانت امارة ابن الاغلب فاتحة عهد جديد فى تاريخ المغرب العربى الاسلامى .

وهكذا كان تسلم ابراهيم بن الاغلب لولاية افريقية عام ١٨٤هـ سببا فى اعادة الامن إلى الجزائر الشرقية وتونس إلى حين فقد استقلت افريقية والجبهة الشرقية فى المغرب الاوسط على يد ابراهيم بن الاغلب التميمى عام ١٨٤هـ وأسس بذلك دولته التى دعيت باسمه ودامت قوية إلى أن قضى عليها أبو عبد الله الشيعى بدعوة الفاطميين عام ٢٩٦هـ .

وكان يجاور الاغالبة من الجهة الغربية فى القطر الجزائرى بنو رستم بتهريت والامراء الادارسة بالشريط الساحلى من هذه الجهة نفسها .

وكان نظام حكمها نظاما وراثيا وكان قيام دولة الاغالبة فى افريقية التى تتكون فى طرابلس وافريقية وجزء من المغرب الاوسط هو اقليم الزاب تجربة جديدة فى نظم الدولة الاسلامية العباسية حيث انه كانت السابقة الاولى فى تاريخها السياسى تعهد الخلافة فيها إلى رجل من المغرب فى الانفراد بولاية من ولاياتها ليحكمها حكما شبه مستقل فى نظير مبلغ من المال بالاضافة إلى جانب تعهده بالبقاء على الطاعة والولاء للدولة العباسية وقد وافقت هذه الأخيرة على أن تجعل الولاية وقفا على أهل بيت ذلك الرجل يتوارثونها فيما بينهم ما داموا على الولاء الكامل للبيت العباسى والشرط الوحيد الذى اشترطته عليه الخلافة العباسية هى البقاء على الطاعة بكل معناها وشكلياتها وكذلك حماية حدود الدولة العباسية من الناحية الغربية التى وقفت بصورة رسمية عند المجرى الاعلى لنهر شلف الذى يجرى من الجنوب إلى الشمال جنوبى مدينة الجزائر الحالية .

أمراء البيب الاغلبى

لقد حكم أمراء البيت الأغلبى افريقية ما يزيد عن مائة عام توارث فيها الامارة العديد من الامراء الاغالبة الذين لعبوا دورا هاما وبارزا فى الحركة السياسية فى المغرب العربى الاسلامى وكان لهم شأن عظيم فى تسيير دفة الامور والحكم ونذكر منهم .

١- الامير ابراهيم بن الاغلب

(١٨٤- ١٩٦هـ- ٨٠٠- ٨١٢م)

تولى ابراهيم بن الاغلب امارة تونس وكان جديرا بها وأهلها اذ انه كان يمتاز بمزايا كثيرة وكان موصوفا بالشجاعة والشهامة وحسن الادارة ويزين ذلك كله علم وأدب وفقه وفصاحة وحسن حديث وشعر رقيق وأدب رفيع وقد كان ابراهيم شابا نشيطا ذكيا شغفا كان ينوى أن يتجه لدراسة العلم فى مصر ودرس على «الليث بن سعد» ولكنه عندما دخل افريقية اتجه إلى السياسة وجمع قبيلته من بنى تميم حوله وصار من أكبر الشخصيات العربية فى المغرب وقد أنس فيه هرثمة بن أعين مقدرة وكفاية واخلاصا يعوض غيره من الجند فقربه اليه وأعلى مكانته بالاضافة انه كان شديد الاخلاص والولاء للبيت العباسى ثم انه رأس التميميين وهم أكثر عرب افريقية وهو إلى جانب ذلك رجل مجرب خبير بشئون السياسة والحرب حيث كان واليا على الزاب الجزائرى قبل تأسيسه لدولته وانه حين رأى الامور فى اضطراب سعى بكل وسيلة ليوليه الرشيد امارتها ويعطيه استقلالا داخليا مع تعهده بالولاء الكامل للخلافة .

وكان ابراهيم بن الاغلب كما يصفه ابن عذارى المراكشى فقيها وأديبا، وشاعرا خطيبا ذا رأى ونجده وبأس وحزم وعلم بالحروب ومكايدها جرئ الجنان طويل اللسان، لم تدى أفريقية أحسن منه سيرة ولاسياسة ولا أرق بالرعية ولا أوفى بعهده ولا أرعى لذمة منه فأطاعته قبائل البربر وتمهدت افريقية فى أيامه وأستقامت الاحوال بها .

وكان إبراهيم بن الأغلب قد اقترح على هارون الرشيد أن يرسل كل سنة إلى بغداد أربعين ألف دينار، ويستغنى عن مائة ألف دينار كانت ترسل كل سنة من مصر معونة لوالى أفريقية وكما تعهد بأن يتصرف كعامل عباسى تابع لدولة الخلافة وإن كان يتمتع بحرية التصرف داخل ولايته وتقول هذا ولا نجد نصاً وثائقياً عن ذلك الاتفاق عند الحديث عن تولية إبراهيم بن الأغلب لحكم تونس، ذلك لأن تاريخنا الإسلامى تعوزه الوثائق الرسمية فى بعض الفترات التاريخية، لكن كل ما تذكره المصادر والمراجع هو أن هارون الرشيد استجاب لطلب إبراهيم بن الأغلب فى أن يقيمه عاملاً شبه مستقل على المغرب بعد أن كانت الخلافة العباسية قد أعيتها الحيل فى إدارة شئون أفريقية.

وتمكن بعد جهود مضنية فى المحافظة عليها فى إطار السنة والجماعة وإبعاد الخوارج عنها وهكذا وجدت الدولة العباسية بغيتها فى إبراهيم بن الأغلب الذى كان يرى نفسه أهلاً للولاية وتاقت نفسه إلى يحكم أفريقية وهكذا اتفقت طموحاته مع ما كانت الدولة العباسية تسعى إليه من وضع أمور أفريقية فى أيد أمينة وتستريح من تكاليف نفقاتها عليها وعلى هذا الأساس تم الاتفاق بين إبراهيم بن الأغلب وهارون الرشيد وولاه هارون الرشيد منطقة تونس واعترف به أميراً مستقلاً بإمارته تحت ظل الخلافة العباسية وظلت الحركة الاستقلالية عن الخلافة العباسية واضحة فى عهد الأغالبة.

لقد كان اشتراط ابن الأغلب على أن يوفر لبيت المال الإعانة التى كانت ترسلها مصر إلى أفريقية ومقدارها مائة ألف دينار وأن يرسل إلى الخلافة العباسية فوق ذلك أربعين ألف دينار سنوياً. وكانت موافقة هارون الرشيد على هذا العرض تعنى الاعتراف باستقلال أفريقية تحت حكم ابن الأغلب استقلالاً جزئياً عن الخلافة العباسية، ومما يؤكد هذا الوضع الجديد الذى وافق عليه الرشيد لقب الإمارة الذى أطلقه المؤرخون كثيراً على بنى الأغلب.

وقد حكم إبراهيم بن الأغلب أفريقية فى ظروف عسيرة حيث استطاع بهذه الصفات النادرة أن يهدئ النفوس الثائرة ويكبح جماحها وأن يعيد الأمن إلى نصابه حيث أنقادت إليه البلاد طائعة وخضعت له الرقاب راضية فنشر الأمن.

وهكذا فإن السياسة التى ابتدأها الخليفة هارون الرشيد وسار عليها الخلفاء من بعده فيما يختص ببنى الأغلب وأفريقية فإنها سياسة قد أملتها الظروف فى هذا الطرف البعيد وكانت هى نفس السياسة التى جرت عليها الدولة العباسية فى كل الأقاليم البعيدة التى كانت تنزع للاستقلال أو التى كانت الدولة تعجز عن حكمها حكماً مباشراً وهى إقامة أسر حاكمة تحكم باسم الخلافة وهى سياسة مرنة توفق بين مصلحة الخلافة ومصلحة أهل الإقليم النازعين إلى الاستقلال، كما كانت الظروف الخاصة بأفريقية هى التى جعلت الرشيد يقيم هذه الإمارات المستقلة وكما سبق العرض فإنه يبين لنا كيف كانت ثورات أهل أفريقية على حكم الخلافة وعجز جيوش الدولة فى قهرها ثم كيف استطاع إدريس العلوى إقامة دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى وهى التى أيدتها قبائل البربر وكيف كانت تتطلع إلى توحيد المغرب الإسلامى كله واقتطاعه عن الخلافة العباسية حتى لقد راسل أهل مصر فى ذلك الأمر، فأقام الرشيد هذه الإمارة المستقلة لتكون حاجزاً بين أطماع دولة الأدارسية ودولة بنى رستم وبين البلاد الواقعة شرق دولتهم وقد استطاع إبراهيم بن الأغلبى أن يوجد نوعاً من التعاون بين طبقات السكان على اختلافهم بين الجند العرب الذين كانوا يؤلفون طبقة أرستقراطية عسكرية وبين البربر أهل البلاد الأصليين أو بين الأفارقة.

وعلى هذا فنحن نلاحظ أنه بعد قيام دولة الأدارسة ببضع سنوات قليلة ظهرت دولة الأغالبة بموافقة الخلافة العباسية وإذا كانت الدولة الإدريسية قد ظهرت فى المغرب الأقصى أو ما يسمى مراكش وغرب الجزائر فإن الأغالبة ظهروا فى المغرب الأدنى أى تونس وكانت القيروان مركز حكمهم وكان الأغلب والد إبراهيم هذا قد كسب ثقة الخليفة العباسى حين قاد جيشاً من المتطوعة فى خدمة الدولة لتثبيت

نفوذها هناك عام (١٧٩–١٨١هـ/٧٩٥–٧٩٧م) كما أن إبراهيم نفسه قد عمل مع يزيد بن حاتم حين أرسلته الخلافة العباسية للقضاء على الخوارج فكافأته الدولة بتوليته ولاية الزاب القريبة من بنى رستم الأباضية لكى يقف سداً منيعاً ضد زحفهم شرقاً، وقد امتد حكم إبراهيم شرقاً حتى شمال القيروان وطرابلس وأنعمت عليه الخلافة أيام هارون الرشيد بلقب الإمارة.

وإن كان إبراهيم بن الأغلب لم يكن له عند توليته الإمارة سند عسكرى قوى إلا قوة يسيرة من قومه وعشيرته من بنى تميم وبعض الجند الخرسانين (خراسان) وكان خصومه من العرب سكان أفريقية كثيرين وهم الذين لم يرضهم على الإطلاق الإقرار له بالرئاسة عليهم وتوليه الإمارة وأعلنوا عليه حرباً عنيفة وطويلة ظلت مستمرة طوال العصر الأغلبى الذى دام أكثر من مائة عام.

ولقد كان اختيار إبراهيم بن الأغلب لحكم أفريقية من جانب الخلافة العباسية والخليفة هارون الرشيد إنما ينطوى على بعد نظر سياسى إذ أن قيام هذه الإمارة يرفع عن كاهل الخلافة العباسية متطلبات الدفاع عن هذا الإقليم البعيد بعد ما تم إنفصال الأندلس والمغرب الأقصى والجزائر الغربية، ولقد كان إقليم أفريقية عرضة دائماً لهجمات الروم من ناحية البحر (لاحظ اهتمام الأغالبة فيما بعد ببناء الأسطول وفتح صقلية ومالطة ودورهم فى البحر المتوسط) (راجع كتابنا، الإسلام والمسلمون فى جزر البحر المتوسط)، (كتابنا الإسلام والثقافة العربية فى أوربا طبعة عام ١٩٧٩).

إضافة إلى ذلك الإقليم والمغرب العربى الإسلامى بصفة عامة كان عرضة للحركات الاستقلالية ومكاناً لتطلع الراغبين فى الاستقلال والانفصال عن الخلافة الأم فى بغداد، كما أن إرسال الجيوش العباسية إليه من المشرق العربى كان أمراً بالغ الصعوبة، نظراً لأن إرسال مثل هذه الجيوش يتكلف نفقات هائلة لبعد المسافة بين بغداد العاصمة حيث مركز الخلافة وبين هذه الأقاليم البعيدة، الأمر الذى يجعل الدفاع عنه بواسطة جيوش الخلافة العباسية قليل الفاعلية، ومن ناحية أخرى فإن أسرة الأغالبة

التى تولت الإمارة سوف تعمل بطبيعة الحال على إقرار الأمن ضماناً لاستقرارها ودوام حكمها وإرضاءً للنزعة الاستقلالية التى يحس بها أهل البلاد من المغاربة، بل أن إبراهيم بن الأغلب مؤسس هذه الأسرة الحاكمة سوف يعمل من جانبه على تكييف نظم الحكم وإدارتها بما تقتضيه الظروف التى تواجه الدولة، ويعمل على تنمية موارد المنطقة محلياً للقيام بمتطلبات الحكم فى الأقليم والدفاع عنه ضد خطر الأدارسة وبنى رستم الأباضية والخوارج.

وقد رأينا كيف عرض إبراهيم بن الأغلب تنازله عن الإعانة التى كانت تقدمها مصر من بيت مالها سنوياً لولاة هذا الإقليم ومقدارها مائة ألف دينار.

وقد أثبت إبراهيم بن الأغلب أنه حاكم ناجح فقد استطاع أن يوطد الحكم فى أسرته وأن يقضى على الثورات التى قامت فى إقليمه ومن أكبر هذه الثورات والخصوم تلك التى قام بها «الحسن بن حرب الكندى وعمران بن مجالد الربعى» وقد تمكن إبراهيم بن الأغلب من القضاء على نفر كبير من رؤسائهم بعد جهد شديد ولكنه لم يقض على روح التمرد والعصيان على هذين الخصمين وعلى آل بيتهم ولقد انتشرت الثورة ضده من رؤساء جند أفريقية العرب ومن انضم إليهم من العرب الذين ولدوا فى المغرب ومن أصول عربية وظلوا يتصورون أنهم أحق من غيرهم بحكم أفريقية.

وكما سبق القول فإن الإتفاق الذى تم بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب يقضى بأن يؤدى إبراهيم بن الأغلب أربعين ألف دينار فى السنة ويستغنى عن مائة ألف دينار كانت ترسل من مصر سنوياً كمعونة لوالى أفريقية فكان كل خراج أفريقية الذى يعود إلى الدولة العباسية مائة وأربعين ألف دينار وهو مبلغ زهيد جداً، ولكن إبراهيم بن الأغلب اجتهد فى استخراج مال كثير من أفريقية حتى بلغ إيرادها فيما يقال نحو مليونين من الدنانير فى السنة. وقد كان هذا المال عماد قوة إبراهيم بن الأغلب .

وقد عمد إبراهيم بن الأغلب إلى تدعيم حكمه وولايته بالبناء والعمران، ولكى يضمن ويأمن ابن الأغلب عدم انقضاض خصومه عليه ومكرهم به فقد استعان عليهم بحامية من الزنوج والأعاجم الوافدين من خراسان وكان هذا الأمير أول من أدخل الزنوج فى الجيش وبهذا التدبير استطاع أن يكبح جماح خصومه وأن يضرب على أيديهم.

كما أن ابن الأغلب استطاع أن يوقف طموح الأدارسة وأن يعقد معهم إتفاقاً (انظر فصل العلاقات الخارجية) وكان هذا الاتفاق ينص على أن يكف كل منهما عن الآخر من ناحية، وقد ذكر عنه ابن عذارى المراكشى ما نصه لم يل (يحكم) أفريقية أحسن سيرة منه ولا سياسة ولا أرق برعيته ولا أوفى بعهده ولا أرعى لحرمة منه قطاعت له قبائل البربر، وتعهدت أفريقية فى أيامه.

وقد اتجه نظر إبراهيم بن الأغلب فى أول الأمر إلى إقامة قوة عسكرية يستطيع الاعتماد عليها إذ أنه لم يكن يستطيع الاعتماد على جند الخرسانى وكان أهله من بنى تميم قليلين رغم أنه وفدت منهم أعداد كبيرة من مصر عندما تولى الإمارة إلى أفريقية أيام حكمه، لكن خصومه كانوا يعتمدون أيضاً على قوة عسكرية قبلية لاتقل عن قواته ومن هنا كان همه الأول هو إنشاء قوة عسكرية خاصة به ولتدعيم حكمه لاسيما وأن المال صار بين يديه كثيراً بعد ما تحصل من إيراد الولاية مليونين من الدنانير.

وقد اتخذ إبراهيم بن الأغلب من مدينة القيروان عاصمة لولايته ولكنه لم يلبث بعد مرور عام على ولايته أن شرع فى عام ١٨٥م فى بناء مدينة القصر القديم التى تقع أطلالها على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيروان وسماها العباسية تعبيراً عن ولائه للعباسيين وانتقل إليها بأهله وحاشيته وذلك ليكون فى مدينة يتوافر فيها جو الثقة بين أهله ومن يثق فيهم وهو بذلك يسير على سنة الحكام الكبار فى ذلك العصر؛ حيث كانوا ينشئون لدولهم عواصم ملكية غير الغواصم القديمة التى كانت تضم طبقات قد

لايتوافر فيها الإخلاص لهم.

لكن هناك بعض المصادر التى تذكر أن أباضية تاهرت من بنى رستم قد قاموا يهدم العباسية بعد إتمام بنائها (انظر فصل العلاقات بين الأغالبة وبنى رستم والأدارسة).

ويذكر أنه قبل توقيع الصلح مع الأدارسة أنه وجه همه إلى مناوأتهم بعد أن سادوا الجزء الغربى من المغرب وكيف استطاع أن يصد تيارهم ويوقف زحفهم عن تلمسان ولكنه لم يفلح فما كان من إبراهيم بن الأغلب إلا أن لجأ إلى المؤامرة وقد نجح فى قتل إدريس الأول ثم مولاه راشد إلا أنه لم ينجح فى القضاء على دولة الأدارسة لذا .. ظهرت دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى واقتصر نفوذ الأغالبة على القيروان وإن كان قد امتد شرقًا حتى شمل طرابلس وبرقة وإن كان النفوذ الأغلبى على السواحل فقط حيث كان الداخل يخضع لنفوذ بنى رستم الخوارج الأباضية وكانت سلطته أقوى ما تكون فى الأقليم الساحلى من قابس إلى سوس وأغلب سكان هذا الجزء من أهل السنة والجماعة، وكان هذا الجزء يميل إلى الهدوء لكثرة القبائل العربية التى نزلت فيه بينما كانت القبائل البربرية أشبه بجيوب متفرقة فكانت هذه القبائل العربية هى التى دخلت بين القبائل البربرية وبعضها لاسيما بعد أن تصاهرت معها.

وظل إبراهيم بن الأغلب معترفًا بسلطة الخلافة العباسية عليه وإن كانت إسمية لا تعدو الناحية الدينية وإرسال الخراج سنويًا على الرغم من أنه لم ينقش إسم الخليفة العباسى على السكة مطلقًا بل كان بعض خلفاء إبراهيم بن الأغلب يتعمدون إغفال إسمه فى الخطبة.

وهكذا .. فقد نجح إبراهيم بن الأغلب فى إدارة شئون ولايته الأفريقية الممتدة من طرابلس شرقًا حتى بجاية غربًا وأن يبعد منطقة نفوذه عن نفوذ الأدارسة وبنى رستم

وأن يصد هجمات الروم البحرية، بل أنه أداره إدارة حسنة، إلا أنه رغم هذا .. فإن البلاد لم تهدأ لأن عوامل الشغب قد دبت بين العرب أنفسهم فانقسموا إلى تميمية وهم أهل مدينة تونس ويمانية، وهم أهل القيروان. وكان التميميون لا يرضون تقريب ابن الأغلب إياهم فثاروا فى وجهه بقيادة «عمران بن خالد الربيعى» وبعد صراع طويل بين الفريقين تغلب ابن الأغلب على بنى تميم فى تونس وقضى على ثورتهم ولكن لم تكد نيران هذه الثورة تخمد حتى ثارت طرابلس فأخمد ثورتها أيضاً وكانت ساحة طرابلس قد حدث بها اضطراب كثير من الأمور وزادت بها الحوادث التى اشتدت وانتشرت بها أعمال الشغب والخلافات القبلية التقليدية بين القبائل السبائية (اليمن) والقيسية بنى تميم والتى بذل فيها الأمير الأغلبى إبراهيم بن الأغلب جهوداً جبارة ورائعة لمحاولة احتواء الأزمة ومعالجتها بشتى الطرق حتى أنه رغم استقلاله بولاية أفريقية فإنه اضطر إلى طلب النجدة والاستعانة بمصر وأجيب طلبه فى الاستعانة بجند مصر فى قمع هذه الفتن، لكن القوات التى قدمت من مصر لم تستطع أن تحل مشكلة الصراع العميق بين السبائية والقيسية وفشلت هذه الجهود كما فشل غيرها من قبل وعمت الفوضى فى مدينة طرابلس التى كانت تدخل فى أملاك الدولة العباسية وتحت ولاية بنى الأغلب من قبل الدولة العباسية، بل أن الذى زاد الموقف سوء أن البربر قاموا بالثورة على جند المدينة من العرب وعلى جميع العرب جميعاً بما فيهم نواب بنى الأغلب، ويذكر أن من عوامل قيام تلك الثورة فى طرابلس هو الدور الذى لعبه وعضده عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أمام دولة الخوارج الأباضية فى تاهرت حيث أن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كان فى تلك الفترة التى حدثت فيها الثورة يقيم فى جبل نفوسة حيث الخوارج الأباضية وهو قريب من طرابلس فالمسافة بين جبل نفوسة وطرابلس كما يذكر الجغرافيون لم تكن أكثر من مسيرة ثلاثة أيام.

وبعد تلك الثورات المتكررة فقد استعان ابن الأغلب بالكثير من البربر الذين تعربوا والذين عملوا بإخلاص معه فى الجيش الأغلبى كما استعان بأعداد كبيرة من

الصقالية، وهم جند من أصل أوربى كانوا يُشترون صغاراً من تجار الرقيق الذين كانوا يجلبونهم من أوربا ويربون تربية عربية إسلامية ويتخذون بعد ذلك جنداً وخدماً للدولة فى القصور والوظائف. وقد استكثر إبراهيم بن الأغلب من هؤلاء جميعاً وأضاف إليهم فيما بعد قوة من السود ولم يطمئن على حكمه إلا بعد أن تم له إنشاء هذه القوة خلال السنوات الأولى من حكمه فى أفريقية ولقد كان الساحل الأفريقى مفتوحاً أمام الأساطيل الرومية التى كانت تتخذ قواعدها فى الجزر القريبة منه فى صقلية ومالطة ولقد كانت المعارك دائمة بين البحرية الإسلامية والبحرية البيزنطية منذ فتح العرب شمال أفريقيا لكن الثورات التى نشبت فى أفريقيا بعد ذلك جعلت الولاه العباسيين ينشغلون عن غزو هذه الجزر فتجرأت سفن الروم على مهاجمة السواحل الأفريقية وتحول المسلمون إلى مركز الدفاع بعد أن كانوا فى العصر الأموى يأخذون موقف المبادأة ونقل العمليات الحربية سواء منها البرية أو البحرية إلى أرض العدو ولما انشغل إبراهيم بن الأغلب بأمور أفريقية أخذ يعمل على تكوين قوة بحرية لاتستطيع أن ترد هجمات الروم أو تبادلهم أعمال القرصنة التى يتبادلها الطرفان فحسب وإنما تستطيع أن تقوم بعمل حقيقى لإبعاد الأسطول الرومى نهائياً عن الساحل الأفريقى بالإستيلاء على قواعده المواجهة لهذا الساحل فى صقلية ومالطة وسواحل إيطاليا الجنوبية والجنوبية الغربية.

وكما اهتم ابن الأغلب ببناء القوة العسكرية البرية .. فإنه عمل على بناء قوة بحرية؛ حيث أدرك بثاقب نظره منذ توليه وإقراره من قبل الخليفة العباسى هارون الرشيد أن امتداد إمارته من طرابلس شرقاً حتى بجاية غرباً يستلزم أسطولاً يستطيع بواسطته حماية هذه السواحل من غزوات الروم المتكررة وفى نفس الوقت يعينه على العودة بالسياسة الإسلامية الأفريقية إلى توجيه الغارات على بلاد الروم بالإضافة إلى أنه كان يهدف ومن وراء إنشاء تلك القوة البحرية إلى استخدام هذا الأسطول فى إخمال الثورات التى كثيراً ما كانت تحتدم فى طرابلس نظراً لقربها من جبل نفوسة مركز

الأباضية حكام تاهرت؛ بالإضافة إلى أن إبراهيم بن الأغلب قد حرص على الإفادة من قدرات سكان أفريقية البحرية وخاصة الأفارقة ممثلة فى ميولهم البحرية الواضحة عند سكان السواحل ومن توافر المواد اللازمة لصناعة الأسطول لتكون قوة بحرية عظيمة.

كما أنه فى نفس الوقت فقد عمل إبراهيم بن الأغلب على إنشاء قاعدة عسكرية له ولأهل بيته من الأغالبة وبنى تميم وذلك على طريقة الكثيرين جداً من حكام المسلمين؛ حيث نعلم أنه كيف ترك العباسيون الكوفة واتخذوا الهاشمية مقراً ثم كيف أنشأوا بغداد فى عصر المنصور ثم سامراً فى عهد المعتصم وكيف تم ترك الفسطاط فى مصر وإنشاء مدينة العسكر وغيرها من المدن والعواصم الأخرى فى العديد من بلاد العالم الإسلامى؛ حيث أنهم كانوا يعيشون فى هذه القواعد فى الغالب منفصلين عن رعاياهم معتمدين على قواتهم العسكرية وجندهم وخدمهم الخاص.

وقد اختار إبراهيم بن الأغلب موقعاً إلى الجنوب الغربى من القيروان أنشأ بها مدينة صغيرة هى فى الواقع حصن لبيت الحكم وسميت المدينة الجديدة أولاً بالعباسية ثم سميت بالقصر القديم وعندما تم بناءها كما سبق القول انتقل إليها بأهله وأمواله وحرسه وجنده وأصبح القصر القديم قاعدة الحكم فى البلاد.

وعندما تم ذلك لإبراهيم بن الأغلب أمن على نفسه ومصيره وسار فى حكمه على طريقة الحكام فى تلك العصور.

وقد اهتم ابن الأغلب بترقية أفريقية مادياً وأدبياً مستعيناً بالمعالم الحضارية والفنية الإسلامية ومتخذاً خبرة العرب والمسلمين وما تم فى دولة بنى العباسى فى بغداد.

ولقد كان القصر القديم أو العباسية مدينة كاملة بها قصور الأمير الوالى وآل بيته ومساكن حاشيته وخدمه ومعسكرات لجنده وخزائن للسلاح والأموال هذا إلى جانب الأسواق وكل ما يلزم للمدينة من وسائل تحتاج إليها وحفرت داخل المدينة الآبار الكثيرة بالإضافة إلى حفر هذه الآبار فى كافة أنحاء القطر والتى كانت تمد الأهال

بحاجتهم من الماء اللازم للشرب وسقى الماشية والزراعة وكذلك أحيطت المدينة بسور حصين على أركانه أبراج عالية يقوم فيها الحراس.

هذا إلى جانب أن الجند المناوئ والمعادى لتولية إبراهيم بن الأغلب حكم أفريقية قد كانت معسكراتهم وتواجدهم فى المدن الكبرى وخاصة فى مدينة تونس التى كانت معقل ومركز المعارضة الأولى المعادى للبيت الأغلبى للحاكم.

إلا أن الأغالبة نجحوا فى بعض الفترات التاريخية من حكمهم فى إيجاد نوع من التعاون بين كل الفئات والعناصر التى تقطن إمارتهم وقد وضح هذا التعاون المستمر فى المدن على وجه الخصوص وفى مدينة القيروان حاضرة البلاد؛ حيث عاشت هذه العناصر جنباً إلى جنب ولعل هذا التعاون قد هيأ للأغالبة أن يستغلوا موارد البلاد خير استغلال فعظمت ثروة البلاد وأقبل هؤلاء الأمراء على إتاحة الفرصة لطلب العلم والمعرفة وبدأ الشعب يعيش فى حالة من الرخاء بالإضافة إلى أن الأمراء كونوا لأنفسهم بلاطاً شبيه بالبلاط العباسى فى بغداد فى حياته واتجاهاته وقد ظهر أثر هذه السياسة التى وضع لبناتها الأولى مؤسس الإمارة إبراهيم بن الأغلب فى ميدان الحضارة والثقافة والفن الإسلامى وعلى هذا تنوعت الآثار المنسوبة إلى عصر الأغالبة بالإضافة إلى أنهم استطاعوا أن يجعلوا الإقليم يعيش فى رخاء اقتصادى وذلك بتنمية موارد الإقليم لسد النفقات الحربية الهائلة التى يتطلبها التصدى لتحركات الروم ضد الساحل الأفريقى بل إنهمُ لم يكتفوا باتخاذ موقف الدفاع بل إنهم قاموا بحملات بحرية ناجحة أدت إلى فتح صقلية ومالطة.

* * *

الباب السابع
جيل الأبنــــاء

وهكذا نرى أنه بعد أن توطدت دعائم الدولة الأغلبية بعد فترة من الحكم دامت إثنى عشر عاماً استطاع فيها الأمير إبراهيم بن الأغلب بما بذله من جهد خارق للعادة أن يثبت دعائم حكم أسرته وأن يقضى على الخلافات والفتن وأن يتغلب على المتاعب التى كانت تواجه مسيرة الحكم .. فإنه قد قضى نحبه فى شهر رجب عام ١٩٦هـ، وعلى ذلك فقد آل الحكم لأكبر أبنائه؛ حيث كانت العهود التى تمت بينه وبين الخليفة هارون الرشيد تنص على أن يكون الحكم فى أسرته من بعده.

٢ – الأمير عبد الله الأول
(١٩٦-٢٠١هـ / ٨١٢-٨١٧م)

هو عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمى وهو أكبر أبناء إبراهيم وقد آل إليه الحكم بناءً على توصية أبيه ولم يكن من الأمراء الأقوياء الذين لعبوا دوراً فى تاريخ الأسرة الأغلبية؛ بل أنه كان سيئ السيرة، ولم تطل مدة حكمه عن ست سنوات قضاها فى جنى ثمرات العمل الذى قام به والده من قبله.

ويذكر أنه لما توفى الرشيد وتولى الأمين الخلافة؛ فإنه أقر ابن الأغلب على إمارة تونس وعهد إلى إبنه الأكبر عبد الله بولاية طرابلس فلما مات إبراهيم بن الأغلب عام ٨١٢م أخذ إبنه الثانى زيادة الله البيعة لأخيه الأكبر عبد الله وقام مقامه ريثما يأتى من طرابلس ولم يأت عبد الله إلا بعد سنة من وفاة أبيه.

وكان عبد الله بن إبراهيم أو العباسى عبد الله قد سار فى ثلاثة عشر ألف جندى إلى طرابلس لقتال قبائل هوارة الذين دخلوا طرابلس واستطاع إلحاق الهزيمة بهم وقتل

عدد كبير منهم وتمكن من دخول طرابلس وبناء سورها.

لكن فى ذلك الوقت كان عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم يقيم فى جبل نفوسة القريب من طرابلس حيث مركز الأباضية الخوارج وكان قريباً من مسرح الأحداث وعلى علم بما يدور من صراع وأدرك أن هزيمة الأغالبية لقبائل هوارة يعتبر اعتداء صارخاً على رعايا دولته الرستمية فأعد جيشاً وتقدم لحصار طرابلس وتمكن عبد الوهاب من فرض الحصار على طرابلس عام ١٨٦هـ/٨١١م. لكن عبد الله ظل يقاتل جند عبد الوهاب الرستمى من باب واحد هو باب هوارة وظل القتال يدور على هذا النحو حتى وفاة إبراهيم بن الأغلب الذى كان قد عهد بالإمارة إلى إبنه الأكبر عبد الله، لكن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب كان قد أخذ العهد والمواثيق على الجند وأرسل إلى أخيه عبد الله فى طرابلس رسالة يخبره فيها بموت أبيه وبأن الإمارة انتقلت إليه، لكن الرسالة والرسول تصادف وقوعهما فى أيدى جند عبد الوهاب الذين كانوا قد أحكموا الحصار حول طرابلس وقام الهوارة بأخذ الرسول والرسالة ودفعوا بهما إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فأمر بأن ينادى عبد الله بموت أبيه وأمام هذه الظروف لم يجد عبد الله بداً من عقد الصلح مع الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وجاء فى شروط الصلح اعتراف دولة الأغالبة الممثل الشرعى للخلافة العباسية فى بلاد المغرب بالسيادة الرستمية على المناطق الداخلية من طرابلس إلا أنه كانت من أهم بنود الصلح أن تكون للأغالبة السيادة على مدينة طرابلس وبعض الأجزاء الصغيرة المجاورة والمياه البحرية التى تطل على البحر المتوسط وتلك هى تطورات حوادث تولية عبد الله بن إبراهيم لإمارة الأغالبة، وكيف أن عبد الله كان بطلاً فى الحرب والسلم استطاع أن ينتصر على هوارة وأن يحافظ على طرابلس فى وجه بنى رستم ويمنعهم من دخولها وأن يعقد صلحاً مشرفاً مع عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم يضمن له بقاء تلك الأراضى فى يد الأغالبة وحرية الحركة والوصول إلى القيروان.

غير أن فترة حكمه القصيرة لم تكن كافية للحكم عليه من خلال الأعمال التى قام بها لكن فترة مكوثه فى طرابلس بناءً على تعيين الخليفة العباسى الأمين له تدل على قوة شخصية وليس سوء السيرة كما صور ذلك المعادون للأغالبة، ولكن بعد ذلك فقد ال الحكم إلى أخيه.

٣ - زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب (٢٠١-٢٢٣هـ / ٨١٧-٨٣٧م)

تولى زيادة الله الحكم فى القيروان بعد وفاة أخيه أبى العباسى عبد الله وكان أميراً قادراً ولكن مشكلته الكبرى كانت جنده الذين استكثر منهم أبوه إلى درجة زادت على الحاجة، وتكلف ذلك المال الطائل يضاف إلى ذلك أن جند البربر كانوا قد تكاثروا مع الزمن وزادوا عن الحاجة.

وكان زيادة الله وهو ثالث أمراء الأغالبة الذين حكموا أفريقية وقد بايعه الناس بعد وفاة أخيه أبو العباسى عبد الله بالإمارة وكان هذا الأمير رجلاً عاقلاً أديباً ذا علم وفضل وإدارة وحزم على النقيض مما كان عليه أخوه من ظلم وجور وسوء تدبير، ولكن شاءت الظروف أن يحتمل هو عواقب أعمال أخيه، إذ نجد أنه ما كاد يتولى الإمارة حتى ثار عليه أهله وعشيرته من بنى تميم بقيادة «منصور الطنبدى» الذى أخذ يستولى على البلاد بلداً بعد بلد حتى لم يبق فى يد زيادة الله من البلاد الأفريقية التونسية إلا قابس والساحل وتغزاوة وطرابلس وأصبح منصور الطنبدى هو الأمير المسيطر على البلاد فضرب السكة (العملة) بإسمه وخطب له على المنابر وزيادة الله لايقدر على شىء لاسيما أنه لم يكن أمام عدو واحد بل ثار عليه أيضاً شخص إسمه «عامر بن نافع» وكان يطمع فى الإمارة؛ فلما رأى فى منصور منافساً له انصرف عن زيادة الله إلى منصور فغلبه وقتله واستبد بالأمر من بعده وظل أميراً على البلاد إلى أن مات عام ٨٢٩م، وذلك فى السنة الثانية عشرة لإمارة زيادة الله.

فلما مات «عامر بن نافع» رأى أولاده أنهم لا يقدرون على منافسة زيادة الله فأتوه خاضعين مستأمنين فأمنهم وطويت صفحة الفتن وهدأت الأحوال وعادت البلاد إلى حياتها العادية. وساد البلاد بصورة عامة الأمن والرخاء وعمرت المدن وظهر الرخاء على العامة وبدأت شخصية أفريقية فى الظهور وكثر أهل العلم وبالفعل تحولت أفريقية إلى قاعدة قوية من قواعد حضارة العلم والإسلام.

كما أن زيادة الله أولى الأسطول عناية تامة وقدر لهذا الأسطول أن ينمو وتزيد قوته زمن زيادة الله وأصبح من الضرورى أن يقوم هذا الأسطول بتحقيق آمال المسلمين القديمة فيساهم فى عهد زيدة الله بفتح جزيرة صقلية وقد حكم زيادة الله إثنين وعشرين سنة هجرية.

ولقد أصبح للدولة فى عهده جيش قوى تكاثر عدده مع الزمن لاسيما جند البربر الذين ثقلت نفقاتهم وبدأوا يسببون المتاعب للإمارة، فوجد زيادة الله نفسه أمام حشد هائل من الجند لاعمل لهم فى الحقيقة ورواتبهم فى زيادة ونوعهم وتدريبهم فى تدهور فكان لابد أن يفكر فى مخرج من تلك الأزمة بإيجاد مجال لنشاط هؤلاء الجنود.

وقد ظل الأمير زيادة الله معترفًا بسلطة الخلافة العباسية الإسمية دون أن يكون لها أى نفوذ ولم يكن هذا الاعتراف فى الواقع إلا ليصدوا عنهم التيار الخارجى ممثلاً فى بنى رستم والعلوى ممثلاً فى الأدارسة، وهنا كان المذهب السنى وسيلة تحفظ استقلال هذا الجزء من أن يقضى عليه العلويون.

كما أن زيادة الله عانى كثيراً من الثورات التى قام بها جنده عليه وفتنهم المتعددة التى كادت تطيح بسلطان بنى الأغلب ونفوذهم مثل ثورة «عمر بن معاوية القيسى» فى العصر بين عام ٢٠٨هـ وثورة منصور الطنبدى فى تونس عام ٢٠٩هـ؛ حيث كانت ثورة منصور أخطر هذه الثورات لأن القواد استولوا على بلاد أفريقية كل

قائد على بلد ويمتنع فيها عن عقوبة زيادة الله التى توعدهم بها واضطرمت أفريقية بالثورة ورمى الجند كلهم إلى منصور الطنبدى أزمة أمورهم وولوه على أنفسهم بعد أن التفوا حوله وتواثبوا على الأمير زيادة الله وكذلك ثورة «عامر بن نافع الأزرق» بمدينة سبته عام ٢١٠هـ ويرجع سبب قيام الجند بالثورة على زيادة الله استخفافه بهم وإمعانه فى سفك دمائهم لسوء ظنه بهم وقد ساء مركز زيادة الله؛ بسبب هذه الثورات إلى حد أن الجند كتبوا له بأن يرحل عن أفريقية وليس أدل على خطورة ثورة عامر بن نافع من تعليق زيادة الله عندما بلغه نبأ وفاة عامر عام ٢١٣هـ من قوله «اليوم وضعت الحرب أوزارها» كذلك حرص زيادة الله على التخلص من جنده البربر بأن يرسلهم فى حملته التى أعدها لغزو صقلية حتى شغلهم بمقاتلة الروم عن التفكير فى القيام عليه ويضع حداً للاضطرابات التى كانت تحدث بين السودان والعرب والبربر من جنده.

وقد ورث زيادة الله عن أبيه ملكاً واسعاً مستقراً وثروة طائلة فتاقت نفسه إلى أن يجدد تقليد الجهاد الإسلامى ومن هنا .. فكان زيادة الله أميراً حسناً لا بأس بمواهبه استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة حسن التصرف خبيراً بشئون الحكم ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعته فى مشاكل وأزمات وأخطاء كثيرة، وقد تمكن من التغلب على كل هذه المشاكل وإن كانت قد بقيت بعض جماعات قوية خطيرة فى تونس وطبنة والمسيلة وغيرها من الأماكن فى أفريقيا كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله فى النهاية؛ بالإضافة إلى أن زيادة الله كان محباً للعلم والعلماء مشجعاً لها ولا يؤخذ عليه إلا العنف فى معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم مما شاب حكمه وملأه بالحروب وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته أنه لايخشى لقاء الله سبحانه وتعالى فى يوم الميعاد، وفى صحيفته أربعة أشياء، بناء مسجد القيروان، وبناء قصر المنستير، وبناء قنطرة أم ربيع على نهر مجردة، وتعيين ابن محرز للقضاء، والغريب فى الأمر أنه لم يذكر فى حسناته التى يدخل بها الجنة فتح صقلية؛ فكأنه لم يشعر فى قرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح؛ قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغالبة جميعا؛

فإنه لما قتل الخليفة العباسى الأمين، وبايع أهل بغداد عمه إبراهيم المهدى لم يعترف زيادة الله بهذا الخليفة، ولم يبايعه بل دعا للمأمون على المنابر، فلما تمكن المأمون من الخلافة شكر زيادة الله صنيعه وأقره على ما كان فى يده وحل من نفسه محلاً رفيعاً. واستطاع زيادة الله بعد أن هدأت الفتن أن ينصرف إلى العمران والاقتصاد؛ فازدهرت البلاد فى زمنه وكثرت خيراتها، وفى زمن زيادة الله كانت البلاد تتأرجح بين المذهب المالكى مذهب أهل المدينة والمذهب الحنفى مذهب أهل العراق، ولكن تمذهب الإمام سحنون بالمذهب المالكى قضى على هذا النزاع ورجح المذهب المالكى فى البلاد وهو مذهب الأكثرية فى بلاد المغرب العربى الإسلامى إلى يومنا هذا.

وطوال فترة حكم زيادة الله فإنها إن دلت حوادثها وأحداثها فإنها تدل على أن هذا الأمير كان من أعظم أمراء بنى الأغلب وإن كانت بعض المصادر ذكرت أنه كان ظلوماً غشوماً .. فإن ذلك ربما لما كان يظهر به من عنف إزاء خصومه نظراً لكثرتهم وتعددهم فقد كان معذوراً فى اتخاذ هذه المواقف العنيفة نظراً لأن الظروف السياسية ووضع أسرة الأغالبة فى المغرب يقتضى اتخاذ تلك المواقف فى مواجهة الداخل ولاسيما أن العلويين فى المغرب الأقصى والأباضية الرستيين فى تاهرت كانوا يتحينون الفرص للقضاء على دولة الأغالبة ونترك هنا الحديث عن فتح صقلية وغيرها، وإن كانت بدأت فى عهد زيادة الله إلا أنها استمرت فى عهد من خلفه، ومن هنا سوف نتناولها عند الحديث عن أعمال الأغالبة.

٤ - الأغلب أبو عقال
(٢٢٣-٢٢٦هـ/٨٣٧-٨٤٠م)

لما توفى زيادة الله الأغلب عام ٢٢٣هـ-٨٣٧م فقد خلفه من بعده أخوه الأغلب أبو عقال (٢٢٣-٢٢٦هـ/٨٣٧-٨٤٠م)، ورغم أن فترة حكمه لم تزد عن ثلاث سنوات .. إلا أنه سار فى الناس سيرة حسنة صالحة؛ فأكرم الجند بالتوسع عليهم

فى أرزاقهم وكف أذى العمال عن الرعية، ولكن مدة إمارته لم تطل وتجمع المصادر على أنه أحسن سيرة من أخويه عبد الله أبى العباسى وزيادة الله ولم يطل عهده وقد كان نفاذ البصيرة مدركاً لعواقب الأمور، ونجح فيما لم يستطع أن ينجح فيه أخواه من قبله إذ استطاع أن يأخذ البيعة من قواد الجيش والرعية؛ نظراً لأعماله الطيبة لابنه أبى العباسى محمد الأول بن الأغلب أبى عقال قبل وفاته، ومن هنا .. رغم اعتراض بقية آل البيت الأغلبى لكن يبدو أنه كان مدركاً لعواقب الأمور، ومن هنا .. ترك إبنه يقوم بأمور الإمارة أثناء توليه الإمارة رغم قصرها فإذا كان أخوه أبو العباسى عبد الله قد حكم ست سنوات هجرية وزيادة الله حكم ثلاثة وعشرين عاماً هجرياً .. فإن سنوات إمارته لم تزد عن ثلاث سنوات استطاع فيها أن يواصل مسيرة والده إبراهيم بن الأغلب مؤسس الأسرة وأخويه عبد الله وزيادة الله بل إنه دعم أعمال أخيه زيادة الله فى القيام بغزو صقلية وفتح فيها بضعة حصون وغنم منها غنائم كثيرة.

* * * *

جـيل الأحـفاد

٥ - أبو العباسى محمد الأول بن الأغلب أبو عقال بن إبراهيم بن الأغلب (٢٢٦-٢٤٢هـ/٨٤٠-٨٥٥م)

كانت بداية حكم أبى العباسى محمد الأول هى فترة انتقال مقاليد الإمارة من جيل أبناء إبراهيم بن الأغلب إلى جيل أحفاده؛ حيث كان أولهم ذلك الأمير الذى نجح أبوه الأغلب أبو عقال فى أخذ البيعة له ويذكر أنه كان رجلاً ساذجاً إلا أنه كان رجلاً إدارياً حازماً من الطراز الأول استطاع أن يوطد الحكم ويقف سداً أمام المطالبين بالعرش من بنى الأغلب حيث ثار عليه أخوه وبعض أقاربه وأبناء عمومته ووقفت الأسرة الأغلبية ضده فيما عدا نفر قليل، وقف بجواره يشد أزره ويساعده فى إدارة شئون البلاد، ومن هنا استطاع أن يتغلب عليهم جميعاً ودامت فترة حكمه خمس عشرة سنة بنى خلالها قصراً فى سوسة كما بنى مسجدها الجامع القائم إلى اليوم، ولعل أعظم أعمال هذا الأمير إقرار تولية الإمام سحنون قضاء القيروان؛ فنشر بذلك العدل بين الناس والطمأنينة فى النفوس.

وفى عهده فتح المسلمون جزيرة مالطة عام ٢٥٥هـ/٨٦٨م، واستقروا فيها، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية، وقد طال عهده بالحكم وأراد أن يلحق قومه فى الجهاد؛ فالتحق بصقلية وترك أفريقية لولده. وقد استطاع أبو العباسى محمد الأول بن الأغلب أن يفعل كما فعل والده من قبل أن أخذ البيعة لأبنه أحمد أبى إبراهيم لكى يكون خلفاً له ضارباً عرض الحائط باعتراض أخوته وأبناء عمومته، وآل البيت الأغلبى الذين رأوا فى ذلك مساساً بحقوقهم واعتراضاً على أحقيتهم فى تولى الإمارة، لكنه كان دائماً يذكرهم بما فعله أبوه من قبل فى أخذ البيعة له وقد كان ذلك تطوراً جديداً فى نظام الحكم فى آل الأغلب.

٦ – أحمد أبو إبراهيم بن العباسى محمد الأول بن الأغلب أبو عقال بن إبراهيم بن الأغلب (٢٤٢-٢٤٩هـ/٨٥٥-٨٦٢م)

كان أحسن الأغالبة خلقاً وأصلحهم فاضلاً رحيماً بالرعية مولعاً بالعمران كثير الإحسان، ومن مآثره تحسينه وإصلاحه لجامع الزيتونة، وقد ازدان عهده بالقاضى الجليل سحنون الذى توفى عام ٢٠٤هـ، وقد بنى كثيراً من الآثار الباقية إلى اليوم وغزا فى عهده صقلية واستولى فيها على حصن بانة؛ بل وفتح المسلمون سرقوسة وطبرمين وبقية الشاطئ الشرقى للجزيرة، وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها فى عهده نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران؛ فقد عمرت المزارع وزاد الخراج وبدأت البذرة التى غرسها الوالى الأول إبراهيم بن الأغلب تؤتى ثمارها اليانعة فى عهد أحمد أبى إبراهيم بن العباسى حتى لقد قدر اليعقوبى الجغرافى خراج أفريقية فى زمنه بستة وعشرين مليون درهم.

وتوفى أحمد أبو إبراهيم عام ٢٤٩هـ/٨٦٢م، وعمره ثمانية وعشرون عاماً ورغم أن سنوات حكمه لم تزد عن سبع سنوات إلا أنها كانت حافلة بالأعمال الجليلة التى تذكر له بالفخار والاعتزاز.

وعلى الرغم من الأمير أحمد أبو إبراهيم قد أخذ البيعة لإبنه محمد الثانى أبى الغرانيق إلا أنه لم يستطع أن ينفذ ذلك نظراً لأن أخاه زيادة الله الثانى بن محمد الأول أبا العباسى قد قفز على العرش وابن أخيه خارج العاصمة.

٧ – زيادة الله الثانى بن العباسى محمد الأول بن الأغلب أبو عقال (٢٤٩-٢٥٠هـ/٨٦٢-٨٦٣م)

لم يدم حكم هذا الأمير طويلاً إذ لم يزد عن عام واحد ويبدو أنه قتل فى ثورة

قام بها محمد الثانى أبو الغرانيق، وأبو الغرانيق طير كان أبو الغرانيق مولعا بصيدها، ولذا.. أطلقت عليه. وفى أيامه غزا المسلمون مالطة ووطدوا حكمهم وأسروا أميرها بعد أن كان يحاول النزول إليها، وفى أيامه فقد المسلمون بعض الحصون فى جزيرة صقلة، وقد اشتهر بحبه للعمران ومن مآثره أيضاً انشاؤه لمدينة وقادة قرب العاصمة القيروان عام ٢٦٤هـ، وانتقل إليها من العباسية مع أهل بيته ورجال دولته وشاد بها القصور، وكان مولعاً بالعلم شديد الاهتمام بالمخطوطات، ومن ذلك قيامه بإنشاء دار الحكمة التى جلب إليها من بغداد ومصر المخطوطات والكتب والعلماء المبرزين فى الطب والحكمة، وغيرها.

وفى رقادة هذه العاصمة الجديدة كان يستقبل الشعراء وسفراء ملوك الأفرنج وقياصرة القسطنطينية، وغيرها. وقد بلغت الدولة الأغلبية فى عهده أوج عصرها. وقد حكم محمد الثانى أبو الغرانيق بن أبو إبراهيم أحمد أحد عشر عاماً (٢٥٠-٢٦١هـ/٨٦٣-٨٧٤م)، ويقال أن محمد أبا الغرانيق كان قد عهد بالإمارة من بعده إلى إبنه أبى عقال وأخذ على أخيه إبراهيم الثانى عهداً بأن يرعاه مادام صغيراً ولاينازعه الإمارة، وأعطاه موثقاً وعهداً وأراد إبراهيم الصغير أن يبر بوعده وعهده لأخيه أبى الغرانيق .. ولكن الذى حدث هو أن الناس رغبوا فى إمارة إبراهيم عليهم وأجبروه على قبولها فأبى بادئ الأمر .. ثم أنه نزل على رغبة الناس واضطر من جراء ذلك إلى قتالّ ابن أخيه حتى قتله وتولى الأمر بنفسه.

٩ - إبراهيم الثانى الصغير بن أحمد أبو إبراهيم بن محمد الأول أبو العباسى بن الأغلب بن عقال بن إبراهيم بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩هـ/٨٧٤-٩٠٢م)

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً، وكان رجلا غريب الأطوار رغم أنه كان عند حسن ظن الناس به حسن السيرة طيب السريرة عاقلاً أديباً عادلاً، وبعده

المؤرخون آخر أمراء بنى الأغلب العظام، وفى زمنه فتح المسلمون التونسيون حصن سرقوسة بصقلية بعد أن أعجزهم كثيراً وبعد حصار دام تسعة شهور.

وقد مر فى حكمه تغيرات ثلاثة اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً فى الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلى والنفسى ثم إلى التصوف والإنصراف إلى العبادة والجهاد وانتهت حياته مجاهداً فى سبيل الله وهو محاصر مدينة (كشنتا) فى شبه جزيرة كلابريا، فى جنوبى إيطاليا وهو فى الطريق إلى نابلى، ثم روما وكان هذا قصده.

كانت السنوات الأولى من حكمه التى تقدر جميعها بثمانية وعشرين عاماً، سنوات رزانة وتعقل وحكم صالح فرضى عنه الناس وأحبوه؛ خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً فى المنشآت الدينية، وأهمها المساجد وقصور العباد، وقد عرفنا أن هذه القصور كانت تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمرابطين، وقد بنى الأغالبة الأربطة فانتشرت من الأسكندرية شرقاً إلى ساحل تونس وكان الناس إذا دهمهم الغزاة يلجأون إليها يتعاونون على الدفاع عن أنفسهم، وكان كل رباط أشبه بمدينة صغيرة تحوطه الأسوار العالية التى تقوم بمهمة الدفاع ليقوم فى وسط الرباط المسجد بمنارته العالية. وعلى هذا تسمى الأربطة بالقصور، وقد أكثر إبراهيم الصغير بن أحمد من إنشاء القصور أو الأربطة فى كل مدن الساحل فى أفريقية وصقلية حمايةً للمسلمين وأغدق عليها الأموال وهو الذى أكمل تجديد جامع الزيتونة فى تونس الذى بدأه أبوه أحد أبو إبراهيم الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبنى مدينة تضم القصور والمرافق وصهاريج المياه.

وقد اكتملت فى عهده سلسلة الأربطة والمحارس على الشواطئ، وكانوا ينشئون فى كل محرس برجا للنار؛ لإرسال الإشارات .. فكان الخبر يصل إلى أقصى البلاد من بجاية غرباً على الساحل الشمالى لجمهورية الجزائر الحالية، حتى طرابلس شرقاً فى أقل من ليلة ؛ أما بالنهار .. فكانت الإشارات ترسل بالدخان، وكانوا يوقدون النواطير أخشاباً رطبة تبعث دخاناً كثيفاً يرى من بعد.

ومن الأحداث الجسام ذات الشأن التى حدثت فى زمن هذا الأمير أن العباسى بن أحمد بن طولون أمير مصر خرج عام ٢٦٧هـ-٨٨٠م من مصر مخالفاً لأبيه قاصداً الاستيلاء على البلاد التونسية فاعترضته قبائل نفوسة قبل أن يبلغ الحدود الطرابلسية، وحالت دون تقدمه، وكان قد ترامى إلى سمع الأمير إبراهيم خبر هذه الجيوش المصرية؛ فأسرع إلى لقاء خصمه ووصل فى الوقت الملائم إلى حيث وصل الجيش المصرى، وهناك .. اقتسم مع حلفائه قبائل نفوسة عتاد المصريين وذخائرهم وعاد إلى القيروان ولم يلق سوءا.

وإن كانت بعض المصادر تذكر أن الحملة كانت تقصد أراضى الدولة الرستمية (ابن الأثير الكامل فى التاريخ جـ٧، ص ٣٢٤)؛ فقد تعرضت الحدود الرستمية الشرقية فى عهد أبى اليقظان للغزو الخارجى من جانب الدولة الطولونية فى مصر؛ حيث قام بهذا الغزو لبلاد المغرب الأدنى العباسى ابن أحمد بن طولون، وكان العباسى قد خرج قاصداً بلاد المغرب لضمها إلى الدولة الطولونية فى مصر مدعياً أنه خرج بهذه الغزوة بناءً على توجيه وتكليف من الخليفة العباسى فى بغداد (الخليفة المعتمد العباسى الذى قلده إمارة أفريقية وأقره والياً عليها دون الأغالبة) «ابن خلدون : العبر، جـ٤، ص ٦٤٥»، وما أن وصل العباسى بن أحمد بن طولون إلى إقليم برقة الذى كان يقع فى ذلك الوقت فى دائرة دولة الأغالبة من قبل الخلافة العباسية حتى بادر بإرسال رسالة إلى إبراهيم أحمد بن محمد الأغلب يأمره فيها بالولاء له فى أفريقية وإعلان الدخول فى طاعته، بل إنه أفاض فى القول بأن رساله يذكره بأنه سائر إليه إلى القيروان بقواته، وفى نفس الوقت الذى أرسل فيه رسالته إلى ابن الأغلب .. فإنه أرسل بدوره رسالة إلى عالم الرستميين فى جبل نفوسة إلياس بن أبى منصور النفوسى يتوعده وينذره ويدعوه إلى الدخول فى طاعته والدعوة له فى تلك الأقاليم قائلاً «أقبل بسمعك وطاعتك وإلا وطئت بلدك بخيلى ورجلى وقطعت رحمك»، ولم يكتف أبو العباسى ابن أحمد بن طولون بذلك .. بل أنه ما أن وصل إلى مدينة لبدة فى فى جمادى

الأول عام ٢٦٨هـ حتى أمر جنده المصرى باستباحة المدينة ونهبها؛ حيث كان قد أخذ أهلها على غرة، وبالقرب من مدينة ليدة انهزمت قوات الأغالبة بقيادة «أحمد بن فرهيب» عاملهم على طرابلس وتبعه العباسى بن أحمد بن طولون حتى مدينة طرابلس فحاصرها حصاراً شديداً، ونصب عليهم المجانيق ودام الحصار ثلاثة وأربعين يوماً، قام فيها جنود العباسى بن أحمد بن طولون بكثير من أعمال العنف ضد رعايا الدولة الرستمية والأغالبة بالقرب من طرابلس فاستغاث أهل طرابلس بأبى المنصور إلياس النفوسى صاحب نفوسة فخرج إلى ابن طولون فى إثنى عشر ألف من القوات، وتمكن من إلحاق الهزيمة به وأخرجه شرقاً إلى برقة بعد أن انسحبت القوات الطولونية على عجل مما جعل أهل طرابلس يقومون بنهب الأموال التى كان قد نهبها الطولونيون من ليدة وبرقة وطرابلس بينما تورع الأباضية النفوسيون كعادتهم من أخذ شيء من هذه الأسلاب، وفقاً لمبادئهم الإسلامية، ويذكر أنه فى عام ٢٧٨هـ – ٨٨١م ثارت بعض القبائل الطرابلسية فأرسل إليها إبراهيم الصغير ولده عبد الله فقمع ثورتها.

وقد قام الأمير إبراهيم ببناء قصر سماه قصر الفتح تيمناً بفتح سرقوسة فى صقلية، ولكن بدا له بعد ذلك أن يترك هذا القصر ويقطن مدينة تونس يرقب حركتها عن كثب فجاءها وبنى فيها آثاراً كثيرة منها قصر القصبة الذى ما زال قائماً إلى اليوم.

وفى أواخر أيامه جهز جيشاً قوياً سار به يريد قتال ابن طولون فى مصر فمنعته قبائل نفوسة الأباضية جنوب طرابلس عن متابعة السير إلى مصر، كما منعت المصريين من قبل من السير إليه لقتاله فى القيروان فقاتلها وانتصر عليها ولكنه انصرف عن قتال ابن طولون وعاد إلى القيروان.

وفى الحقبة الأخيرة من حياته انقلب على عقبيه فأفسد دينه، وفتك، وهتك، وظلم، وثلم، وأرهب، وانتقم، وذلك لأنه أصيب بمرض عصبى اختلت معه أعماله ونظرته إلى الأمور، وقد أصيب ذلك الرجل بمرض منعه من النوم وزادت مخاوفه، فأقبل يقتل الناس لأقل ريبة. وظلت هذه الفترة أكثر من ست سنوات حتى خافه الناس

وقرروا خلعه وبعثوا إلى الخليفة العباسى فى بغداد يشتكون من أعماله ويطلبون عزله، ولكنه تنبه لنفسه شيئًا فشيئا؛ قرب نهاية حكمه، وذلك بعد أن ملته الرعية وضاقت به ذرعًا، وكان الوجهاء والأعيان قد أرسلوا إلى الخليفة العباسى المعتضد يسألونه عزله فعزله مما يدل على قوة نفوذ الخلافة العباسية، وأن نفوذها فعلى وليس اسمياً، وولى مكانه إبنه عبد الله الثانى. وقد نزل الأمير إبراهيم عن أمر الخليفة فاعتزل الإمارة، ولكنه عاد بعد ذلك وتاب واعتزم أن يكفر عن ذنوبه بالجهاد فجهز جيشاً كثيفاً معتزماً أن يقوم بعمل تاريخى خطير يرفع شأنه وإسمه إلى الأبد أو يدنى أجله؛ إذ أنه أراد أن يستولى على إيطاليا، ومنها يتابع السير حتى يفتح استانبول، فركب البحر، وعبر مضيق ماسينا بين صقلية وإيطاليا، ونزل ميناء «كونسترة» فقاتله أهلها وأصابه سهم قاتل قضى عليه فعاد المسلمون إلى صقلية به ودفنوه فى بالرم العاصمة، وبنوا على قبره قبة، ويقال أنه قد نقلت بعد ذلك إلى القيروان، وكانت مدة إمارته تزيد عن ثمان وعشرين سنة.

١٠ - عبد الله الثانى أبو العباسى بن إبراهيم الثانى بن أحمد أبو إبراهيم بن محمد الأول أبو العباس بن الأغلب أبو عقال ابن إبراهيم بن الأغلب (٢٨٩-٢٩٠هـ/٩٠٢-٩٠٣م)

كان هذا الأمير هو العاشر فى سلسلة أمراء بنى الأغلب بدءاً من جدهم الأكبر إبراهيم بن الأغلب، وكان هذا الأمير عفيفاً منصفاً أديباً وقد لبس الصوف تنسكاً وجلس للمظالم، وأوصى العمال أن يترفقوا بالرعية، وفى عهده ظهر أبو عبد الله الشيعى ببلاد كتامة من الزاب الجزائرى، وقتل هذا الأمير عام ٢٩٠هـ، وقد ترك قصور أبيه وسكن داراً متواضعة وأحسن إلى الرعية، وأوصى ولاته بالإحسان. لكنه جاء متأخراً لأن العيوب كانت كثيرة والناس ملوا الظلم من جانب الأمراء وتعسفهم، وقامت الدعوة العبيدية الشيعية تغرى الناس وتمنيهم الأمانى، وتيسر من تحتهم أنهار اللبن والعسل بعد أن عم الفساد فى البر والبحر.

وكان لعبد الله الثانى هذا ولد اسمه زيادة الله قام أبوه بسجنه لتهتكه وخلاعته فتآمر هذا الولد مع غلامين من غلمانه لقتل أبيه فقتلاه، ولم يمض على توليه الإمارة غير سنة واحدة. ومن ثم .. قاما من توهما فأخرجا زيادة الله من السجن. فتولى الإمارة باسم زيادة الله الثالث.

١١ - زيادة الله الثالث أبو مضرين بن عبد الله الثانى أبو العباس ابن إبراهيم الثانى الصغير بن أحمد أبو إبراهيم بن محمد الأول أبو العباس بن الأغلب أبو عقال بن إبراهيم بن الأغلب (٢٩٠-٢٩٦هـ/٩٠٣-٩٠٩م)

وهو آخر أمراء بنى الأغلب إذ فى فترة حكمه قضى الشيعة على حكم بنى الأغلب وهو الأمير الحادى عشر فى سلسلة أمراء بنى الأغلب وفى عهده ثارت الفتن وخاض جيشه حروباً كثيرة مع أبى عبد الله الشيعى، وفى موقعة « الأريس » فرت الكاف كانت هزيمته الساحقة عام ٢٩٦ هـ. واضطر زيادة الله أثر ذلك أن يفر إلى تونس بجميع أثقاله وخرج من رقاده ليلة الإثنين ٢٦ من جمادى الثانية وقصد إلى المشرق مستنجداً ولم يصادف عوناً من الخليفة العباسى ومات بمدينة الرملة فى بلاد فلسطين وبموته انقرضت الإمارة الأغلبية التى دامت إثنى عشر عاماً بعد المائة.

وكان زيادة الله الثالث أبو مضر قد سار فى الناس سيرة تعسف وظلم فقتل أعمامه وأخاه وعدداً كبيراً من الفقهاء كما كان من قبل السبب فى قتل والده، وأراد أن يبنى دعائم إمارته على القوة فجهز جيشاً كثيفاً أنفق عليه ما قدر من أموال ولكن ذلك لم ينفعه لأن الناس كانوا قد سئموا هذه الأسرة وغلبت عليهم دعوة العبيدين فعلقوا عليهم الآمال، غير أن زيادة لم ييأس ولا فشل عند الصدمة الأولى .. بل حاول أن يستنجد بالخليفة العباسى فأرسل إليه هدايا ثمينة ولكن الخليفة العباسى ذاته كان أضعف من أن ينجد نفسه إذ لم يكن قد بقى له من الخلافة إلا الإسم وكانت

الجحافل العبيدية قد أخذت تسير من المغرب نحو البلاد التونسية؛ فلم ير زيادة الله مناصاً من قتالها فأرسل للقائها جيشاً يضم أربعين ألف مقاتل فالتقى الفريقان بالقرب من قرية الأريس من أعمال مدينة الكاف على الحدود الجزائرية فدارت الدائرة على الأغالبة وأعمل العبيديون فيهم السيوف فقتلوا منهم آلافاً، وكان كما سبق القول أن زيادة الله لما أدرك الفشل فى إحراز نصر على العبيدين وأن كل محاولة كان مصيرها الفشل وأيقن بانقضاء أجل إمارته فجمع ماله وعياله وفر ينوى الإلتجاء إلى بغداد ولكن والى مصر منعه من متابعة السفر وكاتب الخليفة فأمره بإنزاله الرملة من بلاد فلسطين، ثم بدا للخليفة بعد حين وقد رأى استفحال أمر العبيديين، بأن يمد زيادة الله بالمال والرجال ليقاتل العبيديين وأمر واليه على مصر بتجهيز زيادة الله، ولكن والى مصر ماطله ولم ينفذ أمر الخليفة واعترت زيادة الله أمراض أودت بحياته وبفرار زيادة الله من تونس عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م كانت خاتمة الإمارة الأغلبية التى رفعت شأن هذه البلاد وأعلت قدرها على ما تخللها من فتن واضطرابات.

وهكذا .. نرى أنه قد حكم إفريقية من بنى الأغلب أحد عشر أميراً حكم معظمهم مدداً قصيرة وصلت فى بعض الأحيان إلى عام أو يزيد قليلا فلم تسنح الفرصة أمام معظمهم للقيام بأعمال تذكر، ثم أن الذين أثروا فى تاريخ تلك الأسرة هم إبراهيم بن الأغلب مؤسس هذه الأسرة ثم إبنه زيادة الله بن إبراهيم ثالث أمراء هذا البيت وقد حكم اثنتين وعشرين سنة هجرية ثم أحمد أبو إبراهيم بن محمد الأول أبو العباسى بن الأغلب أبو عقال تاسع أمراء البيت الأغلبى (إبراهيم الصغير) وهو أطول أمراء هذا البيت حكماً إذ أنه حكم تسعاً وعشرين سنة هجرية ولكن عصره كان مضطرباً اختلت الأحوال أثناءه اختلالاً شديداً نظراً لاضطراب شخصيته.

ونستطيع القول أن الأسرة الأغلبية قد مرت بعدة فترات فى جملتها ثلاث، هى فترة التأمين من عام ١٨٤-٢٢٣هـ/٨٠٠-٨٣٨م، وتشمل إمارة إبراهيم الأغلب نفسه وإبنه أبو العباس عبد الله وزيادة الله الأول ثم عصر الاستقرار والازدهار وهى من

٢٢٦-٢٨٩هـ/٨٤٠-٩٠٢م، وتمتد من نهاية حكم زيادة الله إبراهيم بن الأغلب المعروف بالأول من عام ٢٠١هـ/٨١٦م إلى نهاية حكم أبى عبد الله محمد الثانى ثامن أمراء البيت الأغلبى الملقب بأبى الغرانيق وذلك فى عام ٢٦١هـ/٨٧٥م، وقد تضمنت تلك الفترة حكم عدد من أواسط أمراء البيت الأغلبى من حيث القدرات ولكن الأمور كانت قد استقرت وهدأت أحوال أفريقية بصورة عامة ويرجع معظم السبب فى ذلك إلى فتح صقلية الذى فتح مجالاً واسعاً أمام الجند وزعمائهم للغزو تاركين أمراء بنى الأغلب يعيشون فى سلام.

ثم جاء حكم إبراهيم بن أحمد معلناً بداية التدهور، ثم تلى ذلك فترة من التدهور وتستمر من ٢٨٩-٢٩٦هـ/٩٠٢-٩٠٩م.

ولكن فترة الاستقرار الحقيقة التى يمكن أن تسمى فترة ازدهار للأسرة لم تزد عن ثلاثين سنة على الأكثر من إثنى عشر عاماً بعد المائة، ولكن هذه الأسرة على الرغم من قصر مدة الاستقرار فى أيامها فإنها تعتبر صاحبة الفضل فى إرساء أسس أفريقية الإسلامية، وكذلك صاحبة الفضل فى سبيل الحفاظ على مذهب السنة والجماعة والبقاء فى نطاق الأمة الإسلامية. وهكذا .. أتاح بنو الأغلب فرصة هذا الاستقرار وأقاموا فى بلادهم حكومة عليا ذات طابع أفريقى ثم أن بنى الأُغلب كانت فيهم عروبة صادقة وروح إسلامية أصلية واهتمام بشئون العلم والحضارة والمنشآت فكان العصر فى جملته رغم كثرة حروبه واضطراباته خيراً على أفريقية وخطوة واسعة إلى الأمام فى بقاء المغرب العربى الإسلامى وحفظه ذخراً للأمة العربية الإسلامية على الدوام.

وهكذا .. نرى بانتهاء أسرة الأغالبة فى حكم أفريقية كيف أدى هؤلاء القوم واجبهم نحو العالم الإسلامى وكيف قاموا بنصيبهم فى الدفاع عنه على خير ما يكون الدفاع، فقد دافعوا عن الثغر الإسلامى دفاعًا ناجحًا، بل مدوا نفوذ العالم الإسلامى عبر البحر المتوسط واستقروا استقراراً كاملاً وضموا إلى حوزته جزيرة صقلية وجزيرة

مالطة وجنوب إيطاليا وبعض الجزر الأخرى الصغيرة التى ظل يحكمها المسلمون أكثر من قرنين من الزمان كانت فيه جزيرة صقلة مصدراً من مصادر الإشعاع الفكرى والثقافى والحضارى والإنسانى الإسلامى.

وهكذا .. ظلت الدولة الأغلبية تؤدى دورها الذى اضطلعت به فى هذا الطرف العربى حتى نجحت الدولة الفاطمية فى المغرب وامتدت إلى تونس فأسقطت هذه الدولة عام ٢٥٦هـ، وهكذا خلف الفاطميون الأدارسة والأغالبة وبنى رستم فى المغرب العربى الإسلامى الأفريقى ثم امتدوا شرقاً ليبسطوا لولاء حكمهم على مصر.

ماذا تم فى عصر الأغالبة

لقد ضعف الأغالبة طوال فترة حكمهم التى وصلت إلى إثنى عشر عاماً بعد المائة العديد من الإنجازات العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية مما جعلهم ينالون إعجاب العالم الإسلامى بما حققوه فى كل هذه المجالات المتعددة التى منها الجانب الثقافى والفكرى والدينى والمعمارى وغيره من فنون المعرفة والثقافة والحضارة.

الإنجازات العسكرية (فتح صقلية)

ما أن استقام الأمر لبنى الأغلب فى تونس وتوطد لهم الملك والسلطان حتى عقد ثالث أمرائهم زيادة الله العزم على الجهاد فى سبيل الله ونشر راية الإسلام خفاقة عالية ورفع ألوية الإسلام والعروبة عالية خفاقة على «أديم صقلية»، ذلك لأن بنى الأغلب منذ بداية عهد إبراهيم بن الأغلب قد أولوا اهتماماً كبيراً لبناء أسطول بحرى وقد قدر لهذا الأسطول أن ينمو وتزداد قوته فى زمن زيادة الله وأصبح من الضرورى أن يقوم هذا الأسطول بتحقيق آمال المسلمين القديمة فيساهم فى عهود من أعقب زيادة الله من أمراء بنى الأغلب فى افتتاح جزيرة صقلية كلها وجزيرة مالطة وسواحل إيطاليا الجنوبية القريبة وجزيرة سردانية وجاء فتح صقلية متمماً لسيادة العرب فى النصف

الغربى من البحر المتوسط.

وكذلك فقد نمت البحرية الإسلامية فى عهد الأغالبة نمواً كبيراً واستطاعت أن تحقق الغرض الذى كان يرمى إليه ابن الأغلب، ذلك لأن الساحل الأفريقى كان مفتوحاً أمام الأساطيل الرومية التى كانت دائماً تدخل فى معارك متصلة بين البحرية الإسلامية والبحرية البيزنطية منذ فتح العرب بلاد المغرب الإسلامى وقد وجه العرب والمسلمون حملاتهم البحرية إلى صقلية منذ ولاية معاوية بن خديج وفى عام ٨٦هـ أرسل موسى بن نصير حملة بحرية لغزو صقلية فهاجمت مدينة «سرقوسة» وغنمت منها غنائم هائلة وفى عام ١٠٥هـ غزا بشر بن صفوان صقلية وأصاب منها سبياً كثيرة.

ويعتبر فتح الأغالبة لصقلية عام ٢١٢هـ من الأحداث البارزة فى تاريخ البحرية الإسلامية إذ ترتب على فتحها على أيدى المسلمين انتقال السيادة فى البحر المتوسط إلى المغرب العربى، إذ أن صقلية تعد أكبر جزر البحر المتوسط مساحة وأغناها من حيث الموارد الاقتصادية وأقفلها موقعاً بحكم أن موقعها فى البحر بين ساحل إيطاليا الجنوبية وساحل أفريقية وتقسم البحر المتوسط إلى قسمين شرقى وغربى، ثم بحكم قربها الشديد لأقليم ريووقلورية بجنوبى إيطاليا من الجهة الشمالية الشرقية بحيث لايفصلها عنه من هذه الجهة سوى مضيق مسينى (مسينا) وقربها أيضاً من السواحل الأفريقية وجزيرة قوصرة من الجهة الجنوبية الغربية وهو موقع يفسر لنا كثيراً من الأحداث التاريخية التى مرت بها البلاد التونسية.

وقد تنبه العرب منذ حملة عبد الله بن سعد إلى الأهمية الاستراتيجية لصقلية وأدركوا ضرورة فتحها لتأمين فتوحهم فى أفريقية، بل أنه من المواقف التاريخية التى فى حاجة إلى تساؤل كيف تظل جزيرة صقلية وهى قريبة من سواحل بلاد الإسلام دون فتح وأن يفتح المسلمون الأندلس قبل أن يفتحوا صقلية بقرن وربع من الزمان ويرجع ذلك إلى أن الفتوح الإسلامية لم تكن قد بدأت تولى وجهة نظرها للجزر

الصغيرة وربما لأن البحرية الإسلامة لم تكن من الند والقوة للبحرية البيزنطية، لكن هناك بعض المؤرخين يقولون أنه كان يبغى أن يتم فتح صقلية بعد إتمام فتح أفريقية ذلك لأن بينها وبين شواطئ أفريقية جزر تعتبر معابر ومراحل إلى سواحلها مثل جزر قوصرة، وكذلك جزر مالطة ولكنها دخلت الإسلام مع فتح صقلة ومن هنا كان تفكير زيادة الله فى فتح صقلية منذ بداية ولايته لاسيما بعد أن تكاثر جنده حتى أنه إذا كان عام ٢١٢هـ/٨٢٧م رأى زيادة الله البدء فى غزو جزيرة صقلية، وكانت صقلية فى ذلك الحين من الناحية الرسمية من أملاك الدولة البيزنطية يحكمها بطريق أى قائد عسكرى يسمى «بيلانوس» ويطلق عليه المسلمون إسم «بلاطة»، وكان قد أخذ يحصن بلاد الجزيرة وسواحلها ويعمرها بالمعاقل والحصون وكذلك فعل الحكام البيزنطيون فلم يتركوا جبلاً إلا أقاموا عليه حصناً وكانت وحداتهم البحرية تطوف سواحل الجزيرة للذود عنها وكثيراً ما طاردوا تجاراً من المسلمين فأسروهم وتجرأت سفنهم على مهاجمة السواحل الأفريقية.

ولعل ذلك من الأسباب القوية التى دفعت «هرثمة بن أعين» لبناء القصر الكبير عام ١٨٠هـ، وبناء سور مدينة طرابلس وظل الروم يواصلون توجيه غاراتهم البحرية على الساحل الأفريقى حتى قامت أسرة الأغالبة واضطر الأمير إبراهيم بن الأغلب إلى أن يعقد مع البطريق قسطنطين صاحب صقلية هدنة لعشر سنوات إلا أن هذه المعاهدة لم تصبح سارية المفعول إلا فترة قصيرة من الوقت بسبب الغزوات المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين فقد أغار المسلمون على بعض مدن صقلية.

وقد أدت الاعتداءات المتبادلة إلى معاودة النظر فى تجديد الهدنة عشر سنوات تبدأ من عام ٢٩٨هـ/٨١٣م فى إمارة عبد الله أبى العباسى بن إبراهيم الأغلبى وقد اتفق الطرفان على ضمان الأمن للتجار المسلمين فى صقلية وللروم فى أفريقية.

ولاشك أن الغارات المتواصلة التى تعرضت لها صقلية من عام ٤٦هـ حتى عام ١٣٥هـ كانت تجارب مفيدة للمسلمين إذ بفضلها تمكنوا من دراسة هذه الجزيرة

ومعرفتها معرفة تامة ثم كان لاستيلاء المسلمين على قوصرة الواقعة فى منتصف المسافة بين صقلية وساحل أفريقية أعظم الأثر فى اتخاذها قاعدة أمامية للدفاع عن ساحل تونس وتوجيه الغارات على صقلية وسردانية وغيرهما.

ولقد كان لإدراك الأغالبة لأهمية صقلية وموقعها الجغرافى ومحاولة فرض سلطانهم على السواحل المجاورة لها والجزر القريبة منها من الأسباب القوية للقيام بالفتح والغزو إضافة إلى إيمانهم بضرورة الجهاد فى سبيل الله وفتح هذه الجزيرة وغيرها من الجزر الأخرى فى حوض البحر المتوسط الغربى.

ولقد كان من أثر الفتن العنيفة التى اتخذت من أرض أفريقية وطرابلس مسرحاً دامياً لها فيما يقرب من منتصف القرن الثانى الهجرى، أن ساد البلاد نزعة شديدة إلى التفقه فى الدين ولم تلبث أفريقية أن تحولت إلى بلد إسلامى عميق الجذور تغلب على أهله الروح الدينية ويسود فيه المذهب المالكى الذى يتلائم مع الروح السائدة عند سكان هذا الإقليم من حيث التمسك بالكتاب والسنة وظهر فى البلاد التونسية طبقة من العلماء المالكية المتفقهين المتقدمين الزاهدين، ولقد كان لهؤلاء العلماء المالكية أعظم الأثر فى غلبة الروح الدينية والاتجاه إلى الزهد والرغبة فى المرابطة بالثغور بقصد الجهاد فى سبيل الله سبب تعرض السواحل الأفريقية لغارات الروم البحرية واعتبر الرباط فى هذه الثغور جهاداً فى سبيل الله وتقرباً إليه.

وكان الخروج لغزو الروم فى صقلية غاية ما يتمناه هؤلاء الصالحون، ولا شك أن الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب قد نجح فى انتشار هذا الشعور الدينى السائد باختيار أسد بن الفرات القاضى قائداً للحملة إلى صقلية ذلك لأن الشعور الدينى طاقة كبيرة لها وزنها وأهميتها فى الفتوحات الإسلامية وهو فى نفس الوقت يخفى الأغراض الحقيقية لزيادة الله من وراء هذه الحملة، ذلك لأن الروم كانوا قد استولوا على بعض سفن المسلمين فى البحر المتوسط وأخذوا من بها أسرى إلى صقلية وبذلك تكاثر عدد الملسمين الأسرى لدى الروم بالإضافة إلى أن الحاكم الرومى للجزيرة لم

يوف بوعده الذى تعهد فيه بإرجاع الأسرى المسلمين إلى أفريقية

وعلى هذا فقد بدأ الغزو الحقيقى لصقلية فى عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم (٢٠١-٢٢٣هـ) وقد اختير لقيادة الحملة القاضى أسد بن الفرات فقيه القيروان، وتذكر المصادر أن قائد الأسطول البيزنطى فى صقلية «فيمى» فى الحقيقة أنه ثار مغتنماً فرصة قيام توماس بالثورة على الإمبراطور وانتصار المسلمين فى أقريطش (كريت) فما علم «فيمى» بذلك وأدرك مدى ما تهدده من أخطار جمع أنصاره وأخذ أسطوله وشق عصا الطاعة على الإمبراطور وزحف إلى مدينة سرقوسة وأعلن نفسه إمبراطوراً وخوطب فيمى Evohemievs بالملك وعين رجاله على كل مدن وقرى الجزيرة ومنهم رجل يقال له بلاطة. ولكن بلاطة لم يلبث أن انقلب على فيمى وانضم إلى الفريق الإمبراطورى وتطلق المصادر على فيمى إسم «يوفيميوس» وهزم بلاطة فيمى فلم يجد فيمى أمامه إلا أن يستنجد بزيادة الله الأغلب لفتح صقلية بجنده الكثيرين الذين توافدوا عليه جماعات، وكان الوعد الذى قطعه فيمى أن يساعد القوات العربية الإسلامية بجيشه فى التغلب على بلاطه ووعده فى مقابل ذلك أن يملك جزيرة صقلية وقبل قيام زيادة الله بغزو صقلية فإنه عقد مجلساً من الفقهاء لاستفتائهم فى أمر غزو الجزيرة ودراسة ما عرضه عليه فيمى بشأن صقلية.

وكان من كبار الفقهاء القاضيان «أبو محرز وأسد بن الفرات» فسألهما عن رأيهما فقال «أبو محرز» «تتأنى فى هذا الأمر حتى نتبين»، أما أسد بن الفرات فقال «نسأل رسلهم عن ذلك» فقال أبو محرز كيف نقبل قول الرسل عليهم أو دفعهم عنهم، فقال أسد بالرسل «هادناهم وبالرسل نجعلهم ناقضين» قال الله تعالى ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾.

ولقد كان قيام الثورة فى جزيرة صقلية والانقسام الذى حدث فى الجزيرة بين الأمراء ولجوء أحد الثائرين وهو فيمى إلى زيادة الله ومنه عرف الأمير الأغلبى بوجود أعداد كبيرة من الأسرى المسلمين بالجزيرة وسأل زيادة الله عن ذلك الرسل، فقالوا نعم

حسبوهم لأنهم فى دينهم لايحل لهم ردهم قال وكان فى الرسل مسلم وقال بعض الفقهاء نغزوها ولانسكنها ولا تتخذها وطنًا، وكره بعض علماء أفريقية غزوها متمسكين بالعهد الذى كان قائماً بين المسلمين والروم مادام لم يثبت بعد أن الروم نكثوا هذا العهد على أن النويرى يؤكد أن معظم الفقهاء أفتوا بغزوها ورغبوا فى ذلك وسارعوا إليه وعن ذلك استقر عزم زيادة الله على الغزو بعد أن هون عليه فيمى أمر غزوها وأغراه بها.

بداية الفتح لصقلية

يشبه فتح المسلمين لصقلية فتحهم للأندلس فكما أن استغاثة فيمى بالأمير زيادة الله كانت سبباً مباشراً فى إغراء زيادة الله على فتح صقلية كانت استغاثة ليليان بموسى بن نصير سبباً مباشراً فى غزو طارق بن زياد للأندلس، ويبدو أن زيادة الله كان يسعى إلى ترغيب الناس فى غزو صقلية وإكساب الحملة طابعاً من الجهاد فى سبيل الله فعندما بلغه أن أسد بن الفرات أبدى رغبته فى الخروج فى هذه الغزوة كواحد من المسلمين ولاه أمرة الجيش مع الاحتفاظ بالقضاء فأصبح أسد بن الفرات قاضياً أميرا، وهذا أمر مستغرب، ذلك لأن العادة جرت بأن تكون قيادة الفتوح لأهل الحرب ولكن كما قيل فإن زيادة الله كان يريد أن يطبع فتح صقلية بطابع الجهاد الإسلامى وليس كما ذكر البعض لعدم الثقة فى قواده.

وكان أسد بن الفرات فقيهاً جليلاً ولد عام ١٤٥هـ/٧٥٩م فى العراق ثم قدم به أبوه وكان من رجال الحرب مع القائد محمد بن الأشعث والى مصر إلى القيروان حيث استقر بها وهناك نشأ وشب أسد واتخذ طريق العلم فدرس على يد شيوخ بلده ثم رحل إلى المشرق فى طلب العلم عام ١٧٢هـ/٧٨٨م فدرس فى العراق على أصحاب أبى حنيفة النعمان ثم عرج إلى المدينة المنورة للدرس على أصحاب مالك بن أنس

ودرس الموطأ لمالك، ثم درس على محمد بن القاسم فى مصر وعاد إلى القيروان فقيهاً حسن التكوين فدون ما سمعه فى الموطأ فى كتاب سماه «الأسدية» انتشر بين الناس وعلا مكان أسد حتى أصبح كبير علماء عصره فى أفريقية وتولى قضاء القيروان، والأسدية على مذهب الإمام مالك.

ومن هنا .. فإن زيادة الله أراد أن يصبغ الحملة بصبغة الجهاد الدينى فى سبيل نشر الإسلام وقد كان أهل أفريقية فى ذلك الوقت قد تفقهوا فى الدين الإسلامى وأصبح منهم العلماء والفقهاء وانتشر بينهم مذهب مالك الذى أصبح لديهم ليس مجرد مذهب دينى فحسب وإنما أصبح لهم وطنية وعقيدة ولذا فقد صحب معه أسد بن الفرات الصالحين والمجاهدين الذين يرغبون فى القتال فى سبيل الله وكان أسد بن الفرات قد جاوز السبعين من عمره عندما عهد إليه بقيادة الغزوة الميمونة ولكن إيمانه القوى جعله يبدو فى سن الشباب والرجولة.

وكان القاضى أسد بن الفرات قد طلب من زيادة الله الإذن له بالخروج صحبة الجند الإسلامى حتى ينال شرف الجهاد أو شرف الاستشهاد فى سبيل الله فلبى زيادة الله طلب القاضى وأولاه إمارة الجيش الفاتح وأصدر زيادة الله أمره إلى فيمى وكان قد قصده بالقيروان بالتوجه إلى مرسى سوسة والإقامة هناك فى انتظار تجمع قطع الأسطول الإسلامى.

وخرج أسد بن الفرات من القيروان فى حشود قوامها عشرة آلاف من الرجال وسبعمائة من الفرسان بخيولهم وعلى كل حال خرج أسد بن الفرات بالقوة الكبيرة الإسلامية من تونس وتوجه إلى سوسة ليركب منها إلى صقلية وخرج معه وجوه أهل العلم وعدد كبير من الأهالى لتوديعه واحتفل زيادة الله بذلك اليوم فأمر ألا يبقى أحد من رجاله إلا وشيعة فركب أسد فى جمع عظيم من صهيل الخيول وقرع الطبول ورفرفت الأعلام ولذلك خرج مع حملة أسد بن الفرات أشراف أفريقية من العرب

والجند والبربر والأندلسيين وأهل العلم والبصائر وأقلع الأسطول الإسلامى من مدينة سوسة يوم الخميس ١٥ من شهر ربيع الأول عام ٢١٢هـ ١٤ يونيو ٨٢٧م، وكان يتكون من سبعين مركباً وقيل مائة مركب بالإضافة إلى مراكب «فيمى»، فوصلت الأساطيل إلى بلدة مازر Mazara فى يوم الثلاثاء أى بعد ثلاثة أيام من الإبحار من سوسة وكان لفيمى أنصار عديدون ونزلت القوات الإسلامية مدينة (ميناء) مازر على الساحل الجنوبى لصقلية وفى نفس الوقت خرجت قوة أخرى من ميناء سوسة ونزلت فى ميناء فى أقصى الساحل الجنوبى إلى الشرق يسمى «رجوسة» وذلك لنجدة القائد البيزنطى الذى خرج على سلطة البيزنطيين واستنجد بالمسلمين وهنا نرى كيف أن المسلمين نزلوا فى موضعين فى جنوب شبه الجزيرة هما مازر ورجوسة وكانت مازر هى أقرب مدن صقلية إلى سوسة فأمر أسد بالخيل والجند بالخروج من المراكب وأقام بمازر ثلاثة أيام وذكر المالكى أنه حدث اختلاف بين أسد بن الفرات وبين أحد قواده وهو «ابن قادم» سببه أنه لما نزل المسلمون بصقلية أضربهم الجوع حتى أكلوا لحوم الخيل ففوض الجند «ابن قادم» أن يتحدث عنهم فى إعادتهم إلى أفريقية فرفض أسد وأراد حرق المراكب ثم عاقب ابن قادم فضربه بالسوط.

لم يشتبك جيش أسد أثناء إقامته فى مازر مع الروم فلم تخرج للقائه إلا سرية واحدة تمكن من أسرها فإذا هى من أنصار «فيمى» وكان ينبغى على أسد بن الفرات بعد أن تمكن من موقع مازر فى أن يسير متوجهاً رأساً إلى العاصمة بالرمو Palermo ويستولى عليها وبذلك يقضى على رأس المقاومة للفتح الإسلامى للبلاد، لكن استمرت الحملة الأغلبية على صقلية منذ ذلك التاريخ تقوم بفتح الجزيرة وافتتاح مدنها الواحدة بعد الأخرى، بعد أن أمر أسد بن الفرات بفصل جيش فيمى عن المسلمين وقرر الاستقلال بعملياته إذ لم يكن يثق بصدق معونته، ثم سار جيش المسلمين نحو سهل بلاطة مارا بقلعة بلوط ثم قرى «الرفش»، وقلعة الدب، وقلعة «الطواويس» ثم إلى أرض المعركة التى سميت باسم بلاطة نسبة إلى صاحب صقلية.

وأقبل بلاطة فى جيش عدته مائة وخمسين ألف مقاتل (١٥٠ ألف) فخطب أسد فى الناس وحمل اللواء ثم كبر المسلمون وحملوا مع قائدهم وتمادت عزائم المسلمين حتى هزموا بلاط وأصحابه وقتلوا منهم خلقاً كثيرا وغنموا ما معهم وانسحب بلاطة إلى قصر يانة ثم غلبه الخوف من لقاء المسلمين ففر من صقلية إلى قلورية بجنوب إيطاليا فقتل بها.

ثم بعد ذلك اتجه إلى اجرجنت Agregenta، واستولى عليها ومن هناك قصد إلى وسط شبه الجزيرة واستولى عليها (قصر يانة) ثم اتجه شرقاً قاصداً سرقوسة ليعين حليفه وحليف المسلمين (فيمى) وحاصر سرقوسة.

وبعد هذا الانتصار الحاسم استعمل أسد بن الفرات «أبا زاكى الكنانى» على مازر ثم زحف إلى موقع على البحر يقال له كنيسة «ايفيمية»، ويذكر إمارى أنها فيستياس القديمة، ثم سار إلى كنيسة المسلقين، وهناك خدعه أهل الجزيرة بعد أن انقلب عليه «فيمى»، وانضم إلى بنى جلدته وبعث إلى أهل سرقوسة يحثهم على الثبات والاستبسال وما أن استكمل أسد تنظيم صفوفه وجاءه الأسطول من مازر حتى واصل زحفه نحو سرقوسة وناصب أهلها القتال فتحصنوا داخل أسوار مدينتهم فبعث السرايا فى كل ناحية وغنم غنائم هائلة وافتتح حصوناً كثيرة حول سرقوسة، ثم حاصر سرقوسة نفسها من البر والبحر وجاءته الأساطيل من أفريقية تحمل إليه الإمدادات، لكن عند ذلك زحف والى «بلرمو» فى جيش كثيف نحو المسلمين فخندق المسلمون حول أنفسهم وحفروا خارج الخندق حفراً كثيرة فلما حمل الروم على المسلمين كبت الخيول وسقط كثيراً منها فى الحفر وقتل المسلمون أعداد كبيرة من الروم وضيق القاضى أسد الحصار على سرقوسة وأحرق أسطول البيزنطيين فسألوه الأمان ولكن المسلمين رفضوا ذلك، وفى تلك الأثناء حل بالمسلمين وباء شديد هلك بسببه عدد كبير منهم من جملتهم القاضى أسد بن الفرات الذى توفى فى شعبان عام ٢١٣م، وقيل فى رجب، وقيل فى ربيع الآخر فدفنه المسلمون فى الموقع الذى كان يحاصر منه

سرقوسة، وقيل بين قطامية وقصر يانة.

وهكذا .. توفى القاضى أسد بن الفرات فى الوقت الذى رجحت فيه كفة البيزنطيين فقد كان المسلمون يعانون من وقوع الموت وكثرته فى معسكرهم وسفن القسطنطينية والبندقية تتعاون بينها للقضاء على المسلمين والمؤن والأقوات تكاد تكون معدومة فى المعسكر الإسلامى، وهكذا .. كان وباء الطاعون الذى أصاب الجيش الإسلامى وقضى على ألوف المسلمين من بينهم أسد بن الفرات قائد الحملة الذى هلك فى هذا الوباء، وكانت قد أصابته فى القتال جراحات كثيرة والنتيجة أن وحدة الجيش تفككت نظراً لوفاة القائد واضطراب أمر القوات الفاتحة، وخرج الحاكم البيزنطى «بيلانوس»، وهاجم «قصر يانة» فقطع بذلك مواصلات المسلمين واضطرهم إلى الارتداد مسرعين عن سرقوسة وتحصنوا فى حصن قريب منها يسمى مناو وأصبح مركزهم حرجاً، وبذلك فقد المسلمون قوة الدفع الأولى وتعثر الفتح بسبب قلة الخبرة العسكرية عند أسد بن الفرات الذى لم يتبع الخطة المثلى التى جرى عليها المسلمون حتى ذلك الحين فى فتوحهم وهو الاتجاه رأساً إلى قلب مقاومة العدو واحتلال العاصمة، وبذلك تنتهى المقاومة ويتم الفتح، ومن القواعد المعروفة فى العسكرية أن كل حملة لا تصل فى الدفعة الأولى إلى غايتها تتحول إلى حرب دفاع أو حرب خنادق ويطول أمدها وتفقد قوتها تبعاً لذلك.

لكنه رغم كل هذا فقد عزم المسلمون على مواجهة هذه الأخطار والتغلب عليها فبدأوا باختيار واحد منهم فأتوا عليهم فولوا على أنفسهم «محمد بن أبى الجوارى» الذى وضعوا فيه كل أملهم لتخليصهم ومعالجة الموقف المتحرج الذى وصلوا إليه وذلك أملاً فى العودة إلى بلادهم وكانت أنباء دخول الأسطول البيزنطى والحشود الرومية قد وصلت إلى مسامع المسلمين فعزموا على ركوب مراكبهم والعودة إلى أفريقية فرفعوا الحصار عن سرقوسة وأصلحوا سفنهم وركبوا وشرعوا فى الإقلاع، ولكن مراكب البيزنطيين والبنادقة تصدت لهم على باب المرسى الكبير ومنعتهم من الخروج

ورأى المسلمون أن اقتحامهم لهذا الحصار البحرى يعتبر ضرباً من التهور الذى يصل إلى حد التهلكة فتراجعوا بسفنهم إلى المرسى وأحرقوا هذه السفن حتى لايظفر بها البيزنطيون واستقر عزمهم على القتال وإحراق السفن فى هذه الحالة له مدلول هام إذ يعنى أنهم قد وطنوا أنفسهم على القتال حتى الموت معتمدين فى ذلك على سيوفهم فحسب ثم رحل المسلمون إلى حصن «ميناو» بعد ثلاثة أيام من بدأ محاصرتهم لها وتوجه فريق من المسلمين إلى حصن جرجنت Girgenti الواقع على ساحل البحر جنوب غربى صقلية ونجحوا فى الاستيلاء عليه ورفع هذا الفتح من روح المسلمين المعنوية وبدأوا ينطلقون إلى المزيد من الانتصارات.

وأرسلت الحكومة البيزنطية فى تلك الآونة مدداً جديدة إلى الجزيرة بقيادة البطريق «نودط» الذى زحف فى جموع كثيفة من الأرمن وغيرهم نحو قصر يانة واصطدم مع المسلمين تحت أسوار قصر يانة فى قتال عنيف انتهى بانهزامه على أيدى المسلمين وقتل من عسكره أعداد كبيرة وأسر مع قواده سبعون بطريقاً وفر «تودط» إلى داخل المدينة واستمر حصار المسلمين لها وقد شد النصر من عزيمتهم إلى أن توفى قائدهم «محمد بن أبى الجوارى» فى أواخر عام ٢١٣هـ، فولوا على أنفسهم قائداً من قوادهم هو «زهير بن غوث»، وقيل «زهير بن برغوث»، ونشبت بين هذا الوالى الجديد وبين «تودط» معارك عنيفة انهزم فيها المسلمون وقتل منهم نحو ألف شخص فعاد المسلمون إلى معسكرهم وخندقوا على أنفسهم فحاصرهم البيزنطيون من داخل المدينة ومن خارجها.

واشتد القتال بين الطرفين وأدرك المسلمون بحرج موقفهم فعزموا على التسلل من معسكرهم وكان البيزنطيون يتوقعون منهم ذلك فأخلوا خيامهم وترصدوا للمسلمين بالقرب منها فلما خرج المسلمون أقبل عليهم البيزنطيون من كل ناحية وقتلوا منهم وفر الناجون إلى ميناو فدخلوها ولكن البيزنطيين حاصروهم هناك وقلت قوات المسلمين وانقطعت عنهم المؤن حتى اضطروا إلى أكل الدواب والكلاب، وحاول

مسلموا «جرجنت» أن يساعدوا اخوانهم فى میناو فخربوا جرجنت قبل أن يتخلوا عنها وساروا إلى مازر وحاولوا من هناك نصرة إخوانهم المحصورين فتعذر عليهم الأمر وأشرف المسلمون على الهلاك.

وبذلك فقد تحرج مركز المسلمين خاصة وأن خبرة رجالهم وهم المتطوعون والمجاهدون من العباد والزهاد الذين ساروا مع الحملة، هلك معظمهم من وباء سرقوسة، ولم يبقى فى الجيش إلا الجند الخراسانى ومتطوعة البربر، ولم يجد المسلمون فى تلك الظروف الحرجة قائداً يستطيع إعادة الوحدة إلى القوة الإسلامية وقيادتها فظلوا متحصنين فى بلدة مناو فى انتظار المدد الذى طلبوه من زيادة الله بن الأغلب وقد تأخر وصول هذا المدد وزادت أحوال المسلمين فى صقلية حرجاً.

وعلى ذلك .. فإنه فى تلك اللحظات الحرجة التى يتوقف عليها مصير هؤلاء المسلمين حدث أمراً لم يكن فى الحسبان إذ وصل إلى مياه صقلية فى عام ٢١٤هـ أسطول أندلسى.

مدد أهل الأندلس لنصرة إخوانهم فى الجزيرة :

فى تلك الظروف الصعبة وفد مدد من أهل الأندلس إلى جزيرة صقلية على أسطول بحرى يتألف من قطع كثيرة العدد تحمل أعداد كبيرة من غزاة البحر الأندلسيين قدموا بقصد الغزو البحرى والجهاد وفى نفس الوقت أقبلت مراكب عديدة من أفريقية لإمداد المسلمين فبلغ عدد السفن الأندلسية والأفريقية ثلاثمائة سفينة. ولا ندرى إن كان نزول هؤلاء الأندلسيين وقع مصادفة أو أنهم سمعوا بالمعركة الدائرة على أرض الجزيرة فأسرعوا إلى نجدة إخوانهم.

ويذكر ابن عذارى المراكشى أن السفن التى قدمت إلى صقلية كانت أندلسية فيقول فى عام ٢١٤هـ وصل من الأندلس إلى صقلية نحو ثلاثمائة مركب فيها «أصبغ بن وكيل الهوارى» المعروف «بفرغلوش» أما النويرى فيشير إلى أن السفن

القادمة كان يصدرها الأندلس، وأن قسماً من هذه السفن الأندلسية كان يقودها «أصبع بن وكيل الهوارى»، والفريق الآخر كان يقوده «سليمان بن عافية الطرطوشى»، ولا يشير الحميرى إلى دخول سفن أفريقية ولكن يذكر أنه وصل من الأندلس مراكب كثيرة.

ونحن نميل إلى الأخذ بالقول أن هناك سفن أفريقية قد وصلت إلى الجزيرة لنجدة إخوانهم الذين سبقوا إلى الفتح لاسيما أنه كان زيادة الله يتولى مقاليد الأمور فى أفريقية ولا شك أنه كان يتابع أخبار الفتح بنفسه وانه كانت ترسل له الأخبار الطيبة والسيئة عن حالة الجند تباعاً على هذا فلابد أن يكون قد وصلهم المدد من تونس بعد وفاة أسد بن الفرات، ومحمد بن أبى الجوارى بل أنه ليس من المستبعد وصول سفن أفريقية وأندلسية فى وقت واحد.

وعلى ذلك .. فإنه ما كادت أنباء الغزو الأندلسى ووصول السفن تبلغ مسامع المحصورين فى ميناو حتى أسرع هؤلاء فأرسلوا إليهم رسلاً يسألونهم النصرة والنجد، ولم يتردد الأندلسيون الذين كرسوا حياتهم للجهاد البحرى فى نجدة إخوانهم فى العقيدة والإيمان والجهاد فمن ذلك تحقيق لأهدافهم ومبادئهم ولكنهم اشترطوا عليهم أن تكون القيادة «لفرغلوش»، ويبدو أن المسلمين المحصورين فى ميناو وافقوا الأندلسيين على شروطهم فأقبل الأندلسيون بفك الحصار عنهم واستولوا فى طريقهم إلى ميناو على ما قابلهم من قلاع وحصون حتى انتهوا إلى ميناء ميناو واشتبكوا مع تودط فى جمادى الآخر عام ٢١٥هـ؛ فانهزم هزيمة نكراء وتراجع إلى قصر يانة وبذلك نجح أصبع بن وكيل الهوارى فى الإسراع ومهاجمة الروم والصقليين المحاصرين المناو وفك حصار المسلمين وتولى بنفسه قيادة القوى الإسلامى واتجه المسلمون رغم معارضة بعض القادة من رجال الأغالبة إلى قصر يانة بعد أن ارتفع حصار البيزنطيين عن المسلمين وتنفس هؤلاء الصعداء ثم أحرقوا المدينة وخربوها وأعادوا الاستيلاء عليها ثم سار أصبع نحو بالرم وحاصرها بعد أن ضرب حولها الحصار فاستسلم صاحبها البيزنطى

على الأمان ودخلها المسلمون بعد أن حاصروها حصاراً طويلاً حتى فتحوها واتخذوها قاعدة حربية لمواصلة الفتح فى أنحاء الجزيرة والاستيلاء على القلاع والحصون الرومية، ومن ذلك الوقت فإن صقلية دانت للإسلام والحكم العربى بعد أن كانت تخضع لسيطرة الروم وبسقوط بالرمو فإن نفوذ العرب والمسلمين قد تمكن من الجزيرة.

ويبدو أن نزاعاً حدث بعد ذلك بين القائد الأندلسى والقائد الأغلبى بسبب القيادة العامة للجيوش الإسلامية وانقسم المسلمون إلى طائفتين، وهدد الأندلسيون بترك صقلية لكن الفريقان تداعو للصلح واتفقا على تولية القيادة إلى «عثمان بن فرهب»، لكن ما أن تم الانتهاء من فتح العاصمة .. فإن ابن عذارى المراكشى يذكر أن الأندلسيين تركوا صقلية وقاموا عائدين إلى الأندلس عام ٢١٥هـ، وربما لايكون كل الأندلسيين قد رحلوا، وربما بعضاً منهم آثر أن يرحل من صقلية والعودة إلى الأندلس بعد فتح بالرم عام ٢١٦هـ، وأن الفريق الآخر رضى بولاية «أبى فهر محمد ين عبد الله ابن الأغلب التميمى»، الذى ولى صقلية عام ٢١٧هـ، ولا شك أن الأندلسيين لعبوا دوراً خطيراً فى فتح صقلية شأنهم شأن إخوانهم الذين فتحوا كريت (أقريطش)، ولقد كان وصول الأندلسيين إلى صقلية بأسطولهم الكبير نجدة لأخوانهم الأفريقيين ولولاهم لما نجح هؤلاء فى تثبيت أقدامهم فى جزيرة صقلية.

فتح صقلية بعد زيادة الله الأغلبى :

اتخذ فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب التميمى الذى أرسله زيادة الله كقائد جديد للحملة لمواصلة الفتح بنجاح، مدينة بلرم مقراً له بعد أن دخلها وطرد بقية القوة البيزنطية فى الجزيرة، ولقد كان من أسباب اتخاذه بلرم مقراً له نظراً لسهولة اتصالها البحرى بأفريقية؛ حيث كانت ميناء بحرية على الساحل الشمالى لصقلية وكانت السفن تصل إليها بسهول من موانى أفريقية وكذلك لقربها من مضين «مسينا»، وجنوبى إيطاليا؛ حيث يتهيأ المسلمون لتوجيه الغارات منها على البيزنطيين من جهة

ثانية، ومن بلوم أخذ أبو فهر فى شن الغارات على قصر يانة بين عامى ٢١٩هـ/٢٢٠هـ، ثم سير جيشاً بقيادة محمد بن سالم إلى مدينة «طبرمين» الواقعة فى شرق الجزيرة وأحرز المسلمون انتصارات متوالية على البيزنطيين فى سرقوسة.

ولكن يبدو أن زيادة الله بن إبراهيم الأغلبى قد احتاج لمساعدة «أبى فهر» فى قمع بعض الثورات فى المغرب فطلب عودته إلى المغرب وعين بدلاً منه أخاه الأغلب ابن إبراهيم بن الأغلب والياً عليها فوصلها فى أسطول كبير فى منتصف رمضان عام ٢٢٠هـ، ونجحت حرقاته فى مطاردة حرقات البيزنطيين وأحرز بعد وصوله إلى صقلية انتصارات بحرية عديدة فظفر بعدد من سفن الروم وأمر بضرب رقاب بحارتها من البيزنطيين ثم بعث أبو الأغلب أسطوله إلى قوصرة فظفر فيها بحراقة بيزنطية ووجه فى عام ٢٢١هـ سرية إلى مضيق «مسينا» فغزاها وغنم المسلمون غنائم لاحصر لها، ثم غزا أسطول الأغالبة بقيادة «الفضل بن يعقوب» الجزر المجاورة لصقلية فاستولى على عدد من الحصون، ومن بينها حصن «تنتدارو» الواقع على الساحل الشمالى من صقلية وظل أبو الأغلب يبعث سرايا للإغارة، وفى كل مرة كان المسلمون يعودون مظفرين غانمين، وفى عام ٢٢هـ أغار الفضل بن يعقوب على حصن مدنار واستولى عليه وعلى معاقل أخرى كثيرة.

ولما توفى أبو أغلب إبراهيم بن عبد الله والى صقلية اجتمع المسلمون على ولاية العباسى بن الفضل بن يعقوب فى رجب عام ٢٣٦هـ، وأقرهم الأمير الأغلبى أبو العباسى محمد بن الأغلب بن إبراهيم على ذلك وتعتبر ولاية العباسى بن الفضل فاتحة عهد جديد فى تاريخ الفتح الإسلامى لصقلية، كما تعتبر فترة ولايته من أعظم الفترات التى وضحت فيها السيطرة الإسلامية على البحر المتوسط فكان يرسل أساطيله فى البحر للغزو واقتناص السفن البيزنطية وواصل الجهاد إلى أن توفى عام ٢٤٧هـ.

وهكذا .. كان الأغالبة بعيدى النظر حين بدأوا يولون وجوههم شطر صقلية

فنزلوها كما سبق القول واستولوا عليها؛ حيث سقطت آخر قلاعها عام ٢٤٦هـ، وفشلت محاولات الدولة الرومانية الشرقية فى استردادها كما فتحوا مالطة عام ٢٥٦، واتخذوها قاعدة لأسطولهم كما ملكوا الجزر المتفرقة فى البحر المتوسط الغربى، وبذلك بلغت السيادة الإسلامية الذروة ولم يعد الفرنجة يسيطرون إلا على البرية وأصبح المسلمون مطلقى السراح فى الحياة فى هذا الجزء من البحر، ولم يكتفى الأغالبة بذلك .. بل انهار أسطولهم القوى على سواحل أوربا فدخلوا بارى فى جنوب إيطاليا ووصلت قواتهم إلى روما فدخلوا نهر التبر وأحرقوا المدينة واضطر البابا إلى أن يدفع الجزية حتى يكفوا عن تهديده بل أغاروا أيضاً على جنوه ودخلوا البحر الإدرياتى وأغاروا على ساحل دلماشيا عام ٣٥٩هـ كما غزوا مرسليا وأوقعوا بالسفن الفرنسية الراسية فيها فلم يستطع الأمبراطور ليون الثانى سوى أن يتقرب إليهم.

حكام الجزيرة فى عهد الأغالبة :

ولى على حكم صقلية عدد من الولاة من قبل أمراء بنى الأغلب نخص بالذكر منهم خفاجة بن سفيان ومحمد بن خفاجة، ورباح بن يعقوب، والحسين بن رباح بن يعقوب، ثم جعفر بن محمد والحسين بن رباح، والحسن بن العباسى، ومحمد بن الفضل، والحسين بن أحمد وسوادة بن محمد بن جفاجة، ومحمد بن الفضل أبو العباسى بن إبراهيم بن أحمد بن الفضل.

وفى خلال هذه الفترة استولى المسلمون فى أيام خفاجة بن سفيان على قلعة الأرمنين وقلعة المشارعة، وفى عام ٢٤٧هـ كما استولوا على نوطس وشكلة الواقعة فى جنوبى شرق صقلية وذلك فى عام ٢٥٠هـ ونجح المسلمون فى عام ٢٦٤ هـ فى الاستيلاء على سرقوسة بعد حصار طويل هزم فيه جعفر بن محمد أسطولا بيزنطيا كان قد قدم لنصرة أهلها وحاول البيزنطيون استرجاعها فأرسلوا لهذا الغرض أسطولاً تغلب عليه المسلمون وظفروا بأربع قطع منه. وفى عام ٢٨٨هـ عمر أبو العباسى ابن ابراهيم

بن أحمد أسطوله وأعده للغزو ونزل به على دمنشى ونصب عليها المجانيف وأقام على حصارها أياماً ثم مضى إلى مسبينا وجازف حربياته وهى سفن خاصة للقتال إلى ريو Reggio وقد تجمع بها حشد كبير من البيزنطيين فقاتهلم على بابها وهزمهم، ثم عاد إلى مسينا فوجد بها سفناً بيزنطية قد وصلت من القسطنطينية فاستولى منها على ثلاثين مركباً ثم قدم الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد بأسطوله إلى صقلية فى ١٧ ربيع الأولى عام ٢٨٩هـ فأفتح مدينة طبرمينى وميتعش ورمطة دلياح ثم أمر الناس بالتجمع فى مسينى بغية العبور إلى قلورية فى ٢٦ رمضان، وهاجم كنسته الواقعة بالقرب من خليج طارنت ونصب عليها المجانيف، ولكنه توفى وهو يقوم بحصارها فى ذى القعدة عام ٢٨٩هـ ولم يبقى لاستكمال فتح صقلية سوى مدينة طبرمينى، وقد سقطت بدورها فى نهاية عصر الأغالبة فى عام ٢٩٦هـ، وهكذا .. افتتح المسلمون جميع مدن وقلاع صقلية بعد حروب استغرقت نحو ثمانية وثلاثين عاماً بعد المائة.

ويرجع طول فترة الفتح إلى أن الحملة الأولى بقيادة أسد بن الفرات لم تتجه مباشرة بعد نجاحها فى المرحلة الأولى إلى العاصمة بالرم للاستيلاء عليها كما كان يفعل القواد العرب والمسلمين والحقيقة أن أسد لم يكن قائداً حربياً بقدر ما كان فقيهاً وعالماً دينياً ومن هنا .. استغرق فتح الجزيرة طوال هذه الفترة التى استغرقت تاريخ الدولة الأغلبية كله. ويبدو أن اهتمام بيزنطة بأهمية صقلية قد أطال فترة الفتح.

(راجع كتابنا : الإسلام والمسلمون فى جزر البحر المتوسط).

الأغالبة وفتح مالطة

تعتبر جزيرة مالطة من جزائر البحر المتوسط، وهى أكبر جزيرة فى الأرخبيل المالطى المؤلف من جزيرة مالطة، وجوزو، وكومينو، وكومينوتو، وفلفولا، وجزيرة نمودش، ونموشة، وهى تعتبر أكبر هذه الجزر، وهى وإن كانت صغيرة المساحة بالنسبة

لجزيرة كصقلية، أو كريت، أو سردانيا .. إلا أنها تعتبر من المحطات الهامة فى البحر المتوسط وموقعها ذو أهمية عظيمة لمن يستطيع أن يسيطر عليها ويخضعها لنفوذه السياسى. وهى تبعد حوالى تسعين كيلو متر جنوبى صقلية، وعلى بعد مائتى وتسعين كيلوا متر من شاطئ تونس، وقد كانت قبل الفتح الإسلامى محطة هامة للأسطول الرومى فى البحر المتوسط وحلقة وصل بين ممتلكاتهم فى الشرق ومطامعهم فى الغرب وأهلها من أصل سامى كنعانى من قديم الزمن.

وقبل الفتح الإسلامى لها كانت شديدة الضرر على المسلمين فى البحر، وكان يعظمها النصارى تعظيماً بالغاً لأنها مركز هام من مراكزهم الاستراتيچية فى بحر الروم، والذى لاشك فيه أن جزيرة مالطة تعرضت للغزو الإسلامى أكثر من مرة أثناء فتح شمال أفريقيا وأيضاً فهى كغيرها من جزر البحر المتوسط التى وصل إليها المسلمون بسفنهم ولاسيما أن الأسطول الإسلامى كان قد ظهر فى البحر المتوسط كقوة حربية أمام الأسطول الرومى.

وهى جزيرة عامرة كثيرة الخيرات حسنة الموقع حتى أنها اعتبرت هى وصقلية من المعالم الهامة فى التاريخ البحرى الإسلامى ومفتاح حوض البحر المتوسط الأوسط والغربى وقد عرف المسلمون بفضل فتحهم لهاتين الجزيرتين كيف يهددون إيطاليا كلها ويسودون البحر التيرانى ويفتتحون أجزاء هامة من إيطاليا.

وكما سبق القول .. فإن حكام بنى الأغلب قد عملوا على نشر رسالة الإسلام فى قلب القارة الأوربية وتحقيق حلم موسى بن نصير فى إتمام فتح القارة الأوربية، وفى ذلك يذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل عن حوادث عام ٢٢١هـ أن إبراهيم بن الأغلب الصغير قد أرسل أسطولاً لغزو الجزائر القريبة من الساحل التونسى وربما يكون المقصود بتلك الجزائر هو أرخبيل الجزر الذى منه مالطة، ولم يكن هذا الغزو للجزيرة إلا مجرد التمهيد للغزو النهائى ثم تتبعه حملة للاستقرار والاستيلاء النهائى على الجزيرة

وإدخالها فى حوزة الإسلام.

وتم افتتاح الأغالبة لمالطة عام ٢٥٥هـ فى إمارة أبى الغرانيق محمد بن أبى إبراهيم أحمد، وبفتحها تأكدت سيطرة المسلمين الكاملة على المضايق الواقعة بين صقلية وأفريقية ويبدو أن البيزنطيين حاولوا استردادها فى العام التالى فحاصروها بأساطيلهم، ويذكر ابن الأثير أن محمد بن خفاجة بن سفيان والى صقلية سير لفتحها جيشاً فى عام ٢٥٦هـ، وكان البيزنطيون يحاصرونها فلما بلغهم إقبال المسلمين رحلوا عنها.

وإنه ربما كانت مالطة قد دخلت فى حوزة المسلمين قبل عام ٨٠٠م/١٨٤هـ فترة تولية إبراهيم بن الأغلب حكم أفريقية، ولا يستبعد أن يكون غزو الجزيرة قد تم قبل عام ٢٢٦هـ. ذلك لأن أبا الأغلب إبراهيم كان قد غزا صقلية عام ٢٢١هـ واستولى عليها واذن كيف يكون قد ترك مالطة وهى أقرب إلى تونس من صقلية.

ولكن هناك أقوال تذكر أن فتح المسلمين لمالطة قد تم بعد استيلائهم على جزيرة صقلية ويستدل على ذلك أن الفتح النهائى لمالطة قد تم بعد فتح صقلية بمدة طويلة، وذلك لأن حكام بنى الأغلب بعد أن تدعم وضعهم فى صقلية رأوا أن مالطة تشكل خطراً على تحرك الأسطول من تونس إلى صقلية وبالعكس فاستقر الرأى على ضرورة إخضاع مالطة للراية الإسلامية بعد أن تبين لهم أن الأسطول البيزنطى يتخذ منها ملجأ لأسطوله ومركزاً من مراكز تموينه فى البحر المتوسط.

وكما سبق القول فقد سنحت الفرصة للمسلمين فى عهد والى صقلية الأمير خفاجة بن سفيان الذى ولى أمر الجزيرة فى جمادى الأولى عام ٢٤٨هـ/٨٦٢م، والذى كان رجلاً متديناً بارعاً فى السياسة والحرب عاملاً على قطع آمال الروم وسائر النصارى فى استرجاع جزيرة صقلية؛ بل أكثر من ذلك عاملاً على مد الفتوحات الإسلامية إلى قلب أوربا والاستيلاء على البر الكبير (إيطاليا)، وتدعيم الأسطول

الإسلامى فى البحر المتوسط، وكان أن عقد العزم على إخضاع مالطة للمد الإسلامى لأنه رأى أنه لايمكن إبعاد الخطر الرومى عن صقلية وقطع آمال النصارى فى استردادها إلا بإخضاع جزيرة مالطة لسلطان المسلمين، وكان أن استشار الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد الذى بارك فكرته وشجعها وأمده بالأسطول والجند وجهز له العدة والعتاد لكى يستطيع أن يدرأ الخطر الرومى عن صقلية وأن يفتح مالطة فى يسر وسهولة، وعقد الأمير خفاجة أبو سفيان لواء الحملة الميمونة لإبنه محمد بن خفاجة الذى كان عضداً قوياً لأبيه يقهر به شوكة الأعداء، ويساعده فى أداء شئون الحكم والسياسة فى صقلية.

سار الأمير محمد على رأس الأسطول الإسلامى الذى خرج من موانى صقلية بعد أن وصله المدد من تونس وكانت الحملة تضم خيرة المقاتلين الذين كانت قوتهم الإيمان بالله والعزم على قهر الأعداء ونشر الدين الإسلامى الحنيف فى كل بقعة يقطنها بشر وتقويض نفوذ الامبراطورية الرومانية واستطاع الأمير أن يرسى سفنه وينزل جنده على شواطئ مالطة الشمالية فى أوائل عام ٢٥٦هـ/٨٦٩م، وتم له الاستيلاء على الجزيرة فى فترة وجيزة بعد أن استطاع أن يدك حصونها ويهدم قلاعها واستطاع أيضاً أن يدخر مقاومة الأسطول الرومى الذى كان يحمى سواحلها وأن يضطره للفرار إلى عرض البحر بعد أن تحطمت أكثر سفنه.

وهناك فى الجزيرة وجد المسلمون أنفسهم بين قوم كادوا يكونون من أهلهم وذويهم، ولقد رحب سكان الجزيرة بالعرب الفاتحين وأحسوا أن الفتح الإسلامى قد خلصهم من نير الحكم الرومانى، ولكن الامبراطور الرومانى، وقد هاله هذا النصر السريع، والفتح الحاسم للمسلمين لمالطة .. فقد أحس بالكارثة التى أصابت الروم بفقدهم أهم مركز من مراكزهم الاستراتيجية فى البحر المتوسط. فرأى أن يعمل على استرداد الجزيرة من أيدى المسلمين، ومن ثم .. حاول البيزنطيون استرجاع مالطة بعد عام ٤٠٠هـ/١٠٤٨م، ولكن المسلمين قاتلوهم وتغلبوا عليهم.

وفى إحدى المرات أرسل البيزنطيون أسطولاً مكوناً من ثلاثين سفينة حربية كبيرة يصحبها عدد من سفن الإمداد والتموين وجاء الأسطول الرومى فى العام التالى ٢٥٧هـ/٨٧٠م يتباهى بقوته وعدته واستطاع أن ينصب الحصار حول مالطة محاولاً بهذا الحصار أن يمنع وصول العون الإسلامى للجزيرة وأخذ يستعد لإنزال الجند، ولكن ما أن علم بذلك الأمير خفاجة وإبنه محمد حتى قاما بجمع سفن الأسطول الصقلى من الموانئ الصقلية، ومن عرض البحر، وسار محمد بن خفاجة برجال أسطوله لنجدة الجزيرة المحاصرة وليساعدا قوات المسلمين فى الجزيرة، وليمنع راية القسطنطينية من أن ترفع مرة أخرى فوق أرض ضمت للدولة الإسلامية، ولما علم الروم أنهم ملاقون أسطولاً اشتهر رجاله بقوة إيمانهم وشدة عزيمتهم وصبرهم على القتال ارتدوا أمام الزحف الإسلامى بعد أن ألقى الله الرعب فى قلوب الروم.

فلم يكد رجال الأسطول الرومى يشاهدون سفن المسلمين قادمة نحوهم حتى فروا بسفنهم نحو الشرق.

ولقد خضعت مالطة لحكم أمراء صقلية وأصبحت ولاية تابعة لحكمهم منذ عام ٢٥٧هـ/٨٧٠م، وعمل هؤلاء الحكام على تشجيع المسلمين للتوطن فى الجزيرة فجاءها المسلمون من تونس وصقلية والأندلس، وذلك عملاً على توطيد دعائم الإسلام بالجزيرة واختلطوا كذلك بالسكان المحليين الذين لم يشعروا بالغربة بينهم؛ بل عمدوا على مصاهرتهم ونشر الإسلام بينهم.

وقد أنشأ الأغالبة فيها دار لصناعة السفن من أشجار الصنوبر التى تكثر بها وأصبحت على هذا النحو قاعدة بحرية هامة للأغالبة فى البحر المتوسط.

وهكذا بسط الاغالبة لواء الاسلام على مالطة كما بسطوه على صقلية طوال فترة حكمهم حتى زوال ملكهم أمام الفتح الفاطمى .

وهكذا أدى الاغالبة دورهم وواجبهم نحو العالم الاسلامى بتوسيع رقعة المد الاسلامى فى جزر البحر المتوسط ومحاولة غزو جنوب ايطاليا .

راجع كتابنا : الاسلام والمسلمون فى جزر البحر المتوسط. مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة، وكتابنا : الاسلام والثقافة العربية فى أوربا القاهرة ١٩٧٥م .

دور الاغالبة فى النواحى الثقافية والاقتصادية والعمرانية وغيرها من النشاطات المختلفة

لقد كانت دولة بنى الاغلب أول دولة استقلت بافريقية مع اعترافها بالسيادة الاسمية للخلافة العباسية ومن هنا فقد اعنيت طوال عهدها الذى استمر من ١٨٤هـ- ٨٠٠م إلى ٢٩٦هـ- ٩٠٩م بترقية أفريقية حضاريا وثقافيا وعلميا وأدبيا وقد استعملت فى سبيل ذلك كل الوسائل التى من شأنها تطور البلاد ورقيها، وعلى ذلك فقد تركت تلك الحقبة التاريخية التى حكم فيها الاغالبة بلاد افريقية أثرها الواضح والقوى على مجريات الاحداث فى البلاد وشاد بنو الاغلب معالم حضارية فاخرة تدل على تحضرهم ورقيهم وعنايتهم بالثقافة والحضارة والعمران واستخدام الوسائل التى من شأنها أن تطور كافة أنحاء القطر .

وقد شهد عصر بنى الاغلب نهضة ثقافية عالية .

المجال الثقافى :

يبدأ هذا العصر الثقافى المتطور بقيام دولة الاغالبة عام ١٨٤هـ وينتهى بسقوطها تحت ضربات جيش الفاطميين بقيادة عبد الله الشيعى عام ٢٩٦هـ. ولقد شهدت هذه

الفترة كمبدأ للحياة الثقافية العربية الاسلامية لأنه اقترن عصر الاغالبة بشعور جديد هو الشعور بالاستقلال والروح الوطنية أما الاعتبار الثانى والذى ينتهى بسقوط هذه الدولة وقيام الدولة الفاطمية فلانه اقترن بانقلاب جديد فى المفاهيم السياسية والمذهبية فصح لذلك أن يكون فارقا جذريا بين عصر ثقافى وآخر .

وقد ظهرت الناحية الثقافية فى عصر الاغالبة بأنها ثقافة مغربية ذات شخصية مستقلة فظهرت مدرسة القيروان وغيرها من المدارس الاقليمية .

ولقد ظهر أثر الاغالبة فى الميدان الثقافى حيث تطورت الثقافة المغربيةضمن دائرة العروبة والاسلام محتفظة على مر العصور بروحها الشرقية الخالصة حيث استمدت روحها من ميراث الشرق الاسلامى الذى نقله الفاتحون والمهاجرون وجاء بنو الاغلب ليضفوا عليه كثيرا من العوامل والتفاعلات المحلية وهنا تظهر حيوية الاسلام فى افريقية فالاسلام وحدة هو الذى استطاع أن يخلق فى هذه البلاد حضارة دائمة حقا مكتملة العناصر والتى استطاعت أن ترتكز على مقتضيات اجتماعية كوجود الامة المغربية واكتمال مقوماتها وتوافر العناصر الروحية والمادية الضرورية لقيام كيانها واستمرار وجودها وصيانة ترابها وتراثها وهذا الشئ قد أوجده الاسلام الذى انطوى المغرب الادنى تحت رايته .

ذلك لان الجهود الذى بذلها ولاة الاغالبة ونشر الطمأنينة بين ربوعها فقد أظل البلاد عهد من السلام الحقيقى والطمأنينة غير المشوب بقلق أو اضطراب ولعل هذا يفسر لنا أن اسلام البربر واقبالهم على الثقافة العربية قد حببهم فى العرب وفى ثقافتهم وهذب من طبيعتهم النزاعة إلى الثورة والخروج على السلطان وهكذا ظهرت الثقافة العربية الاسلامية التى رأيناها فى العهود السابقة على عهد الاغالبة ويشتد ساعدها غير أن عهد الاغالبة بظروفه قد أدى إلى دفعها إلى الامام فى طريق التطور والنمو ذلك لان الاغالبة قد استقبلوا كثيرا من العلماء والفقهاء وأكرموهم فأشاعوا فى المغرب الادنى روح التقوى

والصلاح والزهد وكان معظم هؤلاء القادمين من مصر .

ويذكر مؤرخو هذا العصر كيف أن الاغالبة أنشأوا بمساجد القيروان حلقات للتدريس وأنشأوا مدارس جامعة أطلقوا عليها اسم دور الحكمة واستقدموا لها الاساتذة من الشرق فكانت هذه المدارس وما اقترن به انشاؤها من انصراف القائمين عليها للدرس والبحث عاملا هاما فى رفع شأن لغة العرب وثقافتهم .

وقد سمى عصر الاغالبة بعصر النهضة الثقافية لانه عصر نهضت فيه العلوم والآداب وغيرهما من فروع الثقافة ونشطت فيه الحركة العلمية نشاطا ملحوظا وقد تميزت فيه مباحث العلوم القرآنية وغيرها بعد أن كانت مختلطة فى عصر النشوء واتجه علماء كل فن إلى التخصص .

ولقد كان من أثر جامع القيروان أن التف فى هذا العصر أبناء الاندلس والمغرب وافريقية وطرابلس وبرقة وصقلية ومالطة وغيرها حول جامع القيروان لقراءة الكتب التى أنتجها القيروانيون أنفسهم كتفسير «محمد بن عبد السلام» وكتب الطب لابن الجزار الذى عاش فى عصر الاغالبة وتأليف غيرها فى مختلف الفنون .

وقد شهد عصر الاغالبة ظاهرة الثقافة الفقهية ودراسة الاحكام والقوانين الاسلامية التى كان لها الغلبة والتقدم فبينما نجد عشرات من الفقهاء فى كتب التراجم لا نجد ازاءهم من الادباء والاطباء الا أفرادا قلائل تخصصوا فى فن من الفنون وحتى أولئك الادباء نجدهم فقهاء وأدباء فى آن واحد غالبا وذلك راجع إلى أن افريقية والمغرب كانا فى هذا العهد الاغلبى فى حاجة أكيدة إلى مباحث فقهية دينية تنظم شئون البلاد الاجتماعية تنظيما محكما وتربط بين مختلف طبقاته المفككة منذ العصر الجاهلى إلى ما بعد الاسلام فكان ذلك من أسباب الاقبال على السهل من هذه العلوم الدينية أكثر من غيرها من العلوم الاخرى وان كانت العلوم الدينية هى الغالبة ذلك لان البربر لما اعتنقوا

الاسلام ووجدوا فيه ما يكفى المسلم فى مختلف مجالاته من صغيرة إلى كبيرة ومن هنا عكفوا على دراسة القرآن والسنة أو ما يندرج تحت مفهوم العلوم الدينية وهو الاساس وهو الجدير بالعناية .

ولقد كان لهذا الاتجاه الفقهى النشيط أيام الاغالبة وللحماسة التى يتحلى بها الفقهاء نتائج باهرة فى كثرة الفقهاء وفى وفرة التأليف الفقهية وتأثير الفقهاء على المجتمع ومختلف طبقاته حتى كان الفقيه هو المشرع وهو القاضى وهو الامام الذى يوليه الخاصة والعامة الاحترام ويستفتونه فى أحكامهم ويستغنون به فى حل مشاكلهم .

غير أن أهم تطور ثقافى شهدته افريقية فى عصر الاغالبة هو انتشار مذهب الامام مالك فى مدرسة القيروان وتفشيه فى القسم الغربى من العالم الاسلامى بما فيه بلاد الاندلس حيث لايزال حتى اليوم المذهب الغالب على المسلمين فى هذه البلاد والعامل الموجه لثقافتهم وحضارتهم وحياتهم الاجتماعية. لكن للحقيقة التاريخية فان ظهور مذهب الامام مالك وانتشاره فى المغرب العربى ولاسيما افريقية (المغرب الادنى) لم يكن وليد عصر الاغالبة فقد انتشر فى البلاد قبل الاغالبة، غير أن عهدهم شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب وسرعة انتشاره فى بلاد المغرب كلها .

وقد وفد مذهب الامام مالك إلى القيروان قادما من مصر كما وفدت المذاهب الاسلامية الاخرى ورحل كثير من فقهاء المغرب والقيروان إلى مصر أو الحجاز طلبا للمزيد من فقه عالم دار الهجرة وكان طلاب العلم كثيرين والكثيرون منهم كانوا من أبناء الطبقة الموسرة والتجار وأصحاب الصنائع وكانت الصلة وثيقة بين هذه الطبقة من الفقهاء وأهل العبادة والزهد ومع اننا لا نسمع عن اتخاذ الناس لقصور فاخرة كما نجده فى المجتمع المصرى فى ذلك العصر. الا أن الرخاء كان سائدا والخير وافرا .

وهكذا نرى كيف اتسعت القيروان وقامت فيها الاسواق والاحياء ونشأ مجتمع

قيروانى محلى عماده الفقهاء والقضاة وأهل الزهد والورع والتجار ونفر من أهل الثراء والغنى وأهل الصناعة كذلك نرى كيف كانت القيروان سوقا تجاريا كبيرا تصدر منه القوافل إلى بلاد الصحراء حيث بلاد السودان (كانم- برنو، مالى، سنغاى) ومركزا هاما للقوافل المارة من الشرق إلى الغرب وقامت فيها حلقات الدرس فى المساجد يؤمها للدراسة الصبيان ثم الشبان ويلبسون زيا خاصا بأهل العلم والدراسة .

وهكذا كان عصر الاغالبة تجربة جديدة فى المغرب الادنى، ذلك لانه خلال قرن من الزمان أو يزيد قليلا والذى دامته دولة الاغلبة تقدمت البلاد تقدما ملموسا وواضحا لم تعهده من قبل ولا فى ظل الحكومات التى تعاقبت بعد دولة الاغالبة حيث ازدهرت المدن وأخذت القيروان وتونس وسوسة وسفافس وغيرها من المدن الاسلامية فى افريقية طابع المدن الاسلامية التقليدية فازدانت بالمساجد والمنشآت العامة .

وعلى هذا يحق لنا القول انه اذا كان عصر الاغالبة قد بدأ عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م والبلاد المغربية نعيش فى فوضى تتقاسمها جماعات الخوارج وغيرهم فقد انتهى عهدهم والبلاد موحدة تحت لواء السنية فلا نجد الخوارج الا فى أقصى الطرف الغربى لبلاد الاغالبة بل فى اقليم تاهرت فى المغرب الاوسط (الدولة الرستمية) .

كذلك فانه قبل عصر الاغالبة لم تكن هناك شخصية واضحة لافريقية والمغرب الاوسط بل كانت مدنها قرى كبيرة ومحطات للقوافل بما فى ذلك القيروان .

ولقد شهد عصر الاغالبة تطور الحضارة المغربية فى اطار دائرة العروبة والاسلام محتفظة على مر العصور بروحها الاسلامية الخالصة وتطورت بجانبها حضارة الاندلس التى استمدت مقوماتها وروحها من تراث الشرق الذى جاء به الاسلام وأهله وأضفت التفاعلات المحلية على تلك الروح روح الاسلام وعلى هذا كانت الثقافة الاسلامية الشرقية هى المنوال الذى سار عليه رجال الدين والفقهاء والعلماء والائمة ورجال الفكر المغاربة منذ

صدر الاسلام ومن هنا فالحضارة المغربية اسلامية شرقية بدأ ونهاية ليس فيها أى أثر لحضارة وثقافة سابقة .

ولقد حمل لواء ذلك التراث الثقافى الاسلامى هؤلاء الفقهاء الذين رحلوا إلى الشرق الاسلامى من مصر والحجاز وبغداد والشام ثم عادوا إلى بلادهم متأثرين بما رأوا وسمعوا غير أن هؤلاء لم يكن لهم شأن يذكر حتى جاء أسد بن الفرات العالم المشهور فى تاريخ افريقية ورحل إلى مصر وسمع عن العالم المصرى «على بن القاسم» امام المالكية فى مصر فتأثر به رغم أن أسدا هذا كان على مذهب العراقيين وهو مذهب «أبو حنيفة» .

ويبدو أن ما سمعه أبناء المغرب (تونس) من علمائهم الراحلين إلى مصر وغيرها من بلاد العالم الاسلامى الشرقى أو ما سمعوه من دروس «أسد بن الفرات» حببهم فى هذا المذهب الذى يتمسك بسنة رسول الله ﷺ فى أضيق الحدود وبهذا الفقيه (مالك بن أنس) الذى اتخذ المدينة المنوة ومقام الرسول ﷺ مقرا لتعاليمه وفقهه انتشر مذهبه فى البلاد فاذا المغاربة يقبلون على هذا المذهب اقبالا شديدا عن ذى قبل ويطلبون المزيد من العلم به والمعرفة بخباياه .

وقد شهد عصر الاغالبة ظهور العديد من الفقهاء والعلماء والائمة الذين تركوا بصماتهم واضحة وقوية وجلية فى الحركة الاسلامية والفكرية والثقافية فى البلاد وبما تركوه من تراث فقهى كان له أبعد الاثر فى انتشار المذهب المالكى ورسوخ العقيدة الاسلامية فى قلوب الشعب المغربى الذى حافظ على قيمه الروحية وتقاليده العربية الاسلامية طوال العصور التاريخية ومن هنا كان الاستقرار السياسى والاجتماعى والاقتصادى من الأسباب الرئيسية لتهيئة المناخ الفكرى بظهور مثل هؤلاء الفقهاء ومن هؤلاء :

١- أسد بن الفرات (١٤٢- ٢١٣هـ) :

هو من المعالم البارزة والرئيسية فى الحركة الفقهية والتشريعية فى المغرب الادنى ومن الذين لعبوا الدور الاساسى فى تدعيم الفقه السنى الاسلامى وهو أسد بن الفرات بن ساسان مولى بنى سالم وهو فى الاصل من خراسان ولقد ولد بمدينة بحران عام ١٤٢هـ ثم دخل القيروان مع أبيه بصحبة جيش ابن الاشعث وأقام بها خمس سنوات ثم انتقل بعدها إلى تونس واستقر بها تسع سنوات ولما بلغ الثمانية عشر من عمره أخذ يعلم القرآن ولم يلبث أن ترك التعليم ليتفرغ إلى التوسع العلمى والرحلة فى طلب العلم، وقد تتلمذ على أيدى شيوخ أجلاء استفاد منهم كثيرا فقد أخذ عن «على بن زياد» كتاب الموطأ فى افريقية، ثم ارتحل إلى المشرق فسمع عن مالك وقصد العراق فأخذ فيه عن «أبى يوسف ومحمد بن الحسين» أنصار المذهب الحنفى، ولما عاد إلى مصر أخذ عن «على أبى القاسم» مدونته (الاسدية) وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة فقهية وقد أعجب به كثيرا على بن القاسم امام المالكيين فى مصر فدفع به إلى القيروان فأقبل عليه خلق كثير لسماع الاسدية وكذلك سماع الموطأ والاستفادة مما بهما من مسائل فقهية وكذلك الاستزادة من فقهه واشتهر وذاع صيته بين الشيوخ والطلاب واستقرت اقامته وأصبح الناس يفدون اليه من كل أنحاء البلاد لاسيما طلاب العلم والمعرفة .

وكان من بين الذين سمعوا عنه وتتلمذوا على يديه فترة طويلة وسمع المدونة (الاسدية) وكذلك الموطأ وكتب كل ما سمعه عنه سحنون بن سعيد والذى دفعته الرغبة فى الاستزادة من علم مالك حيث رحل إلى مصر ليسمع عن «على بن القاسم» وأقام فى الفسطاط زمنا طويلا حتى تشرب مذهب الامام مالك وملك عليه نفسه وعاد إلى بلده وجمع خلاصة دراساته وقراءاته المالكية فى أول كتاب ظهر فى فقه مالك غير الموطأ وأسماه المدونة .

وفى مصر أخبر سحنون بن سعيد أستاذه على بن القاسم بخبر نشاط أسد بن الفرات

فى بث مدونته فسر لذلك سرورا عظيما وعرض عليه سحنون بن سعيد رغبته فى سماع المدونة منه فأذن له وصحح النص الذى اصطحبه معه فى افريقية نقلا عن أسد بن الفرات وكتب اليه على أن يرجع إلى نص المدونة الاخير الذى بيد سحنون بن سعيد، لكن أسدا تمسك بما فى يديه ونشر المذهب الحنفى نسبة إلى «أبى حنيفة النعمان» وهو مذهب أهل العراق، كما تمسك سحنون بن سعيد بمدونته أيضا وكانت الغلبة لمدونة سحنون فأقبل عليها أهل المغرب وعولوا عليها فى أحكامهم وأعرضوا عن مدونة أسد ويرجع إلى سحنون بن سعيد وإلى تحمسه للمذهب المالكى الفضل فى دخول الناس فيه جماعات وطار صيته إلى الاندلس فجاءه علماء قرطبة يسمعون منه ويتتلمذون عليه وبدأ مذهب مالك منذ ذلك الوقت يدخل بلاد الاندلس وينتشر فيه .

وكان مذهب أبى حنيفة وهو المذهب الرسمى للدولة قد وفد إلى افريقية بقيام الدولة العباسية غير انه لم يلق اقبالا من المغاربة المتشبعين بحب الرسول ﷺ والمخلصين للاسلام الصحيح .

غير أن ظهور مذهب مالك خصوصا فى عهد سحنون بدأ يتغلب على مذهب أبى حنيفة مسيطرا على قلوب الناس ومدارس الفقه حتى انتصر نهائيا منذ عهد سحنون وبدأ المذهب المالكى يغلب على الحياة الثقافية فى بلاد المغرب كلها .

ولقد كان أسد بن الفرات يأخذ بمذهب أهل السنة ولا يقبل آراء المعتزلة فى أقواله الفقهية بل يأخذ بالمذهب المالكى والحنفى. وكان له طلاب كثيرون منهم طلاب ملازمون ومنهم من يأتون من الاقاليم لبعض الوقت ثم يرحلون. وقد تولى أسد بن الفرات قضاء افريقية عام ٢٠٣هـ وقام قاضيا حتى تسلم قيادة الحملة الغازية لجزيرة صقلية فترك القضاء وسار بجيشه إلى صقلية حيث استشهد وهو يحصار مدينة سرقوسة فى ربيع الاول عام ٢١٣هـ. ودفن بالموقع الذى توفى فيه .

٢- سحنون بن سعيد (١٦٠هـ- ٢٤٠هـ) :

وكان من الفقهاء المبرزين الذين لعبوا دورهم الهام فى اثراء الحركة الفقهية والفكرية والثقافية فى عصر الاغالبة «سحنون بن سعيد» أو أبو سعد سحنون بن سعيد والذى ينتسب إلى قبيلة تنوخ العربية وكان اسمه «عبد السلام بن سعيد» ولكن اللقب سحنون غلب عليه ومن هنا اشتهر به وذاع صيته بذلك وهو عربى شامى الاصل ولد باحدى قرى بلاد افريقية عام ١٦٠هـ وتوفى فى رجب عام ٢٤٠هـ ودفن فى القيروان وقد كان يمتاز بعدة صفات منها الورع الصادق والتيسير فى الفقه والبراعة والصرامة فى الحق بحيث كان لا تأخذه لومه لائم فى ذلك وكان زاهدا فى الدينا لايقيم لها وزنا وقد توطدت امامته بالمشرق والمغرب واعترف أهل عصره بفضله وقد اشتهر سحنون برغبته الشديدة فى طلب العلم منذ صغره فأخذ فى افريقية عن على بن زياد وأبى مسعود بن أشرس والهبل بن راشد وعبد الله بن عمر بن غانم الرعينى ومعاوية الصمادص وغيرهم .

وفى سن الثامنة والعشرين دعاه طموحه العلمى القوى والرغبة فى التبحر فى أمور الفقة، دعاه كل ذلك إلى أن شد الرحال إلى بلاد المشرق الاسلامى حيث كان ذلك فى عام ١٨٨هـ حيث وصل إلى مصر كعبة العلم وهناك اتصل بشيخ المالكية بها على بن أبى القاسم وأخذ عنه ونهل من منهله الفياض واختلط بالعديد من طلبة العلم فى الفسطاط ونافسهم فى المذهب المالكى حيث كانوا جميعا تلاميد لمالك ومن هنا قرر سحنون بن سعيد أن يعتمد على ذلك المذهب وحده فى كل المسائل الفقهية وصحح ما وجده وكتبه من أسدية أسد بن الفرات بل انه رغبه فى الاستزادة من طلب العلم رحل مع أستاذه على بن القاسم إلى الاراضى المقدسة لاداء فريضة الحج وكان يرافقهما فى تلك الرحلة «ابن وهب» وغيره من طلاب مالك وكان سحنون لا يغفل عن الاستفادة من أستاذه أبى القاسم، فاذا استراحوا فى مكان ما ذهب اليه ووجه اليه أسئلة ثم يأخذ أجوبتها

منه وهكذا إلى أن يحين وقت الرحيل فيعود إلى زمليه فى راحتله .

وكان أبو القاسم يقول عن تلميذه سحنون بن سعيد انه كان احد الذين يستفيدون بهذه الكتب التي لا يفضل الاستفادة منها طلاب قليلون الا تلميذا سحنون المغربى وقال عنه أيضا، ما قدم الينا أحد من افريقية مثل سحنون وعبد الله بن عمر بن غانم. ورجع سحنون إلى القيروان وقد تزود بزاد كبير من فقه مالك ومعه المدونة فى نصها الاخير، ولما خرج أسد ابن الفرات بجيوشه إلى فتح صقلية عام ٢١٢هـ شاوره أحد الطلبة فيمن يذهب اليه للسماع عنه والاخذ عنه فقال له عليك بهذا الشيخ يعنى سحنون فما أعلم أحدا بشبهه .

ولقد كان سحنون يتحلى بالسلوك الدينى القويم والاخلاق الحميدة بل انه كان يتحرى الدقة فى فتاويه ويسير فى سلوكه الاخلاقى وطرق معيشته وأساليبه اليومية على نهج أهل المدينة وقد قال عنه تلاميذه كان أستاذنا سحنون يلتزم أدب أهل المدينة حتى فى عيشته وكان دائما يقول ما أحب أن يكون عيش الرجل الا على قدر ذات يده .

وقد تولى سحنون بن سعيد القضاء عام ٢٣٤هـ واذ ذاك كانت سنه قد بلغت أربعة وسبعين عاما وبقى فيه حتى مات، بل انه كانت عازفا عن تولى أمر القضاء حتى ألح عليه الامير محمد بن الاغلب كثيرا وقد اختص بأشياء فى قضائه فكان لا يأخذ أجره على قضائه ولا يأخذ رزقا من السلطان ولا يأخذ لاعوانه من كتاب وقضاة تحت ولايته من جزية أهل الكتاب وكان فى قضائه حازما عادلا يضرب الخصوم اذا آذى بعضهم بعضا بكلام، واذا تخاصم اليه العلماء ردهم عن مجلس حكمه .

ويعد سحنون بن سعيد أكبر شخصية قضائية ظهرت فى عصر الاغالبه وتحلت بمزايا تشريعية وفقهية وفكرية وادارية كان لها تأثير على قضاة عصره وبمن أتى بعده من سائر القضاة، وقد وسع دائرة نفوذ القضاء ووضع له نظما جعلته قضاءا مرتبا محكما .

وقد كان ابن سحنون أول من نظر فى القضاء وجعل عليه أمناء وأول من أقام وظيفة الحسبة (الشرطة) وجعل من يتولى تغيير المنكر والامر بالمعروف وانه أول قاض فرق بين أهل البدع من أصحابه المغالات فى الجامع وشرد أهل الاهواء المعتزلة فيه وقد كان فى المسجد بعض الصفرية والازارقة والاباضية والمعتزلة وكانوا يناظرون فيه ويظهرون زينهم وحظر عليهم أن يكونوا أئمة للناس أو معلمين للطلبة .

وهو أول قاض جعل فى الجامع الكبير اماما دائما يصلى بالناس وكان قبل ذلك يصلى الامراء بالناس وأول من جعل الودائع عند الامناء وكانت قبل ذلك فى بيوت القضاة .

ولقد أحس الناس على عهده بالامن والطمأنينة وأحسوا بانتظام القضاء واجراء العدالة اجراء محكما وقد حصل الناس بولايته على شريعة من الحق ولم يل القضاء فى افريقية مثله ولقد كان كل من تولى القضاء قد كسب ود سحنون وكان سحنون سلطانا فى الحق ولما أكثر من رد المظالم وضايق ذلك رجال ابن الاغلب وأبى أن يقبل منهم الوكلاء على الخصومة قلقوا منه وأرادوا اخضاعه لرغبتهم فعجزوا عن ذلك ووقعت له منهم أحداث ابان فيها عن مواقفه الثابتة فى سبيل الحق والعدل .

ولما تولى أحمد بن الاغلب خلفا عن أبى العباسى محمد الاول الامارة فى افريقية، وكانت فتنة الدعوة إلى خلق القرآن منتشرة فى البلاد الاسلامية وقد أخذ بها الخليفة المأمون العباسى وشرع يدعو الناس اليها وأذاع هذا القول ، اذ ذاك أحس سحنون بن سعيد بالخطر ففكر فى وسيلة ينجو بها من القول بخلق القرآن فلم يجد أمامه الا الفرار من القيروان وترك أمر القضاء ثم لجأ إلى بعض الزهاد يختبئ عندهم وطلبه الامراء وعرفوا مكانه فوجهوا اليه شخصا يبغضه ليأتى به وجاء سحنون إلى الامير وجمع له قواده وقاضيه ابن أبى الجود المعتزلى فأجابه أن القرآن كلام غير مخلوق وسار سيرة أحمد بن حنبل فى

ذلك فقال ابن أبى الجود كفر سحنون فأقتله ودمه فى عنقى وقال غيره مثل هذا القول وحبسه الامير ولم يستطع تنفيذ الحكم عليه وتخلص سحنون من محنته كما تخلص ابن حنبل من محنته مع المأمون والمعتصم وتوفى سحنون عام ٢٤٠هـ فتأسف الناس كثيرا لموته ورثاه الفقهاء وغيرهم .

ولقد شهدت الساحة الافريقية (المغرب الادنى) تونس ظهور العديد من الفقهاء والائمة والقضاة والعلماء الذين تولوا مسئولية ترسيخ المفاهيم الاسلامية ووضع اللبنات الاولى لبناء القواعد القوية التى يقوم عليها التشريع الاسلامى والفقه ومسئولية الحكم فى دولة الاغالبة .

ولايتسع المجال هنا للحديث عن هؤلاء العلماء الذين مارسوا تلك الادوار المختلفة وانما نكتفى بالحديث عن أبى سعيد سحنون بن سعيد وأسد بن الفرات على اعتبار انهما الرعيل الأول اللذان شادا صرح البناء الفقهى والشرعى والفكرى والاسلامى فى دولة الاغالبة، وانه يرجع اليهما الفضل الاكبر فى ظهور الجيل الثانى من الرجال الذين مارسوا أدوارهم فى دولة الاغالبة .

ومن هؤلاء القاضى أحمد بن محرز (٢٠١– ٢٢٣هـ) الذى تولى القضاء فى عهد زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب، ثم أبى الوليد عبد الملك ابن قطن اللغوى وكان من أحفظ الناس وأرواهم لانساب العرب وكان شيخا لطلاب اللغة العربية وعلومها وروية فى عصره .

ثم محمد أبو سعيد سحنون بن سعيد (٢٠٢– ٢٥٦هـ) وهو أبو عبد الله محمد أبى الامام المشهور سحنون وكان من أعلام الفقه لانه ارتوى من رواة أبيه من نهل عزب فى الفقه والتشريع وصار اماما ثقه وقد ارتحل إلى المشرق من أجل طلب العلم كما كان يفعل غيره من المعاصرين وقد امتاز محمد بن سحنون بكثرة التأليف حتى لقد قيل انه

ألف مائتى كتاب وقد نبغ محمد بن سحنون فى العلوم الدينية وغيرها نبوغا مبتكرا فكان فى عهد أبيه يستقل بحلقة تدريسه يقوم فيها بالتدريس وكان يشد اليه الطلاب بسحر بيانه وقد كان حجة فى المبادلة والمناظرة. وقد وقعت بينه وبين الامير الاغلبى جفوة استغلها خصومه من المعتزلة وغيره من العراقيين وتحرشوا به لكن عندما عاد الود بينه وبين الامير الاغلبى احفق خصومه فى الحاق الاذى به. وقد توفى محمد بن سحنون عام ٢٥٦هـ ففزع الناس بوفاته وآلمهم مصابه كثيرا واحتشدوا حول قبره ورثاه كثيرون من الفقهاء والعلماء والشعراء .

كذلك يوجد إلى جانب هؤلاء محمد بن ابراهيم بن عبدوس وكان أماما فى الفقه على المذهب المالكى وكان ثقة وحجه متواضعا ورعا وألف كتابا فى الفقه أسماه «المجموعة فى فقه مالك وأصحابه» .

ثم غيره من العلماء والفقهاء أبو العباسى عبد الله بن أحمد بن طالب التميمى ويعود فى نسبه إلى أغالبة القيروان وقد تتلمذ ودرس الفقه على يد سحنون بن سعيد وكان من كبار أصحابه والملازمين له ثم ارتحل إلى مصر ودرس بها وأخذ عن «محمد بن عبد الكريم» و «يوسف بن عبد الاعلى» ثم رجع إلى القيروان وتولى القضاء مرتين فى عام ٢٥٦هـ/ ٢٦٧هـ. وكان له تلاميذ كثيرين منهم أبو العرب وابن العباد وهو أبو بكر محمد بن محمد عادلا فى قضائه حازما فى جميع أموره فقيها ثقة عالما بالمسائل الفقهية وكان نشيطا مدافعا عن مذهب الامام مالك وألف فى ذلك كتابا هو كتاب «الرد على من خالف مالك» وألف كثيرا فى الفقه وكان شجاعا لا يخاف الولاه ولا يرهب الامراء، وقد توفى فى عهد الفاطميين عام ٢٩٦هـ .

ثم غيره الكثير من الفقهاء والعلماء فى العصر الاغلبى ومنهم أيضا «أبو جعفر أحمد بن وازن الصواف» المتوفى عام ٢٩١هـ وهو من الذين تتلمذوا على يدى الفقيه

الاول لتونس أبى سعيد سحنون وسمع عنه واستفاد من تجاربه وحكمه فأخذها عنه وقد كان إلى جانب تبحره فى الامور الفقية ذواقا للادب وفى قرض الشعر حتى انه يمكن القول انه كان من الشعراء القلائل فى تلك الحقبة الزمنية فى تاريخ الأغالبة .

وكذلك «أبو يحيى عاد بن يحيى» ويعرف بالسجلماسى نسبة إلى مدينة سجلماسة فى الجنوب الغربى من المغرب وقد سمع هذا عن سحنون وغيره من فقهاء العصر والذين منهم «عبد الله بن أبى بكر السلمى» وعبد الملك بن الماجثون وقد نقل فقه ذلك الرجل إلى مدينة القيروان وكذلك سمع أيضا عن سحنون وكان شيخا صالحا وقد أخذ عنه أصحاب سحنون وتختتم تلك الفترة بالحديث عن آخر فقهاء عصر الاغالبة الذين اشتهروا فى ذلك الزمان وان كان كتاب طبقات علماء افريقية لمؤلفه «أحمد بن محمد الطلمتكى» وكذلك كتاب «معالم الايمان» وأن كنا قد ركزنا على تلاميذ سحنون الذين أخذوا عنه ومنهم أيضا «أبو زكريا يحيى بن عمر الاندليى» وقد أخذ هذا كغيره من التلاميذ السابقين عن سحنون ثم رحل إلى المشرق حيث مصر والمدينة والشام وأخذ عن علماءتلك الاقطار ثم عاد إلى القيروان وأشرقت بها منزلته عند العامة والخاصة ورحل اليه الناس ليروا المدونة والموطأ ثم سافر إلى تونس وكان متقدما فى الحفظ ولا يحيد عن فتوى أفتى بها من قبل وقد نقده البعض بالقول أن هذا يدل على ركود النظر وقلة العمق الفكرى والاقتصار على الحفظ وقد رأس القضاء فى تونس ونال حظا لدى أمرائها الا أن الاحناف العراقين قد تضايقوا منه ولما صار ابن هارون الحنفى قاضيا بها ابتعد عن الجو العام .

هذا عن الحديث عن قلة من فقهاء وعلماء المالكية الذين أثروا فى الحياة الفقهية فى عصر الاغالبة وكان لهم دور هام الا أن ذلك لايعنى أن عصرهم قد اقتصر على علماء المالكية فقط ولكن كان يوجد إلى جانبهم علماء فى المذهب الحنفى وهم أسد بن الفرات

وان كان ذلك لايمنع انه كان يأخذ بالمذهب المالكى إلى جانب الحنفى وقد نبغ منهم جماعة وهم الذين عملوا على نشر المذهب الحنفى وتقربوا إلى الامراء الاغالبة ومنهم ابن أبى الجود وسليمان بن عمران وغيرهما .

الا أن مذهب أبى حنيفة لم يجد قبولا لدى المغاربة حيث ابتعدوا عنه نظرا لقلة اعتماده على الحديث واعتماده على الرأى والاجتهاد متأثرا بالمدارس الفارسية فى التفكير الحر وبدأ المذهب الحنفى ينزوى جانبا نظرا لسيطرة المالكية على مقاليد الامراء على الرغم من أن الدولة العباسية بالمشرق كانت تعرف أصحاب المذهب الحنفى والذين كان الامراء الاغالبة يستمدون النفوذ منهم وذلك بالسير على سيرتهم وتقريب زعماء المذهب الحنفى اليهم لكن هؤلاء الفقهاء ورغم تقرب الامراء لهم لم يكونوا فى كثرة المالكية ولايلقوا نفوذا كنفوذهم الذى اكتسبوه من مؤازرة جمهور الشعب المغربى الذى كان يؤثر المذهب المالكى على غيره وبفضل مذهب مالك وتمسكه بالكتاب والسنة، اشتد كره أهل افريقية لغيره من المذاهب الاخرى واشتد سلطان الفقهاء المالكية المغاربة فى الحياة الثقافية والدينية بحيث اننا نجد خصومات ومنافسات بين الفقهاء المالكين والحنفيين لدرجة أن المالكية أفتوا بتكفير الحنفية وبأنه لا يصلى عليهم ولاتشهد جنائزهم ولا يصلى خلفهم ولا يروى عنهم حديث انما يقاطعون سلبيا وايجابيا وأصبح من تقاليد المالكية الابتعاد عن مصاحبة الامراء وعدم تولى القضاء والبعد عن مناصب الافتاء .

وتمكنت تقاليد المالكية فى نفوس المغاربة وفى مدارس القيروان وافريقية ووقفت للمذاهب الاخرى بالمرصاد حتى لقد وصل إلى التنكيل بهم أحيانا فى العصر الاغلبى .

ولما انتشرت فى مدارس افريقية محنة خلق القرآن وآراء المعتزلة كان المالكيون أشد الناس حربا عليهم وأكثرهم عنفا فى مقاومتهم وتمسكوا بالكتاب والسنة حتى هزموا المعتزلة ولم يبق لهم بالقيروان رأى ولا أتباع ولم يجد الامراء مفرا من النزول على رأى

المالكية .

وهكذا انتصر المذهب المالكى انتصارا عظيما فى عصر الاغالبة وكانت مقاطعة المالكية للامراء وعدم السير فى ركابهم وأخذهم باليأس والشدة أمر محببا إلى المغاربة الذين عرفوا فى طوال تاريخهم بالنزعة الاستقلالية وميلهم إلى الخروج على كل سلطان أجنبى يفرض عليهم فوجدت دعوة المالكية فى نفوسهم صدى محببا يرتاحون اليه وأصبح هؤلاء الفقهاء المالكيون فى نظر المغاربة الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام ويستشهدون فى سبيل العقيدة، ومن هنا فقد أمعن المغاربة فى تمسكهم والمحافظة على مذهبهم المحبب فمن كان مالكيا قبلوه وأحبوه ومالوا اليه ومن كان غير ذلك حاربوه دون رحمة وبهذا غلبت على المغاربة النزعة المالكية الدينية بوجه خاص فجعلتهم لا يعرفون من الدراسات الاسلامية الا هذه الناحية يقبلون عليها ويتعصبون لها .

أما بعد أن استولى الشيعة الفاطميون على مقاليد الامور فى المغرب منذ عام ٢٩٦هـ فان الوضع قد تغير قليلا فعاد أولئك الفقهاء الذين كان بينهم تنافس مذهبى أخوة متآزرين وحدت بينهم الشدة وأزالت من قلوبهم البغضاء واضطهادات دعاة الشيعة وذلك لان الفاطميين الشيعة عندما أقاموا دولتهم فى افريقية وجدوا فى بيئة افريقية ثقافة اسلامية موطدة وثقافة دينية ثابتة الجذور ورأوا شعب افريقية كله متكتلا خلف فقهائهم المالكين يهتدون يهديهم ويأتمرون يأمرهم فرأوا انه لا نجاح لدولتهم ولابقاء لها الا بمحاولة التغلب على هذه الوطنية المغربية الدينية فلجأوا إلى مثل هذا فى القيروان وتوسلوا بالمناظرة وعقدوا المجالس وجلبوا أئمة المالكية وأخذوا يجادلونهم ويناقشونهم فلم يعتنقوا مذهبهم وأعدقوا المال والجاه فلم ينفع المال أو الجاه فانقلب الفاطميون إلى طغاة مستبدين يستعينون بالعنف والشدة ولم تجد هذه الوسائل وسيلة لوقف انتشار المذهب المالكى وصمود رجاله فى وجه الفاطميين كرجل واحد واعتبروا الفاطميين زنادقة ونادوا بقتلهم

حيث وجدوا وأعلنوا عليهم المقاطعة السلبية لا يصلى فى مساجدهم ولا تدفع لهم الاموال ولا يتعاون معهم .

وكان هذا سببا من أسباب محاولتهم فتح ميدان جديد بالاتجاه صوب مصر اذ تضافرت ضدهم جميع القوى المتحكمة فى مصير المغرب .

وهكذا كان عصر الاغالبة (١٨٤- ٢٩٦هـ) هو العصر الذى وضحت فيه تعاليم المذهب المالكى وتأثرت بتعاليمه الامة المغربية التى وجدت فيه الملاذ الذى يحميها من كل التيارات الدينية الاخرى. وهكذا أدى الاغالبة دورهم فى الحفاظ على مذهب الجماعة والسنة ومحاربة غيره من المذاهب الاخرى .

الاغالبة والدور الاقتصادى

لقد شهد عصر الاغالبة تقدما اقتصاديا ملحوظا اذ ازدهرت الحياة الاقتصادية فى افريقية ازدهارا كبيرا لم تشهده منذ القرن الثالث الميلادى، فقد وفر لها الاغالبة الامن الذى افتقدته وقتا طويلا وفى ظل هذا الامن أقبل السكان على أعمالهم فزادت المحاصيل الزراعية وعمرت الارض بالزراعات المختلفة وكذلك زرعت أرض لم تكن عامرة وكانت تبدو شبه صحراوية فقد عمرت المنطقة الممتدة بين مدينة قمودة والساحل بأشجار الزيتون والنخيل وانتظمت المنطقة الساحلية بالقرى والبساتين وبخاصة الكروم التى كان يصنع منها ومن أعنابها النبيذ، كما كانت المنطقة الواقعة إلى الشمال من قمودة مركز انتاج الحبوب والقمح .

كما تقدمت الصناعة وبخاصة صناعة الآلات الحديدية اللازمة للسفن والسيوف والدروع والسروج واللجم وصناعة التحف المصنوعة من الذهب والفضة وصناعة الزجاج وكذلك صناعة النسيج وإلى سوسة نسبت الثياب السوسية الرفيعة ذات البياض الناصع،

كما ازدهرت التجارة وبخاصة فى القيروان حاضرة الاغالبة ازدهارا عظيما فكثرت فى يد أهلها الاموال بسبب التجارة .

وكان الناس يزرعون كثيرا من الزيتون والقمح والفول والشعير وكانت المزارع متسعة آمنة ونسمع كثيرا عن المحاصيل وأسعارها فى القيروان وتونس وقد اشتهرت افريقية فى ذلك العصر بالزيتون والفواكه ونخرج من ذلك بأن الحالة العامة كانت رخاء ووفرة، كذلك فان مصانع النسيج كانت نشيطة وزاهرة فى مدن افريقية كلها، بل أن افريقية رغم كل شئ كانت تسير فى طريق تقدم فكرى ومادى محسوس .

ومما يدل على تقدم الحالة الاقتصادية وتطورها أن خراج افريقية قبل عصر الاغالبة كان مائة وأربعين ألف دينار وهو مبلغ زهيد جدا ولكن ابراهيم بن الاغلب اجتهد فى استخراج مال كثير من أفريقية حتى بلغ ايراده فيما يقال نحو مليونين من الدنانير فى السنة وهذا الفارق الكبير بين ماكان الولاه يرسلونه من افريقية إلى الخلافة فى بغداد يعطينا فكرة واضحة عن التقدم والازدهار الاقتصادى التى بدأ يدب فى جسم الدولة فى عصر الاغالبة ولقد عمل الاغالبة دفعا للدور الاقتصادى وتطوره وازدهاره على العنايه ببناء صهاريج المياه، وصيانتها لاستخدامها فى الزراعة والسقى وكذلك انشاء المواجل وهى أحواض مياه واسعة وعميقة تشبه الفسقيات ويتجمع بها ماء المطر .

كذلك شهدت كل مدينة من مدن دولة الاغالبة قيام الاسواق واتساع الاحياء وازدياد حركة النشاط التجارى وتطور المراكز التجارية والتى كانت منها أسواق كبيرة تصدر منها القوافل إلى بلاد السودان جنوبا عبر الطرق الصحراوية .

الا أن جل عناية الاغالبة كان بالناحية الزراعية فقد أولوها الاهتمام الزائد لذا أقاموا كثيرا من الخزانات والقناطر وحفروا الترع فنعمت أفريقية بكثير من الرفاهية وكانت جزية الارض (الزكاة والعشور) أهم مصادر ايراداتهم وكانوا يحرصون على جمعها نقدا، كما

وضعوا المكوس على التجارة فى الاسواق .

ولقد كان من الاسباب الفوية لهذا التطور الاقتصادى أن الاغالبة نجحوا فى اقامة حكومة مستقرة يسير نظامها الادارى على نحو ما سار نظام بغداد وكان لهم الوزير إلى جانب الامير وأن كانت سلطته اسمية كما كان هناك ديوان الجيش الذى يرأسه القائد العام وديوان البريد واليه أوكلت مهمة جمع الاخبار من الاقاليم لرفعها إلى الامير فى سرعة واحكام. وذخرت تلك الدولتان بالكثير من الموظفين من ذوى العلم الواسع وسار الاغالبة على النظام غير المركزى فسمحوا لولاتهم بنصيب كبير من حرية التصرف وأن حرصوا دائما على تفضيل العرب لشغل المناصب الرئيسية فى البلاد وليس ذلك نوعا من التمييز لكن ذلك لضمان نوع الولاء والثقة والقدرة على ادراك عواقب الامور .

الاغالبة والعمارة

لقد أبدى الاغالبة بدءا من مؤسس الاسرة ابراهيم بن الاغلب عام ١٨٤هـ إلى زيادة الله الثالث ٢٩٦هـ اهتماما زائدا بالابنية والمنشآت المعمارية فقد كان لهم دور كبير فى تطوير جامع القيروان وانشاء الاسواق فى القيروان وتونس وتنظيمها وكذلك تجديد مسجدى القيروان وتونس الجامعين وهما مسجد «عقبة بن نافع» ومسجد الزيتونة واعطائهما صورتهما الباقية إلى اليوم عملا من أعمال الاغالبة المعمارية الخالدة. وقد تعاقبت على مسجد القيروان أعمال التجديد منذ بناه «عقبة بن نافع الفهرى» بناءا متواضعا ثم قام بتجديده «حسان بن النعمان» وأكمله «حنظلة بن صفوان» ولكن الذى أعاد بناءه كله ورفع قبابه وجدد مئذنته وأعطاه صورته الحالية هو «زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب» ثالث أمراء بنى الاغلب فقد أنفق عليه مالا كثيرا طوال سنوات حكمه وإلى زيادة الله تنسب أعمال ضخمة فى جامع تونس الذى كان «عبد الله بن الحبحاب» أول من بناه عام ١٤٤هـ/ ٧٣٢م. ولكن ذلك المسجد لم يكتمل الا على يد «أبى ابراهيم

بن أحمد» سادس أمراء بنى الاغلب فهو الذى أعطاه صورته البديعة وأمر ببناء قبابه المغلفة ووضع فيه أعمدة الرخام وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة وهو الذى أمر ببناء القبة الكبيرة فى جامع القيروان وهى من أجمل القباب فى تاريخ المساجد .

وبنى الاغالبة الاربطة وكان كل رباط أشبه بمدينة صغيرة تحوطه الاسوار العالية التى تقوم بمهمة الدفاع ليقوم فى وسط الرباط المسجد بمنارته العالية التى تقوم بمهمة الدفاع ليقوم فى وسط الرباط المسجد بمنارته العالية وهذا يدل على اهتمام الاغالبة بالعمارة فى تونس اهتماما كبيرا وأهم آثارهم الباقية مسجد القيروان العظيم الذى اختطه عقبة ابن نافع عام ٥٠هـ وزاد فيه الاغالبة زيادة عظيمة وكذلك جامع الزيتونة بتونس وهو الجامع الذى يقوم بالمهمة العلمية التى يؤديها الازهر فى مصر فهو جامعة علمية قديمة حفظت التراث الاسلامى ومازال حتى الآن يؤدى مهمته السامية وقد رجعت عظمة هذا المسجد لعصر الاغالبة. كذلك أنشأ الاغالبة مسجد سوسة وسورها ورباطها المشهور وكذلك هم الذين أنشأوا مدينة العباسية وقام أبو العباسى محمد بن الاغلب ببناء مدينة قرب تاهرت عاصمة بنى رستم سماها العباسية عام ٢٣٩هـ لتقف فى وجه الرستميين وتجذب الانظار عنهم وتحتل مكانة عاصمتهم تاهرت لذا لم يدخر أبو العباسى محمد بن الاغلب وسعا فى تزيين أسواقها وتنسيقها أجمل تنسيق وهذا ما يفسر أهمية السبب الذى أقيمت بادئ ذى بدء حربا على سياسة ابن عبد الوهاب الذى سالم جيرانه الاغالبة بادئ ذى بدء حربا على سياسة والده عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، الا أنه رأى أن اقامة العباسية تهديد مباشر لسلامة الدولة الرستمية وأمنها فما كان منه الا أن سكت حتى أتم أبو العباسى محمد بن الاغلب بناءها ونظم أسواقها، فهجم عليها أفلح وأجلى عنها سكانها ثم أضرم بها النيران وأحرقها عن آخرها ولم يكن فى استطاعة ابن الاغلب أن يفعل شيئا للرد على أفلح بن عبد الوهاب ومن ثم آثر السلامة ولاذ بالصمت

وقد كان هدمها فى عام ٢٣٩هـ وقيل ٢٣٧هـ .

وكذلك أنشأ مدينة رقادة واهتموا ببناء المراجل وهى خزانات المياه يتجمع فيها المطر للشرب عند الحاجة وقد أبدوا اهتماما كبيرا بالخزانات والقناطر وبالجملة فقد كان عهد الاغالبة عهد عمران ورخاء فى تونس .

ولقد تطورت الرباطات فلم تلبث أن خرجت عن وظيفتها لتصبح مدارس يقصدها الطلاب من أجل دراسة الفقه والحديث. وقد عمل الاغالبة على التودد إلى مصر فعملوا على حفر سلسلة من الآبار حتى أصبح الطريق الساحلى الشمالى مأمونا للتجار .

وكان الذى بنى جامع سوسة هو أبو العباس محمد بن الاغلب خامس أمراء الاغلبة ويعتبر هذا المسجد من أجمل الآثار المعمارية الاسلامية فى افريقية أما رباط سوسة المسمى بقصر الرباط فهو من أجمل قصور العبادة والرباط فى افريقية وكان من انشاء زيادة الله بن الاغلب ويسمى قصر الرباط .

وكانت عناية بنى الاغلب بالمنشآت العسكرية والمدينة لا تقل عن عنايتهم بالمنشآت الدينية فقد أنشأوا الكثير من الاسوار والابراج للمدن وخاصة ما وقع على الساحل منها. ويذكر أن عصر الاغالبة قد شهد بناء دارين عظيمين للصناعة أحدهما فى تونس والآخر فى سوسة وكان لهم دور هام فى النشاط البحرى الاسلامى فى البحر المتوسط .

ولقد كان من نماذج المنشآت العسكرية فى عصر الاغالبة الرباطات وهى شبيهة بالقصور ولكنها كانت مخصصة للمجاهدين والمرابطين ما بين أفراد يدفعهم التقى والورع إلى التطوع للجهاد وحاميات رسمية ولكن الغالب أن الرباط كان للافراد أما الجند فكانت تبنى لهم المعسكرات .

وكان رباط سوسة من أهم الرباطات فى عصر الاغالبة فهو شبيه برباط المتستر وهو

أقدم منه وأجمل من ناحية الهندسة وقد تضخم هذا الرباط حتى أصبح أشبه بمدينة فيها المساكن الكثيرة وفى الرباط طابقان يخصص الدور الثانى للحراسة والاول للعبادة وفى العادة يكون للرباط شيخ من أهل الصلاح هو الذى يتولى تنظيم وتيسير أمور العبادة والحراسة .

ولقد كان يحيط بالرباط عادة سور مرتفع تقوم على أركانه وعلى مسافة منه أبراج يقف فيها الحراس وتوقد بها النيران وقت الخطر وقد بقى لنا من رباطات الاغالبة رباط سوسة السابق الاشارة اليه وهو من بناء زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب ثالث أمراء الاغلبة وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر .

وقد بنى ابراهيم بن الاغلب قصره القديم على نحو ستة كليو مترات جنوبى القيروان لتكون معسكرا لجنده ومقاما له ومعقلا لاسرته وكانت المدينة تتكون من قصور وحدائق ومعسكرات وأماكن للعبادة .

وهكذا نرى أن الاغالبة قد تركوا بصماتهم فى كل مجال من مجالات الحياة وضربوا بسهم وافر فى المجال الفكرى والثقافى والفقهى وكان لهم الدور الاكبر فى رسوخ مذهب الامام مالك بل انهم شجعوا الحركة الفقهية وبذلوا أقصى ما وسعهم البذل فى سبيل القضاء على المذاهب الاخرى التى كانت تسود الساحة المغربية كالاباضية والازارقة والصفرية والمعتزله وغيرها من الافكار والمذاهب الاخرى .

وهكذا كانت دولة الاغالبة ومضة مضيئة فى تاريخ المغرب ساهمت كما ساهمت الدول الاخرى المعاصرة لها كالادارسة والرستميين فى اضفاء الصبغة العربية الاسلامية على تلك الاقطار .

ونكتفى بهذا القدر عن الحديث عن الاغالبة ونترك فصل العلاقات الخارجية مع الدول المعاصرة إلى الباب الاخير فى تلك الدراسة عند الحديث عن علاقات الاغلبة مع

الادارسة وبنى رستم ومع غيرها من الدول الاسلامية الاخرى (راجع محمود اسماعيل عبد الرازق: الاغالبة، سياستهم الخارجية) القاهرة، ١٩٧٢ .

وهذه لمحة مختصرة عن دولة الاغالبة أردنا بها القاء بعض الجوانب على هذه الدولة عملا على تقديم كل ما يهم القارئ عن تاريخ المغرب العربى من خلال هذه الموسوعة السداسية الاجزاء التى تشكل مسيرة عشرة قرون متكاملة فى تاريخ المغرب ثم ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن دولة الادارسة لتكون خاتمة المطاف فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة انطلاقا بعدها إلى الاجزاء الاخرى .

الباب الثامن

دولة الادارسة

(١٧٢– ٣٠٥هـ– ٧٨٨– ٩١٧م)

لقد حاول المؤرخون الغربيون دراسة تاريخ المغرب الاسلامى العربى دراسة طابعها التعصب ومحاولةمحو عروبة المغرب الاسلامى وفصله عن بقية جسم الامة العربية الاسلامية ومن هنا فان دولة الادارسة التى كانت احدى الولايات العربية الاسلامية التى ظهرت فى تاريخ المغرب العربى لتنم عن الاصالة المغربية العربية الاسلامية ودور المغرب الحضارى المؤثر فى التاريخ الاسلامى .

ولقد كانت دولة الادارسة التى نشأت على أرض المغرب الاقصى عام ١٧٢هـ/ ٧٨٨م والتى لعبت دورا كبيرا فى حياة المنطقة وجعلت له شخصية مميزة وأدمجت سكانه فى ظل مجتمع متجانس ذلك المجتمع المغربى الذى شارك بقية المجتمعات العربية الاسلامية فى وضع أسس الخضارة الاسلامية فى ذلك الجزء الغربى من الامة العربية .

والمغرب الاقصى من المناطق ذات الوحدة الجغرافية التى يمكن أن تقوم فيها وحدات سياسية متماسكة ذلك لانه ينقسم إلى ثلاثة أقاليم هى اقليم الساحل الشمالى المعروف تاريخيا باقليم طنجة ويشمل الشريط الساحلى الشمالى ثم منطقة الريف الجبلية وهى ليست فرعا من جبال الاطلس وانما هى فرع من الجبال الايبيرية ويتبعها السهل الواقع جنوبى جبال الريف ويعرف باقليم المحيط أو اقليم ازعان. والمنطقة الثانية حوض نهر سيو ويشمل الجزء الشمالى من ساحل المغرب الاقصى المطل على المحيط الاطلسى وهو سهل فسيح يمتد جنوبا حتى يصل إلى حوض وادى بوزجزخ أو أبو الرقراق. ويشمل جزءا كبيرا من السفوح الغربية لجبال الاطلس. وهنا نجد المهد الحقيقى لتاريخ المغرب العربى

الاسلامى وتلك هى المنطقة الثانية .

وعلى هذا فقد كان المغرب الاقصى الذى هو جزء من المغرب العربى من حيث موقعه وطبيعته الجغرافية وسكانه مشجعا للتفكير فى قيام ولايه أو ولايات اسلامية بعيدا عن مقر الخلافة الاسلامية، ولقد قامت الحياة السياسية فى المغرب الاقصى أولا فى الشمال حتى منطقة طنجة حيث نجد مركز الوالى العربى الذى كان يحكم هذه الناحية ويحاول أن ينشر سلطانه فيها ولكن قبائل برغواطة وغمارة التى كانت تسكن هذه المنطقة الجبلية ظلت متمسكة بمذاهب دينية منحرفة عن الاسلام عرفت بزندقة برغواطة وكانت هذه الاخيرة ومن يتبعها تهدد كل القبائل المغربيه الأخرى مما حدا بهذه القبائل كلها البحث عن زعيم يجمع شملها ويوجد كلمتها ويدفع بها للعمل سويا لتكوين دولة تقوم بمحاربة برغواطة ومذاهبها وتساعد هذه القبائل على انشاء كيان سياسى ليؤمن مصالحها ويمكن لها من الوصول إلى الرياسة .

ومن هنا فقد كانت الظروف ملائمة ومهيأة لتولى زعامة سياسية دينية فى شمال المغرب الاقصى، زعامة تمكن القبائل البرنسية هناك من الخلاص من سلطان برغواطة أولا ثم تمكن لها الاخرى من انشاء دولة وكيان سياسى أى دخول ميدان التاريخ .

وعلى هذا فقد كانت كل هذه العوامل السابق الاشارة اليها مشجعا للامام ادريس الاول على أن يلجأ إلى المغرب الاقصى ويؤسس فيه دولته حيث كان موقعه متطرفا بعيدا عن السلطة المركزية فى بغداد وقد شجع هذا الموقع الامام ادريس بن عبد الله على الالتجاء إلى هذا المكان، ذلك لان جبال الاطلس تقوم حاجزا بين المغربين الاوسط والاقصى ولكن هناك ممرا واسعا بين الجزء الشمالى من جبال الاطلس وجزئها الجنوبى وهذا الممر يعرف بممر تازا وهو من المواقع الحاسمة بالنسبة لتاريخ المغربين الاوسط والاقصى ومن يسيطر على ممر تازا يسيطر على الطريق الرئيسى المؤدى من الجزائر إلى المغرب الاقصى .

وقد سبق الامام ادريس مؤسس دولة الادارسة الافادة من هذا الموقع المتطرف دعاة الخوارج الفارين من بطش الخلافة الاموية والعباسية على أن يلجأوا إلى تلك الاماكن القاصية ليبثوا دعوتهم فيها ويحققوا نجاحا لم يتيسر لهم بالقرب من مقر الخلافة .

ولقد ارتبط الوضع السياسى فى المغرب الاقصى وما دار فيه من أحداث منذ الفتح الاسلامى حتى قيام دولة الادارسة ثم ارتباطه بمنطقة المغرب عامة فهو جزء من المنطقة التى أطلق عليها العرب لفظ مغرب عند بدء الفتح. وقد قام المغرب الاقصى بدور فعال فى مجريات هذه الاحداث وظهرت شخصيته واضحة المعالم وكانت الظروف السياسية التى مر بها عملا قويا فى قيام دولة الادارسة فى هذه البقعة من أرض المغرب .

ولقد كان المغرب الاقصى اقليما عربيا اسلاميا يتفاعل مع بقية الاقاليم الاسلامية ويتأثر بما يحدث فى عاصمة الخلافة العباسية بل أن الفتن المتكررة التى حدثت من الخارجين على الخلافة فى المشرق كانت من الاسباب المشجعة على ايقاظ روح الثورة والتمرد عند البربر، بل انه من التوافق أن تحدث ثورة علوية هامشية فى الكوفة بقيادة «يزيد بن على بن الحسين» وابنه «يحيى» فى الوقت الذى تقوم فيه ثورة عارمة بالمغرب الاقصى بقيادة «مسيرة» .

وبالرغم من أن دوافع قيام الثورتين مختلف عن بعضها الآخر الا انه يجمعها العداء المشترك لحكم بنى أمية وتعسفهم ومما يؤكد ذلك أن الذين قاموا بالثورة فى المغرب الاقصى حاولوا اصلاح الاوضاع بالطرق السلمية قبل أن يعلنوا ثورتهم المسلحة وقد انفصل المغرب الاقصى عن الخلافة الاموية بقيام هذه الثورة التى أشعلها «مسيرة» وبذلك وضحت شخصية المغرب الاقصى الاسلامية حيث قام البربر المسلمون بثورتهم على الولاه، كما أن ظهور شخصية المغرب واستقلاله سبق استقلال اقليمى المغربين الآخرين وهما المغرب الادنى والاوسط وذلك لبعده عن مقر الخلافة .

على أن الاستقلال السياسى للمغرب الاقصى وما صحبه من قيام امارات مستقلة فى أحد أجزائة قد دخل مرحلة جديدة بعد عام ١٢٣هـ/ ٧٤١م فبعد أن كان المغرب الاقصى موطنا للثورة أصبح المغرب الاقصى مستقلا ومصدر عون لغيره من الثوار البربر مشاركا لبقية سكان المغرب فى الثورة على الخلافة .

وبذلك أصبحت الخلافة تحرص أتم الحرص على المغرب الادنى بعد أن فقدت سيطرتها تماما على المغرب الاقصى ثم بعد ذلك فقدت سيطرتها على المغرب الاوسط أثر قيام دولة مستقلة فيه هى الدولة الرستمية فى عام ١٤٤هـ/٧٦١م (سبق الاشارة إلى تلك الدولة تفصيلا فى الجزء الثانى من هذا البحث) .

غير أن هذه الانتصارات التى نالتها الخلافة العباسية فى المغرب الادنى لم تنل من الاستقلال السياسى الذى تمتع به المغرب الاقصى منذ أواخر الدولة الاموية وفضلا عن ذلك لم يكتف المغرب الاقصى منذ أواخر الدولة الاموية باستقلاله بل انه تابع سياسة مساندة الحركات الانفصالية الاخرى التى انتشرت فى المغرب عامة وذلك بعد أن اعتقق كثير من سكان المغرب الاقصى مذهب الصفرية .

وهكذا يبدو أن الخلافه العباسية قد صرفت النظر نهائيا عن المغرب الاوسط والاقصى وأن حرصها كان منصرفا إلى محاولة الاحتفاظ بالمغرب الادنى (افريقيه- دولة الاغالبة) لمحاولة احتوائه تحت سيادة الخلافة العباسية، وهو ذلك الحرص الذى استغرق سنوات طويلة تخللتها حروب متوالية وبذلك لم يتطلع الولاه إلى المغرب الاقصى وزاد فى عدم تطلع الولاه العباسيين إلى المغرب الاقصى ظهور دويلات مستقلة جنوبية وشرقية ففى الجنوب نجح الصفرية فى دولة سجلماسة بعد أن أسسوا مدينتهم التى عرفت بهذا الاسم «سجلماسة»، أما فى شرق المغرب الاقصى فقد قامت الدولة الرستمية وذلك بعد أن أسس عبد الرحمن بن رستم مدينة تاهرت عام ١٤٤هـ/ ٧٦٢م. وبذلك يكون أباضية المغرب

الاوسط دولتهم الرستمية مما شكل عائقا صعبا فى وجه ولاة المغرب الادنى فى أن يتطلعوا إلى استرداد المغرب الاقصى، بل انه إلى جانب قيام دولة سجلماسة الصفرية ودولة الرستميين الاباضية (كلتاهما من الخوارج) فقد نشأت تجمعات للصفرية فى المنطقة المحيطة بتلمسان، ومن هنا فانه يمكن القول بناء على هذا الوضع السياسى الذى غير خريطة المغرب السياسية أن تلك المراكز التى كانت تضم دولة بنى رستم وامارة تلمسان ومنطقة الجنوب فى سجلماسة كانت مراكز مقاومة قوية بل عنيفة ضد أيه محاولة تقوم بها الخلافة العباسية لاسترداد المغرب الاقصى ومن هنا فان المغرب الاقصى أو أى نظام سياسى يظهر فيه بصورة قوية ومؤثرة قد ضمن استقلاله عن الخلافة العباسية وانه يستطيع أن يعيش بعيدا عن الجيوش العباسية. ومن تم فان هذه الظروف السياسية مجتمعة أكسبت المغرب الاقصى مهد دولة الادارسة حرية سياسية هذه الحرية السياسية اتخذت شكل الحكم القبلى حتى مجئ الامام ادريس الاكبر إلى هذه المنطقة وقد ظهر الحكم القبلى فى صورة سيطرة القبائل القوية على البقعة التى تعيش فيها وعلى من جاورها من القبائل التى كانت سندا وقوة وبذلك أصبح المغرب الاقصى يتمتع بشخصيته المميزة اذ انه كان يخضع لحكم أبنائه الذين مارسوا نفوذهم على مدينة «وليلى» وما جاورها من القبائل بجانب سيطرة قبيلة «أوربة» على هذه المنطقة كانت هناك سيطرة أخرى فى منطقة قبيلة المصامدة فى تأسيس اماره برغواطة التى استقلت بهذه المناطق وبهذا عاش المغرب الاقصى منذ ثورة «مسيرة الفقير» بيئة صحية وصالحة لقيام الدولة العلوية الجديدة ومشجعا للامام ادريس بن عبد الله على الالتجاء إلى تلك الديار وتأسيس دولة الادارسة .

ولعل من أهم رواسب ثورات الخوارج قيام امارة المولى ادريس العلوى الذى احترمه حتى خصومه من الاغالبة التونسيين وبنى رستم والأمويين فى الاندلس والخلافة العباسية فى بغداد لقرابته من الرسول ﷺ ودوره فى استقرار المغرب الاقصى ولقد كان من عادة

أمراء البربر الاستناد إلى قبيلة قوية كما نجد فى كسيلة مع قبيلة أوربة والكاهنة مع جراوة والفاطميين مع كتامة والمرابطين مع صنهاجة والموحدين مع مصمودة وكومية، فان المولى ادريس لم تحتضنه قبيلة واحدة بمفردها بل احتضنته مجموعة من القبائل وقد ذكرها ابن خلدون وهى قبيلة «زراغة، وزناتة»، وسدراتة، وقيامة، ونفذه، ومكناسة وعمارة وجميع القبائل الاخرى التى كانت تستوطن المغرب مثل أوربة ومطفرة التى ساندت مسيرة من قبل. ومغيلة الجزائريه هذا علاوة على بنى يقرن ومغراوة أى مجموع الكتلة الزناتية من فاس إلى نهر الشليف الجزائرى ولم يكن مع المولى ادريس سوى بضع مئات من العرب اخترق بهم تامسنة إلى تادلة إلى الاطلس الكبير بينما اتجه الاغالبة التى تنشر الاسلام وحضارته فى صقلية وهذه هى المرة الاولى التى تطأ فيها أقدام ادريس تراب هذه الناحية من جنوب المغرب ومن هنا فان تاريخ المغرب الاقصى يبدأ بفترة قيام دولة الادارسة والتى انفتح المجال بعدها واسعا لقيام دولة اسلامية أخرى. وقد قامت دولة الادارسة تحت شعار العروبة والاسلام ولم يكن فى قيامها أى مظهر مقصود من وجود روح انفصالية عن الدولة الاسلامية انما هو أحقية العلويين بالخلافة من أبناء عمومتهم بنى العباسى وكان ذلك دافع الامام ادريس بل أن ادريس لم يكن يقصد العمل على ظهور مبدأ الروح الانفصالية بين العرب الذين هو من أشرافهم وأهاليهم وبين البربر الذين قامت على أكتافهم دولته وقبل الدخول فى تفاصيل دراسة أسرة الادارسة ودولتهم فاننا نريد أن نوضح أن الدولة الادريسية دولة علوية هاشمية طالبية وانه من الخطأ القول بأنها كانت دولة شيعية لان مؤسسها من آل البيت النبوى والحقيقة أن الادارسة رغم علويتهم وطالبيتهم بل وهاشميتهم لم يكونوا أبدا شعيين، بل لم يكن أحد من رجال دولة الادارسة أو أتباعهم شيعيا فقد كانوا على مذهب السنة والجماعة لا يعرفون شيئا عن الآراء الشيعية التى شاعت على أيام الفاطميين ولم يعرفوا فى بلادهم المغربية غير الفقه السنى المالكى ومن المعروف تاريخيا واسلاميا بل فقهيا أن آل البيت جميعا بطوائفهم لم يكونوا شيعة لاحد،

بل أن الشيعة كانوا من أنصارهم وعلى ذلك فان الوضع العلمى الصحيح والتاريخى الذى لا جدال فيه أن دولة الادارسة التى قامت على يد مؤسسها الاول «ادريس بن عبد الله الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم» كانت الدولة علوية طالبية هاشمية .

وهى فى تلك الدراسة كانت تجربة جديدة دامت أكثر من قرنين فى تاريخ المغرب العربى الاسلامى بل هى سلسلة من سلسلة الامارات الاسلامية المستقلة فى المغرب .

وكما سبق القول فانه كما لجأت المعارضة التى قام بها الخواج إلى المغرب كذلك فقد لجأت إلى تلك الديار المعارضة العلوية الهاشمية التى عارضت الدولة الاموية والعباسية بعد أن فرت من وجه الخلافة العباسية .

ولقد كان الخوارج أسبق من العلويين فى المغرب وقد استطاعوا أن يقنعوا البربر النزاعين إلى الاستقلال بعدم شرعية الحكومات والخلافتين الاموية والعباسية اذ انهما ورثتا سلطانا لا يقوم على أساس من الحق ولا على أساس من المبادئ الاسلامية وانهما مغتصبان للحكم ومن هنا تجب مقاومتهما .

ولما وصل دعاة الشيعة إلى المغرب دعوا إلى نفس الفكرة وهى عدم شرعية سلطان الخلافة العباسية والاموية من قبلها وزادوا فى ذلك بأن قالوا بأن الحق الشرعى للحكم هو من نصيب آل البيت فى أبناء النبى من أبنته فاطمة الزهراء وهم الذين ثاروا فى وجه الظلم وقتلوا وقاتلوا فى سبيل احقاق الحق ورفع الظلم والمظالم عن رعية الاسلام، ومن هنا اكتسبت الدعوة إلى آل البيت عطف البربر الذين كانوا بطبيعتهم يوقرون ويحترمون ويبجلون رجال الدين معظمين لاولياء الله الصالحين والذين يدعون لهم الشيعة هم أئمة الدين والعلم والتقوى والاصلاح وورثوا علم النبوة علاوة على أنها من نبع الشجرة الطاهرة المباركة .

فكان أرض المغرب قد حرثها الخوارج للشيعة ثم للعلويين، وحين قدم دعاة العلويين والشيعة كان سلطان الخوارج فى المغرب قد بدأ يضعف فأقتنعوا بغرسهم ولم يتعرضوا لمعارضتهم .

والمعارضة العلوية للعباسيين نشأت مبكرة منذ قيام الدولة العباسية ولقد كان التحالف بين العلويين والعباسيين يقويه الشعور المشترك بالكره لعدو متحكم هو الامويين فلما قضى على هذا العدو الذى سلب الحكم والسلطة من آل البيت والهاشميين، لم تكن هناك ضرورة لاستمرار هذا التحالف وبخاصة أن العلويين كانوا يعتقدون أن العباسيين يعاونونهم لتحقيق أهدافهم وتولى الخلافة .

وظنوا أن الدعوة للرضا من آل البيت انما تعنيهم هم باعتبارهم المطالبين بالخلافة ولانهم هم الذين ثاروا فى وجه بنى أمية منذ خلافة «يزيد بن معاوية بن أبى سفيان»، وتحملوا عبء الجهاد وأصابتهم الكوارث والنكبات بل كل الكوارث من جراء انتقام بنى أمية منهم، كما انهم كانوا يرون أيضا أن الشيعة انما تلتف حولهم هم لكن العباسيين حيث انتصرت الثورة واستولوا على الخلافة تنكروا للعلويين، بل انهم ادعوا انهم أصحاب الحق الشرعى فيها وانها حقهم فى ميراث النبى ﷺ بل انهم أقوى فى طلب هذا الحق من العلويين واعتقد العلويون أن العباسيين خدعوهم واغتصبوا الخلافة منهم .

ودولة الادارسة من الدول طويلة العمر فى المغرب والعالم الاسلامى فقد قامت فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ولكنها لم تنته نهائيا الا فى أواخر القرن الرابع الهجرى وقد عمرت أكثر من قرنين أى ضعف ما عمرته دولة الاغالبة وبنى رستم وانها قاومت وثبتت أمام زحف الفاطميين بل تصدت لجيوشها وخاضت طوال تاريخها حرب بقاء أو موت مع الدولة الاموية الاندلسية حينا ووقفت إلى جانبها حينا آخر، ولكنها مع ذلك العمر الطويل والحيوية المتجددة كانت دائما من صغار الدول سواء فى سعة رقعتها

أو قوة ولاتها وأئمتها ولكنها كانت من أهم الدول المغربية من الناحية الثقافية والفكرية والحضارية فقد كان لها فى تاريخ الحضارة والثقافة الاسلامية أثر بارز وفعال بل مؤثر فى المغرب الاقصى والاندلس وغرب افريقية، بل لعبت دورا مؤثرا فى صياغة وحفظ وانتشار مذهب الامام مالك وفى دفع حركة التعريب فى البلاد من ناحية أخرى .

ولقد كان هناك عاملان حاسمان فى قيام دولة الادارسة منها أن طموح العلويين إلى انشاء دولة مستقلة لهم بعيدا عن نفوذ ومتناول الخلافة العباسية كان الدافع القوى لذلك كذلك فان الرغبة الخفية لدى قبائل المغرب الاقصى ونزوعها إلى الاستقلال ورغبتها فى انشاء كيان سياسى لهم، هذا أن العاملان هما اللذين شكلا قيام دولة الادارسة فكما كان طموح أباضية تاهرت من الخوارج فى انشاء كيان سياسى مستقل لهم فى المغرب الاوسط ورغبة قبائل المغرب الاوسط فى ذلك. هكذا كانت دولة الادارسة.

موقعة فخ :

وفى الحجاز الموطن المختار للعلويين قامت ثورة أخرى عام ١٦٩هـ تشبه ثورة محمد النفس الذكية وان كانت أقل منها خطرا ذلك أن العلويين كانوا قد ركنوا إلى الهدوء بعد مقتل النفس الذكية وأخيه ولكن عامل الهادى على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله اتهم بعض العلويين ومنهم «الحسن بن محمد النفس الذكية» بشرب الخمر فأخذهم وأقام عليهم الحد ثم زاد على ذلك أن جعل الحبال فى أعناقهم وطاف رجاله بهم فى المدينة فذهب اليه الحسين بن على بن الحسن محتجا على سوء معاملته لاهل بيته فردهم عامل المدينة من مطافهم وحبسهم يوما وليلة ثم أطلقهم على أن يظلوا تحت المراقبة فاختفى الحسن بن محمد النفس الذكية أياما وعاد والى المدينة إلى تتبع العلويين طلبا للهارب وانتهت هذه الفتنة إلى خروج الحسين بن على على الخليفة الهادى والذى بايعه جمع من أهل المدينة بالخلافة وقد انضم إلى هذه المعركة بعض الكوفيين الذين كانوا

عندئذ بالمدينة ثم خرج الجميع فى اتجاه مكة المكرمة فقطع عليهم جيش العباسيين الطريق ودارت معركة بين الفريقين عند «وادى فخ» الذى يبعد عن مكة بنحو ستة أميال. تقرر فيها مصير العلويين وكثر فيها ضحاياهم ومنهم الحسين بن على زعيمهم وقد بلغ من أثر التنكيل بالعلويين فى هذه المعركة أن قرنها المؤرخون لهولها ونتائجها بمعركة كربلاء فقال بعضهم «لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ» .

وطابع هذه المعركة شبيه بطابع معركة كربلاء إلى حد كبير فأنصار الحسين بن على بن أبى طالب فى معركة «كربلاء» قلة معدودة ولم يكن الثائرون مع الحسين بن على بن الحسن عند فخ كثرة ملحوظة وشهداء معركة كربلاء من العلويين كثيرون ويشبه هذا شهدا «معركة فخ» وقد أعقب استشهاد الحسين بن على بن أبى طالب فى كربلاء حركة ثورية أخرى بالكوفة وأعقب معركة فخ ثورتان علويتان ببلاد الديلم وفى المغرب العربى وانتهت الاخيرة بقيام دولة الادارسة .

وقد نجا من معركة فخ علويان أخوان هما يحيى وادريس أبناء عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على فذهب أولهما إلى بلاد الديلم وجمع حوله الانصارثم أعلن الثورة أيام هارون الرشيد وكان قد خفف الرقابة على العلويين ففاجأته ثورة يحيى بن عبد الله وأرسل اليه جيشا فى خمسين ألفا بقيادة «الفضل بن يحيى البرمكى» وقد استطاع الفضل بحسن تصرفه أن يصالح يحيى وأن يحصل على أمان له من الرشيد وبهذا انتهت الثورة لكن الرشيد لم يلبث بعد هذا أن استفتى الفقهاء محاولا أبطال الامان فأقر بعضهم وجهة نظر الرشيد فأمر بحبس يحيى فى داره .

أما ادريس فقد فر إلى مصر ثم خرج منها إلى المغرب وفى المغرب الاقصى التف حوله أهلها من البربر وأعلن خروجه على الرشيد عام ١٧٢هـ وعجز الخليفة عن القضاء على ثورته لبعد المسافة فلجأ إلى الحيلة ودس له السم فمات عام ١٧٧هـ. وظهرت بذلك

دولة الادارسة .

وهكذا نجد العباسيين الاوائل يوالون أبناء عمومتهم العلويين فى الحرب والتنكيل كما نجد هؤلاء ثائرين ساخطين على أبناء عمومتهم العباسيين ما وجدوا إلى ذلك من سبيل .

وقد كانت موقعة فخ التى وقعت فى عهد الخليفة العباسى الهادى ١٦٩هـ بعيدة الاثر فى تاريخ العلويين فقد هرب بعد نتائج تلك المعركة لصالح العباسيين منها رجلان كانا كالشوك فى حلق العباسيين أولهما يسمى يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى ثار فى بلاد الديلم فى عهد هارون الرشيد وثانيهما أخوه ادريس بن عبد الله الذى نجح فى اثارة أهالى المغرب الاقصى على العباسيين وفى عام ١٧٢هـ قامت دولة الادارسة على يد الامام ادريس بن عبد الله العلوى الذى سار إلى بلاد المغرب الاقصى مع مولاه راشد بعد أن بطش العباسيون بأهل البيت العلوى فى موقعة فخ وقد استقبلته أوربة البربرية التى لقى منها كل عون وتأييد فى تأسيس دولة الادارسة التى كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الاسلام فى ربوع هذه البلاد .

أسرة الادارسة

الامام ادريس الاول

ينتسب آل ادريس الذين شادوا وأقاموا دولة الادارسة كدولة علوية فى المغرب الاقصى إلى مؤسسها الاول الامام العلوى الهاشمى الطالبى «ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم» وهو أحد أفراد الاسرة العلوية التى يتنهى نسبها إلى الامام والخليفة الراشد الرابع على بن أبى طالب والذى انقسمت أسرته بعد مقتله إلى فرعين رئيسيين هما الفرع الحسنى نسبة إلى الأمام

الحسن والفرع الحسينى نسبة إلى الامام الحسين، وادريس هذا مؤسس الدولة الادريسية من الفرع الاول الحسن فوالده عبد الله بن الحسن كان عالما جليلا يمثل مرتبة مرموقة فى مجتمعه وهو شيخ بنى هاشم وزعيم العلويين ورئيسهم المطاع والمهاب والمسموع الكلمة بل هو عالمهم فى ذلك الوقت وكان يسمى بالمحض وذلك لان أباه الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وأمه فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب وقد كان علويا خالصا من ناحية الاب والام وكذلك من القابه الاخرى التى لقب بها فى زماته فهو الكامل لانه كان أكمل أهل زمانه علما وعملا وصلاحا وكرما وزهدا وتقوى وطاعة وتلك المنزلة الرفيعة جعلته محط الانظار لكل العارفين فى زمانه بفضل آل البيت دورهم فى الاسلام، بل ان كل هذه الصفات جعلت بعض الذين أسهموا وساعدوا فى اقامة الدولة العباسية يعرضون عليه أن يتولى أمر الخلافة ويكون أول وال علوى وذلك لاهليته وصفاته واستحقاقه لهذا المنصب وتلك هى شخصية عبد الله والد الامام ادريس مؤسس دولة الادارسة أما ماذا عن أمه فهى «عاتكة بنت عبد الملك بن الحرث الشاعر بن خالد بن العاص ابن المغيرة المخزومى» وكانت سيدة فاضلة لها قدرها بين نساء أل البيت فهى من ربات الفصاحة والبلاغة والتقوى والاحسان حافظة للقرآن الكريم عامله بكل ما جاء فيه ولم تذكر المصادر عنها الا انها كانت تقية عابدة ساجدة جليلة صوامة وينتهى نسبها إلى بنى مخزوم وهم بطن من بطون قريش ويتصل بأحد أجداد البنى ﷺ .

وكان لادريس هذا ستة أخوة وهو سابعهم من أمهات ثلاث هم ادريس وسليمان وعيسى وأمهم هؤلاء جميعا عاتكة المخزومية، ومحمد النفس الذكية وابراهيم الجواد وموسى الجون وهؤلاء أشقاء وأمهم هند الاسدية بنت أبى عبيد الصحابى الجليل، أما الاخ السابع فهو يحيى ويكنى أبا الحن وأمه قريبة بنت عبد الله بن أبى عبيدة بن عبد الله زومعة بن الاسود بن المطلب بن أسد وهى بنت أخ هند بنت أبى عبيدة .

ولم تذكر المصادر العربية مولد الامام ادريس وتاريخه وكذلك الحديث عن حياته

الاولى فى المدينة المنورة ولم تذكر عنه الا انه كان أحد الذين اشتركوا فى ثورة فخ (الحسين بن على) للمطالبة بالخلافة من العباسيين لانهم أحق منهم بهذا المنصب .

لكنه لا خلاف فى القول بأنه فى تلك البيئة العلوية النبوية وفى بيئة المدينة المنورة وعلى مقربة من قبر جده ﷺ فلابد أن يكون الاتجاه للعلم والدين والفقه والتقوى والورع والزهد والمحبة والاخوة الاسلامية الصادقة والاحساس بالتعاون فى سبيل رفعة الاسلام واعلاء شأنه هو الطابع الذى نشأ فيه ادريس وكانت حياته الاولى علما وتعلما ومعرفة ودراسة تاركا أمور السياسة والاشتغال بها فى عهد الامويين وذلك حين نصح عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب والد الامام ادريس بن زيد بن على طالبا منه عدم الخروج إلى الكوفة والذى يتعمق فى دراسة معنى التضحية التى أسداها عبد الله لابن عمه يدرك تمام الادراك مدى البعد السياسى والحس العميق الذى يتحرك من خلفه الامام عبد الله بن الحسن لانه كان يدرك ما عليه أهل الكوفة، بل أنه كان يعرض عن استقبال الرسل والكتب التى كانت ترد اليه شخصيا من أهل الكوفة التى كان يرسلها أهل الكوفة وعدم استجابته لدعوتهم وبهذا انقطع القول أن ادريس تشب وتربى فى بيئة علمية دينية فقهية شرعية بحتة فحفظ القرآن الكريم فى صغره ودرس الفقه وعلوم الحديث والتفسير منذ صغره أيضا وانه نشأ فى أسرة على جانب كبير من اليسر ووفرة العيش وذلك بسبب قيام أفرادها بممارسة بعض الاعمال التجارية ومزاولة مهنة التدريس، بالاضافة إلى أن آل البيت كانت لهم منزلة اجتماعية مرموقة وممتازة فى المدينة المنورة وذلك بسبب نسبهم الطاهر العتيق الذى ينتهى إلى رسول الله ﷺ .

فكان أهل المدينة المنورة يجلونهم كل الاحترام والتبجيل ويحترمونهم أشد الاحترام ويعرفون قدرهم ومكانتهم السامية وينظرون اليهم نظرة عطف واكبار وذلك لما تعرضوا له من نكبات ومشقات على يدى بنى أمية وبنى العباسى، بل انهم كانوا يكنون لهم أخلص

الحب وأصدق مشاعر الوفاء والاخلاص .

وقد اشترك الامام ادريس فى ثورة مسلحة هى ثورة الفخ وهى السبب المباشر لفراره من وجه الخلافة العباسية وتوجهه إلى بلاد المغرب الاقصى، ذلك لان العلويون منذ مقتل الامام على بن أبى طالب وهم يحاولون استرداد الخلافة من بنى أمية وغيرهم لانهم يرون أنهم فى هذا الطلب يقومون بواجب مقدس .

ومنذ الايام الاولى لقيام الخلافة العباسية قام أبو جعفر المنصور عام ١٣٦هـ/ ٧٥٢م بالقبض على عبد الله والد ادريس وعلى أهله وأكثر أفراد أسرته حتى بلغ عددهم خمسة وأربعين رجلا من أكابرهم ولم يكتف الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور بحبسهم بل أساء معاملتهم وأفرط فى تعذيبهم والتنكيل بهم، بل انه اشتد فى تضييق الخناق على العلويين فى السجن .

وقد اشترك ادريس أيضا مع أخيه ابراهيم الجواد الاخ غير الشقيق له شقيق محمد النفس الذكية فى حربه ضد القوات العباسية فى مدينة البصرة، وهناك أقوال تذكر انه أثناء تلك الثورة لم يكن ادريس فى سن تسمح له بالمشاركة الفعالة فى هذه الثورة، لكن نجد أنفسا نؤيد القول باشراكه فى هذه الثورة بجانب أخيه غير الشقيق لانهما من جيل واحد لاسيما أن ابراهيم الجواد هو أصغر من محمد النفس الذكية بينما ادريس هو أكبر الاخوة الثلاثه الاشقاء ادريس وسليمان ويحيى وان الفارق الزمنى بين أخيه ابراهيم وبينه ليس كبيرا ومن هنا يصح اشراكه فى تلك الثورة ضد العباسيين لاسيما أن أطفال آل البيت منذ نعومة أظافرهم كانوا يحسبون انهم أحق بالخلافة من غيرهم وان عليهم واجبا مقدسا تجاه أمة الاسلام فى الحكم والقيام بالخلافة .

ولقد تركت وفاة أخيه محمد النفس الذكية ومقتله مع بعض من أقاربه وأهله أبعد الأثر السئ فى تكوينه النفسى واحساسه بالظلم والاضطهاد فقد شب ونشأ وهو لا يرى ولا

يسمع ولا يعلم أمرا من الامور الا والخليفة العباسى وقبله الأمويون يتعقبون أفراد أسرته الحسيبة النسيبة الطاهرة بالقتل والتعذيب والسجن والنفى والتشريد .

علما أن الامام ادريس بعد أن فقد الكثير من أفراد أسرته وعائلته فانه عاش فى جو من الارهاب النفسى البعيد المدى والذى فرضه أبو جعفر المنصور «السفاح» وذلك حتى لا يدع بادرة أمل فى تفكير العلويين فى أمر الخلافة وحتى يقتل فى أنفسهم كل بادرة أمل فى الوثوب على الخلافة أو القصاص من الخلفاء العباسيين .

وفى سبيل ذلك فقد عمل أبو جعفر المنصور على أن يكون هدفه الدائم هو ارهاب العلويين حيث يجمعهم فى مدينة الرسول ﷺ وذلك بعد القضاء على ثورة محمد النفس الذكية فى المدينة ونقلهم إلى الكوفة ونتيجة لجو الارهاب البشع الذى فرضه المنصور على آل البيت فان آل عبد الله بن الحسن بن الحسين ومن بقى معهم من العلويين أطفالا ونساء وشيوخا لزموا السكينة ولم يتحرك أحد منهم للقيام بأدنى عمل يسيئ إلى الخلافة العباسية .

كيف ظهرت دولة الادارسة :

ظهر بالمدينة المنورة «الحسن بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب» أيام الخليفة العباسى الهادى ودعا لنفسه فى المدينة فقاتله محمد بن العباسى عامل العباسيين على المدينة. وكان البيت العلوى بعد فشل ثورة محمد النفس الذكية أخ ادريس قد لزموا السكينة وكذلك أثر مقتل كثير من أفراد آل عبد الله بن الحسن وهم أل ادريس فى معركتهم ضد الخلافة وظلوا يعيشون جوا يشبه جو الحزن الدفين وحياة يسودها الارهاب فرضها عليهم المنصور حتى سمحت لهم الفرصة المواتية فى عهد الخليفة العباسى الهادى بن المهدى اذا اغتنم العلويون فى ٢٢ محرم ٢٦٩هـ/ ٧٨٥م أول فرصة لهم تساعدهم على اعلان الثورة فكان اشتعال الثورة فاندفعوا فى الالتفاف حول أحد العلويين وهو

الحسن بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب ويكنى أبا عبد الله وأمه زينب بنت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهى أخت شقيقه لمحمد النفس الذكية وابراهيم الجواد وموسى الجون .

وكانت المعاملة السيئة غير االانسانية التى عامل بها والى العباسيين على المدينة المنورة أحد العلويين المشهورين فى المدينة قد حزت فى نفوسهم وهم نبت الشجرة الطاهرة التى اختارها الله لتكون شجرة النبوة دون خلق الله قاطبة فدفعهم ذلك إلى الثورة العارمة كذلك فان العلويين لم ينسوا أبدا ما أصابهم فى المدينة المنورة من سجن وتعذيب وارهاب وسوء معاملة على يد أبى جعفر المنصور الذى لم يدخر جهدا ولا سلاحا الا واستخدمه حتى قضى على الثورة العلوية فى المدينة .

ثم كانت معركة فخ بالقرب من مكة المكرمة والتى حدثت ربما فى منى حيث مشاعر الحج وذلك يوم التروية الثامن من ذى الحجة عام ٢٦٩/ الموافق ١١ يونيو ٧٨٦م. والتى كانت احدى الثورات التى ثبت نشاطهم ومتابعتهم للثورات السابقة التى قام بها الشقيقان محمد النفس الذكية وأخوه ابراهيم وهما أخوة ادريس votre والدهما عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب ولكن المنصور قضى على هذه الثورة كما سبق القول فى عنف شديد وقتل محمد النفس الذكية فى المدينة المنورة عام ١٤٤هـ وقتله أخاه ابراهيم فى مدينة باقمرى بين الكوفة وواسط عام ١٤٥هـ والتى لقى العلويون من العباسيين أكثر شرا وظلما وجورا وتعنتا مما لقوا من بنى أمية فظل العلويون يثورون وظل العباسيون يتتبعونهم فى كل مكان بالسجن والقتل حتى فروا إلى أطراف العالم الاسلامى.

وحتى كانت معركة فخ هذه عام ١٦٩هـ والتى ثار فيها الحسن بن الحسن على عامل العباسيين بالمدينة وحدثت بين الطرفين تلك الموقعة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة وعلى بعد ستة أميال منها وتعرف باسم موقعة فخ قتل فيها الحسن وعدد كثير من أفراد البيت العلوى وقد شابهت هذه الموقعة حادث كربلاء فى العهد الاموى فقد أوشك البيت العلوى فيها على الفناء الا أن الله يحفظ عباده الصالحين من الفناء .

ولقد أرادت المقادير الالهية أن يكون ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو أحد القلائل الدين نجوا من القتل فى مأساة فخ والتى كان العباسيون قد أوقعوا فيها بجماعة العلويين من أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب كانوا يدعون لانفسهم ويطمحون فى أن يقيموا لانفسهم دولة .

وقد فر الناجون من هذه الواقعة إلى أطراف البلاد الاسلامية وكان من الذين فروا أثر تلك المعركة غير ادريس أخوه يحيى بن عبد الله وهو الأخ غير الشقيق وقد هرب إلى بلاد الديلم جنوب بحر قزوين وسبب للعباسيين متاعب كثيرة ولكنهم قضوا عليه فى النهاية ولكن أسعد العلويين جميعا حظا هو ادريس بن عبد الله الذى أبعد فى الهرب حتى وصل إلى المغرب الاقصى .

وكان يحيى بن عبد الله قد استقر فى الديلم والتف حوله القوم واشتدت شوكته وكثرت جموعه وأتاه الناس من كل الامصار مما يدل على عطف الناس على آل البيت العلوى وحبهم لهم وقد سبب يحيى بن عبد الله متاعب عديدة لا حصر لها للدولة العباسية حتى استطاع الفضل بن يحيى البرمكى قائد الرشيد أن يصالحه باسم الرشيد وينزله على الامان ولكن الرشيد غدر به وسجنه .

وكان ادريس قد انسحب من بين المحاربين حتى اذا انتهى موسم الحج توجه مع حجاج مصر قاصدا أهلها أولا والنزول بها، تاركا أهله وعشيرته ولم يصحب معه فى تلك

الرحلة الشاقة التى ربما لم تكن مصر نهايتها بل بدأ منها الا مولاه راشد رفيقه وسار فى زمرة الحجاج متوجهين بعون الله ورعايته إلى مصر المحروسة فى طريقهما بعد ذلك إلى بلاد المغرب، بعد أن تأكد ادريس من فشل الثورات العلوية التى تقوم بالحجاز أو بالعراق وذلك لقرب هذه الاماكن من بطش الخلافة العباسية، فضلا عن الشك الذى ملأ قلب ادريس بعدم جدية وقدرة أهل المدينة المنورة وغيرهم من نصرة العلويين والمساندة فى اقامة خلافتهم .

ولا ندرى متى قصد ادريس إلى بلاد المغرب الاقصى الا انها على مقدار علمه عن طريق مولاه راشد انها بعيدة كل البعد عن متناول القوات العباسية، بالاضافة إلى انه ربما كان يعلم أمورا عن بلاد المغرب ربما عرفها عن طريق راشد مولاه الذى فر معه إلى المغرب حيث يقال انه كان من أصل بربرى ولا نستطيع أن نعلق أهمية كبيرة على هذا القول فانه حتى ولو صدق لا يمكن أن يكون عاملا رئيسيا فى قيام الدولة العلوية الادريسية ولكن على أية حال فان وجود راشد مع ادريس كان موجها لبلاد المغرب بالذهاب لاسيما أن ادريس لا شك أنه كان على علم باللسان البربرى الذى يتكلم به القوم فى هذه النواحى من بلاد المغرب الاقصى اذ على أكتافه قامت دولة الادارسة ولا نكذب القول اذ قلنا أن راشدا هو المؤسس الحقيقى لدولة الادارسة دون أدنى شك .

وعندما توجه ادريس بن عبد الله ومعه مولاه راشد إلى الاراضى المصرية لعبورها فان واليها فى ذلك الوقت كان «على بن سليمان بن على بن عبد الله العباسى» الذى تولى أمر مصر من قبل الخليفة الهادى فى شوال ١٦٩هـ/ ٧٨٦م. وكان على بريد مصر فى ذلك الوقت (الشرطة) صالح بن منصور وكان متشبعا محبا لآل البيت فحمله مع البريد. وكان طبعيا أن يحاولا التخفى عن أعين الوالى العباسى. وفى مصر تم ترتيب الامر على أن يسافر كل من راشد وادريس كل فى طريق وأن تكون نقطة اللقاء المتفق عليها هى

مدينة برقة وتابع ادريس وراشد سيرهما وهما متخفيان بحيث لايتعرف على شخصيتهما أدنى أحد. وان كانت الروايات تذكر كيف أن هروب راشد وادريس إلى المغرب الاقصى كانا في زى التجار حيث صحب كل منهما قافلة تختلف عن الأخرى .

بل أن الرواية تمضى فى سردها لقصة وصول ادريس ومولاه راشد إلى المغرب فنذكر انه بعد لقائهما في برقة في زى التجار فان المتفق عليه أن راشد يكون هو السيد وادريس خادمه يقوم على خدمته أثناء الرحلة وذلك للتمويه على رجال الدولة العباسية خوفا من اكتشاف أمر ادريس وراشد فقد كان راشد يأمره أمام الناس بأداء الأعمال فيطيع أمره فورا وذلك ليخفى شخصيته التى تعقد عليها الآمال فى اقامة دولة العلويين فى المغرب وبذلك لم يتعرف على شخصيتهما أحد وبعد أن أقاما فى القيروان فترة من الزمن فانهما سارا إلى تلمسان واستراحا بها أياما معدودة ثم ارتحلا عنها قاصدين طنجة فعبرا فى طريقهما وادى ملوية وهو الوادى الذى يحد المغرب الاقصى والذى يصب عنده نهر ملوية فى البحر المتوسط وإلى الشرق قليلا منه نجد الحد بين المملكة المغربية والمغرب الاوسط، ثم دخلا بلاد السوس الادنى والسوس الاقصى وتجوه فى جبل درن إلى أن وصلا إلى مدينة طنجة ولكن ادريس لم يمكث كثيرا بمدينة طنجة وذلك لانه أحس أن أهدافه لم يستطيع تحقيقها فى تلك البقعة من المغرب الاقصى وذلك لانه كان يريد أن يجد أعوانا ذوى عصبة وشدة وقوة يتلقون دعوته ويلتفون حوله ويبلغون دعوته وينشرونها بين الناس لكن الامر انتهى به بالتوجه إلى مدينة «وليلى» وهى مدينة قرب طنجة وهذه المدينة هى قاعدة البلاد وحاضرتها وكانت ضمن المناطق التى أعلنت استقلالها عن الخلافة، يضاف إلى ذلك توسط موقعها وخصوبة تربتها وكثرة مواردها وهى تقع على شاطئ المحيط الاطلسى شمال مصب السنغال بالاضافة إلى أن وليلى مركز تجارى ممتاز وسوق عظيمة للقبائل وكانت معروفة ومشهورة منذ العصر الرومانى .

وهكذا كانت دعوة راشد لرجل من آل البيت النبوى كافية لأن يكسب حوله الانصار ولكن يبدو أن التوفيق لم يحالفهما فى طنجة وكانت عاصمة المغرب فى ذلك الحين وأحس راشد أن مكان القوة الحقيقة يكمن وسط قبائل أوربة وكانت مركز الجناح الغربى لهذه القبائل فى مدينة وليلى عند قاعدة زرهون وتقع فى منتصف المسافة بين فاس ومكناس وهى من هذه الناحية أصلح مكان لأن تكون مركزا لدعوة سياسية دينية .

وكانت قبيلة أوربة تتزعم مجموعة قبائل ضخمة تمتد من الاطلس إلى وادى سيو وقد عرفت هذه القبيلة منذ مساندتها لكسيلة وكيف صارعت طويلا مع عقبة بن نافع الفهرى ثم من بعده زهير بن قيس وتدخل معها فى ذلك النطاق القبلى مجموعة قبائل غمارة وهى أيضا قبائل برنسية تمتد من حوض سيو واقليم الهبط الذى يسمى لهذا أحيانا هبط غمارة وريف تامسنا على ساحل المحيط الاطلسى .

ولقد وافق وصول ادريس إلى المغرب نشاط الحركة الاستقلاليه فى هذه البلاد كما أن ذلك الوقت قد شهد نجاح القوات العباسية فى قهر شوكة الخوارج، فلما وصل ادريس إلى تلك البقاع استطاع أن يضم حوله البربر الذين وجدوا فيه ثائرا على الدولة العباسية التى يكرهونها كما كان يمثل عندهم روح الاسلام التى لا تقر الظلم ويرضى بنسبه الشريف إلى النبى ﷺ عاطفتهم الدينية فانضوت الحركة الاستقلالية تحت لوائه واستطاع أن يكون له امارة مستقلة ظلت ترث الحكم العلوى حتى ظهور الدولة الفاطمية ولقد كانت دولة الادارسة من أطول الامارات المستقلة فى المغرب العربى عمرا اذ كانت معاصرة للنفوذ الفاطمى فى المغرب والرستمى والاغلبى ولنفوذ الخلافة الاموية فى الاندلس .

وهكذا انتهى المطاف بادريس فى تلك البقعة التى هى قاعدة البلاد وحاضرتها وكانت من المناطق التى أعلنت استقلالها عن الخلافة يضاف إلى ذلك توسط موقعها

وخصوبة تربتها وكثرة مواردها .

وهكذا نرى كيف كان لانتساب ادريس إلى رسول الله ﷺ أثر كبير فى توحيد القبائل المتنافرة فظفر بتأييد السكان على اختلاف طبقاتهم ووحدوا بين اقليم الساحل واقليم المراعى فاطمأن أهل السهول والبدو وازدهرت الحياة الاقتصادية ونجحوا فى اقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر جنبا إلى جنب واستطاعوا بفضل هذه الوحدة الشاملة احياء حركة الجهاد الاسلامى وعملوا على نشر الاسلام فى البلاد .

ومن هنا فاننا نرى كيف أن هذه الظروف مجتمعة شجعت ادريس على التوجه إلى «وليلى والنزول بها فى غرة ربيع الاول عام ١٧٢هـ / ٩ أغسطس ٧٨٨م، وذلك بعد رحلة طويلة شاقة رأى فيها ألوان العذاب وتعرض للموت أكثر من مرة واستغرقت الرحلة ما يقرب من عامين وما أن وصل اليها حتى توجه إلى أمير البلدة وزعيمها وذلك لان «اسحق بن محمد» كان هو أمير البلاد وزعيم قبائل البربر بها وكان لاسحق بن محمد الاوربى فضل كبير فى استقرار ادريس فى وليلى، اذ أجاره وأكرمه واستجاب له .

وبدأ ادريس يدعو لنفسه ولم يكن من العسير عليه أن يكسب أنصارا له ذلك لان شيوخ قبيلة أوربة كانوا على أتم استعداد لتأييد زعيم يقودهم فى ثورة أو يقيم دولة للخروج عن سلطان قبيلة برغواطة وينشئ لهم دولة تضاهى دولة بنى رستم فى تاهرت والتى ظهرت منذ عام ١٤٤هـ .

ولقد كانت قرابته لرسول الله ﷺ كافية لاجتذاب القلوب اليه خاصة اذا أضفنا إلى ذلك ما سمعه الناس من خبر مأساة فخ وعودة إلى تذكير القوم بموقعة كربلاء وكذلك ما يروى عن وقوع العلويين للقتل والسجن والتشريد على أيدى الامويين والعباسيين وهم من سلالة النبى الاكرم ﷺ .

اضافة إلى ذلك أن زعيم القبيلة اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى قد تولى

خدمته والقيام بشئونه وبالغ في بره واكرامه حتى اذا اطمأن ادريس له كانت الدعوة وشرح ما حدث له ولاسرته وللعلويين والاسباب التى من أجلها التجأ إلى المغرب الاقصى ولذلك كان اسحق أول من قبل دعوته وشد من أزره وقدم له كل أسباب النجاح، بل أنه أرسل إلى كل القبائل المجاورة يدعوهم للدخول فى دعوته والاقبال على مبايعته والخضوع له وخلع طاعة الخلافة العباسية. وقد أخذ اسحاق على عاتقه مهمة دعوة القبائل المختلفة ودعوة زعمائها لحضور البيعة الكبرى التى تمت فى شهر رمضان ١٧٢هـ/ فبراير ٧٨٩م لكى يكون أميرا وحاكما لهم وزعيما لدولتهم .

وقد ابتدأ اسحق الاوربى بدعوة اخوانه وقبيلة أوربة وليعرفهم بنسب ادريس وصلته بالرسول ﷺ وكيف قدم عليهم وما هى الكوارث التى تعرض لها آل البيت النبوى، بل أكثر من ذلك ركز على فضله وكرامته وقرابته من رسول الله ﷺ فبايعوه ومن هنا أبرز اسحاق نسب ادريس وانتماءه إلى النبى ﷺ وكذلك صفاته الخلقية والاخلاقية التى اطلع عليها بنفسه من خلال اقامته معه فترة من الزمن ثم أعلنت وفود القبائل مبايعتها ونصرتها لادريس حيث وجدت فيه املها المنشود فى توحيد المنطقة وذلك بعد أن عرفت أهدافه ومبادئه عن طريق داعى الدولة الناشئة «اسحاق بن عبد الحميد الاوربى» حيث وفدت اليه قبائل زناتة، زاغة، زواوة، لماية، لواتة، سدراته، غياشة، مكناسة، مقبلة، لمطة، وغمارة وغيرها من القبائل الاخرى التى رغبت فى الانطواء تحت راية حفيد رسول الله ﷺ .

وهكذا التف الناس حول ادريس فى حماس شديد وقام إلى جانبه راشد يدير له الامر ويجمع له القلوب وبعد قليل أصبح ادريس أمير وليلى وزعيم الجناح الغربى من قبيلة أوربة وتبعه كذلك عدد من الفروع الصغيرة من القبائل القاطنة فى هذه النواحى وكانت ناقمة وفى عداء دائم مع قبيلة براغوطة وأهم هذه الفروع قبيلة غمارة وكانت إلى ذلك الحين جمعا قبليا ضخما مفككا يحمل عبء براغوطة واستبدادها ومع كل هذا فان نجم ادريس

وخصوبة تربتها وكثرة مواردها .

وهكذا نرى كيف كان لانتساب ادريس إلى رسول الله ﷺ أثر كبير فى توحيد القبائل المتنافرة فظفر بتأييد السكان على اختلاف طبقاتهم ووحدوا بين اقليم الساحل واقليم المراعى فاطمأن أهل السهول والبدو وازدهرت الحياة الاقتصادية ونجحوا فى اقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر جنبا إلى جنب واستطاعوا بفضل هذه الوحدة الشاملة احياء حركة الجهاد الاسلامى وعملوا على نشر الاسلام فى البلاد .

ومن هنا فاننا نرى كيف أن هذه الظروف مجتمعة شجعت ادريس على التوجه إلى «وليلى والنزول بها فى غرة ربيع الاول عام ١٧٢هـ / ٩ أغسطس ٧٨٨م، وذلك بعد رحلة طويلة شاقة رأى فيها ألوان العذاب وتعرض للموت أكثر من مرة واستغرقت الرحلة ما يقرب من عامين وما أن وصل اليها حتى توجه إلى أمير البلدة وزعيمها وذلك لان «اسحق بن محمد» كان هو أمير البلاد وزعيم قبائل البربر بها وكان لاسحق بن محمد الاوربى فضل كبير فى استقرار ادريس فى وليلى، اذ أجاره وأكرمه واستجاب له .

وبدأ ادريس يدعو لنفسه ولم يكن من العسير عليه أن يكسب أنصارا له ذلك لان شيوخ قبيلة أوربة كانوا على أتم استعداد لتأييد زعيم يقودهم فى ثورة أو يقيم دولة للخروج عن سلطان قبيلة برغواطة وينشئ لهم دولة تضاهى دولة بنى رستم فى تاهرت والتى ظهرت منذ عام ١٤٤هـ .

ولقد كانت قرابته لرسول الله ﷺ كافية لاجتذاب القلوب اليه خاصة اذا أضفنا إلى ذلك ما سمعه الناس من خبر مأساة فخ وعودة إلى تذكير القوم بموقعة كربلاء وكذلك ما يروى عن وقوع العلويين للقتل والسجن والتشريد على أيدى الامويين والعباسيين وهم من سلالة النبى الاكرم ﷺ .

اضافة إلى ذلك أن زعيم القبيلة اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى قد تولى

خدمته والقيام بشئونه وبالغ فى بره واكرامه حتى اذا اطمأن ادريس له كانت الدعوة وشرح ما حدث له ولاسرته وللعلويين والاسباب التى من أجلها التجأ إلى المغرب الاقصى ولذلك كان اسحق أول من قبل دعوته وشد من أزره وقدم له كل أسباب النجاح، بل أنه أرسل إلى كل القبائل المجاورة يدعوهم للدخول فى دعوته والاقبال على مبايعته والخضوع له وخلع طاعة الخلافة العباسية. وقد أخذ اسحاق على عاتقه مهمة دعوة القبائل المختلفة ودعوة زعمائها لحضور البيعة الكبرى التى تمت فى شهر رمضان ١٧٢هـ/ فبراير ٧٨٩م لكى يكون أميرا وحاكما لهم وزعيما لدولتهم .

وقد ابتدأ اسحق الاوربى بدعوة اخوانه وقبيلة أوربة وليعرفهم بنسب ادريس وصلته بالرسول ﷺ وكيف قدم عليهم وما هى الكوارث التى تعرض لها آل البيت النبوى، بل أكثر من ذلك ركز على فضله وكرامته وقرابته من رسول الله ﷺ فبايعوه ومن هنا أبرز اسحاق نسب ادريس وانتماءه إلى النبى ﷺ وكذلك صفاته الخلقية والاخلاقية التى اطلع عليها بنفسه من خلال اقامته معه فترة من الزمن ثم أعلنت وفود القبائل مبايعتها ونصرتها لادريس حيث وجدت فيه املها المنشود فى توحيد المنطقة وذلك بعد أن عرفت أهدافه ومبادئه عن طريق داعى الدولة الناشئة «اسحاق بن عبد الحميد الاوربى» حيث وفدت اليه قبائل زناتة، زاغة، زواوة، لماية، لواتة، سدراته، غياشة، مكناسة، مقبلة، لمطة، وغمارة وغيرها من القبائل الاخرى التى رغبت فى الانطواء تحت راية حفيد رسول الله ﷺ .

وهكذا التف الناس حول ادريس فى حماس شديد وقام إلى جانبه راشد يدير له الامر ويجمع له القلوب وبعد قليل أصبح ادريس أمير وليلى وزعيم الجناح الغربى من قبيلة أوربة وتبعه كذلك عدد من الفروع الصغيرة من القبائل القاطنة فى هذه النواحى وكانت ناقمة وفى عداء دائم مع قبيلة براغوطة وأهم هذه الفروع قبيلة غمارة وكانت إلى ذلك الحين جمعا قبليا ضخما مفككا يحمل عبء براغوطة واستبدادها ومع كل هذا فان نجم ادريس

بدأ يرتفع فى سماء المغرب الاقصى ويلتف القوم حول الزعيم الجديد القادم من المدينة المنورة أرض الحجاز وبجوار قبر رسول الله ﷺ بل من السبط الكرم والشجرة النبوية الطاهرة.

ولقد كانت أكبر هذه الوفود تمثل قبائل البربر البتر ولاشك أن الذى قام بالعبء الاكبر فى المبايعة والتأييد قبيلة أوربة والتى تنتمى إلى البربر البرانس ولكن هذا لا ينفى أن هناك قبائل كثيرة من البربر البتر أقبلت على مبايعته والدخول فى طاعته وكان اقبال هذه القبائل واسراعها فى البيعة نتيجة لما قام قام به من مجهود خارق أمير أوربة «اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى» حين عرفهم بحسب ادريس ونسبه ولهذا أسرع البربر وأعطوه العهد وبايعوه بالامارة والقيام بأمرهم .

وعلى هذا فقد كان ادريس يعبر تعبيرا حميما عن شعور البربر أهل البلاد الاصليين ورغبتهم الحقيقية فى الاستقلال فقد كان ادريس لا يعتمد الا على نسبه العلوى أما جنوده أو جلهم فقد كانوا من أهل البلاد الاصليين .

ونعود للمبايعة قائلين أن سرعة المبايعة أن دلت على شئ فانما تدل على أن المغرب كانت على صلة بأحداث المشرق حيث كانت تنعكس أصداؤها على المغرب ومما لا شك فيه أن الصراع الذى قام فى المشرق بين العلويين والخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والاضطهاد والقتل والتشريد والنفى والسجن الذى أصاب أفراد الاسرة العلوية جميعا قد بلغت أنباؤه إلى مسامع البربر عن طريق التجار الذين كانوا يذهبون بتجارتهم إلى بلاد المشرق والحجاز عن طلاب العلم الذين كانوا يقصدون مكة المكرمة والمدنية المنورة وكذلك قوافل الحجاج الذين كانوا يؤدون فريضة الحج من البربر ويعودون إلى بلادهم قافلين ناقلين معهم أخبار وأنباء هذه الاضطهادات .

بل أن بعض هؤلاء البربر الذين قدموا للبيعة كانوا قد أدوا فريضة الحج وشاهدوا

ادريس بن عبد الله بن الحسن وهو يقاتل فى صفوف العلويين ضد جنود العباسيين فى فخ وقد تلطخ قميصه بالدم يضاف إلى ذلك الفارين من وجه الخلافة العباسية من الخوارج وغيرهم من المسلمين. وهكذا فقد وجدت هذه الدعاية وتناقل أخبارها آذانا صاغية ونفوسا متطلعة لنصرة الفارين من وجه الظلم والاضطهاد والعسف الذى هو طابع بنى أمية وبنى العباسى .

ولذا كان من المنطق الطبيعى بل من العدل والاسلام والحق ونصر الدين أن يبايع بالامارة ادريس المظلوم الفار أثر معركة فخ فى وجه الخلافة العباسية، كذلك كان تطلع قبائل البربر إلى زعامة دينية وسياسية كما سبق القول من الاسباب القوية للبيعة حيث أن هذه الزعامة تجمع قبائلهم فى ظل دولة واسعة الارجاء وطيدة البناء، وفى ذلك يقول ابن خلدون أن الوحدة (العصبة) الدينية تقضى على المنافسات التعصبية بين القبائل المختلفة وتقيم دولة وتقف على التحاسد الذى هو أصل العصبية وتفرد الوصية إلى الحق، بجانب رغبة البربر فى تأكيد استقلالهم الفعلى عن الخلافة يتولى أحد مستحقى الخلافة قيادتهم وبذلك يتحقق لهم الاستقلال الحقيقى .

كذلك فان ادريس بن عبد الله كان يتمتع بصفات شخصية نادرة منها حدة الذكاء والصبر والقدرة على الاقناع وقوة الشخصية والاقدام والجرأة والشدة فى الحق والتواضع والتقوى اضافة إلى انه كان منتميا إلى آل البيت النبوى وانتهى نسبه إلى رسول الله ﷺ وهو أول أفراد هذا البيت قدوما إلى المغرب الاقصى وقد تمتع بهذه الصفات التى تؤهله للزعامة والتى اكتسبها منذ نعومة أظافره وتربيته الاولى فى الحجاز فقد كان على جانب من العلم الذى تلقاه على والده عبد الله الكامل الذى كان أهل علم زمانه وتلقاه أيضا على يد أشهر المعلمين فى عصره كما عرف عنه شجاعته الفائقة والتى ظهرت بصورة واضحة فى ثورة الفخ حيث شوهد وقميصه ملطخا بالدماء وهو يقاتل كالاسد وقد توج

هذه الصفات بشمائل خلقية من صبر وحلم وعفو وذكاء وزهد وورع وقد بهرت كل هذه الصفات والشمائل الاخلاقية أمير أوربة وزعيمها اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى ومن ثم أذاع أسرار هذه الصفات ونشرها بين قبيلته وأذاعها بين الناس .

يضاف إلى ذلك ما تحلى به ادريس من صفات خلقية وعقلية وما توافر له من شروط الخلافة استنادا إلى المذهب الزيدى حيث قالوا عن الشهرستانى أن الزيدية من أشهر شيعة من أولاد الحسن والحسين رضى الله عنهما ومن كان عالما زاهدا شجاعا فهو الامام واشترط بعضهم وجاهة الوجه وحسن الخلقة .

ومن هنا كان ادريس بن عبد الله ممن توافرت فيه شروط الخلافة من وجهة نظر الزيدية فهو من أبناء الحسن وقد شهر سيفه فى وجه الخلافة العباسية بالاضافة إلى صفاته الخلقية من علم وزهد وشجاعة بل أن بعض فرق الزيدية الشيعية صرحت وأعلنت بأن الامام بعد محمد النفس الذكية بن عبد الله هو أخوه ادريس، ومن هنا فقد كان التأثير المعنوى لادريس فى قبيلة أوربة وأميرها، تلك القبيلة التى قامت بدور فعال فى ايوائه ونشر دعوته بين القبائل المختلفة وتنازل زعيم أوليلى فى ذلك الوقت (اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى) عن الزعامة رغبة منه فى أن يعلو قدره بين القبائل باعتباره أول من لجأ اليه أحد العلويين فى المغرب الاقصى وكذلك لكونه أول من ناصر الدعوة الجديدة وأيدها بكل ما يملك من قوة ونفوذ .

وقد اتخذ ادريس لقب الامام استنادا إلى أن الشيعة أصبغوا على زعمائهم وقادتهم هذا اللقب وبذلك أصبح ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب اماما للدولة الناشئة التى ظهرت فى المغرب الاقصى والتى تسعى إلى تأكيد سلطانها وبسط نفوذها فى المنطقة والتى تقع على عاتقها توحيد قوى البربر والانطلاق بهذه القوى قدما لنشر رسالة الاسلام ودعم الحضارة العربية الاسلامية .

وهكذا أضحى المغرب الاقصى منذ أن تولى الامام ادريس الاول تقاليد الامارة وقيادة دفة الحكم فى تلك البقعة من العالم العربى الاسلامى، مغربا مزدهرا تحف به الطمأنينة والسلام غنيا بموارده الطبيعية ورجاله الشجعان وبحضارة الاسلام وعمق الشعور بالعروبة وهكذا كان قيام دولة الادارسة دافعا قويا لتغلغل الروح العربية فى نفوس البربر إلى حد أن الرحل العرب والبربر بدون استثناء أصبحوا يرفضون باستنكار فكرة الانتساب إلى أرومة البربر فهم يرون فى ذلك سبابا لهم فانهم لم يكتفوا باتخاذ العربية لغة لهم فحسب بل يؤكدون انهم عرب وانه لا تجرى فى عروقهم نقطة من الدم ليست عربية .

توطيد دعائم دولة الادارسة

لقد كانت استجابة قبائل البربر لدعوة الامام ادريس وقدومهم عليه حيث وجدوا فيه الزعيم الذى يقودهم للنصر ويكسب لهم السيادة على أرضهم وغيرهم من القبائل التى تتوطن جنوبا ومن هنا فانه لم يلبث أن فتح لهم باب الجهاد على نطاق واسع فى مناطق لم يذهب اليها الرومان أو غيرهم من قبل حيث كانت تعيش قبائل بربرية لازالت تعيش على الفطرة والبدائية فقادهم إلى اعتناق الاسلام بعد أن استطاع ادريس بهذه القوات أن يسود حوض سبو وبعض المنطقة الشمالية من المغرب الاقصى وسار بقواته متنقلا فى هذه النواحى يخضع القبائل أو يتلقى طاعتها حتى اذا امتد سلطانه فى أقل من عام من تلمسان إلى ريف تامسنا ومن طنجة إلى وادى ريف أم الربيع وهى رقعة واسعة فسيحة غنية ومهد لدولة يحسب لها حساب .

وهكذا ظهرت دولة الادارسة فى المغرب الاقصى وأصبحت وليلى عاصمة الدولة الجديدة، تلك المدينة التى شهدت وفود قبائل البربر التى اتجهت اليها لتبايع الامام ادريس وتلتف حوله ومن ثم بدأت دولة الادارسة تدخل مرحلة جديدة من مراحل حياتها وهى مرحلة الانطلاق والازدهار والتوسع والنمو حيث قدر للامام ادريس أن يتمكن من فرض

سلطانه السياسى على تلك المساحات الشاسعة من أراضى المغرب الاقصى ونشر أهدافه ومبادئه وتعميق مفهوم الحكم الاسلامى والذى أسس دولته على أساس من المبادئ القرآنية وأحاديث جده رسول الله ﷺ والتزام العدالة فى الحكم والشورى ولهذا أخذ على عاتقه تنظيم الدولة وترتيب أمورها .

ذلك الترتيب الذى دار حول تجهيز معدات القتال واعداد الجند للقتال وتوحيد صفوف البربر وجمعهم على كلمة واحدة وهدف واحد بعد نبذ التناقض والتشاحن والعمل على طاعة المبايعين له وخاصة من قبائل زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة .

ولقد كان الامام ادريس تواقا إلى توسيع نطاق دولته ومد نفوذه السياسى واطواء القبائل تحت رايته فانه ما أن أحس انه استطاع أن يجهز جيشا يعول عليه حتى انطلق به من عاصمته «وليلى» لتحقيق الهدف الاول من دعوته وهو تأسيس قواعد الدولة على أساس اسلامى سليم ومن هنا كان أول عمل قام به هو تنقية جوهر الاسلام مما علق به من خرافات وبدع وشعوذة وخزعبلات لازال البربر يسيرون عليها ومن هنا كان القضاء عليها هو همه الاول، لذا كانت وجهة حملته الاولى إلى الجنوب والشرق جهة بلاد تامسنا وتضم قبائل شتى منها براغوطة ومطماطة وبنو سلب وبنو يعمران وغيرها من القبائل ثم اتجه بعد ذلك إلى بلاد تادلا وهى مدينة بين جبال صنهاجة ففتح ادريس حصونها ومعاقلها ورجع بجيوشه إلى العاصمة وليلى فى أواخر شهر ذى الحجة عام ١٧٢هـ/ ٣٠ مايو ٧٨٩م. وفى سبيل نفس الهدف وهو القضاء على البدع والخرافات والضلالات المنتشرة بين قبائل البربر خرج الامام ادريس فى حملته الثانية وذلك بعد أن أقان فى وليلى شهر محرم ١٧٣هـ/ يونيو ٧٨٩م. طلبا للراحة. وبهاتين الحملتين فرض الامام ادريس سلطته على الساحل الغربى للمغرب الاقصى وامتد سلطانه جنوبا حتى وصل إلى بلاد السوس الاقصى ودخلت بلاد شنقيط فى طاعته (شنقيط هو الاسم العربى القديم

لموريتانيا) وكانت فى العصور الاولى شنقط وكذلك وردت فى السكوك والمسكوكات ولاتزال ترد فى كلام أهل المغرب وكتاباتهم على هذا النحو وشنقيط تعنى عيون الخيل، وبذلك فقد استطاع الامام ادريس نشر الاسلام ومبادئه الصحيحة وتأمين حدود بلاده وخاصة من ناحية الشرق حيث آخر حدود ولاة العباسيين فى افريقية (تونس) .

ولقد اتجه بجيوشه فى رجب ١٧٣هـ/ ديسمبر ٧٨٩م قاصدا مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبنى بقرن وهى قاعدة المغرب الاوسط. وما أن وصل إلى أسوارها حتى جاءه أميرها «محمد بن خزر بن صولات المغراوى الخزرى» طالبا الامان ومبايعا له ومعترفا له بالامامة .

وكان الامام ادريس لما توطد له السلطان فى المغرب الاقصى قد اتجه إلى تلمسان لمضايقة ولاة العباسيين بالقيروان والمغرب الاوسط فزحف إلى الجهة الغربية من المغرب الاوسط وكانت تلك الاراضى تقع تحت سيطرة ونفوذ قبيلتين من قبائل زناتة وهما مغراوة وبنى يفون وتندرج تحت نفوذهما تلمسان ووهران والنواحى المحيطة بهما وما حوالى شلف شمالا. ووصل ادريس إلى تلمسان وخرج اليه صاحبها «محمد بن خزر» طائعا مستسلما وسلم المدينة فدخلها ادريس وقواته دون قتال ومن غير حرب أو أدنى اشتباك وأقام بها شهرا بنى بها مسجده العظيم وسجل على منبره بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أمر به الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن رضى الله عنهم وذلك فى صفر عام ١٧٤هـ وبقى هذا التسجيل على المنبر إلى القرن الثامن الهجرى وهو عصر عبد الرحمن بن خلدون .

وقد حاربه ولاة القيروان قبل ظهور الاغالبة «كروح بن حاتم» ولكن لم يستطع أن يفعل شيئا وكانت حملاته دون جدوى لتمرد الجند عليه ورفضهم قتال أبناء النبى ﷺ.

ولحق بادريس أخوه الشقيق «سليمان» الذى أنشأ لنفسه بمعاونة أخيه ادريس كيانا

سياسيا في نواحي تلمسان وكان قد نجا هو أيضا من وقعة فخ بنواحي مكة المكرمة عام ١٦٩هـ ونزل على تلمسان وابن خلدون يقول انه نزل جهات مدينة تاهرت بعد مهلك أخيه ادريس فاستكبره البربر وطارده الاغالبة ثم تمكن من الاستقرار بمدينة تلمسان واعترف له البربر بالشرف والسيادة واذ عنت له قبائلهم الزناتية .

وقد تطايرت شهرة الامام ادريس فاستقبلته كل القبائل التى حل عليها بالبشر والترحاب ودخلت فى طاعته وتحت لواء الاسلام الصحيح، الذى عمل على نشره فى كل مكان حل به ومن ذلك ما فعله بمدينة تلمسان حيث نجد انه ما أن شرع فى دخولها حتى كان بناء المسجد أول عمل يقوم به وذلك لكى يكون مركز اشعاع للمبادئ الاسلامية الصحيحة الخالية من البدع وليكون المدرسة الاولى التى يتلقى فيها المسلمون أصول دينهم وتعاليم شريعتهم وليكون مركز الدعوة ومحط للانظار طلبا للعلم والدراسة وتحفيظ القرآن الكريم .

وباتمام بناء المسجد واستقرار الاحوال فى تلمسان وبعد أن أصبحت قبيلة مغراوة احدى الاعمدة الرئيسية فى بناء دولة الادارسة رجع الامام عائدا مطمئنا على ما قام به من أعمال فى الاقاليم الشرقية إلى عاصمته «وليلى» وكانت حملته الثالثة هذه التى خرج فيها إلى تلمسان هى نهاية المطاف فى حملاته الحربية .

ولقد كان الهدف من هذه الحملات الحربية الثلاث التى قام بها الامام ادريس بن عبد الله هو العمل على نشر الاسلام بين القبائل البربرية وتخليص ما علق به من خرافات وشعوذة وأمور لا تمت للاسلام بأدنى صلة بل تسئ اليه وكذلك القضاء على الوثنية القديمة التى كانت تسود مناطق الجنوب حيث لم تكن تلك الاماكن قد وصلت اليها أى ديانة سواء النصرانية أو اليهودية كما حاول أن يقول ذلك كتاب الغرب ومن سار على نهجهم من تلاميذهم فى العالم العربى، حيث أن قوة الامبراطورية الرومانية لم تستطع

الوصول إلى هذه الاماكن وكان طابع الوثنية هو الطابع الغالب والسائد بين سكان تلك الجهات الصحراوية .

كذلك عمل الامام ادريس على أن ينشر مذهب الجماعة والسنة للقضاء على المذاهب الخارجية (الخوارج الاباضية والصفرية والازارقة) والتى كانت تتنافى مبادئها وتعاليمها مع مبادئ الدين الاسلامى الحنيف .

وكذلك العمل على فرض سلطانه السياسى على بقاع المغرب الاقصى وفتح الطريق نحو المشرق وفى الواقع كان الهدفان السابقان يخدمان الهدف السياسى وهو فرض سلطانه السياسى وفتح طريق نحو الشرق حيث لابد له من جمع قبائل البربر حول مبدأ يحاربون من أجله وشخصية دينية ذات فاعلية يأتمرون بأمرها وذلك لكى يسهل عليه فيما بعد قيادتهم والانصياع لتعاليمه المستمدة من كتاب الله القويم وسنة محمد ﷺ خاتم المرسلين، وكذلك لكى يأمن ظهره من جهة الشرق خشية انقضاض بعض القبائل العربية عليه من الخلف فى أثناء اتجاه حكمه نحو الشرق .

بداية الاصلاح :

ولقد وجد الامام ادريس أمامه طوائف وشيعا لا تجمعها عقيدة واحدة ولا ترتبط برباط واحد ولذا لم يكن أمامه من سبيل ولا وسيلة سوى تجريد حملاته الحربية المتكررة والتى كان يحرص كل الحرص على أن يقودها بنفسه لكى يقضى على العصبيات المنتشرة فى هذه المنطقة وكذلك لكى يعمل على أن يتجنب الضلالات والعقائد الفاسدة ومحوها من المغرب الاقصى وكل بقعة تخضع لسيادته ولكى يرسى قواعد الدين الاسلامى الصحيحة، ولقد كان يستخدم أسلوب الدعوة واللين والتسامح فى الدعوة للاسلام وكان رحيما ذا حجة قوية فيما يجادلهم من الذين يعتنقون مذاهب غير السنة ومن هنا فانه لم ينشر الاسلام بحد السيف كما قال عنه ذلك بعض المعادين للاسلام من الكتاب أو الذين

لم يتحروا الامانة العلمية والتقنية العلمية، لكن حملات الرجل الامام الاول ادريس استهدفت اقرار الدين الاسلامى واقرار الاوضاع فى تلك الديار وهو الامر الذى افتقدته المنطقة سنين طويلة نتيجة للثورات والاضطرابات التى مرت بها من قبل .

وقد استقر الامام ادريس فى عاصمته « وليلى» وذلك بعد الانتهاء من حملته على تلمسان وأخذ ينظم شئون دولته ويرتب أمورها ويجدد قوة جيشه الكبير استعدادا لمعارك مقبلة يخوضها فى سبيل تحقيق أهدافه ومبادئه ورغبة فى أن يمكن دولته من الاستقلال السياسى والاقتصادى فانه أصدر عملة نقدية بأسمه كمظهر من مظاهر الاستقلال السياسى حيث نقش إسمه على العملة التى أصدرها تأكيدا لسلطانه السياسى على المنطقة. وقد نقش على هذه العملة وفى وسط وجه منها (لا اله الا الله وحده لا شريك له وبدائرة باسم الله) ضرب هذا الدرهم يتذغه سنة ١٧٤هـ. ونقش فى وجه صورة هلال ثم محمد رسول الله ﷺ وتحت ذلك على من أمر به ادريس بن عبد الله، جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

وهكذا أخذت الدولة الادريسية الناشئة تسير بخطى واسعة نحو التقدم لكن سياسة التوسع ومحاولة مد حدود الدولة إلى أقصى مكان يصل اليه ادريس وذلك لنشر مبادئه قد توقفت فجأة نتيجة لمؤامرة دبرها الخليفة العباسى الذى بلغه عن طريق الانباء المتداولة مدى قوة الامام ادريس فى تلك المنطقة ومبايعة البربر له واقبالهم عليه وحملاته المتكررة التى أخضعت المغرب الاقصى لسلطته .

بل أن الامام ادريس أصبح فى نظر الخلافة العباسية خطرا يهدد كيان الخلافة وذلك حين عزم على غزو افريقية (تونس) المغرب الادنى والذى كان تابعا للعباسيين، فقد بلغ هارون الرشيد أن الامر استقام فى المغرب الاقصى لادريس وانه وصل إلى المغرب الاوسط (ضم تلمسان) وان كثيرا من القبائل بايعته على الامامة والالتفاف حوله وانه فتح

مدينة تلمسان وبنى مسجدها وجهز جنده لغزو افريقية (المغرب الادنى) ومما زاد من مخاوف الخليفة هارون الرشيد أن الامام ادريس كان يمثل مركزا اجتماعيا مرموقا وممتازا نتيجة لانتمائه لآل البيت النبوى .

وكذلك لكفائته الحربية والقتالية الكبيرة التى أظهرها الامام ادريس بن عبد الله حين قاد حملاته الحربية فى المغرب الاقصى وهذه الحملات حققت أهدافها فى فترة وجيزة وكان الرشيد قد عمل على استمالة العلويين الموجودين بالمدينة المنورة فعزل والى المدينة ولكن أنباء النجاح الذى كان يحققه الامام ادريس كل يوم كانت تصل إلى هارون الرشيد فقضى على كل آماله فى الاستقرار والهدوء ومن هنا أسرع الخليفة فى طلب وزيره «يحيى بن خالد البرمكى» وتدارس معه فى كيفية القضاء على دولة الادارسة .

دور الدولة العباسية فى القضاء على ادريس :

لقد تنبه الخليفة هارون الرشيد إلى ما يمكن أن ينجم عنه خطر الادارسة من قيام تلك الدولة حيث أن أكثر ما أخافه هو علوية الامام ادريس وحب الناس وتعاطفهم مع أهل البيت وما لاهل البيت من مكانة عظيمة فى قلوب المسلمين وخاصة بعد ما جرى لهم على أيدى الامويين أولا ثم العباسيين بعد ذلك وقد تكون هناك مبالغة فى تصوير مخاوف هارون الرشيد لكن الخلافة العباسية كانت ترى من وجهة نظرها أن قيام أية امارة علوية فى أى مكان فى العالم الاسلامى سواء فى الديلم جنوب بحر قزوين أو فى المغرب الاقصى أو فى أى بقعة من بقاع العالم الاسلامى أمر لابد من القضاء عليه .

لكن هارون الرشيد كان قد أدرك أن الاحتفاظ بافريقية بالقوة لم يعد فى الامكان فلجأ إلى السياسة فأقام دولة موالية للخلافة العباسية تكون حاجزا بين أملاك الدولة العباسية فى المغرب العربى الاسلامى وبين هذه الامارة العلوية الناشئة التى أخذت تخطو خطوتها وتهدد بتوحيد المغرب العربى كله تحت قيادتها وعزله عن الخلافة العباسية نهائيا.

ومن هنا كانت وسيلة هارون الرشيد ووزيره البرمكى هو ضرورة التخلص من مؤسس الدولة الناشئة وهو الامام ادريس عن طريق الاغتيال وذلك بعد طول دراسة لانه تبين لهما استحالة ارسال حملات عسكرية للقضاء على امارة ادريس لاسيما أن الجنود العرب قد سبق لهم أن رفضوا قتال أبناء النبى ﷺ ومن هنا كانت وسيلة الاحتيال فى اغتيال ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بالسم .

وكان قد عهد بتلك المهمة إلى أحد رجال الشيعة الزيدية وهو «سليمان بن جرير» ويدعى الشماخ وكان رجلا جريئا فحمل السم ومضى إلى المغرب وفى مقابل ذلك منح مكافأة مالية قدرها مائة ألف درهم ومركزا يمثله فى الدولة وذلك فى حالة نجاحه فى تنفيذ المهمة الموكلة له. كما انه كتب كتابا إلى ابراهيم بن الاغلب ليقوم بتقديم التسهيلات الممكنة لسليمان بن جرير فى مهمته وكان ابراهيم بن الاغلب فى ذلك الوقت يتولى حكم ولاية «الزاب» ولم يكن قد تم تعيينه أميرا على افريقية حيث أن الامام ادريس تم قتله عام ١٧٥هـ / ٧٩٥م فى حين أن ابن الاغلب تولى امارة افريقية عام ١٨٤/ ٨٠٠م ويذكر أن ابراهيم بن الاغلب لم يجد خيرا من أن يدس له من يقتله بالسم. وذلك بعد أن فشلت الخلافة وحاكم افريقية فى أن يصد تيار الادارسة فى زحفهم نحو تلمسان ثم الاتجاه شرقا بل توقف زحفهم وتصدهم عن تلمسان التى ضمها الامام ادريس إلى دولته ولكنه لم يفلح فلجأت الدولة إلى المؤامرات والسم عن طريق الاستعانة أيضا بابراهيم بن الاغلب وان كان ابراهيم بن الاغلب قد نجح فى قتل ادريس الاول ثم مولاه راشد فيما بعد الا انه لم ينجح فى القضاء على دولة الادارسة ولذا أقام الادارسة دولتهم فى المغرب فيما اقتصر نفوذ ابراهيم بن الاغلب على القيروان وامتد شرقا حتى شمل طرابلس وبرقة .

وكان سليمان بن جرير المشهور بالشماخ قد نجح فى كسب ثقة الامام ادريس حتى

انه كان لا يأكل ولا يشرب الا مع سليمان لفصاحته وحلو حديثه وبلاغته .

بل ان ادريس كان يثق فى سليمان ثقة بالغة حيث أدخله فى خدمته الخصوصية. وقد اغتنم سليمان هذا الوضع الفريد والمميز والراحة النفسية التى يبديها الامام له فى كل مرة كان لا يزال يتحين الفرص المناسبة والملائمة لتحقيق هدفه الذى أرسل من بغداد لاجل تحقيقه وبعد أن يذل له ابن الاغلب كل ما يستطيع حتى وجد تلك الفرصة حين ترك راشد مولى الامام ادريس سيده ليقضى بعض شئونه وكان راشد لا يفارق الامام أبدا خوفا عليه وتجمع المصادر على أن الاغتيال كان عن طريق دس السم وقيل أن موت الامام ادريس كان عام ١٧٥ أو ١٧٧هـ وتروى الروايات أن الشماخ دس له السم فى هيئة طيب دخل فى خيشومة أنفه كما تقول بذلك الروايات التى نقلها المؤرخون على انها جزء من تاريخ الدولة وينتهى السم إلى دماغه فيغشى عليه ويسقط على وجهه لا يحس ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه وقد تكون تلك الرواية صحيحة لاسيما وأن الناس قد استنكروا أن يموت الرجل فجأة بعد ثلاثة أعوام من قيام دولته بل انه مات فى عنفوان شبابه ذلك لان موت الرجال فى عنفوان شبابهم وقوتهم يروع النفوس خاصة اذا كانت الوفاة فجأة وبسبب مجهول .

وكان سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ قد دس السم فى قارورة ملأى بالطيب وقيل انه دسه فى مسواك قدمه اليه وكان ادريس يشكو ألما فى أسنانه ولثته وقيل انه قدم له عنبا مسموما ولما تحقق الشماخ انه نجح فى الغرض الذى قدم من أجله هرب وقدم على ابراهيم بن الاغلب فأخبره بما فعل وجاءته بعد ذلك الاخبار بموت ادريس فكتب ابن الاغلب إلى الرشيد بذلك فولى الشماخ بريد مصر وأخبارها .

وفر سليمان بن جرير من المغرب الاقصى حتى وصل إلى العراق ولقد نجح الخليفة هارون الرشيد فى القضاء على مؤسس الدولة وهو فى عنفوان شبابه وبعد مضى ثلاث أعوام

فقط من قيام الدولة وربما يكون موت ادريس وقتله من الاسباب القوية التى جعلت الخليفة هارون الرشيد يعهد إلى ابراهيم بن الاغلب بولاية افريقية (تونس) والذى نجح فى أن يحافظ عليها ويقف فى وجه الادارسة اذا سولت لهم أنفسهم الاغارة على أملاك الدولة العباسية الواقعة فى شرق دولتهم، ومن هنا لم يبدأ ابن الاغلب فى مقتل الامام ادريس بل انه قام بدور فى ذلك حيث سهل لسليمان بن جرير طريق الذهاب إلى وليلى والعودة إلى بغداد .

علما أن مقتل الامام ادريس الاول لم يوقف جهود العلويين فى بلاد المغرب ولم يؤثر فى الحركة الاستقلالية التى قادها الامام الراحل، لكن بمقتل الامام ادريس الاول طويت صفحة مجيدة من حياة الامام ادريس بن عبد الله حيث استطاع فى سنوات قلائل تقدر بين ثلاث سنوات أو خمس سنوات ما بين البيعة إلى تاريخ مقتله ان يؤسس دولته على أساس من التعاليم الاسلامية الحقيقية وأن يكون مبدأ الحكم العدالة والايمان والتقوى .

واذ كنا قد تحدثنا عن الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب مؤسس دولة الادارسة وعن اسحق بن محمد ابن عبد الحميد الاوربى زعيم قبيلة أوربة وزعيم وليلى فلابد أن نلقى نظرة على حياة الرجل الاول فى قيام وظهور دولة الادارسة وصاحب فكرة الرحيل إلى المغرب الاقصى وبطل تهريب الامام من مكة المكرمة حتى وصلا إلى طنجة وليلى .

ولقد كان راشد مولى ادريس وهو «راشد بن منصة الاوربى البربرى» الذى يرجع نسبه إلى قبيلة أوربة احدى قبائل المغرب الاقصى ملازما لادريس منذ فراره من معركة فخ حتى وصوله إلى المغرب الاقصى مهد الادارسة. ولقد كان للدور الذى لعبه راشد فى الحفاظ على وحدة البربر والسير على نفس المبادئ التى رسمها الامام ادريس بن عبد الله

عظيم الاثر فى بقاء دولة الادارسة .

كذلك كان لزعيم قبيلة أوربة لدعوة ادريس بن عبد الله مع تنازل زعيمها اسحاق ابن محمد عبد الحميد الاوربى عن الزعامة لادريس الاثر الكبير فى تدعيم دولة الادارسة واستقرارها ونتيجة لذلك حافظت دولة الادارسة على وجودها وبقائها بل ان دولة الادارسة تابعت حياتها بالرغم من مقتل مؤسسها الاول ادريس ودخلت فى مرحلة جديدة من مراحل حياتها وهى مرحلة الانتقال ما بين عهد ادريس الراحل إلى دور ابنه ادريس بن ادريس .

الباب التاسع

دولة الأدارسة فى طورها الثانى

(ادريس الثانى بن ادريس)

لم يؤثر مقتل الامام ادريس الاول فى سير الدولة الناشئة ولا فى الانقضاض على الحركة الاستقلالية فقد كانت لادريس آمه حامل فانتظر اشياعه حتى ولدت ذكرا أسموه ادريس الثاني فكان ادريس الثانى هو المؤسس الحقيقى لدولة الادارسة .

وقد ظهرت هنا مهارة راشد ودوره فى ترسيخ دعائم دولة الادارسة فهو المدير الحقيقى والمنفذ لظهور تلك الدولة فهو المحور الاساسى الذى ارتكزت عليه دعائم الدولة بجانب الدور الذى قام به زعيم قبيلة أوربة «اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى» وكان من حسن حظ راشد العاشق بحب البيت النبوى العلوى أن الامام ادريس لما مات متأثرا بالسم ترك زوجته وتسمى كنزة حاملا فاتفق راشد مع رؤساء القبائل التى بايعته قبل مقتله على أن ينتظروا المولود الذى لازال فى بطن أمه فاذا ولدت غلاما كان أميرهم وتسير القصة فيكون المولود ولدا فسموه ادريس على اسم أبيه وبايعوه بالامارة والامامة وهو لايزال طفلا فى المهد ولا شك أن الذين فعلوا ذلك ووقع عليهم ذلك العبء هم شيوخ القبائل وكبارها وكان عزيزا عليهم أن يضيع السلطان الذى وصلوا اليه باسم أمير من أمراء البيت النبوى ولهذا انتظروا حتى بلغ ادريس الثانى عشر سنوات فبايعوه مرة أخرى عام ١٨٦هـ/٨٠٢م واهتم راشد بتربيته وتكوينه واعداده للامارة، بل أن راشدا لازال مسئولا عنه مسؤلية تامة حتى شب عن الطوق .

وكانت الدولة الناشئة قد أصيبت بكارثة فادحة حين قتل مؤسسها ادريس بن عبد الله وهو فى ريعان شبابه وقوته ولم يمض عليه سوى ثلاث أو خمس سنوات على تولية

الامامة، وذلك لان البربر لم يكونوا يركنون إلى زعيم قوى يجمعهم على كلمة سواء ويوحد صفوفهم تحت راية واحدة ويقودهم بقوة إلى طريق النجاح حتى انهم لم يجدوا بعد مقتله من يخلفه فى قيادة البربر لانه مات فجأة ولم يعين من يخلفه ويقوم بالاضطلاع بمهام الحكم فى الدولة الجديدة .

ويذكر انه ما أن فرغ راشد الذى أصيب بصدمة مباشرة من دفن مولاه حتى جمع رؤساء القبائل وزعماء البربر ليبحث معهم الموقف من جديد ويتدارس معهم الابعاد السياسية التى ترتبت على مقتل الامام ادريس بن عبد الله وما هى المخاطر التى يمكن أن تتعرض لها الدولة اذ لم تتوحد كلمتهم وعرض عليهم راشد الموقف بأبعاده المختلفة وبين لهم ما هى القوى التى تحركت لقتل امامهم وما تريد من المغرب الاقصى وما هى المخاطر المحدقة بحدود دولتهم وأن المقصد الوحيد من مقتل امامهم هو القضاء على دولتهم الناشئة وان الذى دبر تلك المؤامرة هو الخليفة العباسى هارون الرشيد وساعده فى ذلك وزيره يحيى بن خالد البرمكى بالاتفاق مع ابراهيم ابن الاغلب حاكم اقليم الزاب المجاور لحدود دولتهم وكان راشد قد أبدى لهم رأيا عرضه لهم وهو انتظار مولود الامام ادريس فان كان المولود ذكرا بايعوه بالامامة خلفا لوالده الشهيد وان كانت أنثى نظروا فى أمرهم من جديد .

وهكذا حرص راشد فى جعل الامامة فى ذرية ادريس بن عبد الله وذرية النبى ﷺ .

وقد أستجيب إلى طلبه فى الانتظار حتى تضع كنزة زوجة الامام مولودها. وبذلك قضى على الفتنة فى مهدها ومنع حدوث كوارث ونزاعات بين رؤساء القبائل وزعماء البربر طلبا للسلطة والزعامة وكذلك أجمعوا على أن تكون الامامة لراشد فيما لو كان المولود أنثى وذلك لما يتمتع به راشد من أخلاق كريمة وعلم غزير ومهارة سياسية. اضافة إلى أن البربر قد أحسوا بطعم الوحدة خلال تلك السنوات القلائل من حكم الامام ادريس الاول فعملوا على المحافظة على هذه الوحدة التى حققها الامام الراحل بالعمل والكفاح

والدعوة .

وهكذا تولى راشد الاوربى مقاليد الامور فى دولة الادارسة حيث حافظ على الدولة من التفكك والانقسام والانهيار والدخول فى صراعات قبلية جديدة والعودة إلى التمزق ولذلك حفظ كيان الدولة وسلامتها من الزوال كما كانت له اليد الطولى فى انشائها من قبل مع مولاه ادريس بن عبد الله فقام بدور كبير وحرص شديد فى الحفاظ على ادريس طوال الرحلة الشاقة حيث فر مع الامام ادريس من موقعة فخ وصاحبه فى رحلته من الحجاز حتى وصلا إلى بلاد المغرب الاقصى ولقد كان راشد فى أثناء الرحلة الطويلة بالغ الحرص على حياة ادريس .

ولقد كانت زوجة ادريس الاول وأم ادريس الثانى «هى كنزة بنت اسحاق بن محمد ابن عبد الحميد الاوربى» زعيم قبيلة أوربة الذى بايع ادريس الاول بالدعوة له حين نزل عليه هو ومولاه راشد وتم زواجها فى عام ١٧٤هـ/ ٧٩٠م وانه من حسن حظ الاسلام فى تلك البقعة وكذلك من حظ الادارسة أيضا أن جاء المولود ذكرا وهو ادريس الثانى .

وما أن عرف البربر حقيقة المولود الجديد حتى أطلقوا عليه اسم ادريس بن ادريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وبايعوه بالامامة رضيعا وكان مولده فى ربيع آخر عام ١٧٠هـ / ٧٩١م وأشرف راشد على تربيته وتنشئته النشأة الصالحة حتى يكون أهلا وحقا لتولى مقاليد الامور وقيادة الدولة التى قامت على أكتاف أبيه وأكتافه وأكتاف جده اسحاق الاوربى فاتم حفظ القرآن الكريم وعمره لم يصل ثمانية أعوام وعلمه السنة والفقه والنحو والحديث والشعر وأمثال العرب وحكمها وسير الملوك الصالحين وسياسة البلاد العربية والاسلامية ردربه على ركوب الخيل والرمى بالسهام ومكايد الحرب وكيفية تحقيق النصر .

وما أن بلغ ادريس الثانى العام الحادى عشر حتى شرع راشد فى دعوة البربر لمبايعته

وهنا ينتشر الخبر ويصل إلى أسماع ابراهيم بن الاغلب الذى تولى الامارة فى المغرب الادنى عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م أنباء اقبال البربر على مبايعة ادريس بن ادريس بالامامة والامارة ويضطر ابن الاغلب ويتدبر الأمر فيجد أن القائم على أمر الدعوة وتربية ادريس هو راشد مولى والده ادريس الاول فهو الذى دعا قبائل البربر إلى الالتفاف حول ادريس بن ادريس ومبايعته فلم يجد وسيلة للقضاء على هذا الخطر سوى استمالة بعض البربر المحيطين براشد وذلك بارسال الاموال والهدايا اليهم وذلك ليقاتلوا راشدا .

وهكذا بطريق المؤامرة والدس أيضا قتل راشد كما قتل سيده من قبل ادريس الاكبر وتم اغتياله فى عام ١٨٦هـ / ٨٠٢م. لان ابن الاغلب علم أن راشد هو سر قوة الادارسة فدس له من قتله ولكن البربر بايعوا الصغير ادريس الثانى فى مسجد أوليلة وقد بلغ الحادية عشرة من عمره .

وهكذا مات راشد عقب ذلك وقيل أن ابراهيم بن الاغلب تحيل فى سمه. وهكذا بقى ادريس الثانى وهو غلام دون راع حقيقى، وعجز ابراهيم بن الاغلب للمرة الثانية فى القضاء على الدولة الادريسية بالقوة فى عهد ادريس الثانى ولجأ إلى الدس لتفريق البربر عنه ولكنه فشل فى ذلك .

وقد تولى كفالة ورعاية الامام الثانى ادريس «أبو خالد يزيد بن الياس المهدى» حتى اذا كان عام ١٨٨هـ / ٨٠٤م أخذ له أبو خالد البيعة على قبائل البربر وكان عمر ادريس بن ادريس قد جاوز الثالثة عشر عاما فى ذلك الوقت الذى صار فيه اماما .

وكان قد وجه همه لمحاربة الصفرية الخوارج وأحل بهم الهزيمة ويذكر ابن الاثير أن ابراهيم بن الاغلب أراد قتال ادريس الثانى فنهاه أصحابه وقالوا له أتركه ما تركك، فكتب اليه ادريس يذكر له قرابته من رسول الله ﷺ فكف عنه وتوفى ادريس فى شهر جمادى الآخرة عام ٢١٣هـ وهو فى السادسة والثلاثين من عمره .

ولقد قامت دولة الادارسة بدور كبير فى نشر الاسلام فى ربوع المغرب وكان لانتسابهم إلى الرسول الكريم ﷺ أثر كبير فى توحيد القبائل المعادية وتأييد الاهليين لهم بعد أن كادت فتنة الخوارج تفرق شملهم واستطاع الامام ادريس لاول مرة أن يحول نظر هذه القبائل إلى حركة الجهاد المقدس بقصد اتمام نشر الاسلام فى البلاد .

وما أن بايعته القبائل البربرية حتى صعد المنبر ودعا كل القبائل التى لم تبايعه إلى القدوم لمبايعته، وما أن انتهى ادريس بن ادريس من القاء خطبته حتى أقبلت عليه الوفود لمبايعته وتأييد الامام الجديد ومن هذه الوفود زناتة وزواغة وأوربة وغمارة وسائر قبائل البربر .

وبالتفاف البربر حول الامام ادريس بن ادريس بدأت صفحة جديدة فى تاريخ دولة الادارسة حين أخذ الامام يوطد أركان دولته ويثبت دعائم حكمه باستمالة رؤساء قبائل البربر وتوزيع الاموال عليهم واستمر ولاء القبائل له وفى عام ١٩٢هـ/ ٨٠٨م كان ادريس بن ادريس قد بلغ السابعة عشرة من عمره ويختفى «أبو خالد» من الميدان يتهمه التواطؤ مع ابراهيم بن الاغلب وباختفاء أبى خالد بدأ ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن أو ادريس الثانى يحكم بلاد المغرب الاقصى مستقلا بنفسه ابتداء من عام ١٩٢هـ / ٨٠٨م ومن ذلك فقد بدأ يوطد الصلات معهم .

وفى ذلك يذكر ابن أبى زرع أنه قام فى ثمانية وثمانين وهو العام الذى ولى فيها بتوزيع الاموال ويصل الوفود ويستميل رؤساء القبائل ولاسيما المشايخ «الاشياخ» وقد انتهج سياسة طيبة فى حكمه فنشر العدل بين أفراد رعيته ولقد كانت تلك السياسة العادلة قد أغرت كثيرا من العرب فى افريقية (المغرب الادنى والاندلس) باللجوء اليه والانطواء تحت لوائه ثم أعقب ذلك مباشرة وفود كثيرة من مهاجرى العرب والذين بدأوا يفدون على ادريس من القيروان خاصة ويدخلون فى خدمته ومن ثم يتجه نظره إلى الاستعانة بهم. وقد كان وفد الاندلس قد فروا بأنفسهم من ظلم الامير الاندلسى الاموى الحكم بن هشام

الذى تولى حكم الاندلس عام ١٨٠هـ /٧٩٦م. وقد دفعت هذه السياسة الجائرة كثرا من العرب إلى الالتجاء إلى دولة الادارسة .

قد تحدث ابن أبى زرع فى كتابه الانيس المطرب بقوله «فى سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على ادريس رضى الله عنه وفود العرب من بلاد افريقية (المغرب الادنى) وبلاد الاندلس فى نحو الخمسمائة من «القيسية والازد ومدحج وبنى يحصب والسدف» وغيرهم وقد استقرت هذه الوفود بالعاصمة وليلى وقد رحب بهم الامام ادريس الثانى وذلك رغبة منه فى نشر الثقافة العربية الاسلامية فى دولة الادارسة وقربهم اليه واتخذ منهم أعدادا كبيرة فى مناصب الدولة وكذلك لتطعيم عناصر دولته بالعناصر العربية الوافدة وبذلك ترسخ قواعد الحضارة الاسلامية العريقة فى دولة الادارسة .

وهكذا أصبحت الادارة التى تتولى مقاليد الامور وتشرف على حكم الدولة ادارة عربية وفى الواقع كان لمجئ الوفود العربية إلى دولة الادارسة آثار كبيرة فى استقرار الدولة وفى تمكين حكم ادريس وسيطرته على مختلف القبائل حيث قوى العنصر العربى فى دولته كذلك توطدت اركان حكمه بهذه القوة العربية وثبت من أقدامه فى الحكم ولا سيما انه كان صغير السن واستطاع الامام ادريس استنادا إلى هذه القوة القضاء على كل من تحدثه نفسه بالخروج على نظام الدولة أو التآمر على انهاء سلطانها وسلامتها .

وهكذا كانت هذه الوفود العربية كسبا كبيرا لادريس ولدولته واستقامت له الامور بمعاونة الادارة العربية الجديدة، وقد دفع هذا الوضع المستقر جماعة من أهل العراق للمجئ إلى دولة الادارسة فى أقصى الغرب للاقامة فيها وبدأت الدولة الادريسية تكتسب أنصارا جددا من جميع أنحاء الدولة الاسلامية وما كان يبديه الامام ادريس من اكرام للوفود العربية التى تفد إلى دولته، ولقد كان ادريس, حازما فى ادارة شئون الحكم حريصا على توفير الامن والطمأنينة لرعاياه .

ولقد كانت الوفود العربية وغيرها التى كانت تفد إلى العاصمة وليلى مدعاة لازدحام العاصمة بالسكان مما دفع ادريس بن ادريس إلى البحث عن مكان يصبح عاصمة جديدة تتسع للوفود العربية فضلا عن الجنود والحاشية والادارة العربية الجديدة .

اضافة إلى أنه عمل على توطيد حدود الدولة من الناحية الشرقية حيث كانت ولاية تلمسان تخضع لنفوذ الادارسة ويتولى ادارة شئونها ابن عمه «محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وكانت تربطه بابن عمه ادريس الثانى روابط قوية وتعرض للعديد من المشاكل مما اضطر ادريس الثانى إلى تجريد حملة حربية يقودها بنفسه عام ١٩٩هـ ليجدد نفوذ دولته ويثبت أركان حكم بنى ادريس فحارب الخارجين على الدولة من الخوارج الصفرية وكذلك قبائل نفرة وغيرها من القبائل حتى بلغ إلى ما وراء نهر شلف. وكان المسجد الذى أقامه والده ادريس فى تلمسان قد تصدع فرممه وأصلحه وأقام بتلمسان ثلاث سنوات ثم عقد صلحا مع ابن الاغلب وتم تعيين الحدود بينهما على أن يكون الحد الفاصل هو وادى شلف وقبل أن يعود إلى المغرب عقد حكم ولاية تلمسان لابن عمه محمد بن سليمان ثم كر راجعا إلى المغرب .

وهكذا نجد ادريس بعد أربع سنوات من حكمه قد بدأ يبحث عن مكان يقيم فيه عاصمة جديدة له ولم تلبث غريزة الدفاع عن النفس أن قادته إلى مكان يسهل الدفاع عنه .

اختيار العاصمة وظهور مدينة فاس :

اشترى الامام ادريس الثانى أرض البناء من القبيلة التى كانت تقطن فوقها بسبعة آلاف درهم وما أن تمت مراسم الشراء والبيع حتى شرع ادريس بن ادريس فى البناء وذلك فى يوم الثلاثاء الاول من ربيع الاول عام ١٩٢هـ / ٤ يناير ٨٠٨م وقد صلى ادريس بها ودعا ربه أن يجعل هذه المدينة حصنا للاسلام والمسلمين وأن يجعلها دار علم

وفقه ويتلى فيها كتاب الله القويم وتقام بها حدوده وأن يجعل أهلها متمسكين بالكتاب والسنة والجماعة .

ولقد كان الدافع الدينى هو المحرك الاساسى لبناء تلك المدينة الدينية حيث تكون مدينة اسلامية يتدارس فيها علوم الدين والثقافة الاسلامية وتكون كعبة يقصدها العلماء والطلاب طلبا للعلم كغيرها من أمهات المدن الاسلامية مثل بغداد وقرطبة .

وان كانت هناك بعض الآراء تذكر انه كان يريد أن يتحلل من سيطرة قبيلة أوربة وسلطانها فأرشده بعض معاونيه على واد يصلح لمدينة على أحد فروع نهر سيو بين جبلين يسمى وادى فاس ومدينة فاس مدينتان جليلتان كبيرتان كل واحدة منها محصنة بينهما واد جرار وهو نهر بطئ وقناطر وعدوة القرويين فى غرب عدوه الاندلسيين وأسست عدوه الاندلسيين عام ١٩٢هـ وغدوه القرويين عام ١٩٣هـ وبها جامع حسن .

وكان الامام ادريس بن ادريس قد قام ببناء عدوة الاندلسيين أولا وذلك لان أغلب سكانه من الوافدين من الاندلس ثم قام ببناء عدوة القرويين وقد أحاطها بالاسوار العالية ذات الابراج العالية على أمثال المدن العربية الكبيرة وتقاطر عليه البربر ومهاجرو الاندلس .

وان كانت أقوال تذكر انه أنشأ بلدة صغيرة سميت عدوة القرويين ثم وفدت جماعات من مهاجرى قرطبة وأنشأوا قرية صغيرة مجاورة عرفت باسم عدوة الاندلسيين ومن العدوتين تكونت مدينة فاس وابتنى ادريس الثانى لنفسه دارا فى عدوة القرويين وشرع فى انشاء المسجد الجامع لفاس وانتقل إلى فاس وأصبحت عاصمة دولة الادارسة منذ عام ١٩٦هـ / ٨١١م وهكذا انتقل ادريس هو وجيشه وحشمه ومواكبه وسائر رعيته من التجار والصناع إلى ذلك الحى أما عدوة الاندلسيين فأنزل بها جميع جنوده وقاد جنده وجعل بها مخازن تلك القوات وما يلزمه من الخيل والابل والبقر والغنم ووضع كل ذلك فى أيدى ثقاته ومن يحس بالامن والامان منهم. ولقد أطلق على عدوة القرويين هذا الاسم

لان كثيرا من الأسر العربية التى وفدت إلى ذلك الحى كانوا من أهل القيروان فقد نزلت معه فى هذا الحى. وكان المسجد الذى أنشأه فى عدوة القرويين قد أطلق عليه مسجد الشرفاء وهكذا أطلق على المدينة اسم فاس وهناك آراء مختلفة فى سبب هذه التسمية وهناك رأى بأن ادريس الثانى حين شرع فى البناء كان يعمل مع الصناع والبنائين فصنع له بعض العمال فأسا فكان الامام يمسكه بيدأ به العمل والحفر ويختط به الأساس للبنائين فكثر لذلك ذكر الفاس على ألسنتهم ولذلك سميت مدينة فاس، وهناك رأى بأن العمال حين بدأوا الحفر وجدوا بها فأسا فى باطن الارض وهناك عدة آراء مختلفة فى شأن التسمية .

وبانتهاء عملية البناء واختيار اسم العاصمة الجديدة أعلن الامام ادريس الثانى أن الهدف من أنشاء المدينة الجديدة بحيث يكون طابعها العلم والمعرفة وتدارس أحكام الدين الاسلامى وهذه المدينة التى أصبحت فيما بعد كعبة يقصدها العلماء من كل فج .

وقد صارت فاس عاصمة جديدة للامام ادريس بن ادريس ومدينة تسير بخطى سريعة نحو التقدم والازدهار وتزدحم بالسكان نتيجة للتسهيلات التى منحها الامام ادريس الثانى للوافدين عليها .

وكذلك جريا على ما اتبعه والده من قبل فى اصدار عملة نقدية لتأكيد استقلاله واستقلال دولته أصدر ادريس عملة نقدية منقوشا عليها اسمه كمظهر من مظاهر الاستقلال السياسى والاقتصادى لدولته وتأكيدا لسيادته وسلطته .

وهكذا كانت أوضاع المغرب الاقصى مهيأة فى ذلك الوقت بالذات للزعامة السياسية والزعامة الثقافية ففى هذه البقعة من افريقية تلتقى المؤثرات الاسلامية العربية القادمة من تونس (المغرب الادنى، والجزائر، والمغرب الاوسط) والاندلس بالمؤثرات القادمة عن طريق ساحل المحيط الاطلسى، ولقد كان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد فى تارخ

البلاد فقد أصبحت حاضرة المغرب الاقصى يقصدها العلماء والتجار من كل صوب .

وبدأت مدرسة فاس تتلقى المؤثرات الثقافية من القيروان وأخذت تكون شخصيتها المستقلة فى نشر العلوم الاسلامية فى ربوع البلاد وكان أئمة الادارسة أنفسهم يؤيدون هذه الحركة العملية ولهم الفضل فى نشر الثقافة العربية فى البلاد .

وقد ساعدت كل هذه الآمور على استقرار الاحوال فى العاصمة الجديدة واستتباب الامور الداخلية .

الاعمال الخارجية :

ما أن أقبل عام ١٩٧هـ/ ٨١٢م حتى تابع الامام ادريس الثانى أعمال والده الحربية وذلك عن طريق توسيع رقعة البلاد وتأكيد سلطة الدولة على الاراضى والقبائل التى تخضع لها وكذلك عملا على تأكيد سلطانه السياسى وتثبيت دعائم الاسلام وتعميق المفهوم الصحيح للمبادئ الاسلامية السمحة ولذلك جرد حملتين احداهما ناحية الجنوب والغرب والاخرى فى الاتجاه الشرقى وذلك لغزو قبيلة نفوسة وبلاد المصامدة وبعد أن تم فتح مدينة تفيس اتجه إلى مدينة اغمات التى تضم قبائل المصامدة وبعد أن تم فتح هذه المدينة اتجه إلى بلاد المصامدة من أهل الجبل بالمغرب الاقصى ثم قبائل براغوطة وذلك استكمالا للحملات التى كان قد قام بها والده الامام ادريس الاول قبل أن تفاجئه المنية وقبل أن يبسط سلطانه على مناطق الجنوب والقضاء على المذاهب الخارجية ونشر الاسلام فى المناطق التى لم يدخلها الاسلام بعد أن كان قد احتل مدن مصمودة فى منطقة الاطلس العليا جنوب مراكش وكان قد أرسل ابن عمه محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن إلى تلمسان ليتولى أمورها وكانت تتبع العباسيين وعليها ابراهيم بن الاغلب قبل أن يفرض سيطرته عليها الامام ادريس الاول .

وهكذا كان عام ١٩٧هـ/ ٨١٢– ٨١٣م هو العام الذى بدأ فيه ادريس سلسلة

حملاته الحربية لتثبيت سلطان الدولة من تلمسان إلى المحيط الاطلسى ونشط لحرب الخواج فى جبال الاطلس ودارت حرب طويلة بينه وبين قبيلة البراغواطيين. وفى هذا الدور من تاريخ الادارسة حمل عبء الجهاد الاسلامى قبيلتا أوربة وغمارة بشكل خاص .

وكانت الاسباب القوية التى دفعته إلى تصفية الخوارج هو رغبته فى أن يعيش وجماعته فى فاس فى ظل الامن والسلام. ومن هنا كان خروجه لمحو آثار دعوة الخوارج من الصفرية ومذهب الواصلية الذين يعتبرون فرعا من المعتزلة والذى كان سائدا ومنتشرا فى تلك الاماكن التى يقصدها .

وكذلك شهد عام ١٩٩هـ / ٨١٤م خروج الامام ادريس الثانى إلى قبائل نفرة وتلمسان ومكث فترة طويلة فى تلمسان تقدرها المصادر بثلاث سنوات لم تكن من أجل الحرب ولكن لانها أبعد حدوده الشرقية المجاورة للاغالبة فقد قام بعدة اصلاحات خلال تلك الفترة ومنها أنشاءات معمارية وهندسية وعسكرية وذلك حتى تتحسن أحوال أهل تلك المدينة المعيشية وحتى يشعر سكانها بالاطمئنان فى ظل حكم الادارسة فقام باصلاح أسوارها وترميم أبراجها وجامعها الكبير ومساجدها الصغيرة وبناء الاستحكامات الضرورية للدفاع عنها وهكذا نرى اهتمام الامام ادريس بالناحية الدينية المتمثلة فى اصلاح مسجد المدينة وبناء منبر جديد له بأعتبار أن المسجد مركز اشعاع لتعاليم الاسلام وتربية المسلمين تربية دينية وكذلك الاهتمام بالنواحى العسكرية والمدنية والعمل على اسعاد مواطنيه واراحتم ماديا ومعيشيا وتوفير كل أسباب الاستقرار والطمأنينة لهم .

وبانتهاء تلك الحملة الثانية فى اتجاه الشرق صوب تلمسان حيث حدود الدولة الاغلبية فانه انتهت أعمال ادريس الثانى التى أثبتت من خلال انجازاته فيها وما قام به من أعمال عسكرية وتأديبية واسلامية ومدنية ومعمارية أنه كان على دراية كبيرة بفنون الحرب والقتال والادارة والتقوى والاصلاح والعمران .

كذلك فانه كان سياسيا بارعا من طراز فريد اذ انه رغم استعانته بالعرب وجعله الادارة العليا فى البلاد فى أيديهم الا انه لم يغفل جانب البربر الذين نشأ وتربى بينهم لذا فانه عمل على توطيد صلاته الوثيقة بهم وعمل على اجتذابهم اليه وخاصة اخوانه من قبيلة أوربة التى تمسكت به وتمسك بها وكانت علاقته بها أقوى وأمتن من أية علاقة أخرى .

كذلك فان للجانب العربى دورا بارزا فى انجاح سياسة ادريس الثانى اذ ان اتجاهه إلى اتخاذ أعوان ومستشاريين له من بينهم وخاصة عرب القيروان والاندلس وغيرهم من بقاع العالم الاسلامى إلى جانب مجموعات الاسر العربية التى أقبلت على دولة الادارسة ولقد كانت الاستعانة بهؤلاء توطيدا وتعزيزا لمكانة ادريس الثانى بين رعيته وشعبه الذى التف حوله خاصة أن الدماء البربرية من أوربة تجرى فى عروقه حيث ان أمه كنزة بنت اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى .

ومن هنا فانه لايوجد أدنى شك أن نجاح سياسته الداخليه والخارجية كان يعتمد بالدرجة الاولى على تشجيع العنصر العربى الوافد بجانب تأييد البربر له ولاسيما قبيلة أخواله أوربة القوية وكان هذا التأييد القوى والجارف من الاسباب القوية التى شجعته للقيام بحملاته الحربية لتأكيد سلطانه وبسط نفوذه على المناطق التى لم تخضع لسلطان الادارسة من قبل. كذلك فان حملاته الحربية كانت استكمالا للحملات الحربية التى قام بها والده الامام ادريس الاول .

وذلك لكى يدعم النفوذ الادريسى فى تلك الاصقاع ولكى يفتتح البلدان التى لم يتمكن والده من فتحها من قبل ويبدو انه سار فى هذه الحملات على خطة كان والده قد رسمها لكنه لم يستكمل تنفيذها نظرا لتدخل الدولة العباسية والاغالبة فى دس السم له، كما أنه نجح فى اخضاع المناطق التى خلعت طاعته بعد مقتل والده وهكذا رجع الامام

ادريس بتبعية تلمسان للعاصمة فاس. بعد أن قضى بها ثلاث سنوات ١٩٩- ٢٠٢هـ/ ٨١٤- ٨١٧م، وهكذا كللت جهوده بالنجاح وجاءت أعماله وثمرة جهوده بالازدهار لدولته بعد أن بذل جهده فى نشر الاسلام وتطبيقا لاحكام الدين الاسلامى الحنيف واضعا نصب عينيه الشجرة المباركة الطاهرة التى ينتمى اليها وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين فى ارساء دعائم حكم الشريعة .

حتى اذا كان عام ٢١٣هـ/ ٨٢٩م توفى الامام ادريس الثانى وكان ابن ثلاث وثلاثين عاما وتذكر بعض الآراء أن الامير زيادة الله بن ابراهيم الاغلبثالث أمراء بنى الاغلب هو الذى احتال عليه فى اغتياله بل قيل انه مات بدس السم ولم يتعد سنه السادسة والثلاثين من عمره . وهكذا مات ادريس الثانى بعد أن نجح فى تثبيت دعائم الدولة وبعد حروب طويلة ومؤامرات خطيرة من جانب منافسه من بنى الاغلب خاصة .

وهكذا فانه يمكن القول بأنه اذا كان الوالد الامام ادريس الاول بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب قد تحمل العبء الاكبر والمشاق الجسام فى انشاء دولة الادارسة فى تلك الاماكن القاصية من المغرب الاقصى واستطاع أن يجتاز بلاد ومناطق من مكة المكرمة بالحجاز وصولا إلى تلك الاماكن واستطاع أن يقيم صرح دولة الادارسة بوضعه اللمسات الاولى واللبنات القوية لكى يرسى دعائم دولته التى قامت على الكتاب والسنة وحكم الشريعة والجماعة الا ان ذلك لم يرضى الذين ملأ الحقد الاسود قلوبهم لاسيما انه من الشجرة العلوية المباركة فلم يمض على توليه ارساء دعائم الدولة ثلاث أو خمس سنوات حتى دس له الخليفة هارون الرشيد وخالد بن يحيى البرمكى بالتعاون مع ابراهيم بن الاغلب حاكم اقليم الزاب السم ليقضى نحبه .

الا ان ادريس الثانى ابنه جاء ليكمل المسيرة التى بدأها والده الامام لكى يقيم دولة الادارسة العلوية الشريفة التى تسقى دماؤها من نبع النبوة الطاهر لكى يدعم نفوذ دولته

ويكمل الصرح الذى شاده أبوه ولكى تظهر دولة الادارسة العلوية شامخة راسخة وطيدة البناء فى سماء المغرب الاقصى ولكى تقاوم الرياح العاتية التى كانت تهب عليها من الشرق حيث الاغالبة حكام الخلافة العباسية ومن الاندلس حيث حكام بنى أمية ومن الرستميين الخوارج الاباضية وكذلك من غيرهم من فرق الخوارج والمعتزلة والواصلية .

وهكذا أرسى ادريس الثانى صرح الدولة والذى لم يمهله القدر اذ توفى وهو فى ريعان شبابه ولم يكن عمره قد تجاوز الثلاثة والثلاثين عاما وقيل السادسة والثلاثين عاما بعد أن دس له زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب السم .

وهكذا انتهى جيل الاباء والابناء وجاء الدور على جيل الاحفاد لكى يتولوا حكم دولة الادارسة وبعملوا على تدعيم الاسلام والعروبة وترسيخ شرع الاسلام والوقوف فى وجه الفتن والدسائس التى تحاك ضدهم من الخارج .

ولكى يسيروا على النهج الاسلامى الذى وضع أسسه ادريس الاول ومن بعده ابنه ادريس الثانى الذان عملا ما وسعهما العمل على الخروج بالمغرب الاقصى من نطاق التخلف والقهر إلى تبوئ مكانة سياسية وعلمية سامية والوقوف فى مصاف الدول الكبرى والعمل على عدم الخضوع للخلافة العباسية فى بغداد أو الخلافة الاموية فى الاندلس والوقوف بحزم ضد أطماع الخوارج الاباضية فى تاهرت وغيرهم ونشر لواء السنة والجماعة والعمل بالشرع الاسلامى باعتبارهم سلالة الشجرة الزكية الطاهرة النبوية ومن هنا وجب على الاحفاد السير على هذا النهج الاسلامى القويم .

الباب العاشر

جيل الأحفاد

أبناء ادريس الثانى

لقد اجتازت دولة الادارسة مرحلتين من مراحل وجودها فلقد بدأ تأسيسها على يد ادريس الكبير وذلك بمعاونة ومساندة قبائل البربر ثم استقرارها وتدعيم سلطانها فى تلك المنطقة وما صاحب ذلك من انشاء عاصمة جديدة ثم استقبلت الدولة عهدا جديدا فى حياتها وهو عهد أبناء ادريس الثانى ومن جاء بعدهم وذلك بتولى محمد بن ادريس بن عبد الله الحكم فى ربيع أول عام ٢١٣هـ/ ٢٠مايو ٨٢٨م .

وقد تولى محمد بن ادريس الحكم بحكم كونه أكبر اخوانه يضاف إلى ذلك أن والده عهد اليه بالحكم قبل وفاته وعلى ذلك فانه ما انتهت مراسم دفن الامام ادريس الثانى حتى اجتمع بالبربر على مبايعته .

وفى عهد الامام محمد تم تقسيم الدولة إلى ولايات كل ولاية يحكمها أحد اخوته وذلك بمشورة جدته كنزة بنت اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى، وذلك لان الجدة كنزة كان لها نفوذ سياسى ورأى فى تسيير دفة الحكم اذ انها أشبه ما نكون بالوصية على الحكم .

ولقد كان هذا التصرف غريبا وغير معقول وهو الذى قام به بناء على نصيحة جدته كنزة بتقسيم الدولة بين اخواته الكثيرين وكان المعقول أن يقيم عمالا أو ممثلين للدولة ولكنه وقع فى خطأ اداري وتاريخى جسيم عجل بانتهاء قوة دولة الادارسة وجعلها مطمعا لجيرانها، وذلك لان تقسيم البلاد إلى اقطاعات ينفرد كل منهم بناحية منها فكان هذا سببا فى ضعف الدولة وهى بعد لم يكتمل فجرها ومع أن محمد بن ادريس احتفظ لنفسه

بالرياسة واعتبر اخوته أتباعا له .

ولقد أشارت الجدة كنزة على حفيدها بالطريقة التى يسير عليها فى حكم البلاد وذلك لان كنزة كانت على معرفة بطبيعة البلاد فهى من البربر وهكذا مكنت لحفيدها بالطريقة التى تسيطر بها أسرته على أنحاء البلاد حيث أن تولية أخوته على أقاليم البلاد تمنع أية حركة تمرد أو انفصال عن جسم الدولة بالاضافة إلى أن عدم اقامة اخوته بالعاصمة يضمن عدم تطلعهم إلى الامامة وقد يكون هذا التجمع خطرا على كيان الدولة واستقرارها .

الا ان قوة الدولة الادريسية يكمن فى ترابط رؤسائها من أفراد البيت الادريسى العلوى الذى كان يتمتع فى قلوب الناس بمكانة جليلة .

وقد قسم البلاد بين اخوته إلى الاقسام الآتية فولى أخاه القاسم بن ادريس بن عبد الله، سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر والبصرة وكلتاهما جنوبى تطوان وكانت تطوان فى أقطاعه كذلك وتطل هذه الولاية على البحر المتوسط .

وأخوه عمر بن ادريس بن ادريس. تولى بلاد الهيط وبلاد غمارة وما والاها وتمثل هذه الولاية منطقة الريف وبعضها يطل على المحيط الاطلسى ومنها مدينة سبته .

ثم ولى أخاه داود بن ادريس: منطقة شمال العاصمة وقد تولى مدينة تامليت وبلاد هوارة وتشول وتازا وما بينهما بما فى ذلك مواطن قبائل مكناسة وغياثة .

وولى أخاه يحيى بن ادريس ولاية غرب العاصمة فاس وهى داى وما والاها وأصيلا والعرائش وبلاد زواغة.

ثم ولى أخاه حمدون بن ادريس بن ادريس مدينة وليلى العاصمة القديمة والاودة المحيطة بها وان كانت هناك أقوال تذكر انه تولى تلمسان فى حين أن ولاية تلمسان

كانت من نصيب أبناء جده سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب واذا اتجهنا نحو الغرب والجنوب الغربى وجدناه يولى عيسى بن ادريس ولاية بها مدينتان هما دازفور وسلى وشالة وأزمور وتامسنا وبرغواطة. ثم أخاة أحمد بن ادريس ولاية مدينة مكناسة وتادلا وما بينها من بلاد فازاز ، ثم أخاه عبد الله بن ادريس بن ادريس بن عبد الله فقد تولى مدينة اغمات وبلد نفسيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الاقصى فى أقصى جنوب المغرب الاقصى .

ولقد كان أخوة الامام محمد بن ادريس الثانى ثمانية أخوة تولوا جميعا أقاليم تابعة للعاصمة فاس وهم عبد الله، أحمد، عيسى، حمدون (حمزة) يحيى، داود، القاسم، عمر.

واكتفى الامام محمد بن ادريس بتولية فاس العاصمة وأدار منها الدولة وكان هؤلاء ولاة أقاليم ويلاحظ أن التقسيم كان يعطى كلا من أولئك الاخوة الكثيرين بلدا أو أكثر واقليما تسكنه قبيلة أو قبائل وكان له الحق فى الاستيلاء على معظم المال الذى يجمع من الناحية وكان من الطبيعى أن ينقلب بعض الاخوة عليه أو على بعضهم البعض وأن يتحاربوا فيما بينهم وقد استعان محمد بأخيه عمر على الثائرين من اخوته وأعطاه أعمالهم فاتسعت ولاية عمر حتى بلغت عند موته نصف الدولة الشمالى والغربى كله ثم خلفه عليها ابنه على بن عمر بن ادريس .

ولقد تطورت الاحداث فى الامامة وبرز الخلاف فى خروج عيسى على طاعة أخيه الامام محمد الحاكم الاعلى للبلاد معلنا العصيان مستقلا بنفسه ولقد كان عيسى هو الوالى على المنطقة الغربية الجنوبية للعاصمة فاس وهذه الولاية تضم مدينة شالة وتامسنا وما إلى ذلك من القبائل ولقد وجدت رغبة عند عيسى فى الاستقلال عن الامارة تأييدا من القبائل البربرية التى يحكمها وتخضع لنفوذه وقد مكنه هذا التأييد من اعلانه العصيان وشق عصا الطاعة على الحكومة المركزية فى العاصمة فاس .

وهنا ظهرت حنكة الامام محمد بن ادريس اكبر اخوته اذ لم يخرج بنفسه لمقاتلته بل أرسل أخاه القاسم بن ادريس الذى اعتذر عن مقاتلة ومحاربة أخيه عيسى وذلك حرصا على صلات الرحم والمودة بينه وبين أخيه ومن ثم لجأ الامام محمد بن ادريس إلى الكتابة إلى أخيه عمر بن ادريس الوالى على مدينة مكناسة وبلاد غمارة بالتوجه إلى عيسى بن ادريس لمحاربته لما أعلنه من عصيان وخروجه على طاعة أخيه فى العاصمة فاس وعدم الاستجابة والمثول للاوامر واستجاب عمر لامر أخيه وخرج فى جيش عظيم قاصدا أخاه عيسى بن ادريس فكتب عمر إلى أخيه محمد بطلب المدد وأن يمده بألف فارس من قبائل زناتة ورؤسائهم وفرسانهم والحق عمر بأخيه عيسى الهزيمة وكان أن أمر الامام محمد بن ادريس بأن تضم امارة عيسى إلى امارة عمر فى ولاية واحدة .

وعملا على بسط سلطان العاصمة فاس على بقية الولايات ومحاربة كل من يخالف أمر الحاكم الاعلى والامام الاول للبلاد فانه استخدم أسلوب الشدة والصرامة فى معاملة حكام الولايات من اخوته، ثم انه أمر الامير عمر بن ادريس بن ادريس بأن يسير إلى طنجة لقتال أخيه القاسم بن ادريس وكانت بينهما معارك طويلة انتهت بهزيمة القاسم وبعد أن تمكن عمر من هزيمة القاسم فانه ضم أملاكه كما ضم أملاك عيسى من قبل إلى ولايته .

وهكذا استطاع الامام محمد بن ادريس أن يقضى على الفتنة فى مهدها بمعاونة أخيه عمر بن ادريس غير انه كانت هناك محاولات للانفصال من جانب بعض الاخوة .

وقد استطاع الامير محمد بن ادريس أن يقر الامن والطمأنينة فى ربوع المغرب الاقصى بعد أن كادت الفتن بين الاخوة تمزقه ولقد ساعد على عدم تدخل القبائل فى الصراع الدائر بين الاخوة انتسابهم إلى رسول الله ﷺ فان ذلك كان له أبعد الاثر فى توحيد القبائل المتنافرة الضاربة فى المغرب واستطاعوا لاول مرة الجمع بين اقليمى السهول

والمراعي وبين أصحاب الحضارات القديمة والاقاليم البدوية فى الجنوب .

وعلى الرغم مما كانت عليه الدولة من ازدهار فى جميع المجالات الا انها جرت على مبدأ تقسيم البلاد بين أبناء الامير ادريس بن ادريس ،وكذلك بين اخوته على أن يختص كل واحد بقسم يخضع له وأن يكون الخضوع فى نفس الوقت اسميا للامير وعلى هذا جرت الامور منذ وفاة الامام ادريس بن ادريس. وهكذا كان ذلك التقسيم السابق الاشارة اليه ذلك لان الدولة كانت قد بلغت أقصى اتساع لها أيام رابع أئمتهم الامام محمد ابن ادريس بن ادريس حيث قسمت الدولة إلى ثمانية أقسام أعطيت لاخوه السلطان على أن يكون لكل واحد منهم حرية التصرف فى قسمه، على أن هذا كما سبق القول لم يمنع من حدوث الانقسامات والحروب والتى خرج منها الامير عمر بن ادريس بأن يكون له حكم نصف الدولة .

وهكذا حمل تقسيم البلاد بين الاخوة بذور الخلاف والتصدع فى جسم الدولة الفتية وكان هذا التقسيم بداية النهاية لدولة كانت تخضع لحكومة مركزية وهكذا فان دولة الادارسة أصابها الانحلال بعد أن وزع أبناء ادريس الثانى ارث أبيهم فاستقل كل بجزء من البلاد، الا أن فترة المنازعات التى حدثت بين الأخوة لم تحل دون ازدهار البلاد وتحسن أحوال رعاياها نتيجة للسياسة العادلة التى سار عليها الامام محمد ابن ادريس مقتديا فى ذلك بمن سبقه من الائمة كجده الاكبر ادريس ووالده ادريس الثانى وكذلك واضعا نصب عينه المحافظة على ذلك البناء الشامخ الذى وضع أساسه الامام ادريس بن عبد الله وثبت دعائمه بعده ابنه ادريس الثاني والذى عمل على مقاومة كل محاولات الانفصال، تلك المحالات التى هددت الوحدة الاقليمية التى تحققت للبلاد من قبل .

وقد توفى الامام محمد بن ادريس بن ادريس فى ربيع الآخر عام احدى وعشرين ومائتين ٢٢١هـ/٨٣٥م ودفن فى مدينة فاس فى الجهة الشرقية من جامعها الكبير مع

أبيه ادريس الثانى وأخيه عمر بن ادريس الذى توفى قبل وفاته بسبعة شهور وذلك بعد أن حكم فترة تزيد عن ثمانى سنوات هجرية وبوفاته أصبح مقعد الحكم فى البلاد شاغرا .

الامام الرابع

الامام على بن محمد بن ادريس

لم يكن الامام محمد بن ادريس قد أخذ البيعة لاحد من أبنائه أو اخوته ومن هنا حدثت بعض المشاكل بعد وفاته لكن الامور كانت قد استقرت من حيث ولاء القبائل لهذه الاسرة التى ينتمى نسبها إلى آل البيت العلوى ومن ثم كان على أبناء الادارسة أن يوحدوا موقفهم فى مواجهة المخاطر التى تهدد دولتهم خارجيا لاسيما من قبل الاغالبة وبنى رستم والامويين حكام الاندلس .

فكان الاتفاق على أن يتولى الامامة بعد وفاة الامام محمد ابنه على الذى لم يكن عمره يزيد عن تسعة أعوام وأربعة شهور عندما تمت مبايعته بالامامة لكى يكون الامام الرابع فى قائمة أسرة الادارسة .

وقد تكون هناك آراء تذكر أن والده دعا لكى يستخلفه على بعد وفاته فى قيادة الامة نظرا لانه كان يعرف عنه حدة الذكاء وسمات العبقرية والحزم على الرغم من صغر سنه، لكنه على الرغم من صغر سنه فقد تم تعيينه اماما بعد الانتهاء من حل الامور التى كانت تعترض توليته ونظرا لصغر سنه فان وزراء أبيه من العرب وغيرهم من رجال البربر قاموا بأمره ومؤازرته فى حكمه وقام بأمره الاولياء والحاشية من العرب وقبيلة أوربة البربرية وسائر البربر وصنائع الدولة وبايعوه غلاما وأحسنوا كفالته وطاعته وقد سار فى نهجه فى حكم البلاد سيرة أبيه وجده من حيث الشريعة وأدار البلاد بالحزم والقوة واحقاق الحق وازهاق الظلم والباطل وتأسيس البلاد والمدن وقمع الاعداء وضبط أمور البلاد والثغور على

الرغم من أن والده كان قد ترك الدولة مفرقة ومقسمة وضعيفة وقد أطلق ابن خلدون على الامام على الاول بن محمد بن ادريس الثانى اسم «حيدرة» وحيرة لقب كان يطلق على الامام الاكبر للاسرة العلوية (الامام على بن أبى طالب) ومعناه الاسد. وكان أقاربه ورجال الدولة قد أطلقوا عليه هذا اللقب نظرا لانه استطاع أن يكون على تلك الصورة من القوة أثناء الحكم تحت وصايتهم .

وقد سار على نفس النمط والنهج الذى سار عليه والده وحافظ على كل الاعمال التى قام بها والده من قبل وأبقى عليها وكذلك أبقى على كل وآل فى ولايته .

ولقد كان لنهج السياسة العادلة التى سار عليها الامام على الاول ابن محمد أن بدأت الدولة تخطو خطوات واسعة فى جميع الميادين وبدأت روح الانتعاش تدب فى أنحاء البلاد وسادها الامن والرخاء .

وقد توفى الامام على بن محمد بن ادريس فى شهر رجب عام أربع وثلاثين ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م. وكانت مدة حكمه ثلاثة عشر عاما .

الامام الخامس

يحيى بن محمد بن ادريس بن ادريس الاول

هو الامام الخامس فى أئمة حكام الدولة الادريسية وهو ابن الامام محمد بن ادريس وشقيق الامام على الاول بن محمد وليس هو الامام الرابع فى قائمة أئمة الادارسة ولا هو ابن الامام ادريس الثانى كما أشار إلى ذلك الدكتور حسن أحمد محمود، والدكتور ابراهيم الشريف فى كتابهما العالم الاسلامى فى العصر العباسى اذ ذكرا ص ٤١٢ أن الامام يحيى الرابع بن ادريس بن ادريس بن عمر (٢٩٢- ٣١٠هـ) فى حين انه الامام يحيى بن محمد بن ادريس وهو رابع الائمة فى حين أنه هو الخامس ولا يوجد اسم عمر

فى قائمة أسماء الائمة .

وقد تولى بعد وفاة أخيه الامام على الاول وذلك بعد دفنه وقد تميز عهد الامام يحيى بن محمد بالاستقرار والرخاء مما دفع كثيرا من الناس من افريقية والاندلس إلى الهجرة نحو العاصمة فاس وقصده الناس من الاندلس وافريقية (المغرب الادنى) وجميع بلاد المغرب ونتيجة لهذه الهجرات المتتالية ضاقت العاصمة بسكانها فنشأت الارياض بخارجها لسكنى الوافدين اليها .

وتسهيلا من الامام يحيى بن محمد على التجار الوافدين على عاصمته ورغبة منه فى تنشيط الحركة التجارية فى البلاد فانه أمر ببناء الحمامات والفنادق للتجار وغيرهم ولقد كانت هذه الوفود المتتالية تضم وفودا من القيروان .

ويعتبر الامام يحيى بن ادريس أعظمهم قوة وأعلاهم قدرا فى الاسرة الادريسية وقد امتد حكمه على جميع بلاد المغرب الاقصى وقد وصفه أبو خالد ناصر السلاوى فى كتابه الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى قائلا عنه هو واسطة عقد البيت الادريسى، وأعلاهم قدرا وأبعدهم ذكرا وأكثرهم عدلا وأغزرهم فضلا وأوسعهم ملكا، وكان فقيها حافظا للحديث، ذا فصاحة وبيان، بطلا شجاعا حازما، وصلاح دين وورع .

وقد بلغت الدولة أقصى اتساع لها فى أيام حكم ذلك الامام يحيى ابن محمد، اذ انه عمل من جانبه على تجديد العاصمة فاس فأقام العديد من المنشآت بها واستحدث بها الابنية شيئا فشيئا فقصدها كثير من التجار الاجانب وأصبحت مركزا لتجارة أوربا مع بربر الصحراء الذين قدموا اليها حاملين من ساحل غانا العاج والرقيق وغيره من منتجات بلادهم لكى يبادلوه بمصنوعات البربر وأوربا .

ولقد أجمع المؤرخون على أن عهد يحيى محمد هذا كان عهد ازدهارا لم تبلغه البلاد من قبل وكانت الاعمال التى قام بها سلفه قد بدأت تؤتى ثمارها فى عهده

وشهدت فاس العاصمة علامة ذلك الازدهار فقد قامت بها المنشآت الكثيرة وامتدت حتى وصلت إلى سفوح الجبال .

انشاء جامع القرويين :

لقد كان من بين كبار التجار الذين عملوا بالاشتغال بالتجارة فى العاصمة فاس والذين كانوا ممن هاجروا اليها من القيروان فى المغرب الادنى التاجر العربى « محمد بن عبد الله الفهرى» الذى توفى عن ثروة كبيرة ولم يترك ذرية ذكورا عقبا له ولكن ترك بنتين هما «مريم وفاطمة» فأراتا أن تصرفا هذه الاموال الطائلة فى وجوه البر وأعمال التقوى التى تقربهما إلى الله فكان أن تم بناء جامع القرويين ورغبة من فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهرى فى المشاركة فى حركة العمران بالمدينة لاسيما انها كانت من ربات البر والاحسان فكان أن ساهمت بمالها فى بناء جامع كبير هو جامع القرويين وذلك عام ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م ودور جامع القرويين لا يقل عن دور جامع الزيتونة ذلك المسجد الذى قام بدوره منذ انشائه فهو يمارس مكانته العالية فى نشر الثقافة العربية الاسلامية ولقد كان هذا المسجد الجامع يضم خزانة كتب كبيرة وذلك تشجيعا للعلم ورغبة فى الاعتناء بأهله والتوسعة على طلبة العلم وذلك بعد أن ضمت تلك الخزانة من الكتب المحتوية على أنواع فى علوم الابدان والأديان (الدين الاسلامى فقط) واللسان والاذهان وغير ذلك على اختلافها وتنوع فروعها وأجناسها .

وكانت فاطمة قد علمت باحتياج الناس إلى مثل هذا الجامع وكذلك شاركت فاطمة فى حركة البناء أختها مريم حيث قامت ببناء مسجد فى عدوة الاندلسيين .

وهكذا أحدثت الوفود المقبلة على العاصمة لتعيش فيها انتعاشا فى الحركة التجارية بالاضافة إلى زيادة العمران واتساع العاصمة لاستيعاب هذه الاعداد. كما أن بعض من هاجروا إلى العاصمة شاركوا بأموالهم أيضا فى حركة العمران والبناء .

وقد تميز عهد الامام يحيى بن محمد بالهدوء والاستقرار الا أن حركة متطرفة قامت فى نواحى تلمسان ولم يتحقق لها النجاح حيث قضى عليها أمير تلمسان وهكذا قدر لهذه الحركة الخارجة على الدعوة الاسلامية أن تموت فى مهدها. وذلك بفرار صاحبها إلى الاندلس حيث لقى فيها حتفه على يد حاكمها .

وقد سار الامام يحيى بن محمد فى نفس الطريق الذى سار فيه اخوته من حيث الموافقة على تولية أعمامه وأقاربه الولايات المختلفة للبلاد. ولم تشر المصادر إلى السنة التى توفى فيها الامام يحيى بن محمد بن ادريس سوى ما ذكره الكتانى فى كتابه الازهار العاطرة ص ١٩٥ أن وفاة الامام يحيى بن محمد كانت فى عام ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م أى أن فترة حكمه استمرت خمسة عشر عاما وبوفاته بدأت عوامل الضعف والانهيار تدب فى أوصال الدولة .

وكان انشاء جامع القرويين أو مسجد فاس من المفاخر الاسلامية التى تمت فى عهد الامام يحيى بن محمد اذ أن جامع فاس من مساجد الاسلام المشهورة فى تاريخ المغرب والعالم الاسلامى فقد أصبح مركزا للعلم والدراسة من أول انشائه وقد تحول بعد ذلك إلى جامعة ولازال إلى اليوم يمارس دوره كجامعة كبرى مثله مثل الجامع الازهر ولكن جامعة القرويين أقدم عمرا من جامع الازهر وهى عمدة الجامعات الاسلامية وربما عميدة جامعات الدينا .

ويذكر ابن خلدون عن الامام يحيى انه قام بالامر منذ سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثاره وازداد عمران فاس فى عهده وبنيت فيها الحمامات والفنادق وبنيت خارجها الارياض ورحل اليها الناس من البلاد المغربية .

ولقد كان للتوحيد أثره فى اقامة حكومة غير مركزية اشترك فيها العرب والبربر واستطاعوا بفضل هذه الوحدة نشر الاسلام بين القبائل التى لم تكن قد اعتنقته بعد ما

بدأت مدينة فاس تحتل مكانتها العالية فى أن تكون مركزا تجاريا يلتقى فيه تجار الجنوب بتجار الشمال وبدأت مدارس فاس تتلقى المؤثرات الثقافية من مدارس القيروان وقرطبة فى الاندلس حتى استطاعت بعد قليل أن تقف على قدميها وتكون لها شخصيتها المستقلة واليها يعزى فضل نشر اللغة العربية بين البربر وبين الملثمين القاطنين فى اقليم السهوب والصحراء الجنوبية .

ولم يلبث جامع القرويين بفاس أن أضحى أكبر مدارس المغرب الاقصى تفوقا وعلما وتجويدا حتى قصده الناس من كل حدب فأصبح دار فقه وعلم وحديث وتفسير يتغذى باعطائه كل فقهاء المغرب ويشبهه المؤرخون بمدرسة الفسطاط فى المحافظة على علوم الدين وتغير المنكر والقيام على الشريعة وزادت شهرة فاس بعد أن اضطرب الامر فى قرطبة والقيروان حتى لقد قصدها أحد بابوات الكنسية فى روما طلبا للعلم الاسلامى وتطلعا لدراسة كل تقدم علمى فى الميادين العلمية المختلفة والتى كانت تدرس فى جامعة القرويين .

الامام يحيى بن يحيى بن محمد بن أدريس بن ادريس

الامام السادس فى أسرة الامام ادريس بن عبد الله

بعد أن توفى الامام يحيى بن محمد عام ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م فان الامامة آلت من بعده إلى ابنه يحيى لانه كان قد أخذ البيعة له قبل وفاته ولكن هذا الامام كان على عكس كل الائمة الذين سبقوه فى تولى امامة دولة الادارسة بدءا من ادريس الاول حتى والده الامام يحيى حيث أساء أسلوب الحكم ولم يسلك مسلك الشرع وعبث بالمحرمات مما أدى إلى غضب سكان العاصمة وقيامهم بثورة عليه .

وفى ذلك يقول ابن أبى زرع قامت عليه ثورة مسلحة بقيادة عبد الرحمن بن سهل

الجذامى، وذلك لان يحيى كان شابا طائشا غير أهل للحكم والمسؤلية ومن هنا كانت ثورة الناس عليه والذين أشعلوا الثورة فى كل مكان بالمغرب الاقصى وهكذا استطاع الثوار طرده من الامامة بعد أن ترك وراثه ثورة مضطربة فى العاصمة إلى جانب استقلال الولايات عن العاصمة استقلالا كليا استنادا إلى ضعف حاكم العاصمة فضلا عن سوء سلوكه .

ويبدو أن تعمق الشعور الدينى لدى السكان واحساسهم بالفرق العظيم بين حكم الذين سبقوه وحكم الامام يحيى هذا وانصرافه عن تطبيق الشريعة الاسلامية كان من الاسباب القوية للثورة عليه وتولى الثوار وزعيمهم «عبد الله بن أبى سهل الجذامى» شقيق عبد الرحمن قائد الثورة حكم العاصمة فاس بعد خلع الامام يحيى بن يحيى وهنا لم تجد زوجة الامام يحيى بن يحيى بن محمد وهى عاتكة ابنة عمه على بن عمر بن ادريس الثانى، الا أن تكتب إلى أبيها وهو حاكم منطقة الريف تخبره بما حدث لزوجها والعاصمة الثائرة مما اضطره إلى الهروب وترك قصر الحكم، بل أن الامر لم يقتصر على كتابة ابنته اليه، بل كتب اليه أيضا وشاركها الرأى رجال الدولة وكبار رجال الجيش والحاشية عما يسود العاصمة من فوضى وعدم القدرة على ضبط الثوار والنظام بعد أن استفحل أمر الثوار .

وقد كان الامام يحيى بن يحيى سيئ السمعة والسيرة ومن هنا ثار عليه الناس فاختفى بعدوة الاندلس ريثما تخمد الفتنة ولكنه مات فى ليلته واستولى عبد الرحمن بن أبى شهيل الذى تزعم الثورة على يحيى بن على على مدينة فاس لكن أصحاب الريف من أبناء عمر بن ادريس قد حكموا البلاد ولم يلبث أن دخل أهل فاس فى طوع عمر بن ادريس وخطب له على منابر المغرب واستقرت قدمه فى هذه البلاد فترة من الزمن .

ويذكر السلاوى انه بعد وفاة يحيى الاول عام ٢٣٤هـ إلى وفاة يحيى الثالث بن القاسم بن عمر بن ادريس الثانى عام ٢٩٢هـ وقعت ببلاد المغرب حوادث جسام بسبب

انتشار الفوضى فى هذه الفترة التى دارت فيها رحى الحرب الاهلية بين أبناء ادريس والخوارج الصفرية مما أثر تأثيرا سيئا فى حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية فقد انتشر القحط وعدمت الاقوات وغلت الاسعار وفشا الموت لدرجة لم يعهد لها أهالى البلاد مثيلا من قبل ففى عام ٢٥٣هـ انتشر القحط ببلاد العدوة وقاسى الاهلون الشدائد والاحوال سبع سنين عجافا، وفى عام ٢٦٧هـ حدث زلزال عظيم لم يسمع بمثله من قبل فهدمت الثغور وانحطت فيها الصخور من الجبال فدمرت الناس فى سهلها وجبلها وجميع بلاد العدوة من تلمسان إلى طنجة ومن البحر الرومى إلى أقصى المغرب وفى عام ٢٧٦هـ انتشرت الفتن ببلاد المغرب الاقصى وافريقية وعم القحط بلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضا وهلك خلق كثير فى الوباء .

وصفوة القول أن هذه الفترة قد سادها الاضطراب والفوضى وانقسم الادارسة على انفسهم حتى ان ابن خلدون الذى يعتبر شيخ مؤرخى المغرب لم يستطع أن يحدد مبدأ ونهاية حكم أمراء الادارسة فى هذه الفترة الغامضة .

وبانتهاء حكم الامام يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس فقد انتهى عقب الامام محمد بن ادريس الثانى بعد أن حكم محمد خلفا لابيه ادريس الثانى ثم من بعده الامام على الاول ثم أخيه يحيى الاول وجاء بعده يحيى ومن ثم انتقل الحكم إلى فرع آخر من أسرة الادارسة هو فرع عمر بن ادريس شقيق الامام محمد وساعده الايمن والذى استطاع أن يقضى على ثورة الاخوة عيسى بن ادريس وقاسم بن ادريس والذى توفى قبل أخيه محمد بتسعة شهور .

وهكذا قدر لسوء سلوك الامام يحيى بن يحيى كما أشارت إلى ذلك المصادر أن يقتل بأيدى الثوار وأن يكون سببا فى انتهاء حكم أسرة محمد ابن ادريس وانتقال مقاليد الحكم والامور فى البلاد إلى الفرع الآخر الذى سنرى فى الفصول القادمة كيف سيحكم

آل عمر بن ادريس البلاد ويقودها إلى بر الامان عملا على نهج الكتاب والسنة الذى كان يحرص عليه الائمة من ابناء ادريس العلويين الطالبيين الهاشميين القرشيين .

انتقال الحكم إلى فرع آخر من أسرة الادارسة

آل عمر بن ادريس

الامام السابع على الثانى بن عمر بن ادريس

بفرار الامام يحيى بن محمد بن ادريس من العاصمة فاس انتقل الحكم إلى فرع جديد من آل ادريس هو فرع عمر بن ادريس شقيق الامام محمد فقد كان لوصول الانباء إلى على بن عمر الذى كان يتولى حكم منطقة الريف خلفا لوالده عمر عن أحداث العاصمة والثورة أثرها فى تحركه فما كان من على الثانى الا أن جمع جيوشه وحشد قواته وترك اقليم الريف قاصدا العاصمة فاس لكى يعمل على اقرار الامن والنظام بها والمحافظة على بيت آل ادريس، فما أن وصل وقواته إلى العاصمة حتى بايعه كبار رجال الدولة وكبار شيوخها وما أن ألقى خطبته على منبر مسجدها الكبير حتى توافدت اليه الناس والقبائل تبايع بالامارة خلفا للامام يحيى الثانى .

ولقد كان الامام الجديد على الثانى بن عمر يحكم منطقة الريف وراثة عن أبيه عمر الذى كان أخوه محمد بن ادريس قد أعطاه ومنحه حكم هذه الولاية كما أسلفنا سابقا .

وعلى هذا فانه يمكن القول أنه بانتهاء حكم يحيى بن يحيى لا يمكن اعتبارها مرحلة انتقال السلطة من أبناء محمد بن ادريس إلى بنى عمومتهم عمر بن ادريس فقط بل انها تمثل انتهاء دولة الادارسة كدولة متماسكة واضحة المعالم لها شخصيتها المميزة والتى وضع أساس قوتها الاولى ادريس بن عبد الله عام ١٧٢هـ / ٧٨٨م وثبت دعائمها

من بعده ابنه ادريس بن ادريس عام ١٩٧هـ / ٨١٢م. وخضعت جميع أقاليمها لحكم ابنه محمد بن ادريس بن ادريس عام ٢١٣هـ / ٨٢٨م. ولقد حافظ على وحدة البلاد وتماسكها كل من جاء بعدهم من الحكم الائمة الذين كانوا يتخذون من العاصمة فاس مركز الحكم والسيادة وذلك حتى وفاة يحيى بن يحيى بن محمد عام ٢٥٢هـ.

هذه الفترة الزمنية من عام ١٧٢هـ حتى عام ٢٥٢هـ. والتى تمثل ثمانين عاما فى تاريخ الدولة حتى وفاة الامام يحيى بن يحيى انما هى الفترة الزاهرة بل هى العمر الحقيقى للدولة الادريسية كدولة فوية متماسكة لها نفوذ سياسى وقوة وكيان فى المغرب العربى .

لكن المقام لم يطل على حكم الامام على الثانى بن عمر بن ادريس الذى أقبل على العاصمة فاس من اقليم الريف الذى كان يحكمه اذ لم يستطع أن ينعم بالهدوء من القضاء على ثورة (عبد الرحمن بن أبى سهيل البربرى) ، اذ انه لم يقدر له أن يلعب دورا مؤثرا فى حكم البلاد وان كان قضاؤه على هذه الثورة التى قام بها عبد الرحمن بن أبى سهيل قد مكن له من العاصمة فاس والاقاليم التابعة للدولة .

لكن ثورة أخرى قد بدأت تأخذ بعدها الجديد للوقوف فى وجه الامام الجديد على الثانى بن عمر. تلك الثورة التى قام بها «عبد الرازق الفهرى الخارجى» الذى نجح فى أن يؤلب القوم ضد الادارسة وشجع بعمله فى أن يجعل الكثير من البربر يلتفون حوله وحول ثورته التى تطالب بانتهاج أسلوب حكم يتمشى مع الشريعة الاسلامية وهكذا استطاع عبد الرازق الخارجى أن ينجح فى الاستيلاء على بعض القرى المحيطة بفاس بعد أن تجمعت حوله القبائل لكى تشد من أزره وتسانده ضد بنى ادريس، لكن الامام على الثانى كان قد جهز جيوشه والتقى معه فى معركة بالقرب من أبواب العاصمة فاس، لكن الدائرة دارت على الامام على الثانى حيث كان النصر النهائى فى تلك المعركة لعبد الرازق الفهرى

الخارجي ومن هنا كانت أيام حكمه مليئة بالفتن والثورات .

ولقد كانت ثورة الخوارج الصفرية بقيادة عبد الرازق الخارجي دافعا لكى يهرب الامام عمر إلى قبيلة أوربة بعد هزيمته وهى القبيلة التى آوت ونصرت جده الاكبر ادريس الاول وناصرته حتى أقام دولته ولكن جدته كنزة بنت اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى ابنة زعيم قبيلة أوربة كانت قد ماتت وهكذا كان الادارسة يجدون الامن والامان والمساندة من قبيلة أوربة كلما ألمت بهم الملمات .

وهكذا أصبحت دولة الادارسة تتلقى الضربات تلو بعضها البعض على أيدى الثائرين وتخضع للخارجين على الدولة وتفقد سلطانها ونفوذها شيئا فشيئا بل انها لم يعد لها الحب والنفوذ الذى كانت تتمتع به بين شعبها .

الامام يحيى بن القاسم بن ادريس بن ادريس

هو الامام يحيى بن الامير القاسم شقيق الامام محمد بن ادريس بن ادريس والذى كان والده يتولى ادارة اقليم طنجة وسبتة جنوبى تطوان من قبل أخيه الامام محمد يوم أن كانت الدولة قوية. ولقد كان القاسم والد الامام يحيى الثالث هذا قد خرج على السلطة المركزية فى فاس مما اضطر الامام محمد بأن يرسل اليه أخاه عمر للقضاء على ثورته وتم له ما أراد .

لكن الظروف التاريخية تتغير فها هو ابنه الامام يحيى بن القاسم يعود إلى السلطة فى فاس لكى يحافظ على عرش آل ادريس من الانهيار .

ولقد كان أهل عدوة القرويين وهم الجزء الاكبر من العاصمة فاس قد اتفقوا على مبايعة عبد الرازق الفهرى زعيم الخوارج الصفرية والذى دخل العاصمة فاس بعد أن فر منها الامام على الثانى بن عمر بن ادريس وبعثوا رسولا منهم يستنجد بالامام يحيى بن القاسم بن ادريس الذى ربما كان أقوى الشخصيات من آل ادريس الذى كانت بأيديهم

ولقد كانت لهم إمارات أخرى غير التى قسمها محمد بن ادريس بين إخوانه منها إمارة متيجة ولعل مقرها هو «قزرونة» البليدة حالياً، وسهل متيجة زرع وعمارة واسعة وفيه عدة مدن وحصون تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن على بن أبى طالب يقال لهم بنو محمد بن جعفر، ولما ظهرت جنود الشيعة داهموها ومحوها.

ثم إمارات «محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب»، وهو ابن شقيق الإمام إدريس الأكبر؛ حيث أن سليمان هو شقيق إدريس، وكذلك عيسى بن عبد الله.

ولقد كانت لبنى سليمان إمارات كثيرة بالشريط الساحلى فى الجهة الغربية على البحر الأبيض المتوسط ويندرج فيه مدينة «مسغتانم»، و «ننس والشلف»، و«تلمسان»، و«متيجة»، وأشهر أمرائهم هو «أبو العيش عيسى»، الذى تولى إمارة «جراوة»، وامتد نفوذه إلى تلمسان وجراوة التى كانت مركزاً لهذا الأمير العلوى تبعد عن البحر عدة أميال، وعلى مرحلة من وادى ملوية إلى ناحية تلمسان.

وهذه الإمارة العلوية لم تكن ذات نفوذ سياسى قوى على اعتبار أنها جزء من دولة الأدارسة لكن الإمارة الرستمية التى كانت تأخذ بالمذهب الخارجى الأباضى كانت أقوى منها وأقرب إلى السياسة الحكومية وتأثيرها فى الناحية الاجتماعية واللغوية والدينية واضح فى تلك النواحى، وقد تأخر سقوط بعض إماراتهم عن سقوط دولتهم بالمغرب بنحو خمسين سنة؛ فالحسن بن أبى العيش العلوى هزمه ابن أبى العافية عام ٣٣٨هـ بعد أن كان قد تحصن بحصنه الذى التجأ إليه بجراوة، وكذلك صاحب تنس الأمير على بن يحيى الأدريسى سقطت إمارتهم الواحدة تلو الأخرى على أيدى العبيديين الذين شاركوهم فى البيت الشريف، وإن صح انتسابهم إلى الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وخالفوهم فى المعتقد.

وكان حكم الأدارسة يمتد فى بلاد المغرب الأقصى من السوس الأقصى إلى وهران، وكانت حاضرتهم مدينة فاس التى بلغت حداً كبيراً من العمران، وأصبحت مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية. وقد أسهم الأدارسة فى خدمة العالم الإسلامى فى البقعة التى حكموها فهم الذين ثبتوا البربر على الإسلام ويعتبرون بحق الممهدين لظهور البربر فى المجال الإسلامى ظهوراً واضحاً؛ فإن البربر لم يرسخ قدم الإسلام بينهم إلا بعد أن اتخذ نظام الحكم بينهم شكل حكومة قوية، وأصبح مرتبطاً بتولى دولة البربر الحكم. تلك الدولة الأدريسية التى دخل فى عهدها كثير من البربر فى حظيرة الإسلام، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزاً على ضياع الاستقلال السياسى.

ولقد كان ظهور الأدارسة وحكمهم للمغرب حكماً قومياً مقدمة لظهور المرابطين الذين كان ظهورهم يمثل حركة قومية عظيمة جذبت عددا كبيرا من قبائل البربر نحو الاندماج فى الأمة الإسلامية الكبيرة.

وقد قام الأدارسة بدور كبير فى انتشار الإسلام فى غرب أفريقية وينسب إليهم الفضل فى الدعوة للإسلام فى حوض الشمال.

كما أن مدينة فاس عاصمة الأدارسة ظهرت ظهوراً ثقافياً واضحاً، وأصبحت هى ومدينة القيروان تمثلان نموذجاً للمدارس الإسلامية فى المغرب. ولقد انتشرت المدارس فى أصيلا وسبتة وطنجة واشتهر من علمائها كثيرون من العلماء أمثال أبو العباسى أحمد بن عبد الرحمن الهوارى، كما غدت مدرسة تلمسان داراً للعلماء والمحدثين وأخذ علماء المغرب بعد أن ذاع صيتهم، وبعد أن انتهلوا من موارد العلم الأندلسى يصبحون كعبة طلاب العلم، كذلك ساهمت فى نشر الثقافة العربية الإسلامية مدناً أخرى منها أغمات وسبتة ومليلة ومراكش وغيرها من مدن المغرب المختلفة، والتى جادت بعطائها العلمى الفياض نحو غيرها من الأقاليم الجنوبية؛ فانتشرت الثقافة الإسلامية فى جو هادئ وسادت

اللغة العربية فى أمن وسلام، وكلما ازداد نشاطها وهبت مزيداً من العلم والفكر والثقافة، وهكذا ازدهرت تلك القلاع والمنارات العلمية، ونجحت فى أداء دورها فى عهد الأدارسة.

ولقد توطدت البلاغات الثقافية والفكرية بين هذه المراكز الفكرية فى المغرب وغيرها من الجماعات الإسلامية الأخرى؛ حيث رحل الطلاب والعلماء من الزيتونة والقرويين إلى تلك المراكز الإسلامية المنتشرة فى بلاد المغرب لنشر الطابع العربى الإسلامى.

ذلك لأنه لم يكد المولى إدريس الثاني دفين مدينة فاس يشارف العقد الثانى من عمره حتى جمع حوله من العرب الأقماح وأناط بهم مهمة نشر اللغة العربية بين البربر وتعليم القبائل المنطوية تحت راية الأدارسة شعار الدين الإسلامى الحنيف، وكان الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز قد أوفد قبل ذلك فى المائة الهجرية الأولى أساتذة وفقهاء إلى أفريقية لتلقين البربر لغة القرآن الكريم وتعاليم الإسلام.

ويحدثنا التاريخ أن اللغة العربية سارت فى أعقاب جيوش الإمام ادريس فتركزت حيث تركزوا وترعرعت حيث ترعرع الإسلام، وإذ كان سكان جباله يتكلمون كلهم اليوم بالعربية؛ فإن ذلك يعود للدور الذى لعبه الأدارسة فى نشر اللغة العربية، وكذلك نشطت العربية فى غمارة وبلاد الريف .. فإن الفضل كل الفضل فى ذلك يعود للأدارسة ودولتهم العربية العلوية فهم الذين وضعوا الأساس القوى لنشر العروبة والإسلام.

ولقد ظلت تلك الدولة العلوية طوال فترة حكمها وبعد تقسيمها إلى ولايات أو حتى بعد ظهور خطر العبيديين الفاطميين حاملة لواء نشر اللغة العربية لا فى الريف وحده بل فى كل ربوع المغرب الأقصى؛ حيث رفعت لواء الإسلام والعروبة والمذهب المالكى وقاومت تيار الخوارج الذى وقف منه الأدارسة موقف القوة.

وهكذا .. كان للأدارسة دور فعال ومؤثر فى نشر العروبة والإسلام إذ لم يكن ينتهى

القرن الثالث حتى صار البربر يزاحمون العرب فى دراسة لغة الضاد بتونس والقيروان وتلمسان وفاس وتاهرت عاصمة بنى رستم، وأصبح علماء البربر يناظرون فقهاء العرب فى قواعد الأصول وتفاريع الفقه (فروع الفقه)، ومبادئ علم الإسلام باحثين معهم أصول العربية. وهكذا .. أدت دولة الأدراسة دورها؛ بحيث أصبح البربر جميعهم اليوم يتقنون اللغة العربية فى الجبال الأطلسية لاسيما فى الناحية الشرقية.

وهكذا .. تعتبر دولة الأدارسة الخطوة الأولى منذ الفتح الإسلامى نقوم بنشاط كبير فى بناء الكيان السياسى والاجتماعى للمغرب الأقصى العربى المسلم دولة إسلامية ظاهرها وباطنها العروبة والإسلام. والإسلام الصحيح والتطبيق الأمثل لمبادئ الشريعة الإسلامية؛ فقد كان أمراء هذه الدولة والكثير من رجال دولتهم عرباً، ولكن الدولة نفسها قامت على أكتافه البرب المتعربين وخاصة قبيلة أوربة وغمارة ومكناسة وهوارة ولواتة فكانت الغلبة فى هذه الدولة لأولئك البربر مما أسرع فى تعريبهم وعجل بقيام المغرب العربى.

وهكذا .. نرى فى تلك العجالة من دراسة دولة الأدارسة فى هذا البحث أن الدولة قد نجحت فى القضاء على الجانب الأكبر من انحرافات براغوطة، ومن سار على نهج الانحراف عن مبادئ الدين الإسلامى من القبائل الأخرى. وكان لابد من ذلك لأن العروبة الصحيحة لاتستقيم إلا مع الإسلام الصحيح.

وهكذا كان مذهب السنة والجماعة هو المذهب البسيط والواضح والذى قامت على أكتاف لغة الضاد.

ولقد سبق القول بأن خير دليل على قيام المغرب الأقصى العربى المسلم هو قيام العاصمة فاس وجامعها العظيم الشهير بالقرويين، الذى لعب دوراً بارزاً ومؤثراً بل فعالاً فى صيغ العروبة والإسلام ليس على أرض المغرب الأقصى فقط .. بل فى كل أرجاء المغرب الأدنى والأوسط وغرب القارة الأفريقية والأندلس.

فقد كان قيام فاس هو الخطوة الحاسمة فى قيام المغرب الأقصى العربى المسلم؛ فقد أصبحت فاس مركزاً رئيسياً للثقافة العربية الإسلامية، وأخذت جامعتها تثبت مكانتها إلى جانب مراكز العلوم الإسلامية الأخرى.

وفى فاس ومدن المغرب الأقصى مثل سلا وطنجة بدأت تقوم مراكز الدراسة الإسلامية وبدأ يتكون المجتمع العربى المغربى المسلم، وهكذا .. كانت دولة الأدارسة هى الأساس الأول الذى ارتكزت عليه عروبة المغرب الأقصى وثقافته العربية الإسلامية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين.

وهكذا .. كانت تجربة الأئمة الأدارسة فى المغرب الأقصى وولاة تاهرت من بنى رستم والأغالبة أقاليم تجزأت فعلاً عن الخلافة العباسية وأصبح كل أقليم مستقلاً ذاتياً عن الخلافة إن كان إقليماً تابعاً أو مستقلاً كل الاستقلال عنها إن كان يدين بمذهب غير سنى كدول الخوارج والعلويين والشيعة، التى كانت لا تعترف بسلطان العباسيين، ذلك لأن كل أقليم أو جنس كان ينزع بطبيعته إلى الاستقلال بأموره عن الخلافة وإلى اختيار حكومة قوية تنهض به وتدافع عن مصالحه باسم الخلافة البعيدة كما هو حالنا فى دولة الأدارسة.

بل إنه لم يكن من الممكن أن توقف الخلافة هذه الحركات الاستقلالية لأن المعارضة العلوية والشيعة والخوارجية كانت تشجع هذه النزعات وكانت الخلافة العباسية إذا قاومت لا تجنى من ولاء المقاومة إلا ظهور دولة جديدة تستقل بحكم نفسها عن طريق القوة والانفصال لا عن طريق التقليد.

وهكذا .. شهد المغرب قيام الدولة الرستمية فى تاهرت والأدارسة بالمغرب الأقصى والأغالبة بتونس.

ولقد كان أئمة الأدارسة يدينون بالولاء العميق للإسلام والرغبة الأكيدة فى الجهاد لنصرة هذا الدين والوقوف فى وجه الأخطار التى تهدد العالم الإسلامى، ومن هنا كانت تلك الحركات فى الحقيقة تعبر عن القومية، وعن الإقليمية ذلك لأن الإسلام حينما انتشر ذلك الانتشار العظيم، نجد أن هذه القوميات بدأت تأخذ طابع الحركات الاستقلالية، ولقد كانت محاولات البربر تعبيراً قومياً عن قوميتهم ليس لباساً إسلامياً عربياً فى اللسان وفى العقيدة والتمست لنفسها تعبيراً إسلامياً.

ولقد نهضت تلك الحركات الاستقلالية بالعبء الذى ألقى على عاتقها فى خدمة الإسلام والعروبة والدفاع عن الكيان الإسلامى، ومد نفوذه ونالت احترام المسلمين وعطفهم إذ وسعت دائرة المد الإسلامى، وان انزلقت فى صراعات داخلية .. فإنها كانت تفقد أهميتها ثم لا تلبث أن تسقط ليحل محلها من هو أقدر منها.

وقد ساهم العرب فى إعطاء الصورة العربية للمغرب الأقصى؛ حيث كانوا هم الذين أقبلوا إلى المغرب ضمن الحملات الحربية التى جاءت تفتح طريقاً لنشر الإسلام بين سكانه، ومن هنا .. فإنه لم تبدأ حملات العرب الحقيقية بشعب المغرب الأقصى إلا فى حملة عقبة بن نافع الفهرى الثانية عام ٦٢هـ/٦٨١م، وذلك فى جيش مكون من خمسة عشر ألف رجل، ولم تندعم أقدام العرب فى المغرب الأقصى إلا فى عهد موسى بن نصير الذى أقبل فاتحًا للمغرب الأقصى أواخر عام ٨٦هـ، وفى سبيل نشر الإسلام فإن موسى بن نصير ترك مجموعة من العرب تعرف وتعلم سكانه قواعد الدين الإسلامى الحنيف وتنشر تعاليمه بينهم وترتب على ذلك انتشار وإنشاء بعض المساجد ليجتمع بها المسلمون، ومن هنا .. بدأ مجتمع المغرب الأقصى يطعم بعناصر عربية جديدة، والتى أقامت فى ربوع البلاد تؤدى وظيفتها التى أقبلت من أجلها. وبدأ المغرب الأقصى صفحة جديدة فى تاريخه وفى علاقاته بالخلافة الإسلامية منذ تاريخ موسى بن نصير.

وقد تابع خلفاء موسى بن نصير هذه السياسة الرشيدة .. فإن إسماعيل بن أبى المهاجر فى عهد الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز عمل على نشر الإسلام وأمده الخليفة بطائفة من التابعين وانتشروا فى البلاد يحضون الناس على الإسلام، وينشرون الثقافة الإسلامية. وكما كان تعريب أفريقية واستقرار أمورها ودخول أهلها فى الإسلام تمهيداً لانتشار الإسلام وثقافته العربية فى المغرب الأقصى؛ كذلك كان انتشار الإسلام فى المغرب الأقصى وانضمام البربر إلى العرب عاملاً حاسماً فى اندفاع الإسلام وثقافته إلى بلاد الأندلس.

فقد كان بربر المغرب الأقصى الذين دخلوا الإسلام حديثاً هم عدة هذا الفتح، وهم جنده وهذا يعتبر دليلاً على نجاح سياسة موسى بن نصير وعلى مدى انتشار العقيدة الإسلامية بين صفوف أهل البلاد الأصليين.

وهكذا .. كانت فترة مجيء الإمام «إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب» عام ١٧٢هـ فاتحة الباب لأن يكون المغرب الأقصى موطناً لمن يفضلون الإقامة فى ربوعه من العرب وملجأ وملاذاً لأصحاب الدعوات الخارجية والفارين من وجه الخلافة أولئك الذين وجدوا فى أرضه تربة صالحة لنشر أفكارهم ومبادئهم؛ بعيداً عن بطش الخلافة وسلطان ولاتها.

وهكذا .. كان الذى يترقبه أهل المغرب الأقصى فإنه سرعان ما أقبل الأدارسة وأولهم أدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى حتى أقبلت عليه وفود القبائل المختلفة لتبايعه وتعاهده حاكماً وواليًا عليها، وهذه القبائل البربرية التى وفدت وقدمت طوعاً على إدريس ابن عبد الله قد وقفت بالأمس القريب فى وجه الخلافة الأموية والعباسية وخلعت عن نفسها التبعية لحكمهم فى دمشق وبغداد ثم انطوت طواعية لمبايعة رجل عربى هو ادريس ابن عبد الله؛ وذلك لأن ادريس لم يقدم المغرب غازيًا بل جاء إليها هاربًا ولاجئاً إليه من

وجه الخلافة العباسية ليحقق حلم العلويين فى إقامة حكومة دينية أو خلافة إسلامية تسعى لتوحيد العالم الإسلامى ومنازعة العباسيين فى بغداد.

وقد قامت دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى بتوحيد البلاد تحت لواء أمرائها العلويين وإقرار السلام فى ربوعه بعد أن كادت فتن الخوارج تفرق شمله وكان لانتساب الأدارسة إلى سبط الرسول ﷺ أثر كبير فى توحيد القبائل المتنافرة فظفروا بتأييد الأهالى على اختلاف ميولهم واستطاع ادريس الأول لأول مرة أن يوحد بين إقليم السهول الساحلية (المغرب الأقصى) وإقليم المراعى فاطمأن أهل السهول واطمأن أهل البدو وازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهاراً لم تعرفه البلاد من قبل كما استطاع الأدارسة بفضل هذه الوحدة أن يوجهوا أنظارهم إلى حركة الجهاد المقدس بقصد إتمام نشر الإسلام فى البلاد ومحاربة العقائد والقضاء على البدع بين قبائل المغرب الأقصى وقد جاوز نفوذ الأدارسة منطقة المغرب الأقصى إلى الصحراء التى تفصل بلاد المغرب عن أقليم السودان.

وكما سبق القول عدة مرات فإن دولة الأدارسة قامت فى عام ١٧٢هـ على يد المولى أدريس بن عبد الله العلوى الذى سار إلى بلاد المغرب الأقصى مع مولاه راشد بعد أن بطش العباسيون بأهل البيت العلوى فى موقعة فخ المشهورة عام ١٦٩هـ، وقد استقبلته قبيلة أوربة البرنسية ونشرت دعوته ولقى المولى إدريس من هذه القبيلة المغربية كل العون والتأييد فى تأسيس دولة الأدارسة التى كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الإسلام فى ربوع هذه البلاد.

ولقد كان النسب الشريف العلوى الهاشمى من العوامل التى ساعدته على تحقيق أهدافه وجعلت البربر يقبلون عليه ويلتفون حوله وقد اتخذ الأدارسة عدة خطوات فى سبيل بناء المغرب الأقصى حتى يصبح المجتمع مع دولة الأدارسة مجتمعاً متجانساً والتى كان منها إقامة حكومة مركزية فى «وليلى» برئاسة ادريس بن عبد الله يعاونه زعماء البربر من

أمثال «إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربى زعيم قبيلة أوربة»، وقد انطوى هؤلاء البربر تحت لواء الدولة التى أسسها ادريس سواء كانوا من البربر البتر أو البربر البرانس أم المقيمين فى السهول أو هؤلاء المقيمين فى المراعى وبذلك نجح أدريس بن عبد الله؛ حيث اتفق غيره من العرب فى توحيد المنطقة سياسياً واتبع ذلك وحدة اجتماعية بن السكان.

وقد اتبع ذلك قيام ادريس بنشر الإسلام والقضاء على البدع والضلالات المنتشرة فى البلاد وكذلك ترحيب الأدارسة بالعناصر العربية الوافدة التى أقبلت فى عهد الإمام أدريس، ومن جاء بعده فهذه العناصر وما تحمله من ثقافات عربية اندمجت فى مجتمع الأدارسة وزادت من العنصر العربى الذى اختلط بسكان البلاد، وقد اختار الأدارسة من هذه الوفود العربية المقبلة إليهم إدارة عربية تتعاون جنباً إلى جنب مع العناصر الأخرى من سكان البلاد من البربر فكان منهم الوزراء والقضاة والكتاب.

وكذلك كان بناء عاصمة جديدة هى فاس من دلائل توحيد البلاد؛ حيث أن تأسيس مدينة فاس كان فاتحة عهد جديد فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية فى المغرب الأقصى وفى غربى أفريقية فقد أصبحت هذه المدينة مثابة للعلم والعلماء يقصدها العلماء والتجار من كل حدب وصوب وأخذت معاهدها تتأثر بالمؤثرات الثقافية من معاهد القيروان والأندلس وتشيعها فى البلاد وقد بلغت هذه الثقافة العربية التى كانت تشع من مدينة فاس ديار الملثمين فى الصحراء لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها وتخطى نفوذهم جبال درن أو الأطلس الكبير وانتشر فى أقليم الواحات ولاسيما فى عهد عبد الله بن أدريس.

وهكذا .. ظهر جهد الأدارسة فى توحيد المنطقة سياسياً واجتماعياً مما جعل سكان البلاد يعيشون فى مجتمع يتفاعل أعضاؤه كالخلية الحية ويقوم بدوره الحضارى كغيره من المجتماعات الإسلامية وينهل من ينابيع الثقافة الإسلامية، ولم تكن الثقافة التى غمرت

المنطقة فى عهد الأدارسة غير الثقافة التابعة من الدين الإسلامى، والتى تدور وتنبع من نبع العقيدة الإسلامية. فلقد كانت الثقافة هى الدين والدين هو الثقافة فهما صنوان متطابقان.

ولقد اضطربت العقائد التى سادت بين سكان المنطقة قبل قدوم الأدارسة، ومن أجل ذلك اتخذ الأدارسة عدة خطوات لتهيئة التربة الصالحة للعقيدة الإسلامية وتعميقها وترسيخها من الكتاب والسنة فى نفوس أهل البلاد، ونشرها فى الأماكن التى لم تكن قد وصلت إليها.

ومن أجل ذلك كان الواجب القيام بحركة جهاد مقدسة الهدف منها أساساً ليس بث الجيوش وفتح البلاد، ولكن القضاء على الوثنية المنتشرة فى المنطقة، وكذلك القضاء على غير مذهب السنة والجماعة، والتى انتشر خطرها فى البلاد، وقد تمثلت حركة الجهاد فى شكل حملات متتابعة قام بها أدريس الأكبر وابنه أدريس بن أدريس وذلك لتوحيد المنطقة سياسياً وتحقيق الهدف العلمى من قيام دولة الأدارسة، وهو القضاء على العقائد الزائفة ونشر تعاليم الإسلام الحنيف فما أن انضمت كل قبائل البربر حتى بدأت المرحلة الإيجابية فى تأسيس دولة الأدارسة بعد أن استجابت تلك القبائل إلى الدعوة العلوية، وذلك حسب الأهداف التى أخذ الإمام على عاتقه القيام بها وتنفق مع رسالة آل البيت وهى العمل على نشر الإسلام والجهاد فى سبيل الله وكذلك تثبيت أركان الإسلام وإرساء قواعده فى البلاد بعد أن تعرض لكثير من الهزات والارتداد من جانب البربر.

ومن هنا .. لما كانت ديار الملثمين قريبة من جبال درن فقد انضمت تحت لواء الأدارسة وأصبحت جزءا من نفوذهم وسلطانهم السياسى يولون عليها الولاة ويخضعونها للحكومة المركزية فى فاس، لذلك تحول صنهاجة اللثام إلى الإسلام الذى بدأ فى عهد عقبة وزاد فى عهد الأدارسة وكان إسلامهم ذا أثر بالغ فى تاريخ المغرب والسودان فقد تمحض عن قيام تحالف قوى ضم قبائل الملثمين جميعاً بزعامة لمتونة. فلما تم هذا

التحالف أخذت القبائل المتحالفة على عاتقها تعد العدة لتوسع جديد أما صوب الشمال باختراق نطاق الجبل والإغارة على سهول المغرب الأقصى أو بالتقدم صوب الجنوب.

أما الناحية الأولى .. فلم يكن من السهل أن تقدم القبائل على المغامرة فيها بسبب قوة الأدارسة وحلفائهم من الزناتيين والمصامدة.

وهكذا انتشر الإسلام وتوطدت أركانه عن طريق بسط الأدارسة لنفوذهم السياسى على مناطق الجنوب، وهكذا .. كان التوحيد فى ظل الإسلام عامل قوة ودفع لدولة الأدارسة ولعب العامل السياسى أثره فى نشر الإسلام فى تلك المناطق الواسعة من المغرب الأقصى.

وإلى جانب العامل السياسى فقد كان هناك العامل الاقتصادى، والذى كان له أثره الفعال فى نشر الإسلام، وذلك لأن الأدارسة بذلوا جهودهم فى استتباب أحوال الأمن فى البلاد وساعدوا على رخاء المنطقة وساعد هذا بدوره على كثرة القوافل التجارية التى تنتقل داخل البلاد وخارجها، ولقد ساعدت هذه العوامل أيضاً على نشر الإسلام فى قبائل الجنوب وغرب السودان؛ حيث اندفع التجار المسلمون إلى مراكز الأسواق التجارية التى تقع جنوب الصحراء الكبرى، وفى ركابهم كان يدخل الإسلام.

(راجع: السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الإسلامية رسالة دكتوراه، المؤلف، سلطنة برنو الإسلامية، رسالة ماجستير، المؤلف، سلطنة كانم الإسلامية، ماجستير زين العابدين عبد الحميد السراج، دولة مالى الإسلامية، حسن جلال، ماجستير، معهد الدراسة الأفريقية).

ولقد كان البربر بعد أن دخلوا الإسلام أنشط من العرب فى نشر الدعوة الإسلامية بين تلك القبائل الزنجية.

وهكذا .. برز دور الأدارسة وتأثيرهم فى إسلام المنطقة وانتقاله إلى مناطق أخرى خارج حدود إقليمهم إذ نجح الأدارسة فى رفع راية الإسلام إلى مساحات كبيرة فى شمال المغرب وجنوبه وبذلك كانت جهودهم فى هداية المغرب الأقصى إلى الإسلام أعظم من قبائل العرب الفاتحين فى العهود الأولى للفتح الإسلامى.

وبالرغم من العمل العظيم الذى قامت به دولة الأدارسة فى نشر الإسلام فإنها لم تكن دولة شيعية بالمعنى المفهوم والسائد والمعروف لدى المؤرخين إلا من حيث انتماء مؤسسها إلى العلويين فهى دولة علوية هاشمية ظهرت فى المغرب الأقصى فجأة دون تمهيد أو دعوة سابقة أو أنصار يعملون فى السر كتلك الدعوة التى مهدت لقيام الدولة العباسية أو الدولة الفاطمية لكن كل ما يقال عنها أنها دولة علوية سنية تسير على نهج السنة والجماعة فهى ليست كالأمامة الرستمية التى ظهرت فى تاهرت وكانت أباضية على مذهب الخوارج.

وعلى هذا فهى لم تقم وفق نظريات سياسية أو دينية بل قامت على أكتاف رجل واحد يمثل الأسرة العلوية، بل أن الأدارسة لم يعملوا على التمكين للعقائد الشيعية بمذاهبها المختلفة وهى التى كان يقول بها مؤيدوهم.

ولقد سارت دولة الأدارسة فى أحكامها وشرائعها ونظمها الثقافية والاقتصادية وكل أحوال الدولة وفقاً لمذهب الإمام مالك بن أنس أحد مذاهب أهل السنة والجماعة الأربعة ذلك المذهب الذى كان له الأثر الأكبر فى توجيه النواحى الثقافية والاجتماعية ليس فى المغرب الأقصى فحسب بل فى المغرب كله؛ حيث انتشر من مدرسة القيروان وساد فى القسم الغربى من العالم الإسلامى، وقد تضافرت عدة عوامل على تثبيت أركان مذهب الإمام مالك فى دولة الأدارسة وجعلته مناط الثقافة فى المنطقة ومنها تشجيع الأدارسة لهذا المذهب وذلك نتيجة للتقارب الذى حدث بين الإمام مالك بن أنس وبين محمد النفس

الذكية بن عبد الله أخى الإمام إدريس بن عبد الله حيث آزر الإمام مالك النفس الذكية بقوله أنه أحق من أبى جعفر المنصور، ولقد كان من أسباب انتشار مذهب مالك بالمغرب واقتصار أهله عليه هو ما أمر به الإمام ادريس لذويه ورعيته باتباع رواية مالك فى الموطأ لاسيما أنه روى عن أبيه عبد الله الكامل أو المحض وإصداره فتوى بعدم مبايعته لأبى جعفر المنصور وبيعته لمحمد النفس الذكية، وعهده لأخيه ادريس الأكبر بالخلافة من بعده، ولهذا.. كان الأدارسة يرون أن تلك الفتوى من أسباب توليهم الإمامة والسلطان فى المغرب الأقصى، وقد قال الإمام إدريس نحن أحق باتباع مذهبه وقراءة كتابه الموطأ وأمر بذلك فى جميع عمالته (بلاده).

كذلك فإن الإدارة العربية التى بدأت تمارس شئون الحكم منذ عهد ادريس بن أدريس قد ضمت أناساً من رواة مذهب الإمام مالك وسفيان الثورى، وممن تتلمذوا على يديهم فى المدينة المنورة، وبذلك كانت الأحكام والفتاوى وغيرها من شئون القضاء تصدر عن رجال مالكى المذهب أخذوا عن الإمام مالك بن أنس وسمعوا منه أحكام الدين.

كذلك التيار الذى ساد المغرب منذ دخول مذهب الإمام مالك بن أنس عن طريق الحجاج وطالبى العلم من المغاربة الذين توجهوا إلى مراكز العلم فى مصر والحجاز ووجدوا بغيتهم فى الحجاز؛ حيث تتلمذوا على يد الإمام مالك نفسه والتمسك بالكتاب والسنة، ومن هنا رجع هؤلاء العلماء إلى بلادهم وخاصة القيروان؛ حيث نقلوا مذهب الإمام مالك ومنها انتشر إلى بقية المغرب ففى الوقت الذى كان فيه فقه المالكية يثبت أقدامه فى القيروان ويحاول الاتجاه إلى كل مكان، كان حكام الأدارسة يستقبلون الوافدين إليهم وخاصة فى عهد ادريس بن ادريس من أفريقية وغيرها من البلدان؛ حيث اتخذ ادريس الوزراء والحاشية الذين قاموا بدورهم فى نشر مذهب الإمام مالك.

وكذلك ما اتصف به مذهب الإمام مالك من ميل إلى الشدة والصلابة والبعد عن أسباب الترف.

ومن كل هذه العوامل مجتمعة .. رسخت آراء مالك وانتشر فقهه فى دولة الأدارسة كما انتشر فى غيره من بلدان المغرب عامة. ولقد كان لهذا المذهب أثره فى ثقافة أهل المغرب؛ حيث سيطر المالكية على الحياة الثقافية فى بلاد المغرب كلها بل، ولم يمتد أثر المذهب المالكى إلى النواحى الثقافية فقط؛ بل كانت له اثاره الاجتماعية من عادات وتقاليد سار عليها المغاربة تقليداً للإمام مالك وتلاميذه، بل اتخذوه قدوة فى كل أمورهم، وبذلك أصبح من المغاربة المثل الذى ينبغى أن يهتدى به المسلم الصحيح.

وعلى هذا فإن انتشار مذهب الإمام مالك بهذه الصورة فى دولة الأدارسة، وبقية بلاد المغرب والأندلس يمثل صورة هامة من صور وحدة الفكر التى عمت المنطقة، وقد تجاوبت أرجاء مدارس فاس والقيروان وقرطبة دراسات وآراء تدل على الوحدة الثقافية التى سادت المنطقة.

على أن جهود الأدارسة لم تكن مقصورة على تأييدهم لمذهب الإمام مالك ونشرهم له، بل إنهم شجعوا مختلف الثقافات الوافدة إليهم من القيروان وقرطبة، وتلك الثقافات التى حملتها إليهم الهجرات العربية المتتالية إلى فاس عاصمة البلاد وأخذت بعد ذلك مدينة فاس تكون شخصيتها المستقلة، وتبث تيار العلم فى الربوع النائية، وكان الأدارسة أنفسهم يزكون هذه الحركة المباركة بتأييدهم.

وقد لعبت فاس دوراً كبيراً فى تقدم المنطقة وازدهارها إذ أنها أسهمت فى تبديل الصورة القبلية، التى كانت تعيش فيها المنطقة إلى نظام حضارى، وبعبارة أخرى كانت فاس هى البوتقة التى انصهرت فيها الثقافات المختلفة، وتغلب سكان المنطقة على البداوه التى كانوا يعيشون فيها وانتقلوا إلى دور حضارى يسهم فى نشر الإسلام والثقافة العربية،

وقد وجدت هذه الثقافة العربية طريقها إلى الجنوب لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها تقريباً وتخطى نفوذهم جيال درن كما سبق القول.

ولقد أدى كل ذلك التغيير إلى أن تكون فاس عاصمة الأدارسة ملتقى الثقافات الإسلامية؛ حيث كانت العاصمة ملتقى تيارين أحدهما من الشمال عبر المضيق؛ حيث المؤثرات الأندلسية والحضارة العربية التى بدأت تشع بنورها على المنطقة، وتأخذ طريقها إلى دولة الأدارسة عن طريق إقليم الريف الذى كاد يتصل إتصالاً مباشراً بالأندلس نتيجة الصلات القوية التى قامت بين مدن إقليم الريف ومدن الأندلس، ومن ثم .. انتشرت المؤثرات الحضارية الأندلسية فى بلاد أقليم الساحل وغلبت عليها. أما التيار الثانى؛ فقد كان قادماً من القيروان؛ حيث لعبت تلك المدينة دوراً كبيراً فى نشر الثقافة العربية والدراسات الإسلامية.

ولقد كانت فاس فى فترة حكم الأدارسة تعيش مرحلة التلقى والاستيعاب لهذه الثقافات الوافدة، ولم تبدأ فى دور التأليف والإنتاج العلمى إلا بعد ذلك؛ حيث أصبحت فاس فيما بعد كعبة الطلاب والعلماء والدارسين الذين أقبلوا عليها من كل حدب، وخاصة بعد اضطراب الأحوال فى قرطبة والقيروان.

كذلك كان تشجيع الأدارسة وتأييدهم للثقافات العربية الأثر الواضح فى انتشار اللغة العربية التى دونت بها الدراسات التى كانت لغة تخاطب المهاجرين العرب من أفريقية والأندلس. ولقد كان مؤسس الدولة، ومن خلفه من الأدارسة كانوا عربا، كما اتخذ ادريس ابن ادريس إدارة عربية تمثل الحضارة العربية، وكذلك بناء العاصمة فاس، والتى تمثل مركزاً حضارياً عربياً إسلامياً.

وفى ذلك يقول چورچ ماسيه فى كتابه شمال أفريقيا، أن فترة الأدارسة تمثل فى المغرب الأقصى مرحلة هامة من مراحل البربر وتاريخهم وخاصة فى الميدان الحضارى فعن

طريق فاس وغيرها من المراكز الحضارية بدأ الإسلام واللغة العربية ينتشران فى تلك الأقطار فكانت فاس تمثل مركزاً هاماً من مراكز الحضارة فى تلك الجهات، وذلك بجانب القيروان وقرطبة، ولقد كان نشر الإسلام كما سبق القول من أهم أهداف الثقافة الإسلامية، وقد نجح الأدارسة فى تحقيق هذا الهدف الدينى وذلك بعد أن وحدوا البلاد تحت حكمهم وشجعوا الثقافة العربية، وذلك مما أدى بدوره إلى انتشار اللغة العربية، وكذلك المجتمع المغربى فى دولة الأدارسة والتى شاركت فى تكوينه الهجرات العربية، وقد ساعد ذلك بدوره عن طريق الاحتكاك والاختلاط بسكان البلاد الأصليين على نشر اللغة العربية والتزود بالثقافة الإسلامية من الحواضر العربية ورجوعهم إلى قومهم ونشرهم لهذه الثقافات وذلك بعد أن ثبتت أركان العروبة من جراء توجه الكثير من البربر إلى المشرق للاغتراف من الينابيع العربية؛ ثم تشرهم للغة العربية لغة الإسلام والقرآن، ومن هنا بدأ البربر يقبلون عليها ويتعلمونها فلم تلبث العربية أن انتشرت بينهم، ولم يلبث أن ظهرت فى القرن الثانى منهم فئات تكتب العربية وتؤلف بها، ومن هذه العوامل مجتمعة أصبحت اللغة العربية هى اللسان الوحيد للدولة كما ساهمت اللغة فى عملية التوحيد بين عناصر السكان الذين شملهم مجتمع الأدارسة والتأليف بينهم وتلك هى صورة مجتمع المغرب الأقصى فى عهد الأدارسة من النواحى الثقافية والفكرية والعلمية.

* * * *

الباب الثاني عشر

العلاقات الخارجية بين
الإمارات الثلاث (بنى رستم ، الأدارسة ، الاغالبة)

لقد كانت دولة بنى رستم من أسبق الدول والامارات المستقلة عن الخلافة العباسية قياما فى بلاد المغرب وأصبح لها منذ اعلان قيامها فى عام ١٦٠هـ/٧٧٦م شخصيتها كدولة مستقلة ذات سيادة على أراضيها ومواطنيها ومن هنا فقد أصبح من حقها أن تساهم بدوها فى العلاقات الدولية .

كذلك فقد تلت دولة الأدارسة العلوية الهاشمية دولة بنى رستم فى اعلان استقلالها فى المغرب الاقصى وعن الخلافه العباسية بقيام أول أمرائها الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب بتأسيس دولة الأدارسة واتخاذه مدينة وليلى عاصمة لهم منذ عام ١٧٢هـ .

واذا كانت دولة بنى رستم قد قامت عل أكتاف عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن على بن أبى طالب ومن هنا فان الامارة الاغلبية وان كانت امارة ذات حكم ذاتى واستقلال بالحكم الا انها تختلف عن الامارتين السابقتين اذ أن بنى الاغلب كانوا خاضعين لحكم بنى العباس فى بغداد ويتبعونهم اسميا ويدفعون بالخوارج الى بيت المال فى بغداد .

الا انه رغم كل هذه الظروف فقد ظهرت هذه الامارات الثلاث فى المغرب الادنى (الاغالبة) والمغرب الأوسط (بنى رستم) والادارسة فى المغرب الاقصى فان هذه الامارات كانت بينهم جميعا علاقات تتناولها بالشرح والتفصيل فى هذا الباب .

ولقد كانت هذه العلاقات بين القوى الثلاث تعود بفوائد كثيرة عليهم حيث كانت

لها آثار بعيدة المدى فى دعم أركان دولهم حيث أتاحت لهم هذه العلاقات مزيدا من الاحتكاك سياسيا رتجاريا وعسكريا رحضاريا وثقافيا وقد تنوعت هذه العلاقات قوة وضعفا وصداقة وعداء بحسب موقف الدول والامارات بعضها من بعض.

فاذا نظرنا الى علاقات بنى رستم والاداسة بالخلافة العباسية فى بغداد نجد أن علاقات الرستميين الخارجية بالعباسيين قد ارتبطت بعاملين كانا ذا أثر فى طابع العداء الذى اتسمت به تلك العلاقات وهى أن العباسيين منذ ان الت اليهم الخلافه يعتبرون بلاد المغرب كلها ميراثا شرعيا تركة الامويين لهم وعلى هذا نظروا الى الرستميين نظرة عداء وأصبحت هذه النظرة تحكم سير العلاقات بينهما فقد قامت على اسس عدائية بين الطرفين باعتبار أن الرستميين اقتطعوا جزءا من ممتلكات العباسيين وثانيهما ما كان بين العباسيين من ذلك العداء التقليدى الذى كان بين الخلافة السنية وبين دولة بنى رستم الاباضية باعتبار انهم فرقة من الخوارج وقد وضعت هذه الأسس العدائية موضع التنفيذ أيام مطاردة ولاة العباسيين بافريقية (المغرب الادنى) لعبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة ورغم أن أهداف عبد الرحمن بن رستم فى تأسيس دولة مستقلة تماما عن الخلافة العباسية لم تكن واضحة للعباسيين .

فقد قاوم العباسيون شخصية عبد الرحمن بن رستم من اللحظات الاولى التى ظهر فيها على مسرح الاحداث فى بلاد المغرب لانه كان فى نظرهم خليفة « لابى الاعلى خطاب المعافى » وهو عدوهم اللدود الذى حرص محمد بن الاشعث الوالى العباسى فى القيروان ١٤٤هـ/٧٦١م على القضاء على عبد الرحمن بن رستم بعد قتلة لابى الخطاب المعافرى ولكن ابن الاشعث فشل فى محاولتة وانسحب الى افريقية تاركا عبد الرحمن ابن ستم فى مأمنه فى جبل سوفيج .

ولما لم ينجح العباسيون فى القضاء على عبد الرحمن بن رستم ورأوا أن خطر هذه

الشخصية بات قريبا من ممتلكاتهم بأفريقية أمر أبو جعفر المنصور (عمر بن حفص) عامله على افريقية أن يحصن قاعدة طينه وفي مواجهة هذه الخطوة من العباسيين حرص عبد الرحمن بن رستم على ان تكوين تحالف أباضي سفري يضم سائر القوى المعارضة للخلافه العباسية ولكن عمر بن حفص الذى تولى أمر المغرب عام ١٥٢هـ/٧٦٨م نجح في تخريب هذا التحالف وانفرد بعبد الرحمن بن رستم وقواتة وألحق به هزيمة فادحة عند تهودة ولكن لم يتمكن من القضاء علية لذا قنعت الخلافة العباسية بأنة من الاسلم لها أن تحتفظ بنفوذها في افريقية وأن تترك المغرب الاوسط وشأنه لان محاولة استرجاع هذا الاقليم محفوف بكثير من المخاطر ولعل ذلك يفسر مسلك الوالي العباسي «روح بن حاتم» الذي تولى أمر افريقية عام ١٧١هـ/ ٧٨٧ - ٧٨٨م . اذ حرص على تحسين العلاقات بينه وبين تاهرت التي كانت في يد عبد الرحمن بين رستم امام الرستميين وذلك لانه كان يمثل الخلافة العباسية وبعد وفاة عبد الرحمن بن رستم الذى انتخب اماما بعد وفاة والدة وطلب ابن حاتم استمرار الموادعة وحسن الجوار اعترافا رسميا من العباسيين وممثلهم في بلاد المغرب بسيادة الرستميين على المغرب الاوسط .

وقد تحدثت كتب الاباضية الخارجية عن قيام نوع من العلاقات التجارية بين العباسيين في بغداد وبين تاهرت، وذلك في عصر الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وربما كانت تتم بصورة سرية فقد بعث عبد الوهاب الرستمي الى الربيع بن حبيب مائتى عشرة ألف درهم أو دينار فاشترى بها الربيع بن حبيب حوائجه في ثمانية أيام فانصرف راجعا الى المشرق .

على ان الهدوء الذى ساد العلاقات بين الرستميين والعباسيين في عهد عبد الرحمن بن رستم وخليفتة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عاد وتحرك ثانية نحو التوتر فعندما أخفق « فرج النفوسي » المعروف «نفاث ابن نصير » في حركتة ضد الامام

أفلح بن عبد الوهاب لم يجد مخرجا من هزيمتة سوى الهروب الى الشرق قاصدا بغداد وهناك رحب الخليفة العباسى المأمون بمقدمة وفى ذلك اشار واضحة الى احتواء الخلافة العباسية للخارجين على الدولة الرستمية .

ولم تلبث العلاقات الرستمية العباسية أن بلغت قمة العداء وكان ذلك عندما قبض العباسيون فى عهد الخليفة الواثق العباسى على الامير « محمد بن أفلح » الملقب بأبى اليقظان الذى كان يقوم بأداء فريضة الحج فى مكة المكرمة ونقل أبو اليقظان الى بغداد حيث سجن هناك ولكن هذه العلاقات ما لبثت أن وجدت شيئا من التحسن بسبب العلاقة القوية التى تمت بين أبى اليقظان بن أفلح والخليفة العباسى المتوكل على الله الذى كان مسجونا مع أبى اليقظان .

ذلك انه ما أن اعتلى المتوكل دست الخلافة بعد مقتل أخية الواثق حتى أفرج عن صديقة أبى اليقظان وأكرمة وسمح له بالعودة الى بلاده وبينما كانت العلاقات بين الرستميين والعباسيين تمضى فى طريق العداء تارة والتحسن تارة أخرى كانت العلاقات الثقافية قائمة بينهم وظهر معالم هذه العلاقات والثقافة فى الصلة القوية بين الرستميين والاباضية وأباضية المشرق الذين كانوا من الناحية الشكلية من رعايا الدولة العباسية وكثيرا ما جرت تفاصيل هذه العلاقات الثقافية بين تاهرت والبصرة القريبة من بغداد .

فعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أرسل ألف دينار الى المشرق الى اخواته الاباضية بالبصرة لكى يشتروا له بها كتبا فلما وصل هذا المبلغ اشتروا به ورقا ونسخوا لة فيها حمل أربعين جملا كتبا فلما بلغتة الكتب سر بها وجد لقرائتها ، بل كثيرا ما لجأ الائمة من لرستميين وغيرهم من علماء دولتهم الى علماء الاباضية المشارقة لكى يسألوهم فى حل كثير من المشالكل الى تعرض لها الرستميون .

ومن معالم العلاقات الثقافية أيضا أن « نفاث بن نصير » الثائر على الامام أفلح بن

عبد الوهاب عندما فر الى بغداد أمضى وقته هناك فى اتباع ديوان « جابر بن زيد» عالم الاباضية المشهور وكان ذلك الديوان موجودا فى خزانة الخليفة العباسى فى بغداد وللصلة القوية بين نفاث بن نصير والخليفة سمح له بأن ينسخ هذا الديوان فلما سمح له استطاع أن ينسخ هذا الديوان فى يوم وليلة بمساندة الوارقين فى بغداد وقد حمل نفاث بن نصير هذا الديوان معه عندما عاد الى المغرب مرة ثانية .

ومن العلماء والادباء الذين انتقلوا من تاهرت الى البصرة فى العراق العالم « بكر بن حماد بن سهيل بن اسماعيل الزناتى التاهرتى » وهو من شعراء الطبقة الاولى فى عصرة وكان فقيها عالما بالحديث ورجالة بل أن بكر بن حماد المعتصم استطاع أن يثبت وجودة فى بلاط العباسيين فاتصل بالخليفة المعتصم بالله العباسى ومدحة ثم عاد الى القيروان ومنها الى تاهرت حاملا معه المؤثرات الثقافية الشرقية .

علاقة الأدارسة بالخلافة العباسية

ولقد كان من أثر قيام دولة الأدارسة على أرض المغرب الاقصى أن أصبح لها علاقة خارجية مع الدول المحيطة بها شأنها فى ذلك شأن الدول المستقلة التى تمارس حريتها فى علاقاتها وارتباطها كغيرها من الدول وقد تعددت علاقات هذة الدولة وتنوعت تبعا لمواقف الدول الاخرى فالخلافة العباسية وعلاقاتها بدولة الأدارسة كانت تنظر فيها بغدادنظرة العداء الى دولة الأدارسة حيث ان قيامها فى المغرب الاقصى يشكل خطرا على ممتلكاتها فى المغرب الادنى (افريقية) ذلك الخطر الذى لم تظهر بوادره الحقيقية الا فى أوائل عام ٢٧٤هـ/٧٩٠م حين أتم الامام ادريس عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب مؤسس دولة الأدارسة اخضاع تلمسان لسلطانه السياسى وبنى مسجدا فى المدينة ولو اكتفى ادريس بن عبد الله بتجميع البربر حوله ودعاهم الى مبايعته ورضى بحكم منطقة المغرب الاقصى فحسب لما كان فى ذلك خطر يهدده من الخلافة العباسية . الا ان

اتجاه الامام ادريس بن عبد الله كان الى اخضاع اقليم تلمسان بل مدنه وقراه وأراضيه وتطلعه الى فصل المغرب عن بقية العالم الاسلامى وتوحيد المغرب والمشرق تحت قيادته لاقامة دولة علوية هاشمية تتولى أمر الخلافة لاسيما أنة من آل البيت النبوى ومن أحفاد رسول الله ﷺ .

كل ذلك جعل الخلافة العباسية تفكر جيدا فى التخلص من ادريس بن عبد الله المؤسس الاول لدولة الأدارسة ولقد فكر الخليفة هارون الرشيد فى ارسال جيش عباسى للقضاء على دولة الأدارسة ، غير ان طول المسافة مع وجود الدولة الرستمية فى المغرب الاوسط وهى دولة مستقلة ومعادية للخلافة العباسية فى المغرب جعل هارون الرشيد يعدل عن فكرة ارسال قوات العسكرية ويستخدم سلاحا أخر فى محاولته للقضاء على دولة الأدارسة وهو سلاح الاغتيال وذلك حين ارسل الشماخ الذى نجح فى اغتيال ادريس الاول بن عبد الله الا أن دولة الأدارسة بالرغم من مقتل مؤسسها فان ذلك لم يقف حجر عثرة فى سبيل مواصلة حياتها واستقرارها ووجودها فى فترة الانتقال بفضل زعامة راشد مولى ادريس والذى سار على نفس المبادىء والاسس التى أدخلها من قبل مؤسس الدولة ادريس بن عبد الله ومن هنا التف البربر حوله متمسكين بنظام الدولة .

ولم تحاول الدولة العباسية الاستعانة بولاتها فى افريقة للوقوف ضد الخطر المرتقب من دولة الادرسة نظرا لضعف الولاة وهكذا كان مبلغ اهتمام الخلافة العباسية أن تؤمن على سلطانها فى المغرب الادنى وتولية الولاة الاقوياء لكى يكونوا سدا قويا أمام طموح المغاربة فى احتواء جميع اراضى المغرب وكذلك مشاركتهم ولاة المغرب الاوسط من الرستميين بالاضافة الى الخطر الناشىء فى المغرب الاقصى .

وهكذا نرى بعد تولى العديد من الولاة حكم المغرب (افريقية)يظهر على مسرح الاحداث مؤسس دولة الاغالبة وهو ابراهيم بن الاغلب التميمى الذى كتب الى الخليفة

هارون الرشيد فى بغداد يعرض عليه أن يتولى امارة افريقية وفى مقابل ذلك يتنازل عن المال الضخم الذى كانت ترسلة مصر سنويا الى افريقة كاعانة سنوية فضلا عن تعهدة بارسال مبلغ كبير من المال الى عاصمة الخلافة العباسية ببغداد سنويا . ولقد كان الذى يهم الخليفة العباسى فى المقام الاول أن يتولى حكم افريقية رجل قوى يتمع بصفاة تؤهله للحفاظ على سلطان الخلافة العباسية فى افريقية والوقوف ضد الاخطار القادمة من دولة الأدارسة فى المغرب الاقصى ولهذا كان الاجماع على اختيار ابراهيم بن الاغلب ليتولى حكم وامارة اقليم افريقية (تونس) المغرب الادنى .

ويجدر بنا ان نشير هنا الى أن الفترة التى أعقبت مقتل ادريس بن عبد الله (١٧٧هـ/٧٩٢م) الى تولية ابراهيم بن الاغلب (١٨٤هـ/٨٠٠م) والتى كانت تقدر بسبع سنوات فقد كانت هذه الفترة فى صالح الأدارسة اذ أنها تعتبر بمثابة هدنة فى العلاقات بين الدول العباسية والدولة الادريسية .

وقد تمت هذه الهدنة عن اعتقاد الخلافة العباسية أنها قضت على دولة الأدارسة حيث قتلوا مؤسسها عام ١٧٧هـ فانشغلت الخلافة عن دولة الأدارسة بشئون افريقية وذلك بتولية والى وعزل آخر مع ما صاحب ذلك من فتن وثورات ، نقول أصبحت هذه الهدنة تسبب راحة للخلافة العباسية وغفلت الخلافة العباسية عن ذلك وقد كان ذلك فى صالح دولة الأدارسة حيث مكنت راشدا بمعاونة ومساندة زعماء البربر من تسيير الامور فى فترة الاستقلال تبعا للسياسة التى رسمها الامام ادريس بن عبد الله من قبل ، كما انها أتاحت له فى الوقت نفسة كفالة الامام ادريس بن ادريس واعداده لتولى مقاليد الحكم خلفا لوالدة .

ومن ثم يتولى ابراهيم بن الاغلب شئون افريقية انتقلت العلاقات بين الأدارسة والخلافة العباسية الى علاقات بين الأدارسة والاغالبة حكام تونس اذ أنه منذ عام ١٨٤هـ/٨٠٠م دخلت العلاة بين الخلافة العباسية ودولة الأدارسة مرحلة جديدة اذ

اعتمدت دولة الخلافة العباسية على دولة الاغالبة التابعة لها فى المغرب الادنى فى أن تتبع فى سياستها خطا معاديا لدولة الأدارسة والعمل على القضاء عليها بكل السبل والوسائل ، ومن ذلك نجد انه ما أن فرغ ابراهيم بن الاغلب من اقرار الامور فى ولايته حتى شرع فى تنفيذ السياسة المرسومة له من قبل الخلافة العباسية ، تلك السياسة التى تتلخص فى القضاء على نفوذ الأدارسة فى المغرب الاقصى ففى تنفيذ هذه السياسة تأمين لولاية افريقية (تونس) نفسها وضمان لبقائه فيها ومن جهة أخرى فهى تقربة الخليفة العباسى فى بغداد .

وقد اتخذت سياسة العداء من جانب الاغالبة ومحاولة القضاء على دولة الأدارسة عدة آشكال والتى منها استخدام سلاح الاغتيال فقد ادرك ابن الاغلب أن الخطر الذى يتهدده من دولة الأدارسة فى تلك الفترة ١٨٦هـ/٨٠٢م انما يتمثل فى رئيس الدولة فى فترة الانتقال والمشرف على شئونها راشد مولى ادريس .

ثم صرف همه الى تهديد المغرب الاقصى وقد ظهرت فيه دعوة العلويين على يد ادريس بن عبد الله الاول واستفحل أمر راشد بعد ذلك ولم يكن استفحال أمر راشد نشئا من حكمه لدولة الأدارسة فقط وانما يكمن فى تطلعة الى غزو افريقية (المغرب الادنى) بقول ابن خلدون استفحل راشد وهم بغزو افريقية لما كان له من النفوذ ولكثرة الجنود فراشد يشكل خطرا بالنسبة لولاية ابراهيم الاغلب لذا كان مصير راشد الاغتيال على يد مجموعة من البربر استمالهم ابن الاغلب بأموالة وهداياه وما أن تم لابن الاغلب تنفيذ مؤامراته حتى أسرع بالكتابة الى الرشيد الخليفة العباسى فى بغداد يزف اليه بشرى قتله لاحد أعداء الدولة العباسية .

ومن هنا فان قتل راشد قد تم بطريق الغدر والاغتيال وأن ابن الاغلب قد افتخر بذلك .

بل ان ابن الاغلب قد ظل يتحين الفرصة للقضاء على ادريس بن ادريس كما قضى على راشد من قبل كما ابن الاغلب لا تعجزه بعد المسافة بينه وبين اعدائة فمكائده تصل الى اعدائه فى عقر دارهم ذكر بن الاغلب انه ساق لاغتيال راشد ثلاثين الف دينار استخدمها فى قتل راشد باستمالة القائمين على مؤامرة القائمين على الاغتيال .

لكن سياسة الاغتيال لم تنجح فى القضاء على دولة الأدارسة ومن ثم اتخذ ابن الاغلب طريقا آخر لعله يحقق آماله فاستخدم سلاح الاغراء والاستماله ووقع اختياره على أحد زعماء البربر المشرفين على شئون الدولة وهو « بهلول بن عبد الواحد المقفرى » زعيم قبيلة مقفرة ، وأخذ ابن الاغلب يستميله بالهدايا والاموال وجرت بينهما مكاتبات وقع فيها بهلول بن عبد الواحد تحت تأثير دعاية ابن الاغلب وتزين ابن الاغلب له بمبايعة الرشيد لان الرشيد هر خليفة المسلمين وامامهم وليس ابن ادريس وكانت نتيجة ذلك العمل الذى سعي اليه ابن الاغلب أن أنفصل بهلول بن عبد الواحد وقومة عن طاعة ادريس بن ادريس وبايع الرشيد ووفد على بن الاغلب فى القيروان ولم يكن ادريس بن ادريس فى ذلك الوقت فى مركز يسمح ل بمحاربة بهلول واخضاع قبيلته لطاعتة بالقوة فادريس بن ادريس قد فقد شخصا مثل بهلول الذى كان زعيما لقبيلته ومطاعا فى قومه وقد عالج الامام ادريس بن ادريس هذا باسلوب يدل على المهارة السياسية اذ سلك طريقين فقد كتب الى « بهلول بن عبد الواحد » يحذره من مغبة الخروج عن طاعتة ناصحا له بالرجوع الى طاعتة وكاشفا له مؤامرات ابن الاغلب التى عمت البلاد كلها ودسائسها ومكائدها وأهدافها من ذلك ، كما أن ادريس أرسل الى ابن الاغلب كتابا يسأله المسالمة والموادعة ومستغلا عاطفة ابن الاغلب الدينية حين ذكره بقرابته من رسول الله ﷺ ومصير ابن الاغلب فى الاخوة اذا واصل عداءه لآل البيت ومن حسن حظ دولة الأدارسة أن انشغل ابن الاغلب فى ثورة داخلية فى ولايتة اذ بادر أهل طرابلس عام ١٨٩هـ/٨٠٥م

بالثورة عليه ومن هنا وجه ابن الاغلب اهتمامه لقمع الفتن فى داخل ولايته وتأمين سلطانه السياسى داخل افريقية وبذلك انصرف عن تدبير المؤامرات لدولة الأدارسة متظاهرا بأنه كف عن عداوته لهم لحرمة ادريس بن ادريس وقرابته من رسول الله ﷺ وموقف المسالمة من جانب ادريس ناتج عن انه لم يكن فى موقف القوة حيث أن جبهته الداخلية لم تكن تدعو للاطمئنان فقد رضى بعض البربر بقتل راشد فى مقابل قدر من المال يدفعه لهم ابن الاغلب ووقع بعضهم فريسة الاغراء حتى اعطى البيعة للجبهة المعادية وهم الاغالبة ومن هنا شعر الامام ادريس بن ادريس بمعجزه عن محاربة العدو الخارجى والقضاء على مؤامراته .

لكن ما أن فرغ ابن الاغلب من القضاء على الفتن الداخلية فى ولايته حتى نقض سياسة المهادنه التى اتبعها من قبل ورجع الى تدبير المؤامرات ضد دولة الأدارسة وذلك باستمالة احد زعماء البربر الناصرين لادريس ووقع اختيارة فى هذه المره على اسحق بن محمد عبد الحميد الاوربى » زعيم قبيلة أوربة وجد ادريس الثانى محاولا استمالته وضمه الى صفه لكن ادريس أحس من جده اسحق بن محمد الاوربى باعراضه عنه وموالاته لابن الاغلب ومن ثم اتخذ موقف الحزم والشدة فأمر بقتله وموقف الحزم هذا فيه اشارة الى تبدل مراكز ادريس بن ادريس فى الحكم بعد ان كبر سنه وخلع الوصاية عنه وأقبلت اليه الوفود العربية من كل مكان واستخدم منهم الوزراء والقضاء على كل من يحاول الخروج عن طاعته وموالاة العدو .

قام أمراء الاغالبة بالطعن الكاذب فى نسب ادريس تخفيضا لشأنه وقد قرعت هذه الكلمات الشنعاء أسماع الغوغاء فادريس الثانى ولد على فراش أبيه فآل البيت هؤلاء قد اذهب عنهم الرحمن الرجس وطهرهم تطهيرا ففراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه من الرجس بحكم القرآن الكريم ومن اعتقد خلاف ذلك فقد باء بائم كبير وقد قام الاغالبة

بذلك الطعن الكاذب وهذا يعود الى الحسد لاعقاب ادريس هذا حيث أن ادعاء النسب الكريم دعوى شرف عريضه على الامم والاجيال .

ولما كان نسب آل ادريس قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغا لايكاديلحق ولا يطمع أحد فى ادراكه اد أن نسب جدهم ادريس الثانى مختط فارس ومؤسسها ومسجده لصيق محلتهم وسيفه منتضى برأس المئذنة فليس فى المغرب من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ فى طرحة نسبه ووضوحه بالغ . عقاب ادريس هذا من آل الحسن وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى بن محمد بن يحيى القوام بنى القاسم بن ادريس بن ادريس ولهخم السيادة على أهل المغرب كافة .

وكان الأدارسة بالمغرب يلقبون ادريس بالإمام وإبنه ادريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين وجعلوه سمة لهم.

وقد استخدم ابن الأغلب سلاح التشكيك فى نسب بنى ادريس من حيث صلتهم بالرسول ﷺ وذلك لمنع الناس من الإلتفاف حول ادريس بن ادريس وهو ما يعرف بالمصطلح الحديث الحرب الباردة وهو ذلك السلاح الذى استخدمه العباسيون فى الفدح فى النسب العلوى. وقد اتخذ أعداء دولة الأدارسة هذه الدعوة الكاذبة ذريعة للنيل من أمارائها والقضاء على سلطانهم السياسى وقد ذاعت هذه الدعوى، ولقد كان من عوامل إقبال البربر والتفافهم حول الأدارسة انتماء ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب إلى رسول الله ﷺ واعتقاد البربر أن الأدارسة هم أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة باعتبارهم من نسل على بن أبى طالب وأن العباسيين مغتصبون للخلافة منهم، فإذ ما شكك البربر فى صحة نسب ادريس وأنه ليس ابن ادريس الأول انهدمت دعامة كبيرة من ادعاء ادريس بن ادريس الإمامة وتولية الحكم خلفاً لوالده، إلا أن سلاح التشكيك لم يجد آذاناً صاغية فى دولة الادارسة، ذلك لأن المجتمع الذى ولد

فيه ادريس ونشأ فيه وأقام دولته هو مجتمع قبلى تتعارف فيه الأسر والأنساب وذلك لتلاصق مجتمع القبيلة مع ارتباطه بصلات القربى والنسب.

كذلك فإن راشد الأوربى مولى أدريس الأكبر حين تولى الإشراف على الدولة وتحمل تربية ادريس لم يكن بمفرده؛ إنما كان يعاونه البربر وتحت إشرافهم ثم أن قبائل البربر أقبلت على مبايعة ادريس بن ادريس وكان فيهم جنوده الذين تعرضوا للموت وأخطاره فى الحملات الحربية التى قادها أبوه من قبل، وإن كانوا قد فطنوا إلى أن مصدر هذه الإشاعة الكاذبة هم أعداء دولة الادارسة من العباسيين ومن سار فى فلكهم من أتباعهم الأغالبة.

وهكذا اتسمت العلاقة بين الادارسة والأغالبة بطابع الاعتيالات والمساومات والتشكيك فى الانساب من جانب الأغالبة وطابع التودد والنصح ثم الحزم مع المتآمرين من جانب الأدارسة.

كما أنه على الجانب الآخر فقد استغل الأغالبة وجود وقوة دولة الأدارسة فى تهديد الدولة العباسية فى بغداد فلقد كان لوجود دولة الأدارسة وذيوع صيتها وقوتها سلاح يلوح به الأغالبة فى وجه العباسيين حين تحاول الخلافة العباسية أن تغلو فى نفوذها على القيروان وأن توفر مالا يرضاه الحكام من الأغالبة فها هو زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ثالث أمرائهم والذى تولى الحكم فى القيروان خلفاً لأخيه عبد الله بن الأغلب عام ٢١١هـ/٨١٦م يهدد الخليفة العباسى المأمون ويلوح له بالإنضمام إلى حكم دولة الأدارسة والدخول فى طاعتهم عندما حاول المأمون أن يفرض عليه ما يأباه.

ولقد أبلغ زيادة الله العباسيين كيف انتشر نفوذ الأدارسة حتى وصل إلى عقر داره فى القيروان وأنه يمكنه خلع طاعة بنى العباسى والدعوة للأدارسة ومن ذلك فإنه كان قد أرسل كيساً به ألف دينار مسكوكة باسم إدريس الحسنى وكما أنه أظهر فى الوقت نفسه

كيف يقاوم ويناضل نفوذ العلويين المقيمين فى المغرب الأقصى.

وهكذا .. كان وجود دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ورقة رابحة يستخدمها الأغالبة فى تدعيم مركزهم وبيان أهميتهم أمام الدولة العباسية إذا اضطر إلى ذلك. وبذلك لم تستطع الدولة العباسية أن تحقق أهدافها لأن دولة الأغالبة وإن كانت قد نفذت سياستها فى عدائها للدولة الأدريسية وفقاً لمخطط بنى العباسى فى بغداد. ونجاحها فى بعض الأحيان فى ذلك، إلا أنه رغم ذلك فإن دولة الأغالبة لم تحاول أن تتمادى فى عدوانها للأدارسة لأن فى وجودها عنصر يؤمن حياة دولة الأغالبة ويجعل الخلافة العباسية تتمسك بوجود الأغالبة فى أفريقية كحاجز ضد تطلع الأدارسة لإقامة خلافة علوية وضم المغرب الأدنى.

علاقة الرستميين بمصر :

سارت العلاقات بين الرستميين فى تاهرت ومصر والولاية العباسية عن طريق ودى، إذ كانت مصر تمثل المجاز الشرقى للدولة الرستمية والمنفذ الوحيد لهم إلى شرق العالم الإسلامى. ومن ثم .. حرص الرستميون على أن تكون هذه العلاقات علاقة حسن جوار؛ إلا أنه يلاحظ أن العلاقات السياسية كانت ضعيفة على حين نشطت العلاقات الأخرى الاقتصادية والتجارية والثقافية، ويرجع ذلك إلى أن مصر كانت ولاية عباسية خاضعة للعباسيين وتسير على نفس النهج الذى تسير عليه بغداد.

وترجع العلاقات الثقافية القوية بين مصر والرستميين إلى أن عددا كبيرا من المصريين كانوا على المذهب الأباضى الخارجى، بل لقد كان بين هؤلاء العلماء الأباضيين المصريين علماء لهم وزنهم الدينى فى رأى الرستميين فكانوا مرجعاً لهم فى شئونهم وفتاواهم، ومن بين هؤلاء الأباضية المصريين العلماء العالم «شعيب المصرى» الذى قدم إلى تاهرت أيام الفتنة التى حدثت بين الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبين يزيد بن قندين»، وقد كان شعيب المصرى هذا يطمع فى الوصول إلى منصب

الإمامة، ولكنه لم ينجح فى مساعيه فعاد إلى مصر بعد أن تمكن الإمام عبد الوهاب من القضاء على فتنة يزيد بن فندين.

أما عن العلاقات التجارية .. فقد كانت مصر المعاصرة للدولة الرستمية تلعب دور الوسيط فى التجارة بين الشرق والغرب وأصبحت تمثل مخزناً لمختلف البضائع الشرقية والغربية، وقد ضمنت طبيعة الامتداد الجغرافى لحدود الدولة الرستمية إلى طرابلس أن تكون مصر منفذاً للقوافل الرستمية المتجهة إلى الشرق الإسلامى وخاصة القوافل التى تحمل الحجيج والرحالة والعلماء والتجار وقد سارت هذه القوافل فى الطرق التجارية التى امتدت بين مصر والواحات الغربية وبلاد المغرب، وقد تولت هوارة فى شرق طرابلس وكذلك نفوسة والقبائل الطرابلسية الأخرى هذه المهمة فكانت تجوب الصحراء ذاهبة آيبة بين المدن الرستمية فى المغرب الأدنى والأوسط من مصر وكانت قوافلها الجرارة مثقلة بالسلع الرستمية والمصرية، ومما لاشك فيه أن هؤلاء التجار والرحالة والعلماء من الرستميين قد نقلوا كثيراً من الأفكار الأباضية الرستمية إلى مصر كما تأثروا كثيراً بما وجدوه فى مصر من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية فنقلوها إلى بلادهم.

وقد شهدت العلاقات بين مصر والرستميين شيئاً من التوتر فى عهد الطولونيين (٢٦٥هـ-٨٧٨م)، ولكن الذى يفهم من أسباب هذا التوتر الذى عرضنا له سابقاً أن أهدافه لم تكن بسبب سياسة عدائية رسمها الطولونيون تجاه دولة بنى رستم إنما تمت كل دوافع هذا التوتر إلى ظروف شخصية بحتة تتصل بفتنة العباس بن أحمد بن طولون ومن يؤيد وجهة النظر هذه أن أحمد بن طولون لم يكن فى مصر حين خرجت حملة العباس نحو بلاد المغرب وأنه خرج دون علم والده الذى كان فى حملة إلى بلاد الشام كما أن الخليفة العباسى الموفق بالله أراد أن يحدث انقساماً فى صفوف الطولونيين فكان أن أوعز إلى بعض أعوانه لكى يسهلوا ما قام به العباس وقد أشار المؤرخ ابن سعيد المغربى

فى كتابه حلى المغرب إلى الحالة النفسية السيئة التى كان يشعر بها أحمد بن طولون نتيجة لتردى العلاقات بينه وبين الرستميين من جهة وبينه وبين ولاة الأغالبة من جهة ثانية.

وكان الناس يرون غمة أحمد بن طولون مما جنى عليه ابنه العباس وأنه لم يكتف بما حمله من مصر حتى وقع أمر غليظ بينه وبين إبراهيم ابن الأغلب والياس بن منصور النفوسى عامل الرستميين على جبل نفوسة، وأنه اذا حاول الانتصار فيها أجحف بنفسه وإن أمسك عنهما نقض موقفه وبدت عورة من عوراته.

* * * *

عـلاقـة الرسـتميين بالأغـالـبة

(١٨٤/٢٩٦هـ - ٨٠٠/٩٠٨م)

يقول الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق فى كتابه الأغالبة سياستهم الخارجية، لقد أحست الخلافة العباسية أن قيام الدولة الرستمية فى المغربين الأدنى والأوسط أصبح يشكل خطراً كبيراً على وجودها فى بلاد المغرب إذ أصبحت هذه الدولة تمثل حاجزاً كبيراً فى سبيل إرسال أى جيش عباسى لإعادة المغرب الأقصى أو بلاد الأندلس إلى حظيرة الدولة العباسية؛ حيث قامت فى هاتين المنطقتين البعيدتين دولة الأمويين ودولة الأدارسة، لذا .. رأت الخلافة ضرورة تدعيم نفوذها فى أفريقية وفى تلك الأثناء لاحت فى الأفق السياسى لأفريقية شخصية إبراهيم بن الأغلب الذى أسدى خدمات جليلة للخلافة العباسية، تمثلت فى قضائه على ثورات الجند ومساهمته الفعالة فى الكيد للأدارسة وتدبير مؤامرات الاغتيال ضدهم وإزاء هذه الخدمات قدم إبراهيم بن الأغلب إلى الخليفة هارون الرشيد عرضاً مغرياً تضمن تنازل إبراهيم بن الأغلب فى حالة توليه إمارة أفرقية عن الإعانة المالية السنوية التى كانت ترد إلى أفريقية من مصر وقدرها مائة ألف دينار، ويتعهد هو بتقديم أربعين ألف دينار سنوياً للخلافة على أن تكون إمارة أفريقية له ولأولاده من بعده فوافق هارون الرشيد على هذا وسارع فى تسليم الأمور فى تلك البلاد إلى إبراهيم بن الأغلب عام ١٨٤هـ/٨٠٠م وأعلن قيام دولة الأغالبة، وبالنسبة لدولة الأغالبة هذه قرر الرستميون اتباع سياسة التعايش السلمى معها، وهى الجارة القوية على حدودهم الشرقية والشمالية، وقد دفع هذا بعض المؤرخين إلى القول بأن علاقة الرستميين بالأغالبة لم تتخذ طابعاً عدائياً وفى الحقيقة بإن اتباع الرستميين لسياسة التعايش السلمى مع الأغالبة لاترجع إلى ما اشتهر به الرستميون من التقوى والمسالمة وعدم الاهتمام بما يدور خارج حدودهم وانصرافهم إلى شئونهم الداخلية؛ وإنما يرجع فى حقيقة الأمر إلى طبيعة الحدود

المشتركة بين الدولتين إذ تطوق حدود الدولة الرستمية الممتدة من تاهرت غرباً إلى طرابلس شرقاً دولة الأغالبة من الشرق والغرب والجنوب، ولم تكن هذه الحدود واضحة المعالم فقد كانت دولة الرستميين إمارة بدوية صحراوية تبسط سلطانها على القبائل البدوية الصحراوية مع أن هذه القبائل اتخذت بعض المراكز فى القرى الجبلية والواحات الصحراوية إلا أنها ظلت فى حالة غير مستقرة ولا يستقر لها قرار فكانت تتصل من مكان إلى مكان حسب الظروف الطبيعية أو السياسية وقد عقد أول اتفاق لتقرير مبدأ التعايش السلمى بين الرستميين والأغالبة؛ حيث اضطر الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إلى الاصطدام مع الأغالبة دفاعاً عن مواطنى دولته من قبيلة هوارة وجاءت نصوص هذا الاتفاق مراعية لصالح الطرفين؛ حيث أكد الأغالبة احترامهم للامتداد الجغرافى للدولة الرستمية ونطاقها الرعوى الداخلى فى منطقة طرابلس، وبالتالى احترام الرستميين حاجة الأغالبة إلى الشريط الساحلى لطرابلس لاتخاذهم البحر المتوسط ميداناً للجهاد ضد الروم ونشر رايات الإسلام خفاقة على مياه البحر المتوسط والسيطرة على جزر غرب البحر المتوسط، ولكن سياسة التعايش السلمى هذه التى اتبعتها الدولة الرستمية أملت عليها فى كثير من الأحيان الدفاع عن نفسها ضد الأغالبة وأطماعهم التوسعية فرأى الرستميون أن قيام أبى العباس محمد بن الأغلب (٢٢٩هـ/٨٥٣م)، ببناء مدينة العباسية بالقرب من تاهرت فيه ما يسىء بمبدأ التعايش السلمى، ويتعارض تماماً مع المصالح الحيوية للرستميين، إذ استهدف الأغالبة من بناء هذه المدينة، وإطلاق هذا الاسم عليها القضاء على المركز التجارى الهام الذى احتلته مدينة تاهرت فى هذه المنطقة، لذا . قام الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بإخلائها ممن يسكن فيها وقام بحرقها والقضاء عليها قبل أن تتبوأ مكانتها لتنافس تاهرت.

وحقاً .. فإن الأغالبة كان لهم مسلكهم فى معاداة أعداء الخلافة العباسية، ولكن

بالنسبة للرستميين لم يستطيعوا الإفصاح عن هذا العداء السافر، لذا .. عمدوا إلى تشجيع القلاقل والخلافات، وذلك لوجود جالية كبيرة من المتمردين على الأغالبة ومنح الرستميون أفرادها ما يشبه حق اللجوء السياسى فى بلادهم.

فكانت تاهرت زاهرة بعدد كبير من هؤلاء القيرويين الذين عاشوا فى المجتمع الرستمى وهم يتمتعون بكامل الحقوق التى تمنح لمواطنى الدولة الرستمية بل أن بعضهم صاهر أئمة الدولة الرستمية واصبح لهم نفوز واسع لم يصل الية غيرهم « كمحمد بن عرفة » (انظر سابقا) وقد اندس بين هؤلاء السياسيين ممن شجعهم وسخرهم الاغالبة لاثارة الشغب فى البلاد كلما واتتهم الفرصة لذلك . وقد قام « خلف الخادم » مولى الاغلب بن سالم فى عهد « أبى بكر بن أفلح » باثارة الفتنة والشقاق بين سكان العاصمة بتاهرت متخذا من مقتل محمد بن عرفه ذريعة الى ذلك وقد بذل فى سبيل ذلك أموالا كثيرة وقد تمكن أبو اليقظان بن أفلح « خليفة » أبى بكر بن أفلح من القضاء على هذه الفتنة بعد أعوام سبعة من امامته .

وفى اطار مبدأ التعايش السلمى نهض كل من الرستميين والأغالبة للوقوف فى وجه العباس بن أحنمد بن طولون عندما هدد حدود الدولة الرستمية الاغلبية ٨٧٨/٢٦٥م ولم يكن اشتراكهما معا فى مواجهة أطماع العباس نتيجة تحالف أو تعاون مشترك تم بينهم بل حدث نتيجة لما أحاط بالجانبين من خطر فى وقت واحد . لان هزيمة أى واحد منهما أمام العباس بن أحمد طولون قد يعرض الآخر لهزيمة مماثلة تغير من طبيعة الوضع السياسى لمنطقة طرابلس ، الى جانب أن كلا من الرستميين والاغالبة قد نال قسطا من تهديدات العباس بن أحمد بن طولون واعتداءاته اذ كان الرستميون قد الزموا الاغالبة بمبدأ التعايش السلمى بالقوة قد تأثر بالاشتراك معهم فى الدفاع عن حدود الدولتين عندما خرج العباس بن أحمد بن طولون للاستيلاء على افريقية تارة اخرى ، كذلك فان

الاغالبة عندما شعروا بضعف الرستميين استهانوا بمبدأ التعايش السلمى معهم واعتدوا عليهم بغية القضاء عليهم وقد انتهزوا الفرصة فى امامة أبى حاتم يوسف بن محمد ففى عام ٢٨٣هـ/٨٩٦م اصطدم ابراهيم بن أحمد بن الاغلب بقبيلة نفوسة التى كانت من رعايا الدولة الرستمية عند موقع « قصر مانو» بين قابس وطرابلس وكانت نفوسة قد خرجت الى ابراهيم ابن أحمد بن الاغلب فى عشرين الف مقاتل واندلعت الحرب بينها وبين ابراهيم بن أحمد أبن الاغلب ودارت الدائرة على نفوسة وقتل منها عدد ضخم جدا من الرجال والعلماء وبعد هذه المعركة انهارت نفوسة التى كانت تشكل عصب الدولة الرستمية ودرعها الواقية وسرت فى الجبل حالة من الفوضى لان أهل الرأى فى الجبل اجتمعوا وقرروا عزل « أفلح بن العباس » عامل الرستميين على الجبل وقد دفعت حالة الفوضى هذه الاغالبة الى ارسال جيش اخر عام ٢٨٤هـ/٨٩٧م هجم على قبيلة نفوسة واستباحها وعاد مثقلا بالاسرى منهم ، بل أن هناك من يرى انه لو لا ما جرى فى هذه الاثناء من عزل ابراهيم بن أحمد بن الاغلب وتوجهه الى جزيرة صقلية لوجه ضربتة التالية نحو العاصمة الرستمية تاهرت قلب الدولة الرستمية .

ورغم ان الاغالبة حرصوا كل الحرص على مقاطعة الرستميين تجاريا وثقافيا وسياسيا الا أن هناك ما يشير الى وجود شىء قليل من هذه العلاقات التى كانت تتم بصورة غير رسمية وعلى المستوى الشعبى ، فالعلاقات التجارية اليومية التى تسير بصورة طبيعية بين الجهات الداخلية وطرابلس التابعة للنفوز الرستمى وبين طرابلس المدينة نفسها الخاضعة للاغالبة .

وقد ذكر ابن سعيد المغربى ومن جبل نفوسة تمتاز طرابلس بأنواع الخيرات ، كما كانت هناك علاقات ثقافية قائمة بين تاهرت والقيروان تمثلت فى العلماء والادباء الذين انتقلوا من تاهرت الى القيروان بغية تحصيل العلم على يد من بها من العلماء ومن هؤلاء

العلماء الادباء « بكر بن حماد بن ساهيل بن اسماعيل الزناتى التاهرتى » وكان قد وصل الى البصرة ثم عاد الى القيروان سنة ٢٧٩هـ/٨٥٣م فأخذ فيها العلم عن « عون ابن يوسف الخزاعى » « وسحنون بن سعيد » حتى اذ كانت سنة ٢٧٤هـ/٨٧٧م تصدر للدرس والتدريس والقاء محاضراته فى الادب والعلم بجامعها الكبير وتوفى عام ٢٩٦هـ/٩٠٨م بعد عودتة بسنة واحدة فى قلعة ابن حمة شمال فارتحل اليه كثير من أهل افريقية والاندلس للاخذ عنه وتلقى العلوم على يديه وكان منهم محدث الاندلس فى عصره « قاسم بن أصبع بن محمد البياتى القرطبى » وقد عاد بكر بن حماد الى تاهرت عام ٢٩٥هـ/٩٠٧م حيث العاصمة تاهرت .

علاقة الاداسة ببنى رستم

اذ انتقلنا الى العلاقات بين الادارسة وبنى رستم طوينا صفحة العلاقات بين الادارسة وبنى رستم ولاغالبة والدولة العباسية وانتقلنا الى المغرب الاوسط وجدنا الدولة الرستمية التي اسسها عبد الرحمن بن رستم الأباضى حيث كان طابع العلاقات بين الادارسة والدولة الرستمية هو حسن الجوار خاصة وانه كان يجمع بينهما هدف موحد ازاء الخلافه العباسية وهو العداء المشترك نحوها حيث استقلت كلتاهما بجزء من العالم الاسلامى وأصبح لكل منها شخصيته الخاصة وكيانه السياسى المستقل بعيدا عن سلطة الخلافة العباسية وولاتها ولقد كان لقيام الدولة الرستمية فى المغرب الاوسط الاثر الواضح فى حماية دولة الادارسة واستقرار الأمور بها فالدولة الرستمية المعادية للدول العباسية كانت بمثابة حاجز يفصل بين دولة الادارسة والمغرب الاقص وبين أعدائها فى المغرب الادنى وهم الولاة العباسيون ثم بعد ذلك الاغالبة .

ومن هنا فان أى جيش يرى ارساله ولاة افريقية للقضاء على دولة الادارسة لابد ان يخترق أراضى الدولة الرستمية ولم تكن العلاقات طيبة بين الدولة الرستمية وبين ولاة

أفريقية حيث ان عبد الرحمن بن رستم أسس دولته نتيجة هروبة من ولاة افريقيا كذلك لم تكن العلاقة طيبة بين الرستميين والاغالبة فقد ذكر ابن الاثير فى حوادث ٢٢٦هـ/٨٧٩م أن العباسى محمد ابن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب والى بلاد افريقية بعد وفاة ابية دانت له افريقية وابتنى مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية وفى عام ٢٣٩هـ أحرقها أفلح بن عبد الوهاب الاباضى .

غير ان العلاقة الطيبة بين دولة الادارسة والدولة الرستمية قد حدث بينهما شىء من القطيعة نتيجة محاولات بعض أتباع دولة الادارسة من أمراء تلمسان من يغراوه وبنى يفرن ضم اجزاء من الدولة الرستمية الى دولة الادارسة لكن لم يزل الملك فى بنى ستم هؤلاء بتاهرت وجاورهم جيرانهم من مغراوة وبنى يفرن على الدخول فى طاعة الادارسة لما ملكوا تلمسان وأخذت بها زناتة من لدن عام ١٧٣هـ فأمضوا عليهم سائر أيامهم .

وكانت هذه القبائل قد تكاتفت جهودها فى ضم أجزاء من الدولة الرستمية الى دولة الادارسة بالتعاون مع زعيم الواصلية فى المغرب الاقصى وهو اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى فى إثارة واصلية المغرب الاوسط على الحكام الرستميين ومحاولات الاستقلال بالاماكن التى يستقرون بها بضواحى تاهرت عاصمة الرستميين وقد حدثت مكاتبات بين اسحق وهؤلاء الواصلة بالمغرب الاوسط والذين ضموا صفوفهم وأجمعوا أمرهم على القيام بثورة ضذ حاكم الدولة الرستمية عبد الرحمن بن رستم معلنين انفصالهم عن طاعته لكن الاصح أن هذه الثورة لم تكن بايعاز من اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربى لمناصرة دولة الادارسة ولكن خروج « ابن قنذين » هو السبب فى تلك الثورة ، غير ان هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح اذ انتصرت الدولة الستمية وهكذا كانت العلاقات التى سادت بين الادارسة وبنى رستم هى علاقة حسن جوار .

حيث ان دولة الادارسة تمثل الجار الغربى لدولة بنى رستم وهذه الدولة تضم اقليم

المغرب الاقصى كله وهذا الاقليم يحده من الشرق وادى ملوية وجبال تازة وهما يمثلان خط الحدود مع الدولة الرستمية أما حدودها من جهة الغرب فالبحر المتوسط ومن الشمال بحر الروم ومن الجنوب جبال درن والمعروف كما سبق القول أن مؤسس هذه الدولة هو ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن أبى طالب.

ودولة الادارسة دولة من النوع المعتدل التى تقترب آراء أئمتها مع آراء أهل السنة من ناحية ولذا اطلق عليها ابن عذارى المراكشى اسم الدولة الهاشمية وقربها من أهل السنة جعلها من ناحية أخرى قريبة فى ميولها السياسية من الرستميين أصحاب المذهب الاباضى المتاخمين بهم فى المغرب الأوسط من ناحية أخرى، والذى يمثل مذهبهم الاباضى آخر تطورات الفكر الخارجى فى تلك الفترة اذ أصبح هذا المذهب أقرب المذاهب الخارجيه الى مذهب أهل السنة ومن ثم لم يكن هناك خلافات مذهبية حادة بين الدولتين الجارتين لذا وضع الرستميون وكذا الادارسة سياستهم على أساس حسن الجوار المتبادل بينهما . ومما دعم علاقات حسن الجوار بينهما انه كان يجمع بينهما أيضا موقف موحد ازاء الخلافه العباسية وهو العداء المشترك نحوها .

بالاضافه الى ان الادارسة كانوا يشعرون أن دولة الرستميين بالمغرب الاوسط تمثل الحارس الأمين لحدودهم الشرقية فهى بمثابة فاصل بين دولة الادارسة فى المعرب الاقصى وبين الولاة العباسيين أعدائها فى المغرب الادنى وقد كانت سيادة الرستميين على أراضيهم تمنع وصول أى قوات من الخلافة العباسية عبر أراضيها ومن ناحية أخرى لم تكن العلاقة طيبة بين الرستميين والعباسيين أو ولاتهم فى افريقية .

ولقد كان لموقع دولة الرستميين على هذا النحو أثره فى الاساليب التى اتبعتها الخلافة العباسية لمقاومة الادارسة والقضاء عليهم حيث لجأت الدولة العباسية الى أسلوب الاغتيال لمؤسس دولة الادارسة كذلك فان الدولة الرستمية قد افسحت صدرها لكثير من

العلويين الفارين من العباسيين وقد عاش هؤلاء فى المدن المنتشرة حول تلمسان وبعضم آثر البقاء فى بقاع الدولة الرستمية فعاشوا فى بعض مدنها فى شمال تاهرت على ضفاف نهر شلف كالمدينة الخضراء وسوق ابراهيم ومدينة غطلانى .

وقد كان اكثر هؤلاء العلويين من ابناء محمد بن سليمان العلوى وسليمان هذا كما سبق القول شقيق ادريس بن عبد الله مؤسس دولة الادارسة .

وقد استقر هؤلاء العلويون بهذه المدن بعد انقراض الدولة الرستمية وذلك فى القرن الرابع الهجرى وظلت العلاقات الرستميه الادريسية تسير فى مجالها فى اطار علاقة حسن الجوار التى رسمها الرستميون الا أن شيئا من القطيعة أصاب هذه العلاقات فى عهد الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم وكان ذلك نتيجة لموقف مغراوة وبنى يقرن أمراء تلمسان الخاضعين لنفوز الادارسة فقد سعى هؤلاء فى تأليب واصلية المغرب بالاماكن التى يعيشون فيها فى اراضى الدولة الرستمية والعمل على ضمها للادارسة واستعانوا فى ذلك بواصلية المغرب الاقصى وكما سبق القول تمت مكاتبات بين واصلية المغرب الاوسط فى هذا الشأن .

ويبدوا أن الذى دفع مغراوة وبنى يفرن الى ذلك أن بنى يفرن هالها مقتل يزيد بن قندين زعيم النكار فى الدولة الرستمية والمعروف أن يزيد بن قندين من بنى يقرن وهم فرع من زناتة التى تنتمى اليها معظم واصلية المغرب الأوسط، ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح وتمكن الامام عبد الوهاب من القضاء على ثورة الواصلية بعد حوار فكرى دار بين مفكرى الاباضية وعلماء الواصلية تلته معركة عسكرية انتهت بهزيمة الواصلية وقمع ثورتهم .

علاقة الادارسة والاغالبة وبنى رستم بدولة بنى مدرار فى سلحماسة (١٤٠-٢٩٦هـ / ٧٥٧-٩٠٨م)

انه اذا سرنا جنوب دولة الادارسة وجدنا دولة سجلماسة تلك الدولة التى قامت فى عام ١٤٠هـ/٧٥٧م جنوب المغرب الاقصى نتيجة ابتعاد هذه المنطقة عن القيروان ، كذلك قامت الى الجنوب الغربى لحدود الدولة الرستمية وكانت بعيدة عن حدود دولة الاغالبة ولم تكن بينهما حدود مباشرة كما كان بين الادارسة وبنى ستم وقد قامت هذه الدولة على أساس التفاف مجموعة من الخوارج الصفرية حول زعيم لهم هو « عيسى بن يزيد الاسود » وهو من موالى العرب ورئيس الخوارج الذين خلعوا طاعة الحكام العرب واستقلوا بمنطقة جنوب المغرب الاقصى وأسسوا مدينة سلجمان فى عام ١٤٠هـ/٧٥٧م وكانت حدودها تشتمل على مناطق سلجماسة ودرعة فحدودها الشمالية تبتدئ جنوب الاطلس الكبير جنوب المغرب الاقصى وتمتد جنوبا الى قلب الصحراء وهى فى جنوب المغرب الاقصى وعاصمتها سجلماسة المدينة التى تسمى حاليا « تافيلالت » ولم يستقر عيسى بن يزيد فى حكم الدولة نتيجة أعمال لم يقرها عليه أتباعه وهلك عام ١٥٠هـ وتولى خلفا له كبيرهم « أبو القاسم سمك ين واسول المكناسى » وكان صاحب ماشية كبيرة ينتجع فيها فى موضع سلجماسة ويتردد عليها فأجتمع قوم من الخوارج الصفرية على أبى القاسم وسكنوا مرابعة هناك فى الخيام وفى عام ١٤٠هـ قدم علية عيسى بن يزيد الاسود وشرعوا فى نباء سلجماسة ولكن هؤلاء الصفرية ما لبثوا أن نقموا على عيسى ابن يزيد أشياء فأخذوه وشدوا وثاقه الى شجرة فى رأس الجبل وتركوه حتى مات وولوا أمراهم بعد ذلك أبا القاسم سمكو بن واسول الذى ظل أمر دولة سلجماسة فى أولادة من بعدة فى حكم الدولة ولم تشر المراجع الى قيام علاقة بين الاغالبة وكذلك بين دولة الادارسة ١٧٢هـ ودولة الاغالبة ١٨٤هـ حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ويمكننا

تصور موقف دولة الادارسة من دولة سجلماسة اذا نظرنا الى سياسة كل من الدولتين فدولة سلجماسة مؤسسها عيسى بن يزيد الاسود ومن التف حوله من البربر الصفرية كما أن كثيرا من رؤسائها علماء من الخوارج الصفرية وبعض الاباضية فى حين أن السياسة العامة لدولة الادارسة هى القضاء على الخوارج ومحاربتهم كما فعل ادريس الكبير وابنة ادريس بن ادريس حين قضوا على بدعة الخوارج فى ربوع بلادهم ولم يحاول الادارسة محاربة صفرية دولة سلجماسة بسبب وجود الحواجز الطبيعية التى تمنعهم من اخضاع دولة سلجماسة لنفوذهم .

هذه الظروف الطبيعية متمثلة فى الحاجز الجبلى وهو جبال الاطلس الكبير فى جنوب المغرب الاقصى والتى تفصل بين الدولتين وكذلك قيام حلف ثنائى بين الدولة الرستنمية فى شرق دولة الادارسة وبين سلجماسة فى الجنوب ذلك الحلف الذى نشأ نتيجة تقارب بين زعماء كل من الدولتين والتقائها فى الاهداف حيث أن بنى مدرار تولوا الحكم على اساس المذهب الصفرى ومن هنا فان اصحابها ينتمون الى المذهب الخارجى ومثلهم فى ذلك مثل الرستميين، ولذلك التقت أهداف الدولتين معا وتوطدتبينهما أواصر المودة والصداقة وسعت كل من الدولتين الى كسب اخترام الاخرى لها اذ نظر الرستميون الى سلجماسة على انها منفذ هام لهم الى بلاد السودان تنتقل من خلالها الى تجارة الرستميين وقوافلهم التجارية ومن ثم فهى شريان الحياة بالنسبة لبنى رستم كما أن بنى مدرار يشعرون بأهمية الرستميين لهم اذ أن توثيق الصلات بهم وتعميق الروابط معهم يعطى المدراريين الامان الذى يشعرون بالحاجة الية كدولة صغيرة خاصة وان لها جارا قوية هم الادارسة الذين يحاربون أصحاب النحل المتطرفة من أمثال الخوارج فقد قام الادارسة بالقضاء على الخوارج وأهل دولتهم فى المغرب الاقصى .

ولذى حرص بنو مدرار على اقامة ما يشبة الحلف الثنائى بينهم وبين الرستميين وقد

صور هذه العلاقة الحسنة بين الدولتين الدولة الرستمية ودولة سلجماسة الاستاذ محمد على دبوز فى كتابه المغرب الكبير جـ٣ ص٤٤٥ حين قال كانت المعاملات التجارية والعلاقات الثقافية والصلات السياسية على اتمها وأوضحها بين الدولتين دولة بنى مدرار فى السلجماسة والدولة الرستمية فى تاهرت ورغبة فى تقوية الحلف والصلات التى تربط بين الدولتين بنى مدرار وبنى رستم ، قام بينهما علاقة مصاهرة تمكينا لروابط المودة بين الدولتين ومما دعم هذا الحلف وقوى من شأنة التقارب بين زعماء الدولتين والتقاؤهم بين الاهداف وظهرت نتائج هذا التقارب عندما تزوج مدرار بن المنتصر بن السبع الذى تولى حكم دولة سلجماسة عام ٢٠٨هـ/٨٢٣م من أروى بنت عبد الرحمن بن رستم أول ائمة الدولة الرستمية (١).

وقد تحدث الباردنى فى كتابة الازهار الرياضية جـ٢ ص٩٥. عن الاهداف الحقيقية لهذا الزواج فقال وعلى عهده (السبع بن قاسم)الذى تولى الحكم ١٧٤هـ استفحل أمرهم واشتد ملكهم وكان يرى فى نفسه العظمة لكثرة الجند والاتباع وله ابن يعرف بمدرار فلم ير كفوا له للمصاهرة غير الامام عبد الرحمن بن رستم وكانت له أبنة تعرف « يروى »فخطبها السبع وبعد أن أظهر الامام القرة والامتناع مع الحاح الخطيب أجابة الى طلبه وزوجها الى مدرار ابنه ولم يصغ للمنكرين أو المعترضين عليه مؤملا أن يأتى يوم ما على اولادها أن قدر الله يجمعهما وهم فى مذهبهم فيصبح هؤلاء حلفا اليه أو تتوثق علاقة الود بين المملكتين فلا يطرقة منهم طارق بسوء ولا يأتيه من قلبهم ما يكدر راحته أو يجوب له قلقا أو خللا داخليته ويقفان صفا واحدا ضد أى أخطار خارجية وبذلك كان هذا الحلف بين قوتين كبيرتين مانعا لحكام الادارسة من محاولة الغزو والضم لهذه الاجزاء الى دولتهم ومن ثم يمكننا أن نقول أن حسن الجوار كان العلامة السائدة بين دولة الادارسة ودولة سلجماسة لفترة طويلة ولقد كان الحلف الذى يربط بين بنى مدرار

وبنى رستم هو الذى حال دون تفكير الادارسة مهما تكن الصعاب الجغرافية فى اختراق جبال الاطلس الكبير والاتجاه الى غزو دولة سلجماسة ، ولكن وجود الجار الشرقى (بنى رستم) قد حال دون التفكير فى الاستلاء عليها ، وعلى الرغم من أن بنى مدرار كانت تحت حكم الخوارج الصفرية مسلحة بعشرات الالوف من المقاتيلن الذين يتصفون بالشجاعة والاقدام والبسالة كما أن فى سلجماسة من الاباضية أمثال ذلك من الفرسان الاشداء .

بل أن « السبع » يسعى الى هذا الزواج رغبة منه فى كسب حليف قوى يحمية من شر هجوم الادارسة كما أن عبد الرحمن بن رستم سعى الى هذا الزواج رغبة فى كسب تأييد هذا العدد الضخم من الصفرية من مواطنى دولتة ولقد انجبت أروى لمدرار ولدا أسماه « ميمون » وهو الذى لعب دورا هاما فى حياة بنى مدرار فى سلجماسة حتى اختلف الأمر بين ولدية « ميمون بن أروى » بنت عبد الرحمن بن رستم وأبنه الاخر ميمون بن ثقيه من سلجماسة وولى ابن الرستميين ولكن أهل سلجماسة رفضوا ذلك المسلك وأرادوا تقديم ميمون بن تقية فرفض وساعده ابنه فأعادوا مدرار الى الحكم ولكن أهل سلجماسة ما لبثوا أن أحسوا أن مدرار يسعى الى استدعاء ابن الرستمية فلحق طاعة من أهل درعة ليوليه أمر سلجماسة فحاصروا مدرارا وخلعوه وقدموا ابن ثقية وظل عليهم حتى مات عام ٢٦٣هـ (١) .

ولقد كانت العلاقات السياسية قوية ومتينة بين الدولتين الرستمية والمدرارية فى سلجماسة وقد فتح ذلك باب العلاقات الثقافية والتجارية على مصراعيه فنجد المذهب الاباضى يغزو اراضى دولة سلجماسة حتى انه بدأت تظهر كثير من المؤثرات لهذا المذهب بين مواطنى دولة سلجماسة وفى هذا الصدد أشار بعض المؤرخين أن المذهب غزا فكر أئمة وقادة دولة سلجماسة وعلمائها ، بل أن مما وثق هذه العلاقات ودعمها أن كثيرا من رعايا

الدولة الرستمية كانت تعيش فى دولة سلجاسة وتعيش فيها بحرية كاملة ، كما قام بذلك كثير من أهل سلجماسة فأقاموا فى أنحاء الدولة الستمية .

أما العلاقات التجارية فكانت نشطة الى درجة كبيرة بين الدولتين وأن طريق التجارة الرستمية الى بلاد غانا والسنغال يمر شهرين فى صحراء غير عامرة ، وكانت القوافل التجارية الرستمية تغدو ذاهبة لمدينة سلجماسة أو تستقر فيها وتحمل من سلجماسة أنواعاً من التجارات والمنتجات الى الدولة الرستمية ومن هذه المنتجات الزراعية التى تكثر فى سلجماسة مثل الكمون ، الكراويا ، الحنا . كما كانت القوافل تنقل الآرز (الملابس) المصنوعة فى سلجماسة والتى تفوق فى جودتها القصب الذى يصنع فى مصر ويحمل أيضا من سلجماسة ثمار شجر التاكوت الذى يستخدم فى دبغ الجلود فى غدامس ، على أن أهم السلع التى كانت تسعى اليها هذه القوافل هو الذهب الذى كانت تحمله من غانا وتجبى من ورائه ثروه كبيرة مما يدل على أثرة فى ازدهار دولة سلجماسة ودولة الرستميين وقد أشار محمد على دبوز فى كتابه المغرب الكبير جـ٣ص٤٤٥ الى هذه العلاقات القوية بين الرستميين وبنى مدرار فى سلجماسة فقال وكانت المعاملات التجارية بين الدولتين دولة بنى واسول (مدرار) فى سلجماسة والدولة الرستمية فى تاهرت قوية جدا وبينهما من الروابط ما لا ينقصم .

العلاقات مع بلاد السودان
بين الاغالبة وبنى رستم والادارسة

ليس هناك أدنى شك فى أنه كانت هناك علاقات تربط الولايات الاسلامية الثلاث التى قامت فى المغرب الادنى والاوسط وبلاد السودان الواقعة جنوب الصحراء الكبرى وفى ذلك العصر المبكر من الدعوة الاسلامية .

فاذا نظرنا الى العلاقات الرستمية ببلاد السودان نجد انها فى جملتها علاقات تجارية حيث كانت الدولة الرستمية تسيطر على معظم منافذ الطرق المؤيدة الى السودان وقد امتلك الرستميون عددا كبيرا من القواعد الصحراوية التى تقع على طرق التجارة مع السودان وأول هذه القواعد الصحراوية فى الدولة الرستمية كانت قاعدة (ورحلان) والتى ترتبط ببلاد السودان ارتباطا وثيقا والسفر منها الى بلاد السودان كان كثيرا ويقول عنها ابن سعيد المغربى والسفر منها (رجلان) فى الصحراء الى بلاد السودان كثيرا أما القاعدة الثانية فهى غدامس حيث يهبط منه الى الجنوب طريق للتجارة الى بلاد الكانم فى أرض السودان (راجع رسالة الماچستير) عبد الفتاح مقلد الغنيمى . سلطنة البرنو الاسلامية ، زين العابدين السراج ، سلطنة الكانم الاسلامية ، ماچستير .

وكانت أهم المنتجات التى تحملها القوافل الرستمية الى بلاد السودان الاكسية القطنية والكتانية وثياب الصوف والعمائم ، المآزر وأصناف من الزجاج كمزر الزجاج الازرق والاصواف والاحجار الكريمة وأنواع الاقاوية والعطر المأخوذ من عقد خشب الصنبور ، كما تحمل هذه القوافل النحاس الاصفر والملون ومنتجاته من الاساور والخواتم والحلقان وايضا الات الحديد المصنوع والفخار والخزف ذا البريق المعدنى والملح ويعتبر الملح أهم هذه السلع اذ يتعامل به اهل السودان كقطع العملة .

وكن ما يعادل وزن الملح يساوى وزنه ذهبا لشدة حاجة أهل السودان الى هذه المادة.

ويقول ابن بطوطة وبالملح يتعارف السود كما يتعارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويبايعون به ، وكانت هذه القوافل تعود محملة من السودان بالذهب الخام (تراب الذهب) التبر ، والذهب أيضا والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات وقد تخصص اهل ورجلان فى هذه القوافل التجارية فكان منهم الادلاء ذوو الخبرة بالطرق الصحراوية فى بلاد السودان .

فاشتهر ممالك السودان التى كانت لها علاقة بدولة الرستميين مملكة كوكو التى تقع فى شرق نيل غانا الذى ينبع من بحيرة كوى (تشاد) كما يقول ابن سعيد المغربى .

(راجع رسالة دكتوراه : عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية ١٩٨٣ ، (كتاب المد الإسلامى فى غرب افريقيا ، القاهرة ، ١٩٨٥) نفس المؤلف).

وقد ظهرت معالم هذه العلاقات فى عهد الامام أفلح بن عبد الوهاب الذى أرسل سفاره الى ملك كوكو الذى كانت مملكتة تبعد عن تاهرت بمسافة ثلاثة أشهر سيرا تقريبا وقام بهذه السفارة « محمد بن عرفة » (أنظر سابقا) قد اعجب ملك كوكو بهذا السفلير الرستمى الذى جاء الى بلاده يحمل هدايا أفلح بن عبد الوهاب ، ويقول ابن الصغير تعجب ملك السودان مما رآه من هيئته وجماله وفروسيته اذا ركب الخيل فهر يديه (محمد بن عرفة) وقال له ملك السودان كملة بالسودانية وليست تعبيرا بالعربية الا أن معناها أنت حسن الوجة ، حسن الهيئه حسن الافعال . وقد ظهرت أثار الاتصال بين النجار الرستميين وأهالى هذه البلاد واضحة فى سلوكهم وملبسهم وطرق معيشتهم وتجارتهم.

وكان أهل كوكو يلبسون « القداديز » الجبب والاكية وعلى رؤوسهم الكرازى ويجالسونهم ويتبادولن معهم البضائع بطريق المقابضة والتى حمل منه التجار الرستميون هذه الالوان الحضارية الى تلك الانحاء فانهم حملوا معهم رسالة الاسلام الخالدة الى هذه الجهات وكثيرا ما كان يرافق هذه القوافل التجارية عدد من الفقهاء المسلمين الذين خالطوا أهل البلاد وتركوا فيهم آثارا بعيدة المدى وبطبيعة الحال كان الاثر الذى تركه التجار المسلمون فى نفوس الاهالى أكثر بكثير من الذهب الذى يحصلون عليه ، ويعتبر

دور وجهد هؤلاء الفقهاء من الاسس التى قامت عليها دولة مالى الاسلامية التى كانت غالبية سكانها مسلمين لهم مساجدهم وفقهاؤهم . وقد ظهرت بهذه الاماكن بعض المؤثرات الاباضية التى تركها تجار الاباضية تمثلت فى بعض من شاهدهم ابن بطوطة من الاباضية الخوارج فى بلاد السودان فى رحلتة المشهورة .

ولقد صاحب انتشار الاسلام ، انتشار اللغة العربية فكان هناك الكثيرون ممن يجيدون الحديث باللغة العربية الى جانب لغتهم المحلية .

وهكذا كما ارتبطت دولة بنى ستم بعلاقات مع بلاد السودان فقد كانت هناك علاقات لبنى الاغب مع تلك الانحاء وكذلك الادارسة فقد تركت العلاقات بين كل من الاغالبة والادارسة وبنى رستم أثرها الواضح فى جميع الميادين فى بلاد السودان الغربى والاوسط اذ أن قيام الممالك الاسلامية التى ظهرت فى تلك الانحاء (كانم ، برنو ، امارات الهوسا ، غانا ، مالى ، سنغاى يعود الفضل فى ظهور هذه البلاد بالمظهر الاسلامى الذى وصلتة الى الدور الذى لعبتة الولايات الثلاث الاغالبة والادارسة وبنو رستم فى ذلك التاريخ المبكر من الدعوة الاسلامية والتى كان الفضل فيها لانتقال التجارة ولفقهاء ورجال الدين فى هذه العصور المبكرة فى القرنين الثانى والثالث الهجرى دورا كبيرا فى جميع المجالات .

فلا يوجد هناك أدنى شك فى أن الادارسة والاغالبة وبنى ستم وبنى مدرار قد قاموا بدور حضارى لايقل عن دور المرابطين والموحدين وغيرهم من ممالك بلاد المغرب فى بلاد السودان .

علاقات الأدارسة
وبنى رستم والأغالبة بالأمويين فى الندلس

إنه إذا طوينا جانبا صفحات العلاقات السابقة بين هذه الامارات أو الدولة مع البلاد السابق الاشارة اليها فإنه يكون أمامنا دولة بنى أمية فى الاندلس فبالنسبة للادارسة فانه اذا نظرنا من الناحية الجغرافية نجد على الضفة المقابلة من البحر المتوسط لدولة الادارسة تقع دولة بنى أمية فى الاندلس ، تلك الدولة التى لا يفصلها عن دولة الادارسة سوى البحر المتوسط ومضيق هذا البحر الضيق (مضيق جبل طارق) .

وقد أسس هذه الدول الاموية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان واتخذ قرطبة عاصمة له عام ١٣٨هـ ٧٥٦م . فاذا نظرنا الى الدولتين نجد أن كلا من ادريس بن عبد الله العلوى وعبد الرحمن بن معاوية أقام كل منهما دولة مستقلة تقع فى الطرف الغربى من الدولة المركزية فى بغداد .

ولقد كان العامل المباشر فى قيام هاتين الدولتين هو فرار مؤسسها ناجيا بنفسة من سيف الخلافة العباسية ملتجئا الى هذه الاطراف القاصية باحثا عن وطن جديد يحقق فيه مبادئه وأهدافه وقد استطاع كل منهما أن ينجح فى تحقيق هدفه فى أقامة دولة تتمتع بالاستقلال بعيدا عن سلطة الخلافة العباسية .

الا انه من ناحية أخرى كان هناك العداء التقليدى بين مؤسسين دولة الادارسة العلوى ادريس بن عبد الله الذى ينتمى نسبه الى على بن أبى طالب ومؤسس دولة بنى أمية فى الاندلس الذى ينتمى نسبه إلى بنى أمية . فلا شك أن أدريس بن عبد الله حين فر من وطنه الاصلى فى الحجاز قد ترسبت فى أعماق نفسة تلك الذكريات المؤلمة التى مر بها البيت العلوى سواء أكان فى عهد بنى أمية أم فى عهد بنى العباس وليس من شك

كذلك أن ذريته من بعده من نسل ادريس والذين تولوا الحكم فى دولة الادارسة قد تدارسوا تاريخ كفاح أسرتهم وماواجهوه من تنكيل وتشريد من حكام بنى أمية وبنى العباسى .

وكان لابد أن تترك هذه الذكريات المؤلمة اثرها فى العلاقة بين الدولتين فاتسمت بطابع الحذر والتربص ومساندة كل حركة تنتقص من سيادة الاخرى واستقلالها .

ولقد كانت دولة الادارسة قاعدة لتدبير المؤامرات ضد بنى أمية فى الاندلس فدولة الادارسة هى الملجأ لكل مناوئ للحكم الاموى فى الاندلس يجد فى ظلها الحماية والامن ويتمكن من تنظيم صفوفة والعودة ثانية الى الاندلس لتحقيق أهدافة ويبدو ذلك واضحا حين اعتلى هشام بن عبد الرحمن حكم الاندلس ١٧٢هـ/٧٨٨م وثار عليه اخوه عبد الله سليمان متطلعين للحكم فقضى هشام على هذه الثورة وصالح أخوية على أن يتوجه عبد الله وسليمان الذى قبض مقدارا من المال يقدر بستين ألف دينار من دولة الادارسة .

وقد حل هو وأهله بلاد الادارسة وكذلك أخوه عبد الله ونزلوا مدينة طنجة عام ١٧٤هـ/٧٩٠م حتى اذا سلم ابن هشام زمام الحكم فى الاندلس فى صفر ١٨٠هـ/٧٩٠م تحرك الاخوان سليمان وعبد الله بالثورة مرة ثانية بعد أن أعدوا العدة لذلك فى أرض الادارسة وعبرو الى بلاد الاندلس وهناك دارت معارك بين الحكم وبين عمية سليمان وعبد الله انتهت بمقتل سليمان عام ١٨٤هظ/٨٠٠ وأصدر الحكم عفوا عن عمه عبد الله والواضح انهم لقيا مساندة فى الاقامة وعند العودة من دولة الادارسة وأن الادارسة قدموا معونة وتأييدا وحرية فى الحركة والعمل ضد حكام الاندلس وقد تمثل ذلك فى أن الاخوين (عبد الله وسليمان) قد أعدا نفسيهما للثورة ضد الحكم بن هشام وما يتبع ذلك من بذل للاموال وجمع للاعوان على أرض دولة الادارسة ، هذه الحرية والمساندة لم يجدها الثائرون فى الدولة الرستمية التى تجاور الادارسة حيث كانت العلاقات

طيبة بين بنى أمية والدولة الرستمية .

ولقد كانت دولة الادارسة ملاذا وملجأ للفارين من وجه بنى أمية فى الاندلس ، ونقول انه لما كانت دولة الادارسة ملاذا للاجئين من عسف الحكم الاموى فى الاندلس ، فقد اتصف الحكم بن هشام الذى تولى الحكم فى الاندلس ١٨٠هـ/٧٩٦م بأنه كان طاغية مسرفا وله أعمال قبيحة وسيئة مما جعل كثيرا من العرب يفضلون الحياة فى دولة الادارسة حيث الاستقرار والاطمئنان .

وقد حدث ذلك فى عام ١٨٩هـ/٨٠٤م حيث وفدت على ادريس بن ادريس وفود كثيرة من افريقية والاندلس لتقيم معه وقد عززت هذه الوفود حكم ادريس بن ادريس واتخذ منهم الوزراء والقضاة .

كم ان عهد الحكم بن هشام وقعت فيه معركة الربض عام ٢٠٢هـ/٨١٧م وقد استطاع الحكم بن هشام أن يقضى على هذه الثورة وأن ينكل بالقائمين بها بعد أن هدم الربض وأخحلى أهلها عنها فى خلال ثلاثة أيام فتفرق أهلها فى البلاد الاسلامية وتوجة عدد كبير منهم الى دولة الادارسة حيث نزلوا مدينة فارس وكان يحكمها فى ذلك الوقت ادريس بن ادريس وقد قدر عدد من توجة الى دولة الادارسة بحوالى تمانية آلاف شريد وهكذا وجد الناقمون على حكم أمراء الاندلس مأوى وملاذا يلجئون اليه اذا ما أصابهم سوء على يد حكامها الادارسة وحكامها الذين رحبوا بهم واغتبطوا بمجىء هؤلاء الاعراب اليهم .

واذا كانت هذه الوفود العربية قد عززت مكانة ادريس بن ادريس فى حكمه واشتركت معه فى ادارة شئون البلاد حيث لم يكن للعرب دور فعال فى عهد ادريس الاول فانها ولاشك قد شجعت على التفكير فى غزو الاندلس والقضاء على حكم بنى أمية فيها .

وقول الكتانى فى كتاب الازهار العطرة استأنف أدريس بن أدريس رضى الله عنهما استفتاح البلاد فضايق ابن الاغلب فى افريقية وسعت همته إلى مضايقة بنى أمية الكائنتين بالاندلس وعول على الاقتحام عليهم فى جزيرتهم فأدركه اجله قبل الشروع فى ذلك وهكذا كان انتهاء اجل أدريس بن أدريس هو ما حال بينه وبين تحقيق امنيته فى غزو بلاد الاندلس .

وقد عقد الأدارسة صلات مع الثائرين على بنى امية فى غزو الاندلس ولقد حاولوا تحقيق هذا الامل وهو القضاء على حكم بنى اميه فى الاندلس ، وفى عهد الإمام العلوى الامير الأدريسى ابراهيم بن القاسم بن أدريس بن أدريس احد حكام دولة الأدارسة والذى تولى حكم مدينة أصيلا تلك المدينة الواقعة على ساحل المحيط الاطلسى خلفا لوالده القاسم أدريس بن دريس وذلك بالاتصال بأحد الثوار وهو « عمر بن حفصون » وقد ثار هذا على الامير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام وخالف على السلطان حتى رضى عنه بالمشاركة فى الحكم واتصلت ايامه حتى بلغت مدادها فى عهد من تولى حكم الاندلس عام ٣٢٨هـ / ٨٥٢هـ .

وقد ظهرت فتنة عمر بن حفصون عام ٢٦٧هـ / ٨٨٠م وكان الاعداد للثورة يتضمن طلب المعونة الخارجية من دولة الأدارسة وقد جرت بينه وبين ابراهيم بن القاسم بن أدريس بن أدريس مراسلات ومكاتبات فى شأن هذا الشقاق على الخليفة الاموى بقرطبة .

وهكذا كان ولاة الأدارسة على اتصال بثورة الاندلس عن طريق المكاتبات ينسقون معهم الخطط للقضاء على حكم بنى امية فى الاندلس ويقول ابن الاثير ان الأدارسة نازعوا بنى امية فى امارة الاندلس .

وكما عقد حكام الأدارسة صلات مع الثوار بالاندلس فان بنى امية بدورهم عقدوا

صلات وثيقة مع بعض رعايا الأدارسة وكانت هذه الصلات بينهم وبين قبائل صنهاجة المقيمة فى طنجة احدى مدن دولة الأدارسة وقد اتخذت هذه الصلات الولاء والموده من قبيلة صنهاجة لحكام الاندلس

وقد ظهر ذلك حين ارسل عبد الرحمن بن الحكم الذى تولى حكم الاندلس عام ٢٠٦هـ / ٨٢١م خبر انتصاره على المجوس إلى قبيلة صنهاجة فى مدينة طنجة ، وهكذا اتسمت العلاقات بين دولة الأدارسة وبنى امية فى الاندلس بالحرص والترقب ومحاولة الأدارسة مساندة كل حركة ثائرة ضد الامويين بالاندلس محاولة منهم الانقضاض عليهم والنيل منهم نظرا للعداء القديم بين العلوين ومقتل الإمام على بن ابى طالب وخدعة عمرو بن العاص لابى موسى الاشعرى وتولية معاوية بن ابى سفيان وما حدث من الامويين من قتل الإمام الحسين بن على واسرته فى معركة كربلاء وغيرها من مواقف الامويين ضد العلويين . ولمكن يلاحظ تسامح السلالة النبوية المشرفة فى عدم ايذاء من نكل بهم وشردهم لانهم كانوا يريدون الحكم بما انزل الله فى قرأنه الكريم .

علاقة الرستميين بالأمويين فى الأندلس
(١٣٨ - ٢٩٦ هـ - ٧٥٥ - ٩٠٨ م)

قامت العلاقة بين بنى رستم والدولة الاموية فى الاندلس على اساس التحالف القوى المتين والصداقة المتبادلة على عكس ما كان قائما بين الادارسة والامويين . حيث كان قد اسس دولة الامويين بالاندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وقد عرف بالداخل لدخوله الاندلس وكان قد فر من بطش العباسيين الذين لم يدخروا وسعا فى تتبع أبناء البيت الاموى وقتل افراده والتنكيل بهم بعد سقوط دولتهم عام ١٣٢هـ واستيلاء العباسيين على مقاليد الخلافة منهم فهرب عبد الرحمن بن معاوية إلى مصر ومعه اثنان من مواليه وهما « بدر وسالم » ومن مصر انتقل الثلاثة إلى افريقية ومن

هناك تقلب فى قبائل البربر حتى استقر على ساحل البحر ومن هناك اخذ فى دراسة الاحوال فى بلاد الاندلس وانسب الاماكن للنزول فيها وكاتب من فى الاندلس من موالى الامويين فاستجابوا إلى دعوته فعبر اليهم فى ربيع الاول عام ١٣٨هـ واستجاب كثير من الناس لدعوته وانضم اليه الكثيرون من بنى أمية الذين قدموا اليه من المشرق ولما اكتملت له الجيوش تحرك بها نحو قرطبة العاصمة وهزم « يوسف الفهرى » الذى انتهى امره بهزيمته وقتله فى غرناطة واستطاع عبد الرحمن الداخل بعد ذلك ان يؤسس دولته ودعم اركانها فظلت قوية مرهوبة الجانب من سائر جيرانها .

وقد بدأت العلاقة بين الامويين متمثلة فى شخص عبد الرحمن بن معاوية الداخل مؤسس الدولة الاموية وبين الرستميين فى مرحلة مبكرة فحين وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى افريقية فارا من العباسيين لجأ إلى المغرب الاوسط حيث اقام بين الخوارج الذين حافظوا عليه وأجاروه من الاخطار التى تعرض لها يقول بن سعيد المغربى وآل امره فى سفره (عبد الرحمن بن معاوية) إلى ان استجار ببنى رستم ملوك تاهرت فى « المغرب الاوسط » ولقد كان من الطبيعى ان يتم التآلف بين امراء بنى امية فى قرطبة وبين الائمة الرستميين فى تاهرت وتقوم العلاقة بين الدولتين على اساس من الصداقة والتحالف والمودة، اذ كان الامويون فى الاندلس محط عداء العباسيين ومكائدهم ، كما كان العباسيون ايضا أعداء الاباضية فى تاهرت ، ومما دفع امراء بنى بنى امية إلى توطيد علاقاتهم بالرستميين انه لم ينقذ بلادهم من المخاطر فى بلاد المغرب سوى المغرب الاوسط، لان المغرب الاقصى كانت به دولة الأدارسة العلوية التى كانت علاقاتها بالدولة الاموية فى الاندلس تتسم بالعداء والحذر والتربص .

كذلك قيام دولة الاغالبة فى المغرب الادنى وهى موالية للعباسيين فانها اوصدت جميع المنافذ والسبل فى وجه الامارة الاموية الفتية وأصبحت الدولة الرستمية هى الشريان

الوحيد الذى يستطيع ان يغذى تلك الامارة بالحياة ويتعاون معها سياسيا واقتصاديا وثقافيا وحضاريا ، ففى اطار التعاون السياسى بين الدولتين ارتبطت كل منها بالاخرى ارتباطاً وثيقا وكان زعماء كل من الدولتين يتابع نشاط الاخر باعجاب بالغ واستقبل الرستميون كلا من كبار رجال الاندلس الذين وفدوا إلى تاهرت واستوطنوها وأصبح منهم من عاون الائمه فى شئون الادارة والحكم وقد اشتهر من بينهم اثنان هما «عمران بن مروان الاندلسى» «ومسعود الاندلسى» اللذان كانا ضمن الجماعة التى رشحها عبد الرحمن بن رستم لاختيار واحد منهما لتولى الحكم فى الدولة الرستمية بعد وفاته . وظلت الدولتان كل منهما يسعى إلى كسب صداقة الاخرى وفى عام ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م بعث عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ابناءه الثلاثه فى سفارة رسمية إلى قرطبة عاصمة الامارة الاموية وقد كان يوم وصول هذه السفارة الرستمية إلى قرطبة يوما عظيما مشهودا حيث استقبلهم عبد الرحمن الثانى استقبالا ملكيا رائعا وأنفق عليه مليونا من الدنانير حتى اصبح حديث الناس ومصدر اعجابهم .

وفى عهد افلح عبد الوهاب نمت العلاقات الرستميه الاندلسيه نموا مضطردا وكانت كلتا الدولتين تبلغ الاخرى بأخبار انتصاراتها اولا بأول ويتم تبادل الهدايا فيما بينهما وبهذه المناسبه ، فحين ابتنى الاغلبيه مدينه العباسيه عام ٢٢٧هـ /٨٤١م قرب تاهرت لتهدية عاصمة الرستميين ولكى تؤثر على مركزها الاقتصادى والسياسى قام أفلح بن عبد الوهاب يهدمها واحراقها . وقد بادر باخبار خليفة الامويين عبد الرحمن الاوسط بما تم ، فأرسل اليه عبد الرحمن الثانى (الاوسط) هديه كبيره قدرها المؤرخون بمائه الف دينار وأصبح تبليغ الانتصارات بين الدولتين تقليدا سياسيا يتبادلانه بينهما فحينما انتصر عبد الرحمن الاوسط على المجوس (النورمانديين) فى عام ٢٣٠هـ /٨٤٤م بادر بابلاغ هذا النصر إلى خليفه الرستميين أفلح بن عبد الوهاب .

وقد استعانت الدولة الاموية في الاندلس بعدد من خبرة القادة الرستميين في اعمالهم الحربيه فاستعان الامير عبد الرحمن الثاني الاوسط بالقادة الرستميين محمد بن رستم في القضاء على الثورة التي قام بها « هاشم الغراب » بطليطله عام ٢١٤هـ / ٨٢٩م .

كما استعان الامير عبد الرحمن نفسه بمحمد بن رستم ايضا في صد الغارات التي دأب المجوس (النورمانديون) على شنها على شواطيء الاندلس وتمكن القائد الرستمي من القضاء على هذا الخطر الذى كان يتهدد المسلمين في بلاد الاندلس .

كما شهدت بلاد الامويين في الاندلس عددا من رجالات السياسة الرستمين الذين احتلوا منصب الوزارة والحجابة في دولتهم فكان منهم الوزراء والحجاب الذين اثبتوا كفاءة لا مثيل لها وفي ذلك يقول ابن القوطية وكان له (عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦هـ –٢٣٣هـ) وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم وهم « عبد الكريم بن مغيث الكاتب » ومنهم عيسى بن الشهيد »، « ويوسف بن بخيت » ، « وعبد الله بن اميه بن زيد » ، « وعبد الرحمن ين رستم » وقد تولى عبد الرحمن بن رستم هذا ايضا منصب الحجابه في عهد عبد الرحمن بن الحكم بهد وفاة ابن غانم الحاجب .

وفي ذلك يقول ابن القوطية ايضا ، ثم مات عبد الرحمن بن غانم فصارت الحجابه لعيسى بن شهيد وعبد الرحمن بن رستم .

ويوجد عند ابن الابار نص يثبت أن «عبد الرحمن بن رستم » الوزير الحاجب في عهد عبد الرحمن بن الحكم الثاني هو ابن القائد « محمد بن رستم » وانه هو ووالده قد دخلا الاندلس أيام كان عبد الرحمن بن الحكم أميرا من قبل والده الحكم على « شذونه » المدينة ويقول ابن الابار ان محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم قد دخل ابوه إلى الاندلس وكان محمد هذا بناحيه الجزيره واصطحبه عبد الرحمن بن الحكم

فى امارته على مدينه « شذونه » من قبل ابيه الحكم فكان يأنس فيه فى بعض الاحيان ، ثم آلت اليه الخلافه فاستقدمه وصرفه فى الحجابة والوزارة وهو احد القواد الذين حالوا بين المجوس وبين فتح اشبيلية .

وكان اديبا حكيما ، ويذكر محمد بن تاويت نقلا عن ليفى برفنسال أ عبد الرحمن ابن رستم الوزير والحاجب فى عهد عبد الرحمن الثانى هو الابن البكر لمحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم .

واذا كانت الدوله الرستميه قد منحت بعض مواطنى الدوله التى تختلف معها سياسيا ومذهبيا حق اللجوء السياسى واعطتهم كل الوان الحمايه فانها لم تكفل مثل هذا الحق للخارجين على الدوله الامويه فى الاندلس ولم تسمح بالقيام بأى نشاط سياسى ضد حلفائهم الامويين فى الاندلس . وفى نفس الوقت منحت الدوله الرستميه حق الاستيطان والاقامه لكل اندلسى وفد اليها للتجارة أو العمل دون الاضرار بالعلاقات الطيبه المتوطدة بين الدولتين .

ويورى بن القوطيه ان عمر بن حفصون الذى قام بثورته ضد محمد ابن عبد الرحمن أمير قرطبة قد فر إلى تاهرت عاصمه الرستميين واختفى بها استعدادا ضد الامويين واشتغل مساعدا لاحد الخياطين الذين وفدوا على تاهرت من مدينه « ربه » بالاندلس ضمن الوافدين من أهل الاندلس رغبة فى متابعة نشاطهم الاقتصادى وازدياد الثراء وذلك بتوافر الحماية لهم من سلطان تاهرت .

ولم تكن العلاقات السياسيه هى كل ما يربط الرستميين بالاماره الامويه فى بلاد الاندلس . بل قامت كذلك علاقات اقتصاديه وتجاريه على نحو فريد بين الدولتين وتتمثل هذه العلاقه التجاريه فى تلك التسهيلات التى منحها الرستميون للتجاره الاندلسيه فقد فتحت امام هؤلاء التجار الطريق إلى سائر بلاد العالم الاسلامى وانقذتهم بذلك من

الحصار الاقتصادى الذى فرضه عليهم الاغلبة الأدارسة وقد قويت هذه العلاقات التجارية فى ظل حاجة الامويين بالاندلس إلى الاسواق الخارجيه لتصرف منتجاتهم التى زادت بسبب التقدم الذى احرزه الامويون بالاندلس فى ميادين الزراعه والصناعه ، كما انهم كانوا فى حاجه إلى الحصول على بعض المواد الخام من البلاد الاسلاميه وقد يسر لهم بنو رستم جميع السبل ففتحوا لهم موانيهم فى تنس ، ومستغانم ، ووهران لاستقبال المنتجات والبضائع الاندلسيه ولا سيما المصنوعات الحريريه وقام الرستميون بدور الوسطاء فى نقل هذه المنتجات وتصريفها فى بلاد السودان ومصر والمشرق الاسلامى (العربى) وحتى اصبحت نواة قوة الاقتصاد الرستمى سندا للامارة الاموية فى عمليات التصدير والاستيراد وتزويدها بكل ما تحتاج اليه من المصادر العالميه وترددت اصداء هذا الازدهار الاقتصادى بين الدولتين فى نشاط الاساطيل التجاريه الاندلسية وازدهار المدن والموانى الرستميه والامويه وبخاصه تاهرت وقرطبة .

وصاحب هذه العلاقات السياسية والاقتصادية علاقات ثقافية وحضارية ضخمة بين بنى رستم والامويين فى الاندلس ، اذ اصبحت الدوله الرستميه الجسر الذى ضمن استقرار التدفق الحضارى من المشرق إلى بلاد الاندلس لذا حرص الامراء الامويون على استغلال هذا الجسر رغبه منهم فى ربط اماراتهم بتيار الحضاره الاسلاميه فى المشرق عن طريق الرستميين وقد نجح امراء بنى امية فى الاندلس فى الحصول على كل ما يحتاجون اليه من كنوز المشرق العربى العلمى ومؤلفاته ومخطوطاته وكذلك علمائه وكانت لدى الرستميين مكتبتهم الضخمه التى عرفت بالمعصومه والتى حوت عددا ضخما من الكتب والمؤلفات فى مختلف العلوم والفنون بالاضافه إلى جهود علماء الدولة المحليين

وبهذا يكون الرستمييون قد قاموا بدور الوسيط الثقافى كما قاموا من قبل بدور الوسيط التجارى فأخذوا من الشرق واعطوا الاندلس فكانت بلادهم ماء الحياه الذى جدد

انطلاق الاسلام إلى غرب اوربا عن طريق الاندلس ونتيجه لهذا الدور الثقافى الذى اضطلع به الرستميون ظهرت مؤثرات أباضيه فى الاندلس اذ انه من الطبيعى ان تترك هذه العلاقات القويه آثارها فى الشعب الاندلسى ، وان لم يكن لها من القوة ما يظهرها بشكل واضح نتيجه لسيطرة المذاهب السنيه المطلقة على الاندلسيين .

وقد ظهربت هذه الاثار فى مناطق الاحتكاك التجارى بين الرستميين والامويين فى قريه بلقين فى منطقه « المرية » التى كان اهلها على مذهب الخوارج لايترددون ، وكذلك كان احد العلماء المعلمين بقرطبة هو العالم « جابر بن غيث الليلى » يعلم ابناء الوزير هشام بن عبد العزيز وكان هذا العالم المعلم كثير التشدد حتى انه كان فى صرامته يقارب الاباضيه .

كذلك رحل إلى الاندلس كثير من علماء الدولة الرستمية يسمعون من علمائها ويروون عنهم ومن هؤلاء «قاسم بن عبد الرحمن التاهرتى» ، «وبكر بن عبد الرحمن التاهرتى» ، «واحمد بن عبد الرحمن التاهرتى »والذى حظى بمكانه عظيمه عند « منذر بن سعيد» القاضى فسمع منذ تواليفه كلها كما سمع من «أبى وكيم وقاسم بن اصبع» «ووهب بن مسرة» «ومحمد بن معاويه القرشى »وأبى بكر الدنيورى كل هؤلاء العلماء رحلوا إلى الاندلس طلبا للعلم وعادوا إلى بلادهم يساهمون فى نهضتها العلميه والثقافية والحضارية .

وقد اتخذ امراء الاغالبه موقفا معاديا للدوله الامويه فى الاندلس منذ قيام دولتهم ١٨٤هـ / ٨٠٠م فى حين ان دوله بنى اميه تأسست عام ١٣٨ هـ /٧٧٥م بل انهم فرضرا حولها حصارا اقتصاديا وثقافيا وعلميا وكذلك لم تكن هناك علاقات سياسية لان الاغالبه كانوا يسيرون فى فلك الخلافة العباسية المعادية لبنى أميه وبهذا لم تكن هناك علاقات بالمعنى المفهوم كالتى كانت عليه بين بنى رستم والامويين وكذلك بين الأدارسة

نظرا لقرب المسافه ، لكن قد تكون هناك علاقات تجاريه وثقافيه غير مباشره بين الاغالبة والامويين وان كانت ليست بالصورة التى كانت عليها مع بنى ستم .

نظرا لان الاغالبة كان خط سياستهم الواضح هو موقف العداء الثابت من بنى أميه والعمل على تقويض خلافتهم فى الاندلس.

وبهذا ننهى فصل العلاقات الخارجية بين الامارات الثلاثة بنى رستم والأدارسة والاغالبة مع بعضها البعض ومع غيرهما من الدول المعاصرة والتى كانت الظروف السياسية والاقتصاديه والثقافية تلعب دورا هاما فى قيام هذه العلاقات أو عدم قيامها مع العلم بأن العلاقات الثقافيه بصفة خاصة كانت قائمه رغم صراع الحكام والخلافات نظرا لحريه الحركه والنقله ولم تكن هناك حدود سياسيه ثابته بالمعنى المفهوم والواضح والمتعارف عليه فى العصر الحديث ومن هنا كانت العلاقات متصلة ومستديمة .

الخـــــاتمـة

انه من خلال تلك الدراسة التى هى الجزء الثانى من موسوعة المغرب العربى الاسلامى والتى تمثل حكم ثلاث ولايات احداهما فى المغرب الأدنى (الاغالبة) والمغرب الاوسط (بنى رستم) ولمغرب الاقصى (الادارسة) وذلك فى خلال القرنى الثانى والثالث الهجرى ، حيث كانت تلك الامارات هى الامارات المستقلة لتى ظهرت على سطح الاحداث السياسية فى سماء المغرب العربى فى تلك الحقبة التاريخية من التاريخ الاسلامى.

ولقد كانت دولة بنى رستم أولى تلك الدول حيث ظهرت فى المغرب الأوسط ثم تلتها دولة الادارسة العلوية فى المغرب الأقصى فكان على الخلافة العباسية أن تحافظ على

وجودها ونفوذها فى المغرب الادنى حفاظا عليه من خطر الادارسة ، أو بنى ستم لضم هذه الاقاليم إلى دولهم فكان الخليفة هارون الرشيد قد منح هذه الاقاليم لإبراهيم بن الاغلب لكى يتولى ادارته من قبل الخلافه العباسية على ان يكون حكم الاقليم فى عقبة من بعده.

وهكذا كانت تلك الدراسة لهذه الامارات الثلاث انما تستهدف القاء الضوء على تاريخها وعلاقاتها والاعمال التى تمت فى عصر كل منها .

ففى المغرب الاوسط انشأ الرستميون الخوارج الاباضيه دولة مستقلة عن الخلافة العباسية (١٤٤-٢٩٦ هـ/ ٧٧٦-٩٠٩م) واتخذت مدينه تاهرت عاصمة لها ولقد كان سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية من الأسباب القوية لتقوية الشعور بالثورة والخروج على طاعة الخلافة الجديدة التى اتخذت لها عاصمة بعيدة فى العراق هى بغداد . ولقد كان للخوارج دور هام فى تأليب النفوس واثارتهم على الدولة وولاتها وهكذا سادت حالة من عدم الولاء للخلافة .

ولقد رأيت الاراء والافكار الخارجية قبولا لدى المغاربة ومنها المذهب الاباضى وهو الوحيد من بين مذاهب الخوارج الذى قدر له ان يعيش حيث أن الاباضية قريبون فى فهم الشريعه من السنه وعلى اساس المذهب الاباضى قامت دوله كبرى من المغرب هى الدوله الرستمية . وعلى هذا كانت تلك الثورات من الاسباب القوية التى يجب أن نلاحظها فى بلاد المغرب العربى وهى قيام الممالك المحلية المغربيه المستقلة بنى رستم والادارسة والاغالبه ولم تكن هذه الثورات ضد الوجود العربى بالمعنى المفهوم انما لرفع المظالم عن العباد ، بدليل ان الثورة كانت عامة ولم تقتصر على البربر وحدهم انما شارك فيها العرب لاسيما عرب القيروان كذلك فان انتشار مبادىء الخوارج فى المغرب كان تعبيرا عن الميول المغربيه التى الفت الحرية كالقبائل العربيه وقد ادى ذلك إلى ظهور عدة ولايات محلية

يتزعمها زعماء محليين انتشروا فى بلاد المغرب الاوسط والاقصى على الرغم من الحملات العربيه لتى أرسلتها الخلافة .

وكان المغرب الادنى قد تولى امارته فى القيروان عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن نافع الفهرى بعد أن بايعه عليه القوم ورجال الدينوالعلمء الا ان تلك الاماره العربيه لم يكتب لها طول العمر حيث خلعت طاعه الخلافه العباسية ودخل أميرها فى حروب مع اسرته أدت إلى زوال هذه الامارة .

وكان ان شهد المغرب العربى عدة ولاة سوف نشير اليهم فى نهاية هذا البحث وهم الذين تولوا الامارة فترة قيام دولة بنى رستم ودولة الادارسة وقبل ظهور دولة الاغالبه ، حيث ان الدوله العباسية لم نستطع ان تمد نفوزها غربا اكثر من اقليم الزاب حيث هو البعد السياسى للعباسيين غربا واما بقيه المنطقه حتى المحيط الاطلسى فقد كانت تعيش فى فراغ سياسى حيث كانت تنازعها الامارات والقيادات المختلفة .

وهكذا استمرت قبائل البربر تناوئ سلطان الخلافة العباسية حتى عام ١٨١هـ حين ادرك العباسييون ان فوزهم على البربر لا أمل إلى تحقيقة فتراجعوا عن المغرب الاقصى مكتفين باقليم افريقية (تونس) الذى أقاموا فيه دوله سنيه تولى الاغالبه حكمها من قبل الخلافة العباسية .

وانجلى الصراع الطويل بين الخلافة العباسية صاحبة السلطة المركزية وبين البلاد التى نزعت إلى الحكم المستقل إلى قيام ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب استقلت استقلالا تاما ومن هذه الولايات ولاية تاهرت التى اسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة الاباضية وولاية سحلماسة التى اسسها بنو مدرار وتلمسان التى اسسها ابو فروة الصنهاجى وبرغوانة الواقعة على المحيط الاطلسى .

ثم شعد عصر الخليفه العباسى هارون الرشيد ظهور دوله الاغالبه حيث تولى ابراهيم ابن الاغلب عاملا على افريقية وبذلك بدأت تجربه سياسية جديدة فى تاريخ افريقية عن طويق حكم اسرة عربية محلية تابعة للخلافة العباسية.

ومن هنا بدأ المغرب العربى عامة يدخل طورا جديدا فى الدول المستقلة وهكذا انقسم المغرب العربى إلى ثلاث دول هى دولة بنى رستم التى اسسها عبد الرحمن فى تاهرت (١٣٧-٢٩٦هـ) وكذلك دولة الادارسة التى اسسها ادريس بن عبد الله العلوى فى بلاد المغرب الاقصى (١٧٢ - ٢٧٥هـ) وكذلك دولة الاغالبه التى أسسها ابراهيم بن الاغلب فى تونس (١٨٤ - ٢٩٦هـ) وهكذا نجد المغرب العربى خضع لعاملين هما العامل القومى والعامل المذهبى وقد تساند العاملان معا فى استقلال هذا المغرب الاسلامى وبناء شخصيته العربية الاسلامية المغربية المستقلة .

وكانت دولة بنى ستم قد نشأت نظرا لنفوذ الخوارج فى تلك المناطق والتى يعود إلى نهاية القرن الاول الهجرى وساعدت العوامل التى أوضحناها فى صلب هذا البحث إلى ان تقوم دولة كبرى من دول المغرب العربى الاوسط وهكذا نجح الخوارج الذين انهزموا فى قلب الدوله الاسلاميه فى اقامة دولةاباضيه سوف تلعب دورا بالغا فى شئون المغرب الاوسط بل المغرب العربى والعالم الاسلامى .

وكان الإمام عبد الرحمن بن رستم قد اجتمع اليه أنصاره فى تاهرت العاصمة ونادوا به اماما عاما ١٤٤هـ وكان عبد الرحمن هذا من اقرب رجال الاباضية إلى الزعيم أبى الخطاب بن عبد الاعلى والمعافرى والذى كان قد بسط نفوذه على القيروان .

ولقد كانت امارة بنى ستم تحد من الشرق بولاية الاغالبة حكام افريقية كما كان يحدها اماره الادارسة غربا وشمالا تمتد إلى الاكثر بعدا فى الجنوب حيث بلاد السودان والصحراء وكانت مساحة لدوله تتسع ويمتد نفوذها فيصل حكمها شرقا إلى طرابلس

حيث البقيه الاخرى من الخواج الاباضية حول طرابلس وجبل نفوسة وكذالك امتدت إلى تلمسان غربا .

ولقد كان نهج الحكم فى تلك الامارة هو السير على نهج الشريعة الاسلامية الحقه المتمثله فى القرآن الكريم والسنه النبويه المطهرة والسلطة العليا بيد الرئيس الذى هو الإمام الاباضى الاكبر . وكان ائمه هذه الامارة يعيشون عيشه زهد حتى انه لم يكن لدى الامير الاول عبد الرحمن بن رستم سوى وسادة ينام عليها وكان مسلما صالحا كل الصلاح وكان للامام الحق فى أن يختار من بين العلماء والائمه الصالحين من يعينهم فى جميع المناصب العليا وخاصة القضاء وأمناء المال ورؤساء الشرطة وكان القضاة أهم رجال الدولة وكان الائمة يهتمون باختيارهم من بين الذين شهدوا لهم بالنزاهه وحسن السيرة .

وقد اقامت الاماره الرستميه حضارة عربيه اسلامية تمثلت فى العديد من المظاهر الثقافيه والفكرية والعمران والاقتصاد والتجارة .

وقد جاءت فى اقوال ابن الصغير ان الحضارة الاسلامية الرستمية تأثرت بالحضاره الفارسية العربيه التونسيه وانه قامت ادارات تنظيم الشئون المالية والادارية وكان يتولى هذه الادارات رجال الدين من الخوارج الاباضية والفقهاء والصالحون ورجال تعليم المذهب الاباضى .

ولقد ارتفع شأن العلماء الذين احتضنتهم الدولة الرستميه لقيامهم بتفقيه الناس أمور الدين وفق المذهب والفقه والشريعة الاسلاميه الاباضية ولقد قرب امراء الدولة اليهم العلماء واجزلوا لهم فى العطاء وأفسحوا المجالس لهم وأجروا عليهم الارزاق تعميقا للروح الاسلامية .

بل اكثر من ذلك فان ظهور امارة تاهرت بهذه الصورة الحضاريه العمرانيه

والاقتصادية والدور الذى لعبة ال رستم من الولاه الذين تولوا اداره شئون هذه الامارة دافعا قويا للتطور فى جميع المجالات المختلفة ولقد كان القيام ببناء العاصمه تاهرت باعثا للقبائل العربية والبربرية من السكان للقيام بانشاء المبانى والمدن الجديدة وتخطيطها على أسس اسلامية وقد تم تأسيس عدة مدن مننها وهران التنس ومستغانم ومدينه غرة وسوق ابراهيم وغيرها من المدن الاخرى .

وقد كانت فتره حكم عبد الرحمن بن رستم من عام ١٤٤ – ١٦٨هـ – ٧٦٠ – ٧٨٤م فتره تدعيم كيان الدولة وقد اوصى قبل موته باختيار ستة من شيوخ المذهب والجماعة وخصهم بأسمائهم وأضاف اليهم ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ويعتبر عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الوالى الثانى فى الدولة الرستمية وتولى ١٦٨ – ١٨٨هـ – ٧٨٤ – ٨٠٠م وقد حكم عشرين سنة متواصلة خلفا لوالده وكان ملكا فخما وسلطان تاهرت واستطاع القضاء على كل الثورات والفتن التى حدثت فى عهده واجتمع له من أمراء الاباضيه وغيرهم ما لم يجتمع لاباضى قبله ودان له ما لم يدن لغيره من الامراء والائمه .

وبعد وفاة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فان الإمامه قد الت إلى ابنه الاكبر أفلح الذى كان قد استطاع ان يقتل زعيم النكاريه فى عهد ابيه وقد حكم افلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن بهرام بن رستم خمسين عاما بدأت من عام ١٨٨ – ٢٣٨هـ – ٨٠٠ – ٨٤٨هـ . وقد بويع بالإمامة والولايه واخذت البيعه والوصية له فى عهدابيه عبد الوهاب وقد كان صاحب نفوذ قوى لدى رجال الاماره بل كان قائدا للجيش وقد عاشت مدينه تاهرت ايامه اياما هادئه مزدهره وسارت الامور فى دوله الاباضيه فى تاهرت ومن كانوا يؤيدونهم من اباضية فى جبل نفوسة سيرة حسنة والاحوال جميعا كانت على خير ما يرام .

كان مؤسس الاسرة عبد الرحمن بن ستم يتخذ مبدأ المساواه الكاملة والعدل والتسامح الديني وغيرها من التعاليم الاسلاميه التى كانت تطبق فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الرشيدين أسلوب حياة له ومن هنا نجحت تلك الدعوه التى قام بها عبد الرحمن ابن رستم على نحو جاوز كل تقدير حيث كانت تلك المبادىء والاسس هى الركائز الهامة التى اعتمد عليها فى دعوته ومن هنا كانت استجابه سكان المغرب الاوسط لتلك الدعوة وصاروا يلتفون حوله ويرحبون بتعاليمه وافكاره وقد تم اختيار عبد الرحمن بن رستم لفضله وكرمه وكونه من الرعيل الاول الذى نهل العلم وتعاليم المذهب الاباضى من أصوله الاصيله فى بلاد المشرق حيث البصره بالعراق مركز الدعوه الاباضية والفكر الاباضى .

ولقد رحل الكثير من علماء الاباضيه إلى الدوله الجديده فرحل من جنوب الجزيره العربيه (عمان واليمن والعراق ومصر وفارس) للانضمام إلى اخواتهم فى تاهرت ، كذلك فإن أباضيه البصرة بالعراق جمعوا أموالا قدموا من أموال كثيرة خرجت من البصرة إلى تاهرت؛ بل أن أباضية البصرة لم يكتفوا بما قدموا من أموال كثيرة فى هذه المرة بل انهم تابعوا ارسال الاموال مرة اخرى . وقاموا بنسخ العديد من كتب الفقه الاباضى وأرسلوها إلى تاهرت لتحفظ فى مكتبه الائمه التى كانت تسمى مكتبة المعصومه.

ولقد استطاع الامير عبد الرحمن بن رستم ان يحقق حاله من الاستقرار السياسى بين دولته الناشئة وبين سائر القوى الاسلاميه الاخرى فى بلاد المغرب وكان لذلك اثره فى تدعيم أوتاد دوله بنى رستم فاصبحت دولة قويه هابها جيرانها وهاجر اليها كثير من أهل المشرق والمغرب والاندلس كما قصدها العلماء والتجار وفقهاء المذهب الاباضى ورجال الصناعه والحرف وأرباب المهن المختلفه .

ولقد كان ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم دبلوماسيا وسياسيا من الطراز

الاول اذ انه ما ان أمسك بزمام الامر حتى رأى ان يجدد اتفاقيه الموادعه التى تمت بين والده وبين روح بن حاتم بن قبيصه المهلبى أمير القيروان والتى رغب روح بن حاتم نفسه فى استمرارها .

وقام عبد الوهاب بتأمين الجبهه الداخليه عندما حدثت ثورة النكاريه ثم استطاع القضاء على ثورة الواصلية .

وقد كان القضاء على حركة االواصليه وقبلها ثورة النكاريه يمثلان خطوة هامه من خطوات المحافظه على كيان الدوله الرستميه وحمايه حدودها الغربيه من خطر الأدارسة بعد ان استطاع الإمام عبد الوهاب وقف خطر الادارسة عند تلمسان، وهكذا نجح عبد الوهاب فى القضاء على اهم المشاكل الداخليه وكذلك القضاء على ثورة أباضيه جبل نفوسة جنوب طرابلس وكذلك ايقاف الاغالبه عند حدودهم وعدم الاستسلام لهم وتوقيع صلح مع عبد الله بن الاغلب .

وهكذا نرى كيف نجحت سياسه الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن فى المسالمه وعدم اللجوء للقوة الا عند الضرورة القصوى من الاسباب القويه التى ساعدته على تكوين دوله متراميه الاطراف زادت مساحتها اضعاف ما كانت عليه ايام ابيه عبد الرحمن وهكذا نجح عبد الوهاب فى الوصول بها إلى اوج اتساعها وترك لخلفائه دولة قوية.

وبعد عبد الوهاب تولى عرش الإمامه أفلح بن عبد الوهاب وقد اقسم على ان يسير على نهج الكتاب والسنه وآثار السلف الصالح من انصار المذهب وكان عبد الوهاب قد حرص على ان يعد افلح لكى يتحمل مسئوليه الحكم اذا ما اختير بعده اماما . وقد بالغ أفلح بن عبد الوهاب فى إظهار التواضع اذ رأى ان شخصيته كامام محط أنظار الجميع وقد بذل أفلح قصارى جهده فى القضاء على المتاعب الداخليه .

وقد شهدت تاهرت فى عهده حركه فكريه وثقافيه وحضاريه واسعه كما حفلت البلاد بانواع التجارات التى عادت على البلاد بأرباح وفيرة .

وقد قام بهدم مدينه العباسية التى بناها ابو العباس بن الاغلب وفى عهده تم القبض على ابنه ابى اليقظان وهو يقوم بفريضه الحج فى مكه المكرمه .

وآلت الامور بعده إلى ابنه أبى بكر بن أفلح وقد كان هذا اديبا فقيها غير مهتم بالسياسه واشتغل بالعلم والادب وفى فتره حكمه عاد ابوه اليقظان من بغداد بعد ان تم الافراج عنه . ومن ثم تولى الإمامة بعده ابو اليقظان بن أفلح (٢٤١ – ٢٨١هـ) وانه كان متدينا ورعا ذا تقوى يخاف الله فى كل تصرف وكان حسن السيره والسمعه عند جميع الناس .

وقد استطاع ابو اليقظان بفضل شخصيته القويه ومكانته بين الجميع ان يظل فى حكم الإمامه اربعين عاما متصله وقد كان له العديد من التلاميذ الذين نالوا العلم على يديه ، وتعتبر فترة حكمه فترة استقرار طويلة ولكن الدولة تناقصت قوتها عما كانت عليه فى عهد جده عبد الرحمن بن رستم أو جده عبد الوهاب بن عبد الرحمن ومعنى هذا ان التجربه الاباضيه لم توفق فى تحقيق المثل الاعلى للحكم الذى كانت تتصوره وان كان حكمهم من طراز فريد فى عصره وقد بذل ابو اليقظان جهده لنشر العلم والثقافه والحضاره وتعميق المفاهيم الحضاريه ونشر العلوم الاسلاميه لهيبتها بين بلاد المغرب العربى وفى عهده حدثت غزوه العباس بن أحمد بن طولون لحدود الدوله لشرقيه .

وقد توفى ابو اليقظان عام ٢٨١هـ/٨٩٤م بعد ان عاش اكثر من مائة عام وبوفاته بدأت عوامل الضعف والتفكك تأخذ طريقها إلى الدوله الرستميه حيث اعترتها تلك العوامل التى كانت تنذر بعوامل الانهيار الكامل ومن ثم بدأ نجمها فى الأفول فى سماء المغرب وبدأت الدولة القوية التى أقامها ابن رستم تنحدر إلى طريق الزوال .

وكان ابو حاتم يوسف محمد بن يقظان هو احد ائمه تاهرت الذين قطعوا صلتهم مع الشعب حيث انفردت به عشيرته واخوانه واعمامه وتلك لم تكن عادة السلف من الائمه السابقين وفى عهده حدثت فتنه كبرى لكنه استطاع التغلب عليها وكذلك قضى الاغالبة على قوة نفوذه جنوب طرابلس وهكذا انهارت قبيلة نفوسه التى كانت تشكل عصب الدولة الرستمية وهكذا بعد ان اضطربت الامور فى العاصمه تاهرت ثار عليه بعض اقاربه وقتلوه عام (٢٩٤هـ/٩٠٦م) .

ولقد بويع الامير يقظان بن أبى اليقظان (٢٩٤ - ٢٩٦هـ/٩٠٦ - ٩٠٨م) بعد مقتل اخيه أبى حاتم ونجاح المؤامرة عليه وفى عهدة كانت القوة الشيعيه الصاعده فى بلاد المغرب كقوه دينيه وسياسيه جديدة وقد بدأت تحرشاتها تقترب من حدود الدوله الرستميه الذى كان من الممكن ان تستمر اكثر من ذلك طويلا لولا ان ظروف العصر لم تكن تسمح لقيام دوله لا تعتمد على قوة عسكريه وقد انتهت دولتهم على يد رجال الدعوة الفاطميه التى اجتثت كل دول المغرب القائمه فى عصرها ٢٩٦هـ/٩٠٩م .

وكان الذى قضى على دولة تاهرت أبو عبد الله الشيعى الذى مر فى طريق عودتة من سجلماسة بتاهرت فخر بها وقضى على اخر ائمه بنى رستم وجعل المغرب الاوسط ولايه فاطميه تابعة لافريقية . وكان قد خرج اليه اليقظان ومعه بنوه واخواته وأتباعه وعلى بعد اميال من تاهرت التقى اليقظان ومن معه بأبى عبد الله الداعى ومن ثم امر بقتلهم فقتلوا عن اخرهم فى شوال ٢٩٦هـ/٩٠٨م ودخل ابو عبد الله الشيعى العاصمه تاهرت فأستباحها ونهبها وقصد إلى المكتبه المعروفه بالمعصومه لكى يتم القضاء على الفكر الاباضى عن طريق احراقها وقام داعيه الشيعه بانهاء الدوله الرستميه رسميا وذلك بتعيين أبى حميد دواس بن صولات اللهيعى وابراهيم ابن محمد الهوارى على تاهرت.

وقد طوى يعقوب بن افلح بقولة لا يستتر الجمل بالغنم ، وهكذا كانت اخر صفحه

من صفحات الدوله الرستميه .

ومن ثم ننتقل إلى الحديث عن ولاية الاغالبه التى قامت فى المغرب الادنى (افريقية – تونس) ١٨٤ – ٢٩٦/٨٠٠ – ٩٠٩م.

وقد كانت اسرة الاغالبه ودولتهم من اهم واشهر هده الدويلات التى قامت فى افريقية وكانت تتمتع باستقلال جزئى عن الخلافه العباسيه لتكون حاجزا بين البلاد التابعه للعباسيين فى شرق تونس وبين بلاد الرستميين والأدارسة ولقد كان على الخلافه العباسيه ضرورة المحافظه على الأجزاء التى يمكن ان تحافظ عليها بأيه صوره من الصور بعد ان اصبح استقلال الاندلس وبنى ستم والأدارسة حقيقه تاريخيه واقعه .

وقد عرض ابراهيم بن الاغلب ان تكون الاماره له على الرشيد فجاءة العهد من الرشيد باماره افريقية وجعلها ارثا فى اعقابه وهكذا تسلم ابراهيم بن الاغلب الولايه عام ١٨٤هـ/٨٠٠م وهكذا استقلت الجهة الشرقيه من المغرب الاوسط واسس دولته التى دعيت باسمه ودامت قويه إلى ان قضى عليها أبو عبد الله الشيعى .

وقد حكم ابراهيم بن الاغلب افريقية فى ظروف عسيرة حيث استطاع بهذه الصفات التى امتاز بها أن يعيد الامن إلى نصابه حيث انقادت اليه البلاد طائعة .

ولقد كان لسياسه الرشيد التى سار عليها الخلفاء العباسيون من بعده فيما يختص ببنى الاغلب وافريقية فان السياسه التى املتها الظروف حيث كان لها اثرها فى بقاء هذه الانحاء تابعه لها من جراء ثورات أهل أفريقية وعجز الجيوش عن قهرها ، كما كانت دولة الأدارسة التى اقامها أدريس العلوى فى المغرب الاقصى والتى وحدت البربر وتطلعت إلى توحيد المغرب الاسلامى كله واقتطاعه عن الخلافه العباسية واقامه خلافه علويه على حساب العباسيين حتى لقد ارسل اهل مصر فى ذلك الامر ، وكان اختيار ابراهيم بن

الاغلب ينطوى على بعد نظر سياسى،ذلك لان ابن الاغلب استطاع ان يوقف طموح الأدارسة وان يعقد معهم اتفاقا . وقد اتخذ ابراهيم مدينه القيروان عاصم لولايتة وقد نجح ابراهيم بن الاغلب في ادارة شئون دولته الافريقيه الممتدة من طرابلس شرقا حتى بجايه غربا وان يبعد منطقة نفوذه عن منطقه الادارسة وبنى رستم وأن يصد هجمات الروم البحريه

وقد اهتم ابراهيم بن الأغلب ببناء قوة عسكرية برية وبحرية وذلك لتوجيه الغارات على بلاد الروم وقد نجح الأغالبة فى بعض الفترات التاريخيه من حكمهم فى ايجاد نوع من التعارن بين الفئات والعناصر التى تقطن امارتهم وقد وضح ذلك فى مدينة القيروان .

وبعد وفاة ابراهيم بن الاغلب عام ١٩٦هـ آل الحكم إلى بنه عبد الله بن ابراهيم وقد حكم خمس سنوات غير ان فترة حكمه القليلة لم تكن كافية للحكم على ما قام به أعمال الا انه عندما تمت البيعه له كان يقوم بحمله فى طرابلس لقتال الهوارة والذى نجح فى كبح جماحهم .

ثم تولى الاماره من بعده زيادة الله الاول بن ابراهيم بن الاغلب وقد حكم (٢٠١ - ٢٢٣هـ) وكان اميرا قادرا وان كان قد ظل معترفا بسلطه الخلافه العباسيه الاسميه دون ان يكون لها ادنى نفوذ ولم يكن هذا الاعتراف فى الواقع سوى لصد تيار الخوارج من بنى رستم والعلويين والادارسه ومن هنا كان الاغالبه وسيله لحفظ استقلال هذا الجزء من ان يقضى عليه العلويون .

وقد تاقت نفس زيادة الله إلى ان يجدد حركه الجهاد الاسلامى ولقد تمكن من اتمام اعمال ابيه ابراهيم وقد كان محبا للعلم والعلماء مشجعا لهم وتجمع المصادر على أنه كان رجلا بعيد النظر فى السياسة وفى عهده قامت الحمله الاغالبيه بقياده أسد بن الفرات بغزوه جزيره صقليه ٢١٢هـ ونشر الاسلام بها وادخالها فى دائرة حكم الاغالبة .

ولقد كان ذلك الامير من أعظم امراء بنى الاغلب . وقد توفى زياده الله عام ٢٢٣هـ وخلفه فى اداره البلاد وحكمها أخوه الاغلب ابو عقال بن ابراهيم وقد حكم هذا ثلاث سنوات فقط وكان حسن السيرة أكثر من اخويه عبد الله وزياده الله وقد كان نافذ البصيره مدركا لعواقب الامور ونجح فيما لم ينجح فيه اخواه من قبل .

وقد استطاع ان يأخذ البيعه لابنه أبى العباس محمد بن الاغلب أبى عقال بن ابراهيم بن الاغلب وقد حكم هذا سته عشر عاما هجريا (٢٢٦ - ٢٤٢هـ) ووقف سدا أمام المطالبين بالعرش من بنى الاغلب وكان رجلا حازما من الطراز الاول وفى عهده فتح المسلمون جزيره مالطه ٢٥٥هـ/٨٦٨م واستقروا فيها .

وقد ولى العالم الفقيه سعيد ين سحنون قضاء القيروان ونشر العدل بين الرعيه . وقد طال حكمه لذا فانه عمل كما عمل أبوه ابو عقال الاغلب اذ استطاع ابو العباس محمد ان يأخذ البيعه لابنه أحمد أبى ابراهيم وكان مولعا بالعمران كثير الاحسان ومن مآثره تحسينه واصلاحه لجامع الزينونه ورغم ان سنوات حكمه لم تزد عن سبع سنوات الا انها كانت حافلة بالاعمال الجليله التى تذكر له .

وعلى الرغم من ان احمد أبا ابراهيم بن الاغلب قد اخذ البيعه لابنه محمد الثانى الا أن ابن اخيه زيادة الله الثانى بن العباسى محمد الاول بن الأغلب ابو عقال (٢٤٩ - ٢٥٠هـ) استطاع ان يستولى على الحكم ولم يزيد حكمه عن عام واحد .

ثم تولى بعده محمد الثانى أبو الغرانيق بن ابراهيم بن أحمد (٢٥٠ - ٢٦١هـ) وقد حكم أحد عشر عاما هجريا وآلت الامور بعده إلى ابراهيم الثانى الصغير بن احمد ابو ابراهيم بن محمد الاول ابو العباس وقد حكم هذا ثمانيه وعشرين عاما (٢٦١ - ٢٨٩هـ) وهو سابع امراء البيت الاغلبى وأطولهم حكما وفى عهده زادت حركة الفتوحات فى صقليه وجنوب ايطاليا وقد انتهت حياته وهو يقاتل مجاهدا ومحاصرا احدى

مدن جنوب ايطاليا وكان يعد نفسه للاستيلاء على مدينه نابولى ثم روما لبناء دولة اسلاميه فى البر الكبير (ايطاليا) ثم الوصول بعد ذلك شرقا للاستيلاء على القسطنطينيه.

وقد اكتملت فى عهده سلسله الاربطه والمحارس على الشواطىء وكانت من الاحداث الجسام التى حدثت فى زمن هذا الامير الاغلبى ان العباس بن احمد بن طولون أمير مصر خرج عام ٢٦٧هـ/ ٨٨٠م قاصدا بلاد الاغالبه لغزوها .

وفى اخر ايامه جهز جيشا قويا سار به يريد قتال أبن طولون فى مصر فمنعته قبائل نفوسة الاباضيه جنوب طرابلس عن متابعة السير إلى مصر .

ثم آلت امو الدولة من بعده إلى عبد الله الثانى ابو العباس بن احمد ابو ابراهيم محمد الاول ابو العباس ابو عقال بن ابراهيم بن الأغلب وكان هذا الأمير هو العاشر فى سلسلة امراء بنى الأغلب وقد حكم عاما واحدا جلس فيه للمظالم واوصى العمال بأن يرفقوا بالرعايه وفى عهده ظهر ابو عبد الله الشيعى ببلاد كتامه من الزاب الجزائرى وقد قتل هذا الأمير عام ٢٩٠هـ وقد جاء بهذه القيم والمثل العليا متأخرا لان العيوب فى المجتمع كثيره والناس كانوا قد ملوا الظلم .

وقد كان لعبد الله الثانى هذا ولد يدعى زياده الله أمر أبوه بسجنه فتآمر مع غلامين من غلمانه لقتل ابيه فقتلاه ولم تمض على توليته للاماره اكثر من عام واحد . ثم خرج زياده الله الثالث من السجن وتولى حكم البلاد خلفا لابيه .

وهو زياده الله الثالث أبو مضر بن عبد الله الثانى (٢٩٠ - ٢٩٦هـ) وهو اخر امراء بنى الاغلب اذ لفى فتره حكمه قضى الشيعه على حكم الاغالبه حيث خاض جيشه حروبا كثيرة مع ابى عبد الله الشيعى وفى موقعة الارميس قرب الكاف كانت هزيمته الساحقه واضطر زياده الله الثالث ان يفر إلى تونس ثم قصد المشرق ولم يصادف

عونا من الخليفه العباسى ليقاتل العبيديين وأمر الخليفه واليه على مصر بتجهيز زيادة الله ولكن والى مصر ما طل فى ذلك وأنزله الرمله من بلاد فلسطين حيث مات هناك .

وهكذا انتهت دوله الاغالبه بعد ان ادت دورها الذى اضطلعت به فى هذا الطرف العربى من المغرب الادنى حتى نجحت دوله الفاطميين فى تولى مسؤليه القياده فى المغرب

وقد تمت عدة انجازات فى عصر الأغالبة منها الانجاز العسكرى وقد تمثل هذا فى فتح صقليه ومالطه بعد ان قاموا بغارات وحملات مكثفه على صقليه حتى دام فتحها واكماله طول عصر حكم الاغالبه وقد ولوا لاغالبة على جزيرة صقليه حكاما من قبلهم كان جلهم من آل الاغلب بل ان بعض الامراء تنازل عن العرش وخرج مجاهدا فى ارض صقليه وجنوب ايطاليا .

كان فتح مالطة قد تم فى عام ٢٥٥هـ فى امارة ابو الغرانيق محمد بن ابراهيم وبذلك تأكدت سيطره المسلمين الكامله على المضايق الواقعه بين صقليه وافريقية . وهكذا اذى الاغالبه دورهم فى حركه الجهاد الاسلامى بل قاموا بواجبهم نحو العالم الاسلامى ونحو عقيدتهم الاسلاميه بتوسيع رقعه المد الاسلامى فى جزر البحر المتوسط وكان غزو صقليه ومالطه وجنوب ايطاليا عملا من أعمال الاغالبه الخالده فى التاريخ الاسلامى والمغربى .

وقد تطورت الحياة الثقافيه فى عصر الاغالبه حتى انها ظهرت بأنها ثقافه عربيه اسلاميه مغربية ذات شخصيه مستقلة وظهرت مدرسه القيروان وغيرها من المدن الاقليميه ، ذلك لان الاغالبه قد استقبلوا كثيرا من العلماء والفقهاء واكرموهم وأجزلوا لهم العطاء فاشاعوا فى المغرب الادنى روح التقوى والصلاح والزهد وكان معظم القادمين من هؤلاء من مصر .

وقد اطلق على عصر الاغالبه عصر النهضه الثقافيه لانه عصر نهضت فيه العلوم والأدب والفقه وعلوم الشرع وغيرها من فروع الثقافه . ولقد كان من اثر جامع القيروان ان التف فى هذا العصر حول ابناء الاندلس والمغرب وافريقية وطرابلس وبرقه صقلية وغيرها لينهلوا مما يدرس فى هذا المسجد الجامع ويقوموا بقراءة الكتب التى انتجها القرويون انفسهم كتفسير ابن عبد السلام وكتب الطب لابن الجزار وغيرها من التأليف الاخرى .

وقد شهد عصر الاغالبه ظاهرة الثقافه الفقهية وداراسة احكام التشريع الاسلامى والذى كانت له الغلبة على سائر العلوم . ولقد كان لهذا الاتجاه الفقهى النشيط ايام الاغالبة نتائج باهره فى كثرة الفقهاء وفى وفرة التآليف الفقهية وتأثير الفقهاء على المجتمع غير ان اهم تطور ثقافى شهدته افريقية فى عصر الاغالبه هو انتشار مذهب الإمام مالك من مدرسة القيروان وانتشاره فى القسم الغربى من العالم السلامى .

كذلك كيف اتسعت القيروان وقامت فيها الاسواق والاحياء ونشأ مجتمع قيروانى محلى عماده الفقهاء والقضاه وأهل الزهد والورع ونفر من اهل الثراء . وهكذا كان عصر الاغالبه تجربه جديده فى تاريخ المغرب الادنى ذلك لانه خلال حكمهم تقدمت البلاد تقدما ملموسا وواضحا لم تعهده من قبل . ومن هنا فان ذلك يجعلنا نقول انه اذا كان عصر الاغالبه قد بدأ عام ١٨٤هـ/٨٠٠م والبلاد المغربية تعيش فى فوضى تتقاسمها جماعات الخوارج وغيرهم فقد انتهى عهدهم والبلاد موحدة تحت لواء السنه . وقد شهد عصر الاغالبه تطور الحضاره المغربيه فى اطار دائره العروبه والاسلام . كما ان عهدهم شهد ظهور العديد من الفقهاء والعلماء والائمه الذين تركوا بصمات واضحه وقويه فى الحركه الاسلاميه والفكريه والثقافيه وذلك لما تركوا من تراث فقهى كان له ابعد الاثر فى انتشار المذهب المالكى ورسخوا العقيده الاسلاميه فى قلوب الشعب المغربى الذى حافظ على قيمه الروحيه وتقاليده العربيه الاسلاميه .

ومن هؤلاء الفقهاء والعلماء والائمه اسد بن الفرات ، سحنون بن سعيد ، ومحمد ابن ابو سعيد سحنون وغيرهم من العلماء والفقهاء ورجال الدين والائمه والذين قانت الحركه الفكريه والثقافية والعلميه والتشريعية والقضاء على اكتافهم .

كما ان عصر الاغالبه شهد تقدما ملموسا فى المجال الاقتصادى اذ ازدهرت الحياة الاقتصادية وتقدمت الصناعة وبدأ التطور القتصادى يدب فى جسم الدوله فى عصر الاغالبه ولقد عمل الاغالبه دفعا للدور الاقتصادى وتطورة وازدهاره كما ان كل مدينه من مدن الاغالبه شهدت قيام الاسواق واتساع الاحياء وتطور الحركه التجاريه مع الدول المجاورة وكانت القوافل تصدر منها إلى بلاد السودان ومنها جنوبا عبر الطرق الصحراويه .

وقد اولى الاغالبه جل عنايتهم للناحيه الزراعيه فقد أقاموا كثيرا من الخزانات والقناطر وحفروا الترع فنعمت افريقية بكثير من الرفاهية .

ولقد كان من اسباب هذا التطور الاقتصادى ان الاغالبه نجحوا فى اقامه حكومه مستقرة يسير نظامها الادارى على نحو ما سار نظام بغداد حيث سمحوا لولاتهم بنصيب كبير من حريه التصرف .

كما ان الاغالبه أبدوا اهتماما زائدا بالابنيه والمنشأت المعماريه فقد كان لهم دور كبير فى تطور جامع القيروان وانشاء الاسواق فى القيروان وتونس وغيرها من المدن الكبرى وكذلك تجديد مسجد القيروان وتونس الجامعين وهم مسجد عقبه ومسجد الزيتونة .

وكذلك بنى الاغالبه الاربطه حيث عنوا كل العنايه ببناء الاربطه والمحارس على شواطىء البحر المتوسط لحمايه البلاد ورد عاديه اسطول البيزنطيين عنها وقد ذكر لنا ابن خلدون ان ابا ابراهيم احمد بن ابى العباس بن محمد الاغلبى بنى اكثر من عشرة الاف محرس . حيث يقول عنه وكان مولعا بالعمارة فبنى فى افريقية نحو عشرة الاف حصن

بالحجارة والكلس وأبواب الحديد ، كما ذكر ان محمد بن أحمد المعروف بمحمد الثانى احد امراء الغالبه قد اشتهر ببناء حصون ومحارس كثيرة على الشواطىء التونسية كانت معروفه ايام ابن خلدون حيث يقول وبنى محمد حصونا ومحارس على البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوما من برقة إلى جهة المغرب وهى الان معروفة .

ويقول البكرى عند حديثه عن صفاقس ان رباطات لها رباطات على البحر كما يقول عند حديثه عن مدينه سوسه وخارج مدينة سوسه توجد محارس وروابط ومجامع للصالحين وداخلها محرس عظيم كالمدينه مسور بسور متقن يعرف بمحرس الرابط وهو مأوى للاخيار الصالحين .

ولقد تطورت الرباطات فلم تلبث ان خرجت عن وظيفتها لتصبح مدارس يقصدها الطلاب من اجل الدراسه فى الفقه والحديث وقد عمل الاغالبه على التودد إلى مصر فعملوا على حفر سلسلة من الابار حتى اصبح الطريق الساحلى مأمونا للتجارة .

وكانت عنايه بنى الالب بالمنشأت العسكريه والمدنيه لا تقل عن عايتهم بالمنشأت الدينيه فقد أنشأوا الكثير من الاسوار والابراج للمدن وخاصه ما يقع منها على الساحل ويذكر ان عصر الاغالبه قد شهد بناء دارين عظيمين للصناعه احداهما فى تونس والاخرى فى سوسة وكان لهما دور هام فى النشاط البحرى السلامى فى البحر المتوسط .

وهكذا نرى كيف ان الاغالبه قد تركوا بصماتهم فى كل مجالٍ مِن مجالات الحياة وضربوا بسهم وافر فى المجال الفكرى والثقافى وكان لهم الدور الاكبر فى رسوخ مذهب الإمام مالك بل انهم شجعوا الحركه الفقهيه وبذلوا اقصى ما وسعهم فى سبيل القضاء على المذاهب الاخرى التى كانت تسود الساحة المغربيه كالاباضيه والصفرية والمعتزلة والواصليه وغيرها من النحل والافكار والمذاهب الاخرى .

وهكذا كانت دوله لاغالبة ومضة مضيئة فى تاريخ المغرب ساهمت كما ساهمت غيرها من الدول المعاصرة لها كالأدارسة وبنى رستم فى اضفاء الصبغه العربيه الاسلاميه فى تلك الاقطار .

وكما تحدثنا عن بنى رستم والاغالبة فان الدور الاخير فى هذه الدراسه عن دوله الأدارسة وهى الدوله التى نشأت على أرض المغرب الاقصى عام ١٧٢هـ/٧٨٨م والتى لعبت دورا هاما فى حياة المنطقة وجعلت لها شخصية متميزة وأدمجت سكانها فى ظل مجتمع متجانس ذلك المجتمع المغربى الذى شارك بقية المجتمعات العربيه الاسلامية فى وضع اسس الحضارة الاسلامية فى هذا الجزء الغربى من الامه العربية الاسلامية .

ولقد كان المغرب الاقصى حيث موقعه وطبيعته الجغرافيه وسكانه مشجعا للتفكير فى قيام ولايه اسلاميه بعيدة عن مقر الخلافه الاسلاميه ومن هنا فقد كانت الظروف ملائمه ومهيأة لتولى زعامه سياسية ودينيه فى شمال المغرب الاقصى . وقد سبق الافاده من هذا الموقع المتطرف قبل الإمام أدريس مؤسس دولة الادارسة دعاة الخوارج الفارين من بطش الخلافه الامويه والعباسيه

لقد كان المغرب الأقصى اقليم عربيا اسلاميا يتفاعل مع بقية الاقاليم الاسلاميه . وقد صرفت الخلافه العباسية النظر نهائيا عن المغرب الاوسط والاقصى أذ كان حرصها منصرفا إلى محاوله الاحتفاظ بالمغرب الادنى لمحاوله احتوائة تحت سياسة الخلافة العباسية.

ولعل اهم رواسب ثورات الخوارج قيام امارة الإمام أدريس العلوى الذى احترمه حتى خصومه من الاغالبه وبنى رستم والامويين فى الاندلس والخلافه العباسية فى بغداد لقرابتة من رسول الله ﷺ . وقد قامت دولة الادارسة تحت شعار الاسلام والعروبة ولم يكن فى قيامها اى مظهر مقصود أو روح انفصاليه عن الدوله الاسلاميه انما هو أحقية العلويين

بالخلافة عن ابناء عمومتهم بنى العباس وكان ذلك دافع الإمام أدريس وحين وصل العلويون إلى المغرب كان سلطان الخوارج قد بدأ يضعف كما ان المعارضة العلوية للعباسيين نشأت منذ قيام الدولة العباسية ولقد كان التحالف بين العلويين والعباسيين يقويه الشعور المشترك بالكره لعدو متحكم هو الامويين فلما قضى على هذا العدو الذى سلب الحكم والسلطة من آل البيت والهاشميين لم يكن هناك ضروره لاستمرار هذا التحالف وبخاصه ان العلويين لم يكونوا يعتقدون ان العباسيين يعاونونهم لتحقيق اهدافهم وتولى الخلافه .

وكانت معركة فخ التى وقعت فى الحجاز فى مكان بين المدينه المنورة ومكه المكرمه عام ٢٦٩هـ هى المحرك الاساسى لقيام دولة الادارسة اذ فر من المعركة أدريس بن عبد الله ابن الحسن بن على بن أبى طالب إلى المغرب الأقصى والتف حولة الناس وأعلن خروجه على الرشيد عام ١٧٢هـ وعجز الخليفة عن القضاء على ثورتة لبعد المسافه حيث استقبل البربر ليلقى كل عون وتأييد فى تأسيس دولة الادارسة التى كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الاسلام فى ربوع هذه البلاد .

وكان الإمام أدريس بن عبد الله العلوى هو سابع ابناء عبد الله من امهات ثلاث وكان احد الذين اشتركوا فى معركة فخ ولقد شاءت العناية الالهيه ان يكون أدريس بن عبد الله العلوى هو احد القلائل الذين نجوا من القتل فى مأساة فخ هو مؤسس دولة الأدارسة حيث توجة ومعه مولاه راشد إلى المغرب الاقصى حيث قبائل البربر ولجأ إلى زعيم قبيلة اوربة اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى حيث كانت قبيله اوربة تتزعم مجموعة قبائل ضخمة تمتد من الاطلس الاوسط إلى اقليم سبو وكانت الظروف مشجعة لأدريس حيث بدأ يدعو لنفسة وبدأ يكسب انصارا له وذلك لان شيوخ قبيلة اوربة كانوا على اتم استعداد لتأييد زعيم مقيم له دولة وكانت قرابته لرسول الله ﷺ كافيه لاجتذاب

القلوب اليه خاصة اذ أضفنا إلى تلك ما سمعه الناس عن خبر مأساة فخ التى لا تقل عن مأساة الكربلاء .

وقدمت اليه لعديد من القبائل للبيعة ، بل ان بعض البربر الذين قدموا للبيعة كانوا قد ادوا فريضة الحج وشاهدوا أدريس بن عبد الله بن الحسن العلوى وهو يقاتل جنود العباسيين . وقد اتخذ أدريس لقب الإمام ليكون أول امام للدولة الناشئه التى ظهرت فى المغرب الاقصى والتى تسعى إلى تأكيد سلطانها وبسط نفوذها فى المنطقه والتى يقع على عاتقها توحيد قوى البربر .

وهكذا اصبحت المغرب الأقصى منذ ان تولى الإمام أدريس الاول مقاليد الامارة فيه مغربا مزدهرا تحف به الطمأنينه والسلام وينعم بحضارة الاسلام وعمق الشعور بالعروبه ولقد كان قيام دوله الأدارسة دافعا قويا لتغلغل الروح العربيه فى نفوس البربر . ولقد كانت وليلى العاصمه الاولى للامام أدريس .

وكان إدريس تواقا إلى توسيع نطاق دولته ومد نفوذه السياسى وأطواء القبائل تحت الراية العلوية الهاشمية واستطاع أن يمد نفوذه جنوباً حتى وصل إلى بلاد السوس الأقصى

ودخلت بلاد شنقيط فى طاعته ثم اتجه بعد ذلك شرقاً حتى دخل مدينة تلمسان لمضايقة ولاة العباسيين بالقيروان والمغرب الأوسط. وقد تطايرت شهرة الإمام إدريس فاستقبلته كل القبائل التى حل عليها بالبشر والترحاب ودخلت فى طاعته وتحت لواء الإسلام الصحيح ولقد كان الهدف من هذه الحملات الثلاث هو نشر الإسلام بين القبائل البربرية والقضاء على الخرافات والشعوذة التى سادت بين هذه القبائل.

وبعد العودة من تلمسان استقر فى عاصمته وليلى وأخذ فى تنظيم شئون دولته وتحديد قوة جيشه استعدادا لمعارك مقبلة لأن الإمام إدريس أصبح فى نظر الخلافة العباسية خطرا يهدد كيانها وذلك حين عزم على غزو أفريقية وكاتب أهل مصر للانضمام إليه. وهكذا كان التفكير فى القضاء عليه واستبعدت كل الأفكار العسكرية واتفق على وسيلة الاغتيال وأختير أحد رجال الشيعة (سليمان بن جرير) الشهير بالشماخ واستطاع قتل الإمام إدريس عن طريق دس السم له وكوفئ على عمله بتعيينه صاحب البريد فى مصر.

ولم يؤثر مقتل إدريس الأول فى سير الأمور فى الدولة الناشئة إذ أن راشد مولى الإمام الراحل قام بدوره فى إدارة الدولة بمساعدة زعماء البربر، وما أن بلغ إدريس الثانى سن الحادية عشرة حتى شرع فى دعوة البربر لمبايعته وفى عام ١٨٦هـ/٨٠٢م يقوم إبراهيم بن الأغلب عن طريق أعوانه من البربر بقتل راشد سر قوة دولة الأدارسة، وفى عام ١٨٨هـ/٨٠٤م أخذ أبو خالد بزيد بن إلياس المهدى البيعة للإمام إدريس الثانى وكانت سنه لم يتجاوز الثالثة عشرة عاماً.

وفى عام ١٨٩هـ وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد أفريقية والأندلس وقد استقرت هذه الوفود بالعاصمة وليلى وقد رحب بهم الإمام إدريس الثانى وذلك رغبة منه فى نشر الثقافة العربية الإسلامية فى دولة الأدارسة وقربهم إليه واتخذ منهم أعداداً كبيرة فى مناصب الدولة وذلك لتطعيم عناصر دولته بالعناصر العربية.

وهكذا .. كانت هذه الوفود كسباً كبيراً للإمام إدريس؛ حيث استقامت له الأمور بمعاونة الإدارة العربية الجديدة وقد أدى ازدحام الوفود فى العاصمة وليلى إلى دفع الإمام إدريس للبحث عن مكان جديد ليكون عاصمة جديدة فكان اختيار مدينة فاس حيث شملت عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين وأنشأ بها المسجد الجامع وانتقل إلى العاصمة الجديدة عام ١٩٦هـ/٨١١م، وقد صارت فاس عاصمة جديدة للإمام إدريس بن إدريس وبدأت تسير بخطى واسعة نحو التقدم والازدهار، وهكذا كانت أوضاع المغرب الأقصى فى ذلك العهد مهيأة للزعامة السياسية والزعامة الثقافية وبدأت مدرسة فاس تتلقى المؤثرات من القيروان والأندلس وكان أئمة الأدارسة أنفسهم يؤيدون هذه الحركة العلمية ولهم الفضل فى نشر الثقافة العربية الإسلامية.

كذلك قام الإمام إدريس الثانى بتوسيع رقعة البلاد وتأكيد سلطة الدولة على الأراضى والقبائل التى تخضع لها وقد بسط نفوذ الدولة على أماكن كثيرة فى الجنوب والغرب وتم له القضاء على المذاهب الخارجية ونشر الإسلام فى المناطق التى لم يدخلها من قبل حتى منطقة الأطلس العليا جنوب مراكش، ومن هنا .. فإنه لا يوجد أدنى شك فى أن نجاح سياسته الداخلية والخارجية كان يعتمد بالدرجة الأولى على تشجيع العنصر العربى الوافد بجانب تأييد البربر له ولاسيما قبيلة اخواله قبيلة أوربة حيث كان هذا التأييد من الأسباب القوية التى شجعته للقيام بحملاته الحربية لتأكيد سلطانه وبسط نفوذه على المناطق التى لم تخضع لسلطان الأدارسة من قبل. كذلك فإن حملاته الحربية كانت استكمالاً للحملات الحربية التى قام بها والده أدريس الأول حتى إذا كان عام ٢١٣هـ/٨٢٩م توفى الإمام إدريس الثانى وكان ابن ثلاثة وثلاثين عاماً وقيل ستة وثلاثين عاماً وهكذا أقام إدريس الثانى صرح الدولة والذى لم يمهله القدر إذ قيل أن زيادة الله بن الأغلب قد دس له السم وهكذا انتهى جيل الأبناء.

ثم آلت الأمور إلى إبنه محمد بن إدريس الذى بايعه البربر وتولى الحكم لكونه أكبر إخواته وقد قام الإمام محمد بتقسيم الدولة إلى ولايات كل ولاية يحكمها أحد إخواته وقد قسم كل البلاد على إخواته التسعه وعمل على بسط سلطان العاصمة فاس على بقية الولايات ومحاربة كل من يخالف أمر الحاكم الأعلى لذا .. فإنه استخدم أسلوب الشدة والصرامة فى معاملة حكام الولايات من إخوته وقد تمكن الإمام محمد بن إدريس من أن يقضى على الفتنه فى مهدها.

لكن تقسيم البلاد بين الأخوة كان بداية بذر بذور الخلاف والتصدع فى جسم الدولة الفتية وكان هذا التقسيم بداية النهاية لدولة كانت تخضع لحكومة مركزية وهكذا فإن الدولة الإدريسية أصابها الإنحلال بعد أن توزع أبناء إدريس الثانى أرث أبيهم، إلا أن ذلك لم يحل دون ازدهار البلاد وتحسن أحوال رعاياها نتيجة للسياسة العادلة التى سار عليها الإمام محمد بن أدريس.

وقد توفى الإمام محمد بن أدريس فى ربيع الآخر عام ٢٢١هـ/٨٣٥م ودفن فى مدينة فاس، وآلت الأمور فى الحكم لإبنه الإمام على بن محمد بن أدريس حيث هو الإمام الرابع وكان أبوه قد أخذ له البيعة حيث كانت قد استقرت الأمور نتيجة ولاء القبائل لهذه الأسرة التى ينتمى نسبها إلى آل البيت العلوى وقد بايعوه غلاماً وقام وزراء أبيه من العرب وغيرهم من رجال البربر بأمره ومؤازرته فى حكمه وقد سار على نفس النهج الذى سار عليه والده وحافظ على كل الأعمال التى قام بها والده من قبل وقد توفى الإمام على الأول بن محمد بن أدريس فى شهر رجب عام أربع وثلاثين ومائتين ٢٣٤هـ/٨٤٨م، وكانت مدة حكمه ثلاثة عشرة عاماً.

ثم كان الإمام الخامس فى أسرة الأدارسة هو الإمام يحيى بن محمد بن ادريس شقيق الامام على الأول . وقد تميز عهد الامام يحيى بن محمد بالاستقرار والرخاء مما

دفع الكثير من الناس الى الهجرة من أفريقية والاندلس الى فاس ويعتبر الامام يحيى بن ادريس اعظمهم قوة واعلاهم قدرا فى أسرة الأدارسة ، وقد امتد حكمه على جميع بلاد المغرب الأقصى . وقد قام بتحديد العاصمة فاس فقصدها الطلاب والتجار والعلماء وأصبحت مركزا لتجارة أوروبا مع بربر الصحراء . وفى عهده تم بناء جامع القرويين حيث امتاز عهده بالرخاء والثراء والهدوء والاستقرار وقد سار الامام يحى بن محمد فى نفس الطريق الذى سار فيه اخوته من حيث الموافقة على تولية أعمامه وأبناء أعمامه وأقاربه الولايات المتعددة للبلاد . وكان انشاء مسجد القرويين من المفاخر الاسلامية التى تمت فى عهد الامام يحيى بن محمد . وقد دامت فترة حكه خمسة عشر عاما حيث توفى عام ٨٦٣/٢٤٩م وقد آلت الامامة لابنه يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس بن ادريس وهو الامام السادس فى قائمه الأئمة الادارسة الذين حكموا البلاد وكانت فترة حكمه قصيرة لم تزد عن ثلاث سنوات ٢٥١هـ حيث فامت ضده تورة بزعامة عبد الرحمن بن سهيل الخدامي مما جعله يختفى عن الأنظار ويتوفى فى مخبئه .

وبانتهاء حكم الامام يحيى بن يحيى بن محمد انتهى عقب الامام محمد بن ادريس الثانى بعد ان حكم الامام محمد خلفا لابيه ادريس الثانى وآلت الامامة الى فرع عم بن ادريس شقيق الامام محمد .

وهكذا تولى الامامة على الثانى بن عمر بن ادريس ابن شقيق الامام محمد وجد يحيى لامه الذى تركت العاصمة فرارا من الثورة ولقد كان الإمام الجديد على الثانى بن عمر يحكم منطقة الريف وراثة عن أبيه لكن المقام لم يطل على حكم الامام على الثانى بن عمر بن ادريس الذى أقبل على العاصمة فاس من اقليم الريف اذ لم تنعم البلاد بالهدوء بعد القضاء على ثورة الامام عبد الرحمن بن أبى سهيل البربرى إذ أنه لم يقدر له أن يلعب دورا مؤثرا فى حكم البلاد ذلك لان عبد الرازق الفهرى الخارجى نجح فى أن

يؤلب القوم ضد الادارسة واستطاع أن يهزم جيوش الامام على الثانى بن عمر فى معركة قرب أبواب العاصمة فارس .

وهكذا كانت ثورة الخوارج الصفرية بقيادة عبد الرازق الخارجى دافعا لكى يهرب الامام عمر الى قبيلة أوربة وهكذا أصبحت دولة الادارسة تلقى الضربات تلو الضربات على أيدى الثائرين .

ثم آلت الامور الى لامام يحيى بن القاسم بن ادريس حيث دخل العاصمة بعد أن فر منها على الثانى بن عمر لان عدوة القرويين امتنعت عن مبايعة عبد الرازق الفهرى واستطاع ان يهزمه وان يجبره على الخروج من عدوة الاندلسيين ، ولكن حياة الامام يحيى لم تطل اذ أغتيل على أيدى أعداء الدولة من الخوارج عام اثنين وتسعين ومائتين للهجرة .

وهكذا صار أمر حكام الادارسة الى الضعف والانهيار وصارت دماء الائمة تستباح على أيدى أعداء لدولة . ثم آلت لأمور فى البلاد الى الامام يحيى بن ادريس بن على بن عمر بن ادريس وقد قال عنه ابن خلدون انه تولى عام ٢٩٢ - ٣١٠هـ وحكم ثمانية عشر عاما وكان وأوسع أماء لادارسة سلطانا وأثبتهم ملك وقد حاول اعادة المجد القديم الذى كانت تتمتع به السرة بين القبائل بحيث تكون له القوة والسيادة لان الزمام قد أفلت منه .

وهكذا كانت ايام الامام يحيى بن القاسم هى نهاية عصر القوة والسيادة والسلطان فى دولة الادارسة حيث أن بلاده قد شهدت فى تلك الاونة خضوعها لعبد الله الشيعى داعية الفاطميين وتعتبر فترة حكمه هى نهاية حكم أسرة الادارسة فى فاس أما المحاولات الاخرى التى قام بها بعض أبناء الادارسة أمثال الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس وغيره من آل كنون فى ريف المغرب الاقصى فكلها كانت محاولات لم تستطع أن تعيد

للدولة الادريسية قوتها وعزتها بعد ان تحولت الى بلاد الريف ولم تتمتع هناك بالاستقلال الذى تمتعت به فاس اذ أصبحت دولة الادارسة تحت نظر ونفوذ المتغلب على المغرب من الفاطميين الشيعة أصحاب افريقية أو بنى أميه المروانيين أصحاب الاندلس .

ولد اهتم أئمة الادارسة بتحضر المغرب ورقيه واقامة حضارة عربية اسلامية آخذة بمبدأ العقيدة الاسلاميه السمحة ولقد كان رقى فكر أمرائها وحبهم للحضارة الاسلاميه ومبادئها الساميه ورقى أسلوبها جعلهم يقبلون على التشييد والتأسيس والعمران فأسسوا مدينة فاس وغيرها من المدن الكبرى وأسسوا جامع القرويين وجامع تلمسان وشجعوا الحركة العلمية والفكرية وأعانوا القوم على الازدهار الاقتصادى بفضل حكمهم طبقا للشريعة الاسلامية واقامة العدل .

وكان حكمهم يمتد فى بلاد المغرب من السوس الاقصى الى وهران وكانت حاضرتهم فاس التى بلغت حدا كبيرا من العمران وأصبحت مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية وقد اسهم الادارسة فى خدمة العالم الاسلامى فى البقعة التى حكموها ويعتبرون بحق الممهدين لظهور البربر فى المجال الاسلامى بحيث كان ظهور الادارسة وحكمهم للمغرب حكما قوميا مقدمة لظهور المرابطين والذين كان ظهورهم يمثل حركة قومية عظيمة جذبت عددا كبيرا من قبائل البربر نحو الاندماج فى الامة الإسلامية الكبيرة.

وهكذا كان للادارسة العلويين دور فعال فى نشر العروبة والاسلام لذا لم يكد ينتهى القن الثالث الهجرى حتى صار البربر يزاحمون العرب فى دراسة لغة الضاد بتونس والقيروان والتلمسان وأصبح علماء البربر يناظرون فقهاء العرب وعلى هذا فان دولة الادارسة تعتبر الخطوة الاولى منذ الفتح الاسلامى التى تقوم فى بناء الكيان السياسى والاجتماعى للمغرب الاقصى العربى المسلم كأول دولة اسلامية ولقد سبق القول أن خير

دليل على قيام المغرب الاقصى المسلم هو قيام العاصمة فاس وجامعها العظيم الشهير القرويين الذى لعب دورا فعالا فى صبغ العروبة والاسلام على أرض المغرب الاقصى وكما تركت أثرها فى المجال الاجتماعى اذ قامت الدولة الادريسية بتوحيد البلاد تحت لواء أمرائها العلويين واقرار السلام فى ربوعه بعد أن كادت فتن الخوارج تفرق شمله ومن هنا ظهر جهد الادارسة فى توحيد المنطقة سياسيا واجتماعيا مما جعل السكان يعيشون فى مجتمع يتفاعل أعضاؤه كالخلية الحية يقوم بدوره الحضارى كغيره من المجتمعات الاسلاميه وهكذا انتشر الاسلام وتوطدت أركانه عن طريق بسط الادارسة لنفوزهم السياسى على مناطق الجنوب .

ولقد سارت دولة الادارسة فى أحكامها وشرائعها وتشريعاتها ونظمها القضائيه والاقتصادية وكل أحوال الدولة وفقا لمذهب الامام مالك بن أنس أحد مذاهب أهل السنة والجماعة الاربعة وعلى هذا فان انتشار مذهب الامام مالك بهذة الصورة الواسعة والسريعة فى دولة الادارسة وبقية بلاد المغرب والاندلس انما يمثل صورة هامة من صور وحدة الفكر التى عمت المنطقة وقد تجاذبت أرجاء مدارس فارس والقيروان وقرطبة دراسات وآراء تدل على الوحدة الثقافية التى سادت المنطقة كما كان تشجيع الادارسة وتأييدهم للثقافة العربية الاثر الواضح فى انتشار اللغة العربية التى دونت بها الدراسات والتى كانت لغه تخاطب المهاجريين من افريقية والاندلس وقد صاحب ذلك انتشار اللغة العربية التى هى لغة القرأن الكريم والسنة النبوية ووعاء الثقافة الاسلامية وقد نجح الادارسة فى ذلك الهدف الدينى وذلك بعد ان وحدوا البلاد تحت حكمهم وشجعوا الثقافة العربية والاسلامية وتلك كانت صورة المجتمع فى المغرب الاقصى فى عهد الادارسة من النواحى الفكرية والثقافية والعلمية .

ولقد كانت محصلة تلك الدراسات هى دور العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية

بين هذة الامارات الثلاث باعتبار انها مستقلة أو شبه مستقلة عن الخلافة العباسية وانها ظهرت على مسرح الاحداث السياسية فى المغرب العربى (الأدنى والأوسط والأقصى) فى فترات زمنية متقاربة ودورها فى العلاقات مع بقية بلدان العالم الاسلامى فالادارسة وبنو رستم فى حكمهم كانوا مستقلين استقلالا تماما عن الخلافة العباسية بينما الاغالبة كانوا يخضعون اسميا للدولة العباسية .

وقد تحدثت كتب الاباضية عن قيام نوع من العلاقات التجارية بين العباسيين فى بغداد وبين تاهرت عاصمة بنى رستم وذلك فى عصر الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وربما كانت تتم بصورة سرية ،على ان الهدوء الذى ساد العلاقات بين الرستميين والعباسيين فى عهد عبد الرحمن بن رستم وخليفتة عبد الوهاب عاد وتحرك ثانية نحو التوتر عندما أخفق فرج النفوسى المعروف نفاث بن نصير فى حركته ضد الامام عبد الوهاب وهرب قاصدا بغداد حيث رحب به الخليفة العباسى المأمون ولم تلبث العلاقات الرستمية العباسية أن بلغت قمة العداء وذك عندما قبض العباسيون فى عهد الخليفة الواثق العباسى على الامير محمد بن أفلح (أبو اليقظان) الذى كان يقوم بأداء فريضة الحج ونقلوه الى بغداد حيث سجن هناك ، لكن حسنت العلاقات بين أبى اليقظان بن أفلح والخليفة العباسى المتوكل على الله حيث أثرت الصداقة بينهما فى تحسن العلاقات بين بغداد وتاهرت .

كذلك وجد علاقات ثقافية بين العباسيين وبنى رستم فلقد انتقل بعض العلماء من تاهرت الى البصرة فى العراق بل أن بعضا منهم استطاع أن يثبت وجوده فى بلاط العباسيين فاتصل ببلاط الخليفه المعتصم بالله ورجالها هذا من ناحية بنى رستم أما من ناحية الادارسة فقد كان طابع العلاقة بين الادارسة والعباسيين هو طابع العداء الصرف فقد نجح العباسيون بمساعدة ابراهيم بن الاغلب فى القضاء على ادريس الاول عن طريق

دس السم له ، ثم ادريس الثانى الذى دس له السم زيادة بن الاغلب .

وكذلك اغتيال راشد مولاى الامام ادريس الأول والعامل المحرك فى تأسيس دولة الادارسة .

لكن سياسة الاغتيالات لم تنجح فى القضاء على دولة الادارسة ومن ثم اتخذ ابن الاغلب طريقا آخر لعله يحقق آماله فاستخدم سلاح الاغراء والاستمالة واستطاع اغتيال راشد عن طريق بعض البربر .

وكانت قد تمت هدنة بين الاغالبة والادارسة لكن ابن الاغلب ما أن فرغ من القضاء على الفتن الداخلية حتى نقض سياسة المهادنة ورجع الى تدبير المؤامرات ضد دولة الادارسة ، بالأضافة الى انه استخدم أسلوب التشكيك فى نسب الامام ادريس الثانى وصلته بالعلويين وعلى بن أبى طالب .

وهكذا اتسمت العلاقات بين الادارسة والغالبة بطابع الاغتيالات والمساومات والتشكيك فى الأنساب كما استخدم الاغالبة قوة دولة الادارسة فى تهديدات الدولة العباسية فى بغداد لخلع الولاء لهم والانضمام الى لواء دولة الادارسة فى المغرب الاقصى ورقة رابحة يستخدمها الاغالبة فى تدعيم مركزهم وبيان أهميتهم أمام الدولة العباسية .

كذلك كانت هناك علاقات بين بنى رستم ومصر رغم تبعيتها للخلافة العباسية لان مصر كانت المنفذ لهم الى شرق العالم الاسلامى ومن هنا حرص الرستميون الى أن تكون علاقات حسن جوار طيبه مع مصر ، لقد وجدت علاقات ثقافية قوية بين مصر والرستميين لان عددا كبيرا من الرستميين كانوا على المذهب الاباضى بل أن هناك بعض العلماء المصريين قدموا الى تاهرت .

لكن العلاقات بين مصر وبنى ستم شهدت بعض التوتر فى عهد الطولونيين بسبب

الحمله التى قام بها العباس بن احمد بن طولون ضد بنى رستم والاغالبة .

ومن ناحية الاغالبة وبنى رستم فقد قرر الرستميون اتباع سياسة التعايش السلمى معهم وهى الجارة القوية على حدودهم الشرقية والشمالية قد دفع ذلك بعض المؤرخين الى القول بأن علاقات الرستميين بالاغالبة لم تتخذ طابعا عدائيا وكانت الحدود المشتركة بين الدولتين من الاسباب القوية لاتخاذ بنى رستم لهذه السياسة اذ أن حدود بنى رستم تطوق حدود دولة الاغالبة الممتدة من تاهرت غربا الى طرابلس شرقا وكذلك من الشرق والغرب والجنوب تطوق دولة الاغالبة .

لقد اضطر الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الى الاصطدام مع الاغالبة دفاعا عن حدود دولتة ومواطنيه .

كذلك فانه فى اطار مبدأ التعايش السلمى نهض كل من الرستميين والاغالبة للوقوف فى وجه العباس بن أحمد بن طولون عندما هدد حدود الدولة الرستمية الاغلبية عام ٢٦٥هـ/٨٧٨م ولم يكن اشتراكهما معا فى مواجهة اطماع العباس تحالف أو تعاون مشترك تم بينهما بل نتيجة لما أحاط بالجانبين من خطر فى وقت واحد .

ورغم ان الاغالبة حرصوا كل الحرص على مقاطعة الرستميين تجاريا وثقافيا وسياسيا الا أن هناك ما يشير الى وجود شيء قليل من هذه العلاقات التى كانت تتم بصورة غير رسمية .

وكذلك كانت العلاقات بين بنى رستم والادارسة تتسم بالطابع الودى الطيب فى معظم الاحوال الا انه حدثت بينهما بعض القطيعة نتيجة محاولات بعض اتباع دولة الادارسة من أمراء تلمسان ضم أجزاء من دولة بنى رستم الى دولة الادارسة . ولقد كان وضع الدولة الرستمية يشكل حاجزا ومانعا أمام الخلافة العباسية لمقاومة الادارسة والقضاء

عليهم حيث أن أية قوات لابد أن تمر عبر أراضى الدولة الرستمية المعادية لهم وكان هذا مستحيلا .

كذلك ارتبطت دولة بنى رستم بعلاقات صداقة ومودة ومصاهرة وفكر وعقائد مع دولة بنى مدرار فى سلجماسة حيث كان بها بعض علماء الاباضية وكذلك وجد بعض الصفريه بدولة بنى رستم لقد كانت هناك علاقات تجارية واقتصادية وثقافية ولم تكن هناك علاقات بالمرة بين الاغالبة وبنى مدرار فى حين اننا نجد بعضا من هذه العلاقات التجارية والاقتصادية بين الادارسة وبنى مدرار .

كذلك ارتبطت الادارسة ولاغالبة وبنى رستم بعلاقات قوية مع بلاد السودان حيث كان وصول ادريس الاول وابنه ادريس الى جبال درن فى اقصى اقليم السوس دافعا لوجود علاقات ثقافية ودينية وفكرية وتجارية وثقافية حيث بدأ الاسلام ينتشر فى بلاد السودان . وكذلك كان للرستميين والاغالبة علاقاتهم التجارية والاقتصادية وطرق التجارة المتصلة الدائمة مع بلاد السودان وكانت القوافل تتجه من دولة الاغالبة والادارسة الى بلاد السودان حاملة منتجات تلك الاقطار وعائدة بما انتجه اقليم السودان وقد تم الاشارة الى ذلك فى صلب هذا البحث .

وبالنسبة للعلاقات فقد ارسل الامام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم سفارة يرأسها محمد بن عرفه الى ملك كوكو ولقد كان وصول العلماء والفقهاء الى تلك الاقطار صحبة قوافل التجارة من الاسباب القوية التى دعمت نفوذ الاسلام ووطدت أركانه .

ولقد تركت علاقة الاغالبة والادارسة وبنى رستم أثرها الواضح فى جميع الميادين فى بلاد السودان الغربى والأوسط .

ونهاية تلك الخاتمة من هذا البحث يكون دور العلاقات بين الادارسة وبنى ستم والاغالبة الدولة الاموية فى الاندلس ونقول أن العلاقات بين الادارسة والامويين كان طابعها العداء القديم وكذلك الاغالبة وبنى أمية حيث كان الاغالبة يسيرون فى فلك السياسية العباسية التى تناصب هذه الدولة العداء السافر .

ولقد كانت دولة الادارسة قاعدة لتدبير المؤامرات ضد بنى أمية فى الاندلس بل كانت دولة الادارسة هى الملاذ لكل من يثور فى وجه الدولة الاموية فى الاندلس وقد عقد الادارسة صلات وثيقة مع بعض رعايا الادارسة .

وقامت العلاقات بين بنى رستم والأمويين فى الاندلس على اساس التحالف القوى المتين والصداقة المتبادلة على عكس ما كان قائما بين الدارسة والاغالبة . ولقد كانت كلتا الدولتين تبلغ الاخرى بأخبار انتصاراتها وتم تبادل الهدايا والقواد والسفارات الرسمية فقد استعانتالدولة الاموية فى الأندلس بعدد من خيرة القادة الرستميين فى أعمالها الحربية واستعان بنو رستم بالعديد من رجال بنى أمية فى الاندلس فى أدارة شئون البلاد وقد قام الرستميون بدور الوسيط الثقافى والتجارى بين الامويين فى الاندلس وبلاد الشرق الاسلامى .

وعلى هذا فان تلك الامارات الثلاث بنى رستم والادارسة والاغالبة قد أدوا دورهم على أحسن وجه فى المغرب العربى الاسلامى (الادنى - الاوسط - الاقصى) وعملوا ما فى وسعهم العمل من أجل بث روح العروبة ونشر لواء الاسلام فى تلك البقاع فكانت اعمالهم هى الاسس القوية التى قامت عليها الدول التى احتلت المكانة السياسية فى المغرب العربى بعد ذلك وسوف نتحدث عن تلك الدولة فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة وهى عن الخلافة الفاطمية فى المغرب قبل الانتقال الى مصر ودولة المرابطين والموحدين فى المغرب . ثم يكون الجزء الرابع بأذن الله عن دولة بنى حفص وبنى زيان

وبنى مرين وهذه الدول الثلاث كانت فى المغرب الادنى والاوسط والاقصى كما كانت امارات الاغالبة وبنى رستم والادارسة . ويكون الجزء السادس بنى وطاس والسعيين وظهور الاشراف العلويين.

* * * *

ولاة أفريقية (تونس) الذين عاصروا دولة

الأدارســـــة

١ - أبو حاتم روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلبى	١٧١هـ - ٧٨٧م
٢ - مضر بن حبيب المهلبى	١٧٤هـ - ٧٩١م
٣ - الفضل بن روح بن حاتم	١٧٧هـ - ٧٩٣م
٤ - هرثمة بن أعين	١٧٩هـ - ٧٩٥م
٥ - محمد بن مقاتل بن حكيم العكى	١٨٠هـ - ٧٩٦م
٦ - تمام بن تميم التميمى	١٨٣هـ - ٧٩٩م
٧ - محمد بن مقاتل «للمرة الثانية»	١٨٤هـ - ٨٠٠م

حكام الأغالبة

١ - إبراهيم بن الأغلب	١٨٤هـ - ٨٠٠م
٢ - عبد الله الأول بن إبراهيم	١٩٦هـ - ٨١١م
٣ - زيادة الله الأول بن إبراهيم	٢٠١هـ - ٨١٦م
٤ - أبو عقال الأغلب	٢٢٣هـ - ٨٣٧م
٥ - أبو العباس محمد الأول	٢٦٠هـ - ٨٤٠م
٦ - أبو إبراهيم محمد	٢٤٢هـ - ٨٥٦م
٧ - زيادة الله الثانى	٢٤٩هـ - ٨٦٣م
٨ - أبو عبد الله (أبو الغرانيق محمد الثانى)	٢٥٠هـ - ٨٦٤م
٩ - إبراهيم الثانى	٢٦١هـ - ٨٧٥م
١٠ - عبد الله الثانى	٢٨٩هـ - ٩٠٢م
١١ - زيادة الله الثالث	٢٩٠هـ - ٩٠٣م

أئمـة أدارسـة

١ - ادريس الأول بن عبد الله بن الحسن ١٧٢هـ - ٧٨٨م

٢ - ادريس الثانى بن ادريس الأول ١٧٧هـ - ٨٩٢م

٣ - محمد بن ادريس الثانى المنتصر ٢١٣هـ - ٨٢٨م

٤ - على الأول بن محمد ٢٢١هـ - ٨٣٦م

٥ - يحيى الأول بن محمد ٢٣٤هـ - ٨٤٨م

٦ - يحيى الثانى بن يحيى الأول

٧ - على الثانى بن عمر بن ادريس الثانى

٨ - يحيى الثالث بن القاسم بن ادريس الثانى

٩ - يحيى الرابع بن ادريس بن عمر بن ادريس الثانى ٢٩٢هـ - ٩٠٤م

أئمـة بنى رستم (تاهـرت)

١ - عبد الرحمن بن رستم

١٦٠-١٧١هـ / ٧٧٦-٧٨٧م

٢ - عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

١٧١-٢١١هـ / ٧٨٧-٨٢٦م

٣ - أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

٢١١-٢٤٠هـ / ٨٥٤-٨٥٥م

٤ - أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب

٢٤٠-٢٤١هـ / ٨٥٤-٨٥٥م

٥ – أبو اليقظان بن أفلح بن عبد الوهاب

٢٤١-٢٨١هـ / ٨٥٥-٨٩٤م

٦ – أبو حاتم يوسف بن محمد

٢٨١-٢٩٤هـ / ٨٩٤-٩٠٦م

٧ – اليقظان بن أبى اليقظان بن أفلح بن عبد الوهاب

٢٩٤-٢٩٦هـ / ٩٠٦-٩٠٨م

الخلفاء العباسيون

١ – المنصور أبو جعفر ١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٣-٧٧٤م

٢ – المهدى ١٥٨-١٦٩هـ / ٧٧٤-٧٨٥م

٣ – الهادى ١٦٩-١٧٠هـ / ٧٨٥-٧٨٦م

٤ – هارون الرشيد ١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م

٥ – الأمين ١٩٣-١٩٨هـ / ٨٠٩-٨١٣م

٦ – المأمون ١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م

٧ – المعتصم ٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٢-٨٤٢م

٨ – الواثق ٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٤٧م

٩ – المتوكل ٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م

١٠ – المنتصر ٢٤٧-٢٤٨هـ / ٨٦١-٨٦١م

١١ – المستعين ٢٤٨-٢٥١هـ / ٨٦١-٨٦٥م

١٢ – المعتز ٢٥١-٢٥٥هـ / ٨٦٥-٨٦٨م

١٣ – المهدى ٢٥٥-٢٥٦هـ / ٨٦٨-٨٦٨م

١٤ - المعتمد	٢٥٦-٢٧٩هـ / ٨٦٩-٨٩٢م
١٥ - المعتضد	٢٧٩-٢٨٩هـ / ٨٩٢-٩٠١م
١٦ - المكتفى	٢٨٩-٢٩٥هـ / ٩٠١-٩٠٧م
١٧ - المقتدر	٢٩٥هـ / ٩٠٧م

ولاة بنى أمية بالأندلس

١ - عبد الرحمن بن معاوية الداخل	١٣٨هـ - ٧٥٥م
٢ - هشام بن عبد الرحمن بن معاوية	١٧٢هـ - ٧٨٨م
٣ - الحكم بن هشام بن عبد الرحمن	١٨٠هـ - ٧٩٦م
٤ - عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية	٢٠٦هـ - ٨٢١م
٥ - محمد بن عبد الرحمن بن الحكم	٢٧٣هـ - ٨٨٦م
٦ - المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم	٢٧٣هـ - ٨٨٦م
٧ - عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم	٢٧٥-٣٠٠هـ / ٨٨٨-٩١٢م

أئمـــة بنى مدرار (سـجلماسـة)

١ - أبو القاسم سمغون	١٥٥هـ - ٧٧١م
٢ - أبو الوزير الياس بن أبى القاسم	١٦٧هـ - ٧٨٣م
٣ - أبو منصور اليسع الأول	١٧٤هـ - ٧٩٠م
٤ - مدرار المنتصر	٢٠٨هـ - ٨٢٣م
٥ - عبد الرحمن ميمون (الملقب بابن أروى الرستمية)	٢٥٣هـ - ٨٦٧م
٦ - ميمون الأمير الملقب بابن ثقية	٢٥٣هـ - ٨٦٧م
٧ - محمد بن ميمون	٢٦٤هـ - ٨٧٦م
٨ - اليسع الثانى المنتصر	٢٧٠هـ - ٨٨٣م

المصادر والمراجع

١ - المخطوطات :

١ - السيوطى، أبو بكر بن محمد : مخطوط فى نسب بعض الصحابة والإشراف الأدريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة والموحدين، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٢٤.

٢ - الإدريسى : حسن بن حسن بن معتوق البيلاوى : الدر النفيس فى نسب أهل بيلا وطرق من أخبار إدريس بن عبد الله، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١٤٢.

٣ - الورجلانى : أبو زكريا يحيى بن أبى بكر : السيرة وأخبار الأئمة فى انتشار مذهب الأباضية فى المغرب مخطوط مصور بالميكروفيلم، معهد المخطوطات جامعة الدول العربية رقم ١٧٣٦ تاريخ.

٢ - المصادر :

١ - ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله ٦٥٨هـ/٢١٢٦م، الحلة السيراء، نشرة حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣م.

٢ - ابن الأثير : أبو الحسن على بن محمد الجرزى، ٦٣٠هـ/١٢٣٣م، الكامل فى التاريخ، القاهرة، ١٣٠٣هـ.

٣ - الأدريسى : أبو عبد الله محمد الشريف الحسن : ٥٤٨هـ/١١٥٤م، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، عن نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ليدن، ١٨٦٦م.

٤ - ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى : ٧٧٩هـ/١٣٣٧م، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، باريس، ١٩٢٢م.

٥ – البكرى : عبد الله بن عبد العزيز المرسى : ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، الجزائر، ١٩٢١م.

٦ – البلاذرى : فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٩م.

٧ – ابن تغرى بردى أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٥٦م.

٨ – ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على البغدادى النصيبى، ٣٨٠هـ/٩٩٠م، صورة الأرض، بيروت، د.ت.

٩ – ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ليدن، ١٨٩٩.

١٠ – ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط، الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية نشرة أحمد مختار العبادى وإبراهيم الكتانى، الدار البيضاء، ١٩٦٤م.

١١ – ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، القاهرة، ١٢٨٤ هجرية.

١٢ – الجرنائى : أبو الحسن على : زهرة الأسى فى بناء مدينة فاس، الجزائر، ١٩٢٣م.

١٣ – الدباغ : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى، معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تونس، ١٣٢٠هـ.

١٤ – ابن أبى دينار : محمد بن أبى القاسم العينى القيروانى : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس، تونس، ١٢٨٦م.

١٥ – ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، ١٩٣٦م.

١٦ – ابن الصغير المالكى : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت، تحقيق مونتسكى، باريس، ١٩٠٧م.

١٧ – ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب، فى أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، ١٩٦٧م.

١٨ – السلاوى أحمد ناصر : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

١٩ – الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن أبى القاسم، ٥٤٨هـ/١١٥٣م، الملل والنحل، القاهرة، ١٩٤٨م.

٢٠ – الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٣٥٧هـ.

٢١ – الطرابلسى : أحمد الأنصارى الطرابلسى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، طرابلس، د.ت.

٢٢ – ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله : فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، ١٩٦١م.

٢٣ – ابن القوطية القرطبى : تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، ١٩٥٧م.

٢٤ – القيروانى، الزفيق : تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق المنجى العكبى، تونس، د.ت.

٢٥ – ابن القاضى : أحمد بن محمد بن أحمد : جدوة الاقتباس فيمن حل من الإعلام مدينة فاس، معهد فاس، د.ت.

٢٦ - المالكى : أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله المالكى : رياض النفوس ، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦١م.

٢٧ - ابن العربى، أبو بكر ٥٤٣هـ/١١٤٨م : العواصم من القواصم، نشر محيى الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٨٧هـ.

٢٨ - مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الأسكندرية، ١٩٥٨م.

٢٩ - المقرى : أحمد بن محمد المقرى التلمسانى : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م.

٣٠ - البارونى : أبى الربيع سليمان : مختصر تاريخ الأباضية، تونس، د.ت.

٣١ - المسعودى، محمد الباجى : الخلاصة النقية فى أمراء أفريقية، تونس، ١٣٢٣هـ.

٣٢ - الكتانى : محمد بن جعفر : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس.

٣٣ - النويرى : شهاب الدين أحمد : نهاية الأرب فى فنون الأدب، القاهرة، ١٩٣٥م.

٣٤ - ياقوت الحموى : معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى، القاهرة، ١٢٣٣هـ.

٣٥ - أبو الفرج : مقاتل الطالبيين تحقيق أحمد صقر، القاهرة، ١٩٥٨م.

٣ - المراجع :

٣٦ - إبراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون، القاهرة، ١٩٥٦م.

٣٧ - إبراهيم أحمد العدوى : بلاد الجزائر، القاهرة، ١٩٧٥م.

٣٨ - أحد توفيق المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الجزائر، ١٣٦٥م.

٣٩ - إحسان عباس : العرب فى صقلية، القاهرة، ١٩٥٩م.

٤٠ - إحسان عباس : تاريخ ليبيا منذ الفتح العربى حتى مطلع القرن التاسع الهجرى، بيروت، ١٩٦٧م.

٤١ - إحسان حقى : الجزائر العربية، بيروت، ١٩٦١م.

٤٢ - أحمد توفيق المدنى : الجزائر، الجزائر، ١٣٥٠هـ.

٤٣ - أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩م.

٤٤ - إحسان حقى : تونس العربية، بيروت، د.ت.

٤٥ - حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية، القاهرة، ١٩٥٧م.

٤٦ - حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٦١م.

٤٧ - حسن أحمد محمود : الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٦٦م.

٤٨ - حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى، القاهرة، ١٩٥٩م.

٤٩ - إبراهيم جلال : المعز لدين الله الفاطمى، القاهرة ١٩٦٣م.

٥٠ - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة، ١٩٦٤م.

٥١ - حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، القاهرة، ١٩٨٤م.

٥٢ - حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٨٠م.

٥٣ - حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، القاهرة، ١٩٤٧م.

٥٤ – حسين مؤنس : فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩ .

٥٥ – حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية، تونس، ١٩٧٢م.

٥٦ – رفعت فوزى عبد المطلب : الخلافة والخوارج فى المغرب العربى، القاهرة، ١٩٧٣م.

٥٧ – سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، القاهرة، ١٩٦٥م.

٥٨ – سيدة إسماعيل كاشف : أحمد بن طولون، القاهرة، ١٩٦٤م.

٥٩ – السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٦م.

٦٠ – صلاح العقاد : المغرب فى بداية العصور الحديثة، القاهرة، ١٩٦٢م.

٦١ – صلاح العقاد : المغرب العربى، القاهرة، ١٩٥٦م.

٦٢ – عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : تاريخ الجزائر العام، بيروت، ١٩٦٥م.

٦٣ – على محمد حمود : تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى، القاهرة، ١٩٥٧م.

٦٤ – على يحيى معمر : الأباضية فى موكب التاريخ، القاهرة، ١٩٦٤م.

٦٥ – محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٠م.

٦٦ – عبد العزيز عبد الله : معطيات الحضارة العربية، الرباط، د.ت.

٦٧ – عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٣م.

٦٨ – رابح بونار : المغرب العربى تاريخه وثقافته، الجزائر، ١٩٦٨م.

٦٩ – عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب، الرباط، ١٩٧٠م.

٧٠ – عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية، طرابلس الغرب، ١٩٨٠م.

٧١ – السيد عبد العزيز سالم : أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، بيروت، ١٩٦٩م.

٧٢ – زاهر رياض : شمال أفريقية فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨١م.

٧٣ – إبراهيم بيضون : الدولة العربية فى أسبانيا حتى سقوط الخلافة، بيروت، ١٩٨٠م.

٧٤ – عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر : القاهرة، ١٩٦٧م.

٧٥ – على حسنى الخربوطلى : الإسلام فى حوض البحر المتوسط، بيروت، ١٩٧٠م.

٧٦ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والمسلمون فى جزر البحر المتوسط، مكتبة نهضة الشرق.

٧٧ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والثقافة العربية فى أوربا، القاهرة، ١٩٧٩م.

٧٨ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والعروبة فى السودان، القاهرة، ١٩٨٥.

٧٩ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : حركة المد الإسلامى فى غرب أفريقية، القاهرة، ١٩٨٥م.

٨٠ – عبد الرحمن على حجى : التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، القاهرة، ١٩٨٣م.

٨١ – محمد حلمى محمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى، القاهرة، ١٩٧٢م.

٨٢ – محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر الأموى، القاهرة، ١٩٦٦م.

٨٣ – محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة، القاهرة، ١٩٣٣م.

٨٤ – شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، القاهرة، ١٩٤٣م.

٨٥ – محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة وسياستهم الخارجية، القاهرة، ١٩٧٢م.

٨٦ – محمود إسماعيل عبد الرازق : الحركات السرية فى الإسلام، بيروت، ١٩٧٣م.

٨٧ – عبد القادر الصحراوى : جولات فى تاريخ المغرب، الدار البيضاء، ١٩٦١م.

٨٨ – عبد الله خبون : مدخل إلى تاريخ المغرب، الدار البيضاء، ١٩٧٣م.

٨٩ – مبارك بن محمد الهلالى الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث، الجزائر، ١٩٥٨م.

٩٠ – محمد ياسين الحموى : تاريخ الأسطول العربى، دمشق، ١٩٤٥م.

٩١ – يحيى بو عزيز : الموجز فى تاريخ الجزائر ، الجزائر ١٩٦٥م.

٩٢ – محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، القاهرة، ١٩٦٣ .

٩٣ – القلقشندى : سبح الأعشى فى صناعة الأنشا، القاهرة، ١٩١٨م.

٩٤ – المقريزى : البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب، القاهرة، ١٩٦١م.

٩٥ – أحمد بن على : عمدة الطالب فى أنساب على بن أبى طالب.

٩٦ – الجهيشانى : كتاب الوزراء والكتاب، القاهرة، ١٩٣٨م.

٩٧ - محمد يوسف مقلد : موريتانيا الحديثة، بيروت، ١٩٦٠م.

٩٨ - الحميدى : جذوة المقبس فى ذكر ولاية الأندلس.

٩٩ - عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب، الرباط، ١٩٧٠م.

١٠٠ - الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضار الإسلامية فى المغرب العربى، تونس، ١٩٦٨م.

١٠١ - ابن سعيد المغربى فى حلى المغرب : تحقيق شوقى ضيف، القاهرة، ١٩٥٥م.

١٠٢ - المراكشى : عبد الواحد : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، ١٩٤٩م.

٤ - الكتب المعـربة - المترجمة :

١٠٣ - أرشياليد ، لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠م.

١٠٤ - امارى، ميخائيل : المكتبة العربية الصقلية، ليبل، ١٨٨٧م.

١٠٥ - ربنهرت، دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا، ترجمة حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٣م.

١٠٦ - فلهوزان ، يوليوس : تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريوه، القاهرة، د.ت.

١٠٧ - ليفى بروفسال : الشرق الإسلامى والحضارة العربية : تطوان ١٩٥٩م.

١٠٨ - فلهوزن، يوليوس : الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوى، القاهرة، ١٩٥٨م.

١٠٩ - بروفسال، ليفى : الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة عبد العزيز السيد سالم، القاهرة، ١٩٥٦.

١١٠ – برنارد لويس : العرب والمسلمون فى أفريقية، ترجمة عبد الواحد، القاهرة، ١٩٦٠م.

١١١ – ستودارد لوثروب : حاضر العالم الإسلامى، ترجمة شكيب أرسلان، القاهرة، د.ت.

١١٢ – مورنيو، مارنيوماريو : المسلمون فى صقلية، بيروت، ١٩٥٧م.

٥ – الدوريـــات :

١١٣ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والثقافة العربية فى جزيرة صقلية، رابطة العالم الإسلامى، أكتوبر ١٩٧٥م.

١١٤ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والثقافة العربية فى جزيرة مالطة، مجلة رابطة العالم الإسلامى، أكتوبر، ١٩٧٦م.

١١٥ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والمسلمون فى موريتانيا، مجلة التضامن الإسلامى، ١٩٨٤م.

١١٦ – محمد سلامة يوسف رحمه : حياة المرابطين فى المعاقل والحصون مجلة التضامن الإسلامى، ١٩٨٥م.

١١٧ – أمين الخولى : المدينة العربية فى صقلية، مقال، مجلة المقتطف، ١٩٢٣م.

١١٨ – مارينو أومبرتو : أخبار عن بعض مسلمى صقلية، مقال مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٥٥م.

١١٩ – محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٧م.

١٢٠ - حسين مؤنس : ثورات البربر فى أفريقية والأندلس، مجلة كلية لآداب، جامعة فؤاد الأول، مايو ١٩٤٨م.

١٢١ - محمود مكى : الخوارج فى الأندلس : تطوان مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية، ١٩٥٦م.

١٢٢ - أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم التميمى : طبقات علماء أفريقية، الجزائر، ١٩٢٠م.

١٢٣ - المقدسى : أبو عبد الله محمد بن أحمد : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦م.

١٢٤ - ياقوت الحموى : أبو عبد الله : معجم البلدان، القاهرة، دون تاريخ.

١٢٥ - الحميرى : عبد المنعم : الروض المعطار فى خبر الإفطار، تحقيق ليفى بروفسال ، القاهرة، ١٩٣٣م.

٦ - الرسائل الجامعية :

١٢٦ - عبد الحميد محمود الشرقاوى : الملاحة البحرية الأندلسية فى القرنين الثالث والرابع الهجرى، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٣٥م.

١٢٧ - حسن على حسن : دولة الأدارسة بالمغرب، قيامها وتطورها فى منتصف القرن الثالث الهجرى، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٢٨ - محمد عيسى صابر سليم : الدولة الرستمية بالمغرب، قيامها وتطورها، رسالة

ماچستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٣٠ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الإسلامية، رسالة دكتوراه، ١٩٨٣م.

١٣١ – إحسان محمد السعيد عبد الله : الدولة الرستمية فى تاهرت، رسالة ماچستير، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٣٢ – حسين سيد عبد الله مراد : دولة بنى مدرار فى سجلماسة بالمغرب الأقصى، رسالة ماچستير، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٣٣ – الدرديرى حسن إسماعيل البيلى : الربط فى بلاد المغرب، رسالة ماچستير، آداب القاهرة، القاهرة، ١٩٧٨م.

١٣٤ – البارونى، (سليمان النفوسى)، الأزهار الرياضية فى أئمة ملوك الأباضية.

المراجـع الأجـنبية :

1 - Diehl, Ch. : L'Afrique Byzantine, Paris, 1896.

2 - Fournel, H. La Conque par les Arabes, Paris, 1929.

3 - Gautier, E.F. : La Passe de l'Afrique du Nord, Paris, 1964.

4 - Julavien, A. : Histoire de l'Afrique de Nord, Paris, 1968.

5 - Mercier, F. : Histoire d'Afrique Septentrionale, Paris, 1880.

6 - Marcais, M. : L'Afrique du Nord, Paris, 1958.

7 - Hopkins, J. : Medieval Muslum Government in Barerbery, Paris, 1962.

8 - Caille, J. : La Ville de Rabat, Paris, 1979.

9 - Goivin, L. : Le Magreb Central à l'époque des Zirides, Paris, 1957.

10 - Julien, André : Histoire de l'Afrique du Nord de la Conquête Arabe, Paris, 1952.

11 - Terrasse, H. : Histoire du Maroc, des origines, 1946.

12 - Warmington, B.H. : The North African Province.s From Diocktian to the Vanadal conquest, Cambridge, 1954.

13 - Massignon, L. : Le Maroc dans les Premières Années du XVI Siècles, Alger, 1906.

14 - Lozy, R. : Histoire des Musulmanes d'Espagne, Leyde, 1861.

15 - Gautier, E.F. : Islamisation de l'Afrique du Nord, Paris, 1927.

16 - Goitien, S.D. : Studies in Islamic History and Institutions, Lieden, 1958.

17 - Marcais, G. : Les Arabes en Berberie du XI au XIV Siècle, Paris, 1913.

18 - Marcais, G. : La Beberle Musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1947.

19 - Newman, B. : Moroco to day, London, 1923.

20 - Gaudel, A.: Les Premières Invasions des Arabes dans l'Afrique du Nord, Paris, 1900.

21 - Fournel, B.: Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, Paris, 1881.

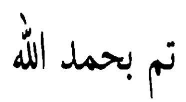
22 - Maslatire, P. : Relations et commerce de l'Afrique septentrionale, au Maghreb avec les nations chrétiens au Moyen Age, Paris, 1886.

23 - Walt, W. : The influence of Islam on Medieval Europe, Edinburgh, 1972.

24 - Hare, A.: Cities of Southern Italy and Sicily, London, 1893.

25 - Holt, P.M. and others, : The Cambridge History of Islam, Cambridge, 1970.

26 - Encyclopaedia of Islam.





هذه الدراسة عن المغرب العربي نقدمها للقارىء العربي والمسلم ولكل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامي تتناول حقبة تاريخية على امتداد ١٤٠٠ سنة وصل فيها المد الإسلامي أبعاداً واسعة حتى يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من آسيا وأفريقيا وأوروبا. وعلى هذا تكون هذه الدراسة عن جزء عزيز من عالمنا العربي والإسلامي والذي لعب دوراً في إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير في نشر الإسلام والعروبة في أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التي تقع إلى الجنوب من المغرب العربي وكذلك في أوروبا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم.

مكتبة مدبولي
MADBOULI BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٧٥٦٤٢١
6 Talat Harb SQ. Tel.: 756421